فقراء العمارة

رداً على كتاب عمارة الفقراء للمعمارى حسن فتحى

أستاذ دكتور
هشام جريشة



مكتبة الأنجلو المصرية

فقـراء العمارة

رداً على كتاب عمارة الفقراء

للمعماري حسن فتحي

أ.د/هشام جريشة



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

جريشة ، هشام .

فقراء العمارة : ردا على كتاب عمارة الفقراء

تأليـف الدكتور هشام جريشة

١٧× ٢٤ سـم

رقـم الإيداع :٢٠١٤/١٦٩٢٢ تصنيف ديوى :٧٢٢,٢

ISBN : ٩٧٨-٩٧٧-٠٥-٢٩٢٤-٩

طبع فى جمهورية مصر العربية بمطبعة محمد عبد الكريم حسان

مكتبـة الانجلـو المصريـة ١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة – مصر

تليفون : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ فاكس : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com
www.anglo-egyptian.comWebsite :

نحن لسنا في حاجة لبناء منازل للفقراء بقدر ما نحن بحاجة لمحاربة فقراء العمارة

هشام جريشة

مقدمة

العمارة هي القلم الذي يكتب في سجل الحضارات تاريخ أمة بعينها، فمنذ العصر الحجري وحتي عصر الهندسة الوراثية والعمارة هي الأداة الوحيدة التي يسجل بها رفعة الأمم وعلو شأنها. كان المصريون قديما يبنون المعابد ويشيدون الأهرامات ليسجلوا بها إلمامهم بعلوم أخرى كالفلك والبيولوجي وعلوم المواد، واليوم تبني دولة كفرنسا برج إيفل لإستعراض مادة الحديد بعد إكتشافها حديثا ، وتبي دولة كالولايات المتحدة مبنى الإمبرستات لإستعراض القدرة الإنشائية في الوصول إلى إرتفاعات شاهقة دون الإنهيار.

ولم يكن الهرم إلا المبنى الوحيد في العالم الذي تتفق اضلاعه الاربعة بنسبة مائة بالمائة مع الاتجاهات الأصلية ، وأنه أيضا المبنى الوحيد الذي له علاقة بالإحداثيات المتفقة مع النجم القطبي ، وأنه المبنى الوحيد الذي لاتتحلل في مركزه الكائنات ، وأنه المبنى الوحيد الذي تتراص أحجاره بعضها إلى جوار بعض دون مادة لاصقه «مونة» ، وأنه أخيرا المبنى الوحيد بالعالم الذي لانعرف حتى الآن كيف تم رفع أحجاره إلى القمة في عصر لايوجد به روافع ميكانيكية مع العلم أن وزن الحجر الواحد يصل إلى طن ، الأمر الذي دعى العديد من المهندسين والجولوجيين إلى تكذيب أمر المنحدرات الرملية , لأن وزن واحد طن سيغرز في تربة المنحدر ، هذا بالاضافة إلى كمية الرمال المحتاج إليها في بناء ذلك المنحدر.

وبذلك تبقى للهرم أسراره التي لانعرفها ، مثل ما أننا لانعرف حتى الأن أين تقع غرفة الدفن الرابعة في داخل الهرم . ومن هنا نرى أن الهرم كان يجسد قدرة بنائية وليس فناً سطحيا يبحث عن شكل جميل.

والأمر ذاته في معبد أبوسمبل ، الذي يمثل قمة الإدراك بعلوم الفلك، حيث أن الشمس تتعامد مرة واحدة على وجه الملك ، هذه المرة هي يوم ميلاده. كذلك الأمر في برج إيفل الذي جسد الشكل الإنشائي الضروري في الإرتفاعات الشاهقة، بمعنى أن الشكل الناشئ قاعدته عريضة ورأسه مدببه ، الأمر الذي

يتسق مع منحنى سرعة الرياح والذي مفادة أن سرعة الرياح في الطبقات العليا أسرع من سرعة الرياح في الطبقات السفلى، لذلك مناسب جدا أن تكون كتلة المبنى في الطبقات العليا صغيرة ، حيث الرياح ذات السرعة العالية. وأن تكون كتلة المبنى في الطبقات الدنيا كبيرة حيث الرياح ذات السرعة المنخفضة.

من هنا نعلم أن جميع المباني الخالدة , تعتمد في داخلها على إبداع علمي غير مقروء ولاتعتمد على جمال الخطوط .

والحقيقة أن الباعث في كتابة هذه السطور أنني عانيت في فهم العمارة على المستويين الأكاديمي والطلابي فالأمر لديهم لايتعدى خطوطا جميلة ونقوشاً رائعة تؤدي مدلول كلمة الفن المعماري.

وليس ذاك بفن!

أذكر أنني دعوت أحد الشخصيات البارزة في عالم العمارة في مصر إلى محاضرة عامة يشرح من خلالها تجربته المعمارية في مصر ، ووقف الأستاذ الكبير عند أحد مشروعاته بشارع جامعة الدول العربية وقال موجهاً حديثه للجمهور أتدرون كيف صممت هذه الواجهة الجميلة ؟ لقد استوحيت هذه الخطوط المتداخلة من اسورة مراتي !

لقد أصبح الصائغ معلما للمهندس المعماري في الوقت الذي يقوم فيه التصميم في أوروبا على أسس علمية أخرى وبرامج محاكاة تعتمد على الجاذبية الأرضية كما في مشروع فراي أوتو بالإستاد الأولمبي بمدينة ميونخ .

ولم يكتفي الأستاذ الكبير بهذا الهراء بل استمر في عرض مشروعاته على الأساتذة والطلاب حتى توقف عند مشروع آخر بميدان روكسي ، وكانت الطامة الكبرى عندما قال إن اللون الأحمر الموجود في درابزين البالكونات يذكر المشاهد بشفاه المرأة وهذا هو سبب إختياره .

لم أصدق ما أسمع ، لقد أساء أساتذة العمارة إلى العمارة قبل أن يسيئ إليها طلابها، وقبل أن يسيئ إليها مهندسي التخصصات الأخرى، كمدني وميكانيكا ، لقد أساءوا في الفهم قبل التطبيق.

وفي محاضرة لي بنقابة المهندسين كنت أتحدث عن العمارة الطينية وما قدمه المهندس الرائع حسن فتحي في هذا المجال ، ثم عقبت بقولي إن من عيوب هذا النوع من العمران أنه محدود فأنا أصنفه ضمن العمارة الصحراوية ، ولا أتصوره يصلح لوسط البلد مثلا ، لا أتخيل بناء مبنى طيني مكان فندق هيلتون رمسيس ، لأن سعر المتر يصل في تلك المنطقة إلى مائة ألف جنيه ، والأنسان لايشتري أرضا بهذا السعر ليقيم عليها مبنى مكون من طابق أوطابقين بل ليقيم عليا مبناً من خمسين طابقاً ، وإذا بسيل عارم يوجه إلي وأنا فوق المنصة

كيف تتحدث عن حسن فتحي بهذه الصورة ؟

مَنْ أنت حتى تتكلم عن حسن فتحي ؟

هل تعرف تفاصيل حياته ؟ هل تعرف دقائق تفكيره وما الذي كان يقصده من تلك العمارة ؟

وحزنت ، لا على نفسي بل على الناس في بلدي أنهم مازالوا يعقدون القدسية للأفراد ولا يناقشون الأمور بشكل علمي يعلوا على المدح والذم . إن حسن فتحي قدم للعمارة الكثير ولم يقل في يوم من الأيام أن ما قدمه لايقبل النقد أو لايقبل الإضافة ، فما الذي أضفناه نحن؟ لاشيئ .

سوى أننا فرضنا له القدسية ووضعنا حوله هالة كبيرة تمنع من النقد والتفنيد ، تماما مثلما ظللنا نردد أن مصر هي أم الدنيا ونصف الشعب المصري يرقد في العشوائيات. كل هذه الأشياء كانت دافعاً لي لكتابة هذا المؤلف تحت عنوان ..

فقـــــراء العمارة

وتماما مثلما أشرت سابقا أننا لسنا في حاجة لبناء بيوت للفقراء بقدر مانحن بحاجة للتصدي لفقراء العمارة ، في الفهم والسلوك , في الممارسة والتنظير. إن دول العالم الأول بسبب تناولها العلمي للعمارة أخرجت مدنا كلندن وباريس . وقديما أخرج المصريون القدماء بسبب نفس التناول مدنا ومعابد ظلت شاهدا على عظم تلك الحضارة وعلو شأنها.

وأخيرا أقول ..

إن الدولة الإسلامية عندما كانت في أوج مجدها كانت تنظر إلى الإختلاف على أنه إثراء للفكرة العلمية بل وتشجع عليه .

فهذا عمر بن الخطاب الذي قال: «والله ماسرني لو أنهم إتفقوا» ومن قبله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إختلاف أمتى رحمه» . والحضارة الاسلامية مليئة بالمناظرات بين العلماء وبين الشعراء , ورد بعضهم على بعض ، كرد ابن رشد على الامام الغزالي عندما ألف كتاب تهافت الفلاسفة فرد عليه ابن رشد بكتاب تهافت التهافت.

وهناك العديد من مصنفات ابن تيمية كانت ردا على العديد من العلماء. أذكر من ذلك مؤلفه الضخم « درء تعارض العقل والنقل».

ومن لطيف الأحداث أن الشعراء كانوا يتبارون في الشعر أمام الأمراء ، وذات مرة كانت المباراة بين المتنبي وأبي فراس أمام سيف الدولة ، فأجهز المتنبي على أبي فراس حتى جعل الغضب يقدح من عينيه فأمسك أبو فراس دواة كانت في المجلس وألقى بها في وجه المتنبي فشج رأسه ، فضحك سيف الدولة ، فقال المتنبي موجهاً حديثه لسيف الدولة :

إن كان سركم ما قال حاسدنا　　　فما لجرح إن رضيتمو ألمُ

وبتلكَ الصورة كان الإبداع ينشأ من الإختلاف ، وكان التنوع ينشأ من المبارزة العلمية . دون حقد من أحد على أحد ودون إنتقاص من أحد لقدر أحد. ومن ثم فلا غضاضة في معارضة عمارة الفقراء.

إن من يحب حسن فتحي هو الذي يكمل مسيرته ، ويرفع لوائه ، ويسد خلله ، ويجبر كسره ، ولايعميه الحب المفرط عن رؤية الحقيقة.

والحقيقة أننا نبحث عن وطن أجمل ، ومدن تشهد بالعراقة والعلم ، وتعكس تراث البلد ونتاج بحثها العلمي .

وبذا تكون العمارة جزء هاماً في البناء الحضاري لوطن ما . ولأننا نعيش

في زمننا هذا تخلفا حضاريا بعيدا عن ركب الحضارة، فقد بنيت هذا الكتاب على ثلاث محاور.

المحور الأول.. أسس الحضارة: وهو يبحث في العوامل والمقومات والأسس التي تقوم عليها حضارة ما.

المحور الثاني .. حضارات قديمة: وهو محور يتناول أمثلة حية من الحضارات القديمة ، يرى من خلالها القارئ الكريم كيف تنشأ الحضارات. واخترت خمس حضارات للحديث هي مابين النهرين ، والحضارة المصرية وحضارة فارس وحضارة الهند والحضارة الصينية .

المحور الثالث .. حضارة الطين : وهو محور يتناول عمارة حسن فتحي رحمه الله في ضوء النقد ، ثم يقدم الحلول لنقاط الضعف التي يراها.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن أكون بهذا المؤلَّف قد قدمت ولو شيئا قليلا للمكتبة العربية ، في مناقشة ما اعتدنا أنه صحيح مطلق وفي تصحيح المفاهيم وإعادة النظر في البديهي من نظريات العمارة . أو الأشياء التي ظللنا حينا من الدهر نرددها على أنه حق مطلق.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

المؤلف

مايو ٢٠١٣

أسس الحضارة

لكل شيء أساس يُقام عليه ، وقد شهد العالم العديد من الحضارات ، فما هي الأسس التي قامت عليها؟ أهو العلم ؟ أم الفنون ؟ أم المادة ؟

إن وجود الإنسان على هذا الكوكب كان الهدف منه إعمار الأرض ، فلا يعد إنسان من عاش لتلبية رغائبه وغرائزه ، ولا يعدإنسانا كذلك من سار بلا هدف يسعى من أجل تحقيقه. فإن كان الهدف هدفا شخصيا ، كانت مرتبته مرتبة متدينة في طابور الإنسانية.

وصدق أبو الطيب حين قال:

إذا كانت النفـــوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

فالإنسان خلق لمهمة محدده ، ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال «هو الذي أخرجكم من الأرض واستعمركم فيها ..»

أي طلب إليكم إعمارها ، وهنا يطرح سؤال نفسه ، هل الإعمار المقصود منه هو العمائر والبنايات ، التي هي أساس اللفظ ، أم أن الإعمار المقصود منه إقامة العدل ونشر الخير في ربوع الدنيا . وأحسب أن القارئ الكريم أدرك مدلول الكلمة ، فما العمارة الإ مظهر قوي من مظاهر الحضارة ،وليست بحال من الأحوال كل الحضارة .

فما أسس الحضارة إذا؟ وعلى أي شيئ تقام ؟

يقول الفليسوف الجزائري مالك بن نبي في كتابه النفيس شروط النهضة«فلما عصى آدم ربه وغوى .. أنزله الله إلى الأرض منبوذا، ولم يكن له ما يستر به جسده إلا بعض أوراق الشجر ، ولم يكن له من زاد إلا الندامة التي كانت تعتصر قلبه وتنهش ضميره . ولما وطئت قدماه الأرض سخرت الوحوش من ضعفه ، وهزئت القوى الطبيعية من عريه وفقره ، فأحس آدم بالجوع والبرد والخوف ، ففر هاربا وأوى إلى غار مظلم.

لقد بدأ يفكر في فقره ووحدته ، في بيئة كل من فيها يعاديه ، وهو لايعرف من أسرارها شيئا . نظر إلى السماء فرأى الطير يكتسحها ، ونظر إلى البحر فرأى السمك يرتع فيه ويلعب ، وتطلع إلى الأرض فإذا بالوحوش تصول في الغاب وتجول. فغبط آدم هذه الحيوانات كلها ، لما أوتيت من مأكل ومأوى ، ولما أمنت من خوف ، وازداد في قلبه الندم ، حتى ملك عليه نفسه.

هنالك رفع يديه إلى السماء يتضرع ، فاستجابت له السماء قائلة: اذهب أيها الرجل فإني أعطيتك عقلا ويدا ، وأعطيتك ترابا وزمانا.

اذهب فإن لك في الحياة أن تفعل ما يفعل الطير ، فتحلق في الفضاء ، وأن تغوص في اليم مثل الحوت فتعبر المسافات الطويلة في البحار . حينئذ ارتدت إلى آدم نفسه وتفتحت مغاليق الحياة أمام عينيه. وإذا بشمسها تسطع على غاره المظلم ، وتضيء له السبيل إلى مستقبله الساطع الخلاب.

وذاك كلام واضح لا لبس فيه في مكونات وأسس الحضارة ، أي حضارة . وليس للحضارة مقياس زمني ، فقد يحتمل الأمر عقودا وأزمنة ، وقد يكون سهلا يسيرا كما هو الحال في الحالة اليابانية ، فاليابان انتقلت من العصور الوسطى إلى العالم المتقدم في الفترة ما بين ١٨٦٨ -١٩٠٥ . أما ما أورده مالك بن نبي من عناصر أربع تقوم عليها الحضارة فهذا ما سنتناوله بالحديث في هذا الباب.

ولكنني لا أبالغ حين أقول إن المتجول في فكر بن نبي يرى رجل أوتي مفاتيح الفهم وجمع بين الشرق والغرب فهو تقدمي يقف على أقدام إسلامية وهو ثوري تكبحة روية الحكمة. إن بن نبي حين تحدث عن العناصر الثلاثة الثابتة لقيام أي حضارة يرى أن هذه العناصر الثلاثة لابد لها من عامل مساعد حتى يتفاعل الإنسان مع التراب ومع مرور الوقت ، هذا العامل المساعد هو الفكرة الدينية .

وأي حضارة قامت على مر العصور ، لم تكن بدايتها تقدم في عالم الفلك أو سبق في دنيا الفيزياء ، لكنها بدعت بقوانين و شرائع تنبذ الظلم والطغيان .

يقول بن نبي « ومن هنا يستطيع المؤمن إدراك الحقيقة الساطعة التي يفسرها التاريخ ، في الفقرة التي وردت في أحد الكتب المنزلة القديمة «في البدء كانت الروح».

ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة ، يذهب وقته هباء لا ينتفع به لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة : الإنسان والتراب والوقت راكدة خامدة ، وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدي دورا ما في التاريخ حتى إذا ماتجلت الروح بغار حراء - كما تجلت من قبل بالوادي المقدس في الحضارة المسيحية - نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة ، فكأنما ولدتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي وأثارت معه وعليه العالم.»

ولكن العجيب في الأمر الذي نوه إليه أستاذنا الكبير مالك بن نبي أن تلك الدفعة الأولى في البناء الحضاري يقوم بها بسطاء القوم . لقد قامت الحضارة الإسلامية على يد أناس كانوا يعملون في رعي الأغنام وسقاية الحجيج . وأعتقد أن السر في ذلك هو بكارة القلوب ، فالقلب فارغ من أي فكر وأي تصور أرضي أو سماوي وبالتالي هو مرشح أكثر من غيره لتلقي وحي السماء والإندفاع به نحو البناء الحضاري . ولم يحدث هذا في الحضارة الإسلامية فقط ، بل حدث في حضارة غير سماوية ، أرضية، هي الحضارة البوذية ، والتي إنتشرت في الهند وربوع الصين.

فالروح أو التعاليم أو القيم أو الشرائع أو الوصايا هي بداية أي حضارة. ويرى الأستاذ مالك بن نبي عام ٣٨ﻫ عاما فاصلا في الحضارة الإسلامية ، فهو عام تحول الحضارة من الروح إلى العقل ، حيث التوسع والرقي العلمي وإحراز السبق في العديد من ميادين العلم . وعام ٣٨ﻫ هذا هو العام الذي حدثت فيه معركة صفين التي كان على اثرها تحول الخلافة إلى ملك عضوض.

واقتبس من الأستاذ «مايهمنا هو أنه مما لاشك فيه أن الحضارة الإسلامية قد خرجت من عمق النفوس، كقوة دافعة إلى سطح الأرض تنتشر أفقيا من

شاطئ الأطلنطي إلى حدود الصين. وهكذا وجدنا أن الحضارة الإسلامية تتوسع وتنتشر فوق الأرض ، تتغلب أولا على جاذبيتها بما تبقى لديها من مخزون روحي ، حتى إذا ما وهنت فيها قوى الروح وجدناها تخلد إلى الأرض شيئا فشيئا .

وقد بدأ العلم في تلك الحقبة ينتشر بفضل أساتذة سطعت أسماؤهم في جو المعرفة، كالفارابي ، وابن سينا ، وأبي الوفاء ، وابن رشد ... إلى ابن خلدون الذي أضاءت عبقريته غروب الحضارة الإسلامية إلى نهايتها . ومن هنا نستطيع أن نقرر أن المدنيات الإنسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية ، إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية ، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها ، بعد أن تفقد الروح ثم العقل . ذلك هو منحنى السقوط الذي تخلقه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل ، وطالما أن الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل ، المؤدية إلى الحضارة ونموها ، فإن هذه العوامل النفسية تختزن بطريقة ما ، فيما وراء الشعور ، وفي الحالة التي تنكمش فيها تأثيرات الروح والعقل ، تنطلق الغرائز الدنيا من عقالها ، لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية. «

ثم يقول بشكل مقتضب « ولو أردنا أن نسمي هذه المرحلة الخالية من الروح والعقل ، والخاتمة لكل حضارة لأطلقنا عليها بلا تردد اسم الرحلة السياسية. « أي ذكاء هذا ؟ وأي عبقرية تلك ، التي تجعل مالك بن نبي يطلق على أي انحدار حضاري اسم المرحلة السياسية. وقد يتسائل القارئ الكريم : أين تكمن تلك العبقرية ؟ فأقول إن البناء الحضاري الذي بني على الروح والقيم يهدمه الكذب والخديعة ، اللذان هما عمد السياسة وجوهرها.

ويسمي بن نبي المرحلة السياسية في مواضع أخرى من كتابه القيم بالغريزة ، ويدور بذلك بالبناء الحضاري في ثلاث مراحل: الروح ، العقل ، والغريزة.

العمارة والحضارة

هنا يأتي سؤال مشروع ، عن العلاقة بين العمارة والحضارة ، فالحضارة رحب واسع يتسع لما هو أكبر من العمارة ، لكن العمارة هو التجسيد الأبرز للحضارة. فمنذ عهد الفراعنة مرورا بالعديد من الحضارات ووصولا إلى نيويورك والصين ونحن نرى العمارة هي التجسيد لما أحرزته حضارة ما في سبق علمي معين.

فهل إختلفت عمارة مصر عن عمارة الصين بسبب إختلاف في طبيعة الحضارة ؟ وفي أي عنصر من العناصر الثلاث تلك كان الإختلاف؟

وهنا نقطة هامة ، إن جميع الحضارات التي مرت على بني الإنسان إشتركت في العوامل الثلاثة ، الروح العقل والغريزة ، وكانت مرحلة الروح هي نقطة الإنطلاق النفسي لجميع تلك الحضارات ، فالإنسان فيها جميعا طموحا تواقا ' فلماذا إختلف إذا عمارة مصر عن عمارة بابل أو الصين ؟ هذا ما سنتطرق له في هذا المؤلف بإذن الله.

لكن قبل هذا لابد من تفصيل العناصر الثلاث والرد عليها بمايتناسب مع العصر الذي نعيشه.

الإنسان

الإنسان صنعة الله ، التي خلقها وأبدعها في أحسن صورة ، أعطاه الله سبحانه ما لم يعطي غيره من المخلوقات ، فحباه بالعقل ، وميزه بالتعبير، وعظم فيه أمر الروح وكل ما هو نفسي . لذلك فإن أعظم ما في الإنسان في البناء الحضاري هو حالته النفسية. فنحن لو نظرنا لما حولنا اليوم من ثقافات أدت إلى حضارات متنوعة ، وكان عاقبة ذلك الإصابة بخيبة أمل وإحباط شديدن نكون قد قضينا على أهم عنصر في البناء الحضاري، وإذا نظرنا لما حولنا ، فأدركنا أننا لسنا ببعيد ، وأن بإمكاننا اللحاق بالركب الحضاري ، واستصغرنا

ما عظم الآخرون ، نكون بذلك قد وضعنا أكبر أمل في نفوس البانين والمشيدين لما استصعبه الآخرون.

إن الأمم والشعوب تجمعها عادات وتقاليد قد تكون مؤثرة بشكل سلبي في البناء الحضاري ، لذا وجب وتحتم التخلص منها . وإن ما أحدثه توماس الاكويني وديكارت من تخلية وتحليه في الحضارة الغربية لهو خير شاهد على ذلك. فتوماس كان يرى في ثقافة ابن رشد ما يغير من ملامح الحضارة الغربية. والحضارة الإسلامية كذلك قامت بالتخلية والتحلية في ثقافتها ، وهو ما قرره القرآن الكريم من نفي للأفكار الجاهلية البالية.

وإذا كانت عملية التخلية عملية سهلة ، فإن التحلية لابد لها من محددات عامة ، تتناسب مع أي ثقافة ، هذه المحددات هي

الدستور الخلقي

الذوق الجمالي

المنطق العلمي

هذا الإنسان الذي خلقه الله بيديه هو الذي سيتحكم في تلك المحددات ليصنع منها الحضارة التي تناسبه.

الدستور الخلقي للحضارة

المقصود بالدستور الخلقي للحضارة هي تلك الرابطة التي تجمع الناس على هدف واحد ، أحد مدلولاته ومقاصده إقامة الحضارة. وقد حدث ذلك في مجتمع المدينة حين قال الأنصاري للمهاجري أنظر إلى دوري فأي دار إخترتها وهبتها لك وإلى نسائي فأي امرأة أعجبتك طلقتها لك ، ومع ذلك فقد عف المهاجري وقال لأخيه الأنصاري بارك الله لك ولكن دلني على السوق .

هذا النموذج لم يعرف التاريخ مثله ، وذلك لأن المهاجرين والأنصاري كانوا يعلمون حق المعرفة أنهم وما يملكون ملكا لله عز وجل ، فما نظر المهاجري إلى ما يملك الأنصاري ولا بخل الأنصاري على أخيه القادم إليه من مكه ، وهو

ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله «والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم « أي الأنصار «يحبون من هاجر إليهم « أي المهاجرين « ولا يجدون في أنفسهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ....» أي إن الأنصار كانوا لايرون أنهم يملكون تلك النعمة التي أسبغها الله عليهم . لذلك يمكننا أن نعبر عن الدستور الأخلاقي لقيام الحضارة بأنه دستور التجرد.

ومما هو جدير بالذكر وحري بالإشارة أن هذا الخلق هو أرقى الصور النفسية للكائن البشري ، فقد تجد إنسانا مهزوم روحيا ، وقد تجد على الضد منه إنسانا طموحا تواقا لإحراز أي سبق ، لكنه من الصعب جداً أن تجد إنسانا طموحا متجرداً.

إن من يملك هذا الخلق لايقيم حضارة فحسب بل يستطيع أن يلمس السحاب بيديه، وليس في ذلك أدنى مبالغة ، ففي الحضارة المسيحية، حضارة شارلمان تجد أن نيوتن وليبنتز قد تصارعا في تسجيل إكتشافاته العلمية ، كل يريد الأولوية لنفسه.

وعلى الرغم من أن أستاذنا بن نبي قد أورد مثال إختراع الراديو كمثال على تظافر الجهود وتشابك الأيدي حين قال« فإن أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنية الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات ، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد ، لولا صلات إجتماعية خاصة ، لا تتصور هذه الصناعات بدونها ، فهي الأساس الخلقي ، الذي قام عليه صرح المدنية الغربية ، في علومه وفنونه ، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لسرى الإلغاء على جميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون ، فلو أخذنا جهاز الراديو مثلا لرأينا فيه مجهودات علمية وفنية مختلفة، دون أن يخطر ببالنا أثر القيم المسيحية في بناء هذا الجهاز ، على حين أنه في الواقع أثر من أثار العلاقات الإجتماعية الخاصة ، التي وحدت جهودا مختلفة لهرتز الألماني وبوبوف الروسي وبرانلي الفرنسي وماركوني الإيطالي وفليمن الأمريكي ، فكان الراديو

نتيجة هذه الجهود جميعا ، وهل هذه العلاقات الخاصة في أصلها سوى الرابطة المسيحية، التي أنتجت الحضارة الغربية منذ عهد شارلمان»

وأختلف مع الأستاذ فيما ذهب إليه من أراء ، فالمثال الذي ضربه من عصر النهضة لايتساوى مع مثال المهاجرين والأنصار. فالعلاقة التي كانت تحكم علماء عصر النهضة كانت علاقة تنافسية ، صحيح أن بعضهم كمل الآخر ، كما حدث بين نيوتن وفارادي ، فالفيزياء على عصر نيوتن كانت فيزياء الجزيئات ، فلما أتي فارادي بعده بمائة وخمسين عاما أصبح علم الفيزياء يعرف بفيزياء المجال. وكان هذا التقدم العلمي كثيرا ما تشوبه شائبة الإستفادة المادية ، بل أكثر من ذلك، فلقد أشتهر لابلاس بالسرقات العلمية. ففرق شاسع بين الروح التنافسية والروح المتجردة.

إن تلك الأخلاق المتجردة وجدناها عند علماء المسلمين ، ففي نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس ، عرفت الدنيا عالما وفيلسوفا اسمه الفخر الرازي ، وعرف عنه أنه كثير الحديث في علم الكلام وفلسفة ما وراء الطبيعة ، ولما عوتب في هذا ارتجل قائلا :

نهاية إقدام العقـــــول عقـــــال ... وغاية سعي العالمـــــين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جســومنا ... وحاصل دنيـــــانا أذ ووبـــالُ
لم نستفد من بحثنا طول عمـــرنا ... سوى أن جمعــنا فيه قيل وقالوا
وكم من جبال علت شرفاتها رجال ... فزالوا والجـــبال جـــبـــال

وكثيرا ما أثر عن الشافعي رحمه الله أنه قال رأي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. بل إن البخاري رحمه الله كان يسافر مسيرة شهر من أجل حديث علم أن صاحبه سمعه من النبي عليه الصلاة والسلام . تلك الروح المتجردة لايمكن بحال من الأحوال مقارنتها بروح علماء أوروبا في أي قرن من قرون النهضة ، صحيح أنهم كانت تجمعهم روح البحث عن الحقيقة، لكن في ذات الوقت هي روح تنافسية، قد يحملها الحسد على صغار الامور.

إلا أنه إحقاقا للحق فقد وجدت بعض الأمثلة النادرة مثل تنازل إسحاق بور لإسحاق نيوتن عن كرسي الأستاذية في مادة الرياضيات بجامعة كمبردج ، لما وجد في نيوتن علامات النبوغ وكان نيوتن يومها لم يبلغ السادسة والعشرين من عمره.

تلك أمثلة نادرة وجدت في الحضارة الغربية ، لكن الذي نريد أن نصل إليه ، أنه لا بناء حضاري تام إلا بدستور أخلاقي ، والذي هو مرادف لما نعبر عنه اليوم بأخلاق العلماء. ولما لم توجد أخلاق العلماء تلك في أوروبا تسببت كثرة الإختراعات أثناء الثورة الصناعية في فساد إجتماعي، حيث استغل الغني الفقير ونهش لحمه وعظامه ، الأمر الذي أدى إلى ولادة الإشتراكية كردة فعل للرأسمالية.

الذوق الجمالي

سؤال تردد بشدة ويقرع الآذان ، هل للجمال وظيفة؟ أو بعبارة أخرى ، ما أهمية الجمال. إن الجمال ليس شيئا مقصورا على ذاته ، بل هو متعدي إلى غيره ، فجمال المرأة هو الذي يجعلك تتعلق بها ، ثم لاتستطيع أن تستغني عنها، وبالتالي تنشأ الأسرة ، التي هي عماد بقاء الحياة.

والجمال في العمارة من شأنه أن يقلل نسبة الجريمة ، كيف هذا ! إنك لو نظرت إلى مجتمع العشوائيات ، أو بلفظ أكثر مهنية - فلا يوجد مجتمع عشوائي - منطقة شعبية ، فإنك تجد أن تلاصق المباني بعضها ببعض ، وإختراق الشبابيك لحرمة الجار تخترق الخصوصية ، فتنشط الغرائز وتهتك الحرمات وينشأ مجتمع أساسه الجريمة .

هذا فضلا عن أن إنتشار الحدائق والزهور يورث طمأنينة في النفس وإنشراح في القلب تجعل ذات الإنسان ذاتا إبداعية . وقديما أنشد الشعر بسطاء الناس ، بل إن أبوالقاسم الشابي كان شابا يكتب الشعر بين الحقول ، ولم يكن حاملا لشهادة الدكتوراة ، وتوفي وعمره لم يجاوز الثلاثين ، ومع ذلك

فهو فليسوف الشعراء والمنافس الحقيقي لأمير الشعر أحمد شوقي . أنظر إليه وهو يقول :

تبرمت بالعيـــــش خوف الفناء ولو دمت حياً ســــــئمت الخلود

ثم يقول :

ولكن إذا ما لبســــنا الخـلود ونلنـــا كمـــال النفوس البعيد

فهل لا نمـــل دوام البقــــاء وهـــل لا نــــود كمـــالا جديد

إن جمال المحيط هو الذي شكل الشابي وجعله ثاقب الفكر قوي الحجة ضالع في علوم الموسيقى . وقديما قالوا إن المسلمين عندما حكموا أسبانيا كانوا أكثر إبداعا ، بسبب رغد العيش وطيب المقام . وورد أن أبا كان يتجول مع ابنه وسط جنان الأندلس ، فأحب أن يتبارى الوالد مع ابنه من خلال إطروحة شعرية، يقول هو شطر البيت ، ويرد عليه الإبن على نفس الوزن الشطر الثاني، فقال الأب:

تنــقُ ضفـــدعُ الوادي

فيرد الإبن

بصـــوتٍ غـير معتادِ

فيقول الأب

كأن أديـــمَ مقولـها

فيرد الإبن

بني الملاح في الوادي

والمقول هو اللسان . فقلي بربك هل يمكن أن ينشأ هذا المناخ الإبداعي في ظل الجوع والخوف وضيق المسكن وسوء نظافة الطرقات. هذا فضلا عن أن جمال المدينة يحكي تاريخها وماتوصل إليه إبدا ع قوم في مجال من مجالات العلم. ونيويورك ولندن وباريس خير دليل من الحديث ، أما الحضارات القديمة فخير دليل من القديم . وبذا نرى للجمال وظيفة متعدية إلى غيره .

وفي هذا الصدد يقول أستاذنا مالك بن نبي « لايمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح ، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة ، لابد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره ،

وأعماله ، ومساعيه»

ثم يبدع الأستاذ في إسترساله فيقول « ولقد بعثت هذه الملاحظة كل من عنوا بالنفس الإجتماعية من علماء الأخلاق ، أمثال الغزالي ، لدراسة الجمال ، وتقديره في الروح الاجتماعية. ويمكن أن نلخص أفكارهم – في هذا الصدد – في إعتبارهم «الإحسان» صورة نفسية للجمال. وترجمة هذا الإعتبار في لغة الإجتماع: أن الأفكار– بصفتها روح الأعمال التي تعبر عنها أو تسبر بوحيها – إنما تتولد من الصور المحسة ، الموجودة في الإطار الإجتماعي ، والتي تنعكس في نفس من يعيش فيه. وهنا تصبح صورا معنوية يصدر عنها تفكيره. فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان ، وأصوات ، وروائح ، وحركات وأشكال ، يوحي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السماجة القبيحة. فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد ، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل وتوخيا للكريم من العادات.»

وليس أدل على مايقوله عبقري زمانه وصناجة قومه من أن الثياب التي نرتديها تطبع نفوسنا فينعكس ذاك في طريقة الحديث وطريقة المأكل والمشية التي منها ومن غيرها تكون الشخصية ، فلو أن إنسانا له أصول ريفية ويعيش في المدينة ، تجده حين يلبس الجلباب ويخلع ثياب المدينة يتغير لسانه وتتغير نحنحته وتتغير جلسته ، وذاك هو الأثر الذي تنبني عليه العلاقة بين الأفكار وبين صور الجمال. ويلفت إنتباهنا مالك بن نبي إلى أن مصطفى كمال حينما فرض القبعة لباسا وطنيا للشعب ، إنما أراد بذلك تغيير نفس ، لا تغيير ملبس ، إذ أن الملبس يحكم تصرفات الإنسان إلى حد كبير .

والمدينة ليست إلا ملبس أرحب ، يطبع نفوسنا وتصرفاتنا. وسيرى القارئ الكريم أن كل حضارة من الحضارات القديمة جسدت وشخصت الجمال بطريقتها الخاصة. بل إن هذا الجمال هو الإطار الحضاري الذي تتكون فيه أية حضارة ، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا ، وأن نجسده في شوارعنا، وبيوتنا ، وما ذاك إلا نفس صورة الجمال التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي.

بل يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات والروائح والألوان ، كما يثيرنا منظر مسرحي سيئ الأداء. وأخيرا نختم بقول الرائع بن نبي حيث يقول « إن الجمال هو وجه الوطن في العالم ، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام.

المنطق العلمي

والمعني به العقلانية ، فما عناه مالك بن نبي في وقوفه على الإنسان كركيزة أولى في البناء الحضاري ، لم يقصد به ما عرفه الناس منذ عصر أرسطو ، ولكن عنى استخراج أكبر فائدة من مقدمات معينة. إنك إذا نظرت إلى مجتمعاتنا العربية اليوم ، تجد أن نسبة كبيرة من تصرفات أهلها تأتي كردود أفعال للأقارب والجيران ، فنحني نشتري سيارة لأن جارنا يملك سيارة ، ونحن نجلب خادمة لأن أختي عندها خادمة ، فلا ننظر إلى حياتنا بشكل عملي ، بل ننظر إلى الآخرين ، وما سيقوله الآخرون علينا.

إن مجتمع كهذا مجتمع معتل ، لايقيم حضارة ، وما أجمل ما قال بن نبي وهو يفرق بين العقل المجرد والعقل التطبيقي ، إذ يقول « ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق العلمي في حياتنا ، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا ، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والإنتباه فشيء يكاد يكون معدوما.»

فقد يملك الإنسان فكرة ما ، لكنه ليس لديه الأدوات لتطبيق تلك الفكرة ، وليس لديه الاسلوب لعرضها ، وليس لديه المنطق في خطوات التطبيق ، وصور ذلك متعددة وبارزة.

التراب

التراب هو العنصر الثاني لنهوض أي حضارة ، حسب المعادلة التي أوردها المفكر الكبير مالك بن نبي ، وجعل لها عنصر الدين عاملا مساعدا لتفاعلها .تماما كما هو الحال في المعادلة الكيميائية ، والتي تشترط في بعض

الأحيان الحرارة كعامل مساعد لتفاعلها. وبيد أننا نؤمن بصحة تلك المعادلة ، إلا أننا نختلف مع المفكر الرائع مالك بن نبي في المعنى الذي ذهب إليه في عنصر التراب.

يقول بن نبي « ونحن حينما نتكلم عن التراب لا نبحث في خصائصه وطبيعته ، فليس هذا البحث من موضوع الكتاب ، ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الإجتماعية ، وهذه القيمة الإجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه ، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة ، وحضارتها متقدمة يكون التراب عالي القيمة، وحينما تكون الأمة متخلفة - كما نقول اليوم - يكون التراب على قدرها من الإنحطاط.

ونستطيع بمقياسنا السابق أن نقول ؛ إن التراب في أرض الإسلام عموما على شيء من الإنحطاط ، بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه ، ذلك أن الأرض الزراعية في بعض البلاد كالجزائر مثلا بدأت تتقهقر رويدا أمام غزو الصحراء ، فأكفان الرمال تمتد هناك حيث كان يوجد قطعان الماشية ، والأرض الخضراء.

ويقول أيضا « ونحن لا نرى في هذا مجرد مشكلة ، بل نراها في الحقيقة مأساة دامية ، إذ تموت الأرض الخضراء عن أهلها ، وتتركهم يتامى بين يدي الصحراء المقفرة ، وليس لهم من مطعم إلا بعض أشجار من النخيل ، وليس لهم من مشرب إلا بقية مما ترك الشتاء من مطر ، هذا المصير الذي تنتظره أراضينا الخصبة يشبه إلى حد كبير مأساة «برقة» التي اكتسحتها الرمال منذ ألف عام. ولكن ماذا فعل سكان الأرض أمام هذا الغزو؟ إنهم وقفوا منه موقف الضعيف الجبان! لقد فر ساكن البادية ، ذلك الرحالة الذي لم تبقى له أرضا يحرثها، ولا ماشية يحلبها ، لم تبق له إلا دابة يركبها ليفر ، فهو الآن تائه حائر بين الصحراء التي تبدده ، وبين المدن الساحلية التي ترفضه أو تبتلعه حيث تجعل منه إنسانا منبوذا.

ولقد كان من آثار هذا الجدب الضارب في الأرض ، أن أصبحت رحلة القبائل في الشتاء والصيف مهددة بالانقراض ، ولسوف يكون في انقراضها انقراض الرجل الفطرة الذي لم يستقر مصيره في البلاد . وهكذا يذهب تراثنا الحيوي – تراث اللحم والدم – يذهب هباء..إنه الهرب ..إنه التشتت .. إنه الموت.

إن الوضع خطير ، ولكنه لا يدعونا إلى اليأس من إصلاح ما نحن فيه. فإن علينا أن نوقف النزيف أولا، وأن ننقذ الشعب من خطر الموت في أسماله ، دون أن يجد ما يسد رمقه. ونقطة الانطلاق في كل إصلاح اجتماعي ، هي أولا توفير القوت والملبس ، ثم نطرح القضية على بساط التخطيط» .

إن ما نلحظه مما تقدم ، أنه على الرغم من صحة عنصر التراب كعنصر أساسي في نهضة أي حضارة ، إلا أن مالك بن نبي رحمه الله يحصره في إطار الأرض كمصدر للرزق ، بينما نراه مصدر لأي مادة يطوعها الإنسان . فمن التراب يكون السيلكون ومن السيلكون يكون الزجاج ، وإذ اختلط التراب بالنار أصبح فخار منه تكون مادة للبناء ، ومنه أيضا تكون مادة للأنية. كما أن التراب مصدر للعديد من المعادن والعديد من المواد. إن التراب أصل أي مادة يمسك بها الإنسان ليشيد بيديه حضارة ما. وبذا يكون معنى التراب أرحب بكثير من المعنى الذي ذهب إليه بن نبي رحمه الله .

فإذا ما اجتمع الإنسان إلى المادة ، وأضيف إلى ذلك عنصر الزمن ، وعجن ذلك كله بسائل الدين أو المبادئ أو الأخلاق كان ناتج ذلك وبلا شك حضارة عظيمة. ودليلنا في أن المعنى الذي استقاه بن نبي معنى قاصر أن الفراعنه شيدوا حضارتهم بمخرجات التراب ، والبابليون كذلك . فوقف المعنى على أن التراب هو الذي يمد الإنسان بعنصر الحياة لاتقوم به حضارة. فكم من إنسان وفرنا له عنصر المأكل والمشرب ولم يسهم في صنع الحضارة الإنسانية. غير أن الخطر الذي يشير إليه في كتابه – خطر التصحر– أمر جلل.

فإذا ما تحولت الأرض الخصبة إلى فلاة ثم إلى صحراء، يؤدي إلى

تحول في الحياة الإقتصادية ، فقد تتحول أولا حرفة البلاد من الزراعة إلى رعي الأغنام، ومن هذه إلى لا شيئ . وإن هذا التطور الطبيعي ليفرض على الحياة البشرية أن تتبع هذه الدورة الجهنمية ، فيتحول بعدها المجتمع إلى العدم.

وفي هذا يقول بن نبي « لقد كانت بلاد الشمال الإفريقي قبل ألف سنة تحتوي على مساحات من الأشجار تبلغ سبعة ملايين من الهكتارات ، غير أننا نجدها اليوم قد نقصت إلى الثلث تقريبا ، وهنا يكمن سر المأساة التي نعيشها اليوم حيث لا نجد الجو لا يكف عن أن يقترب يوما فيوم من الطقس الصحراوي القاري» .

ثم يقول « ولقد أصبحت القضية اليوم في طورها النهائي من الخطورة، لأنها أصبحت تمس كيان الفرد ، لا مصالحه فقط ، ومن المناسب ذكر بعض الأرقام توضيحا لخطورتها:

فعلى سبيل المثال انخفض عدد السكان في منطقة جنوب قسطنطينة وهي (تبسة) منذ عام ١٩٣٩ إلى الآن ، من مائة وثمانين ألفا إلى أربعين ألفا تقريبا ، بينما الماشية التي كانت مورد الاقليم الوحيد نجدها اليوم على وشك الانقراض. وظاهر الأزمة ناشيء عن قلة المطر ، وهي تتسبب في جفاف الأرض الخصبة من الأرض فتذروها الرياح وتكتنفها الرمال .. وهكذا تولد الصحراء في مهد الأرض الخصبة». «لاحظ أن بن بني كتب هذا الكلام في سبعينيات القرن الماضي.

وبذا نرى أن ما عناه مالك بن نبي هو توفير الحياة من الطين والتراب والكلا والدواب حتى يستقر الإنسان ، فإذا ما استقر أبدع ، وإذا ما أبدع أنتج حضارة.

الوقت

نأتي الأن إلى العنصر الثالث والأخير من عناصر صناعة الحضارة ، فالزمن لاشك أنه جزء من البناء الحضاري ، وقديما قالوا الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل. فهو يمر خلال المدن يغذي نشاطها بطاقته الأبدية ، أو يذلل

نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء ، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب ومجال كل فرد ، بفيض من الساعات اليومية التي لا تغيض ، ولكنه في مجال ما يصير ثروة وفي مجال آخر يتحول عدما ، كما يقول مالك بن نبي رحمه الله.

لكن هذا النهر نهر صامت ، لذا ما ننساه أحيانا ، سواء في ساعات النشوة أو في ساعات الغفلة . ومع ذلك تعلو قيمة الزمن في ساعات الإنتفاضة ، ففيها تمتزج قيمة الزمن بقيمة الحفاظ على الحياة .

ولذا فإن قيمة الوقت تعلو بأمرين:

الأول : الزمن الذي يبذل فيه هذا الوقت ، وهو ماسبق ذكره ، من حيث هل بذل هذا الوقت في زمن كان الحفاظ فيه على البقاء أمرا صعبا ، أم أن الزمن الذي بذل فيه هذا الوقت كان زمن دعة ورخاء

والأمر الثاني: في أي شيئ بذل هذا الوقت ، هل بذل في منفعة شخصية، من جمع مال أو إعتلاء ثراء ، أم بذل في رفعة أمة ونهضة شعب.

ومما لاشك فيه أن الوقت بعدا جديدا لإكتمال أي عملية ، وقيمته أغلى من الذهب ، لأنك لا تستطيع إعادته . وعلى كل الأحوال فالتفريط في الوقت أمر مستنكر ، إذ أنه المدى الذي تتكامل فيه حضارة ما.

أذكر أنني كنت أقول دائما لطلاب الهندسة المعمارية «إن ريتشارد مير هو الأبن الشرعي لكوربوزيه في عالم العمارة ، تفرعت عنه المدرسة الإنشائية وعلا نجم نورمن فوستر ، ثم أتى نقيض تلك المدرسة في رسومات وتصميمات بيتر أيزنمان » تلك المقولة تكاملت في أي مدى ؟ في الزمن لا شك.

فلولا الزمن لما كانت هناك حضارة ولولا الزمن لما تكامل أي شيئ . وهنا لابد من الحديث عن تجربة عملية- أوردها بن نبي في كتابه- حتى يكون

للحديث وقع في النفوس ، تلك هي تجربة ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، تلك الحرب التي خلفت وراءها ألمانيا عام ١٩٤٥ قاعا صفصفا ، حطمت فيها كل جهاز للإنتاج، ولم يبقى لها من شيئ تقيم على أساسه بناء نهضتها ، وفوق ذلك فقد تركتها لتصرف شئونها تحت احتلال أربع دول , فلما بدا النشاط يسري في نفس الشعب الألماني في مستهل سنة ١٩٤٨ ، كان ساعتئذ في نقطة الصفر من حيث المقومات الإقتصادية الموجودة لديه . وبعد مرور عشر سنوات نرى معرض ألمانيا يفتح أبوابه في القاهرة ،فتذهلنا المعجزة ، إذ ينبعث شعب من الدمار والخراب ، وينشيء صناعات ضخمة لم يرى العالم له مثيل.

ثم يعقب مالك بن نبي رحمه الله بألمعية العالم ببواطن الأمور فيقول «ولو أننا حللنا تلك المعجزة لوجدنا فيها عوامل شتى لا سبيل إلى إنكارها، من بينها الاقتصاد في الجهاز الإداري ، وفي التكاليف الإدارية ، فقد أصبح كثير من أعمال الحكومة يقوم بها أفراد الشعب كواجب عليهم ، لكن العامل المهم من هذه العوامل هو عامل الزمن . فقد فرضت الحكومة الألمانية عام ١٩٤٨ على الشعب الألماني كله ، نساء وأطفالا ورجالا ، التطوع يوميا ساعتين ، يؤديها كل فرد زيادة على عمله اليومي بالمجان»

وفي الحديث شاهدنا صعود ماليزيا على يد ماهتير محمد ، وتركيا على يد أردغان في غضون العشر سنوات ، أي عقد واحد من الزمن ، وقبل هؤلاء كانت اليابان التي تحدت العالم بصناعتها .

فهل للوقت بعد ذلك قيمة في صناعة الحضارات ؟

أترك للقارئ الكريم الإجابة على هذا السؤال لأقوال، الإنسان هو العقل المتأمل ، والتراب هو المادة المطوعة ، والزمن هو المدى الذي يتفاعل بداخله هذا العقل مع تلك المادة ليقيم لنفسه حياة أوفر ، فيصتدم أحيانا بالعلم ويتقابل

مع الفن ، وتقذفه الفلسفة ويمضغه الدين وتلوكه الأخلاق، ومن ذاك كله تتكون الحضارة. وما العمارة إلا أداة تعبير عن تلك الحضارة .

وحتى تكتمل الصورة ، فإنني أقدم – قبل الرد على كتاب عمارة الفقراء – صورا من حضارات قديمة ، هي نماذج عرفها الناس في القديم ، لكن لم يتطرقوا للعلاقة السحرية بين العمارة التي هي مظهر وبين الحضارة التي هي أساس ذاك المظهر. وهو ما يهدف إليه الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب.

حضارات قديمة

حضارة مابين النهرين

بلاد ســومر

إذا ما وقفنا على نهر الفرات فإننا سنجد مدناً تعد عند الغالبية العظمى من المؤرخين أقدم مدن عرفها كوكب الأرض ، تلك هي إريدو «أبوشهرين الحديثة» وأور «المعير الحديثة» وأورك وهي المسماه إرك في التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء.

وربما دلت أيضاً العديد من الشواهد على أن تلك المنطقة على ظهرها كان بدء الخليقة ، فسفينة نوح رست على الجودي ، ومصرع هابيل كان في أرض الشام ، مما دل على بداية الحياة وبداية الإعمار .

ولم يكن تاريخ أرض سومر الا صراعاً قامت به الشعوب غير السامية التي تسكن بلاد سومر لتحتفظ بإستقلالها أمام الهجرات السامية والزحف السامي من الأقاليم الشمالية كش وأجاد كما أورد ديورنت في الجزء الأول من قصة الحضارة . وبالتالي فأرض سومر أو الحضارة السومرية قامت وتأسست تحت سلاح التحدي والصراع أمام الهجرات والزحف السامي. وكانت هذه الأجناس المختلفة تتعاون فيما بينها وربما على الرغم منها- تحت وطأة الزحف السامي - لتقيم صرح حضارة هي أول ما عرف من الحضارات.

وتشير بعض البحوث إلى أن هؤلاء السوماريون قدموا إلى تلك الأرض العالية من بلاد القفقاس أومن أرمينية متتبعين في سيرهم مجرى نهر دجلة، لكن يبقى الإحتمال الأكبر أن تلك المنطقة كانت أكثر المناطق عماراً ، فبها هبط آدم من الجنة وعليها رست سفينة نوح ، وبالتالي كان التواجد البشري ثم الإحتياج البشري وعلى هذين العنصرين قامت الحضارات .

ومن الباحثين من نسبهم إلى المغول ، ربما لوجه الشبه بينهم وبين المغول، فمن آثارهم أنهم قصار القامة ممتلئ الجسم ، لهم أنوف شم مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية وجباه منحدرة قليلا إلى الوراء، وعيون مائلة إلى أسفل.

ومن أوصاف ملبسهم أنهم كانوا يلبسون من جلود الغنم ، ومن الصوف المغزول ، وكانت النساء يسدلن من أكتافهن اليسرى مآزر على أجسامهن أما الرجال فكانوا يشدونها على أوساطهم ويتركون الجزء الأعلى من أجسامهم عارياً . ومع تقدم الزمن وإزدهار الحضارات في المنطقة غطي الرجال جميع أجسادهم وبقيت فقط فئة العبيد عارية في الجزء الأعلى من أجسادها.

الطوفان العظيم

يؤرخ الشعراء والعلماء لتلك الحقبة من الحضارة الإنسانية بحادثة هامة هي حادثة الطوفان .ومتنها يأتي في سياق أنه كانت هناك جنة عظيمة يعيش فيها أهل تلك المنطقة ، خربها طوفان هائل بسبب ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمون . ولا يتحدث ديورنت ما إذا كان هذا الطوفان هو طوقان سيدنا نوح أم لا ، ولكن في الأعم الأغلب نعم .

حاول بعد ذلك المؤرخون أن يخلقوا ماضيا يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية ، فوضعوا قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين،ورووا عن أثنين من هؤلاء الحكماء وهما تموز وجلجمش من القصص المؤثرة ماجعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة قي الأدب البابلي .

أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الألهة البابليين ، وأصبح فيما بعد أدونيس اليونان . هذا الأمر يرجع بنا إلى عام ٥٢٦٢ ق.م ، ويلوح أن أسرا قوية من ملوك المدن مستمسكة بعروشها قد ازدهرت في كش حوالي عام ٤٥٠٠ ق.م وفي أور حوالي ٣٥٠٠ ق.م ، وإنا لنجد في التنافس الذي قام بين هذين المركزين الأولين من مراكز الحضارة القديمة أول دور من أدوار النزا ع بين السامية وغير السامية. وهو الصرا ع الذي يبدأ من عظمة كش السامية وتستمر خلال فتوح الملكين الساميين سرجون الأول وحمورابي إلى استيلاء القائدين الآريين قورش والاسكندر على بابل في القرنيين السادس والرابع قبل الميلاد. وإلى الصرا ع الدائر بين المسلمين والصليبيين حول بيت المقدس .

ملوك سومر الزائفين

جرت سنة الله في هذا الكون أن تقوم الحياة على الصراع بين الحق والباطل أو إن شئت بين الحق والحق الأقل منه درجة ، لأنه لايوجد حق مطلق فيما دون الوحي . لكن الغريب في الأمر أن يلبس السفاحون ثياب الملوك وأن يظهر أصحاب الرذيلة في ثياب أهل الصلاح والحكمة . وأذكر هنا قصيدة لشوقي رحمه الله يصور فيها ذئباً يدعي التقوى والورع ، يقول شوقي :

برز الثعلب يوما ً في ثـيـــــاب الواعظينا
ومشى في الأرض يهدي ويسب الماكرينـــا
ويقـــــول الحــــمد لله إله العالمينـــا
ياعباد الله توبوا فهــــــــو كافي التائبينـا
وازهدوا في العيش إن العيش عيش الزاهدينا
واطلبوا الديك يؤذن لصــــــلاة الصبح فينا
فأتى الديك رســــول من إمام المرسلينـــا
عرض الأمر عليــــه وهو يرجو أن يلينـــا
فأجاب الديك عذرا ً ياأضـــــل المهتدينا
بلغ الثعلب عني عن جدودي السابقــــينا
من ذوي التيجانِ ممن دخلوا البطن اللعينا
مخطأ من ظن يوما ً أن للثــــعلب دينا

تصوير رائع وقول مابعده قول في مثل هذه النوعية من النفوس الراغمة الزاعمة المتجبرة ، لكنها مع كل أسف تجسر فوق صدور الشعوب وتحكمها بالحديد والنار. إن الأصل في أي ملك أن يقيم العدل بين رعيته لأنه منزه عن أي مغنم يرجوه ، لكن ماحدث في بلاد سومر هي نفس القصة التي تتكرر بتكرار الزمن .

بعد عام ٣٠٠٠ ق.م تروي السجلات المكونة من ألواح الطين – والتي كان الكهنة يحتفظون بها –إنتصارات ملوك المدائن وجنائزهم الفخمة في مدن

أور وكش وأرك . وكان واحدا مًن هؤلاء الملوك أوروكاجينا ملك لكش ملكا ً صالحا ً ومستبداً مستنيراً ، أصدر المراسيم التي تحرم إستغلال الأغنياء للفقراء وإستغلال الكهنة لكافة الناس ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قربانا ً للألهة . وأختمتت تلك الفترة كما تختتم مثيلاتها ، فبعد هذا العهد المبكر جداً في تاريخ البشرية من عدل أظل وحكم استقر ، أتى رجل يدعى لوجال وقضى على حكم أوروكاجينا.

نهب المدينة وحطم معابدها وذبح شعبها في الطرقات وساق أمامه تماثيل الألهة أسيرة ذليلة . في تلك الأثناء كان هناك شعب أخر من الجنس السامي ينشأ مملكة جديدة بزعامة سرجون الأول ، واتخذ من مدينة أجاد عاصمة لحكمه. وقد عثر في مدينة سومر على حجر ضخم نحت عليه سرجون ذا لحية كبيرة وعليه ثياب الوقار والهيبة. ولم يكن سرجون هذا سليل الملوك ، فلم يعرف التاريخ له أبا ً ، ولم تكن أمه إلا عاهرة من عاهرات المعابد .

وبلغ من وضاعة هذا الرجل أنه قال « حملت بي أمي الوضيعة الشأن ، وأخرجتني إلى العالم سرا ً ،ووضعتني في قارب من السل كالسلة ، وأغلقت على الباب بالقار « . فالرجل يصف أمه بالوضاعة ويشبه ميلاده بميلاد موسى عليه السلام .

هذا الرجل كانت بداية حياته أنه كان ساقي الملك ، ثم ما لبث أن إنقلب عليه وجلس هو على عرش أجاد ولقب نفسه الملك صاحب السلطان العالي ويسميه المؤرخون سرجون الأعظم ، وذلك لأنه غزا مدنا ً كثيرة وغنم مغانم كثيرة، بل بلغ به الأمر أن غسل أسلحته في مياه الخليج العربي ، وكان ذلك دلالة على الإنتصارت الباهرة ، ثم أخضع بلاد عيلام (إيران) إلى ملكه وظل يحكمها خمسا وخمسين سنة.

عودة الجنة المفقودة

لما انقضى عهد سرجون وعهد أبنائه الثلاثة ، الذين كانوا أشبه بأبيهم عدا أصغرهم نارام ، ورث الحكم ملك عادل يدعى جوديا ، وتعد تماثيله القصيرة

المكتنزة أشهر مابقي من فن النحت السومري ، بل ويحتفظ متحف اللوفر بأحد تلك التماثيل . جوديا أعاد الجنة المفقودة للسومريين، ونشر العدل في ربوع البلاد وشبهه قومه بفليسوف الرومان ماركس أوريليوس . فقد كان صالح في ذاته ، نافعا لغيره ، شيد المعابد وشجع دراسة الآثار القديمة . في هذه الأثناء كانت أور « مدينة الكلدان» تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهارا ، امتد من عام ٣٥٠٠ ق.م، ساد العدل وقوي الضعيف ونشر أول كتاب للقانون ، ولما زاد خير البلاد عن طريق تجارة نهر الفرات فعل بمدن سومر مافعله باركليز باليونان . أقام الهياكل وأنشاء المعابد وزين المدن، ثم واصل ابنه دنجي أعمال أبيه طوال فترة حكمه التي استمرت ثمانية وخمسين عاماً.

حمورابي

بعد عودة الجنة المفقودة على يد الملك جوديا ، لم تلبث الأمور كثيرا حتى غزا العيلاميون من الشرق لمدينة أور والعموريون من الغرب ، وظلت مدن سومر تحت الحكم العيلامي العموري مدة مائتي عام . حتى أتى حمورابي ملك بابل من الشمال واستعاد أوروك وايسين من العيلاميين ، وظل ساكنا ثلاثا وعشرين سنة غزا فيها بلاد عيلام،وقبض على ملكها ، وبسط حكمه على عمور وأشور ، وأقام امبراطورية لم يعهد التاريخ من قبلها مثيلا ، وسن لها قانوناً عاماً ، وظل السومريون بعد ذلك الوقت قروناً كثيرة يحكمون ما بين النهرين حتى قامت دولة الفرس .

الحياة الأقتصادية

بقيت آثار الحضارة السومرية ، فقد عرف العالم ما أبدعوه في نظام الري. لقد سبب كثرة فيضان النهر في لجؤ السومريين إلى شق ترع عرضية لتوزيع المياة الفائضة. أدى ذلك إلى زيادة الوفرة الزراعية من ذرة وشعير وقمح وتمر. الأمر الذي أدى إلى إرتفاع الحالة الإقتصادية. ونتج أيضا عن هذا النشاط الزراعي إبتكار العديد من الألأت الزراعية ، فقد ظهر عندهم المحراث تجره الثيران .

وكانت بيوت السومريين تبنى من الغاب تعلوها لبنات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف بالشمس ، وكان لهذه الأكواخ أبواب من الخشب ، وكانت أرضها من الطين وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثني إلى أعلى ، أو مستوية مصنوعة من الغاب المغطى بالطين المبسوط فوق دعامات من الخشب.

أما عربات النقل فقد كشفت بعثة اكسفورد في كش عن وجود عربات نقل بدائية لنقل المحاصيل وأعمال التجارة ، وقد عثر في أماكن متفرقة على أختام يستدل منها على وجود صلات إقتصادية بين سومر ومصر والهند. وكانت التعاملات التجارية تتم عن طريق المقايضة . غير أن قيمة الشحنة التجارية كانت تقدر بالذهب والفضة.

نظام الحكم

كانت المدن السومرية تحكم من قبل ملوك مستقلين ، فكونت بذلك إمبراطوريات مختلفة . وقد تظهر في بعض الأحيان شخصيات مستقلة توحد تلك البلدان تحت راية واحدة . كما سبق وقد أشرنا . وكان الملك يخرج إلى الحرب في عربة على رأس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسي والسهام والحراب . وكانت الحرب تشن لأسباب صريحة هي السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية، فلم يكن يخطر على بالهم مخادعة الأخرين كما تفعل اليوم دول عظمى ، من ذلك أن الملك منشتوسو ملك أكد أعلن في صراحة أنه يغزو بلاد عيلام ليستولي على ما فيها من مناجم الفضة ، وليحصل منها على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل التي تخلد ذكره في الأعقاب . وهذا ما أستطيع أن أسميه البراءة أو البكارة في الشر .

وكان الجيش المهزوم يباع جنده عبيداً في الأسواق ،فيتحصلون بذلك على ربح مادي من لاشيئ . ولم يكن هذا يحدث لجميع الجند فقد يحدث أن يقدم العشرات منهم قرابين للألهة فيذبحون في ميدان عام .

وكان النظام الاقطاعي هو النظام السائد إجتماعيا ، إلى جانبه بعض القوانين من عهد دنجي، التي كانت مقدمة لقوانين حمورابي الشهيرة.

ألهة سومر

في حقيقة الأمر الله الذي خلقنا فطر النفس البشرية على الإحتماء بخالق لها ، يدبر لها الأمر ، ويحميها من كل الشرور والعقبات. كان هذا منذ بدء الخليقة وسيستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

كان للسومريون عدة ألهة ، وكان الكهنة كما هو الحال في كل زمان ومكان يستغلون هذا الأمر لشئونهم الخاصة. ومن الألهة التي عبدها السومريون غير الشمس ننجرسو إله الري ورب الفيضانات. وتموز إله الزرع ، وسن إله القمر، وكانوا يمثلونه في صورة انسان يعلو رأسه هلال أشبه شيء بالهلالات التي تحيط برؤوس القديسين في العصور الوسطى ، وكانوا يعتقدون أن الهواء محمل بالأرواح الخيرة والخبيثة.

وكانت معظم الألهة تسكن المعابد ، وإليها تقدم القرابيين من مال وطعام ونساء ، بل كان الإنسان الذي يقدم إبنته أو زوجته للمعبد ينظر إليه نظرة القديس . بل إن الأب كان يفخر بأن يهب جمال ابنته ومفاتنها لتخفيف ما يعتري حياة الكاهن من ملل وسآمة. وبهذه الطريقة غدى الكهنة أغنى من في المدينة ، وغدت وظيفة الكاهن يراد من ورائها جلب المنفعة الدنيوية ومن هنا بدء الصراع.

الكتابة السومرية

الكتابة أروع ما خلفه السومريون، وتوضح بعض النقوش الحجرية أن تلك الخطوط ترجع إلى ٣٦٠٠ ق.م ، وعلى أقل تقدير ٣٢٠٠ ق.م . كان السومريون ينقشون مايريدوا كتابته على لوح من الطين، ثم يضعونه في النار كي يجف، ويعرضونه للشمس بعد ذلك. وكانوا يستخدمون في النقش آلة حادة، لذلك سميت هذه النوعية من الكتابة بالكتابة المسمارية.

وكانوا يستخدمون هذا النوع من الكتابة في كل شيء ، حتى في البيوع. وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار كالعربية تماما .

العمارة السومرية

كما ألمحنا في مقدمة هذا الكتاب أن العمارة أو الفن المعماري هو تتويج

الحضارة أو اللبنة الأساسية بعد إكتمال الأدوات لحضارة ما في التخليد لكل أثر ، أو إن شئت فقل هي القلم الذي يسجل للتاريخ ما قدمه الأولون. بدء هذا الأمر منذ فجر التاريخ وحتى اليوم ، ولم تشذ الحضارة السومرية عن هذا الأمر.

إبتدع السومريون الأشكال الأساسية للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب والعقود . وقد عثر المنقبون في خرائب نبور على مجرى مائي معقود أنشأ منذ خمسة الأف من السنين ، وعثر في مقابر أور على عقود يرجع تاريخها إلى ٣٥٠٠ ق.م .

أما الأغنياء من أهل المدن فكانوا يشيدون قصورهم على قمم السهول، وكانوا يجعلونها منيعة لايمكن الوصول إليها. وبسبب أن الحجارة كانت نادرة الوجود في هذا الاقليم فقد اعتمد أهل تلك المناطق الاجر ، وكانت الجدران الداخلية تغطى بالجص.

واختلف في أمر تصميم منازل سومر وأميل للرأي الآخر ، فحسب رواية ديورانت أنها كانت منازل حول فناء داخلي هرباً من حرارة الشمس ، والرأي الآخر يرى أن هذا الأمر متقدم زمنياً بالنسبة للتطور البشري ويرى أنها كانت حجرات منفصلة ذات أشكال مختلفة ، مربعة ومستديرة وما إلى ذلك . وكانت المياة تؤخذ من الآبار ، وكان ثمة نظام واسع للمجاري وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة في المدن .

أما الهياكل والمعابد فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية ، وكانت تزين بأعمدة وأفاريز من النحاس مطعمة بموادٍ شبيهه بالحجارة الكريمة ، وكان طراز هيكل ناتاو في أور طراز تحتذيه كل هياكل تلك المنطقة ، فقد تم تغطية جدرانه بالقرميد الأزرق الشاحب ، ومن الداخل تم كساء جدرانه بألواح من الخشب النادرة كخشب الأرز والسرو وتطعم بالرخام والمرمر والعقيق الظفري واليماني والذهب . وكانت الهياكل تزينها أحياناً تماثيل للألهة والحيوانات من بني الانسان ، وكانت هذه التماثيل ساذجة وغير جميلة في

صناعتها، لكن تمثل القوة وإن كان ينقصها الدقة في صناعتها.

وهنا يجدر ذكر أن فن الرسم والنحت كان لايزال خشناً يخلو من الرقة والذوق ، يجسد ذلك اللوحات التي عثر عليها في مدينة أور ، لوحة الصقور ولوحة النصر .

ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية في هذا التناقض بين خزفها الفج الساذج وحليها التي أوفت على الغاية في الجمال والاتقان ، أن هذه الحضارة هذه الحضارة مزيجاً من بدايات خشنة وإتقان بارع في بعض الأحيان.

في تلك البلاد نجد أول ما أسس الانسان من دول وامبراطوريات ، وأول نظم ري ، وأول استخدام للذهب والفضة في تقييم السلع ، وأول العقود التجارية، وأول نظم الإئتمان ، وأول كتب للقوانين ، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع ، وأول العقود والأقواس ، وأول القباب.

بابل

يقول الله سبحانه وتعالى « ولولا دفع الله بعضهم لبعض لفسدت الأرض»، وعليه فالتدافع سنة كونية والتنافس منحة لبقاء الحياة . إنك لو نظرت للأمر بشيء من التفصيل لوجدت أن سبب فساد الأمم والشعوب هو بقاء السلطة في يد واحدة ، والعكس هو صلاح الأمة. لذا فالحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها الا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صوراً أخرى فتية جديدة . فكذلك الحضارة تستطيع البقاء ثابتة الأركان بتغيير موطنها وتجديد دمها .

إنتقلت الحضارة من سومر إلى بابل بعد وصول الإبداع الإنساني هناك إلى آخر محطاته . ويكفي سومر فقط أن قدمت للبشرية الخط المسماري،وتقف بنا الأحداث أمام مرحلة من بزوغ نجم الساميين ، ومعجزة حدائق بابل المعلقة ورجال عظام أثروا في تاريخ الحكم البابلي كحموابي وبختنصر.

كانت بابل من حيث تاريخها امتزاجاً بين الأكديين والسومريين ، وقد نشأ الجنس البابلي من تزاوج هاتين السلالتين وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامي الأكدي ، فقد انتهت الحروب التي نشبت بينهم بإنتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها . عرفت تلك الفترة شخصية قوية هي شخصية حمورابي في الفترة ٢١٢٣ ق.م- ٢٠٨١ ق.م ، الفاتح المشرع الذي دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية شاباً يفيض حماساً وعبقرية ، ذو عاصفة هوجاء في الحرب ، يقلم أظافر الفتن ويقطع أوصال الأعداء ، ويسير في شعاب الجبال الوعرة ولايخسر في حياته موقعة.

لقد استطاع حمورابي أن يوحد البلدان وينشر السلام والطمأنينة في ربوع البلاد بفضل كتابته لقانون ينظم الحياة وينصر الضعفاء . لقد كان هذا القانون هو القانون المنقح الأول في تاريخ البشرية ، وماسبقه من قوانين لم

يكن الا تجارب أولى ، أعنى بذلك ما أنتجته الحضارة السومرية. وقد كان هذا القانون شاملاً ورائعاً إلى الحد أن دارت حوله الأساطير وزعم الناس أنه منزل من السماء.

ويورد الأستاذ الكبير زكي نجيب محمود في ترجمته لكتاب ديورانت نصاً لحمورابي يفيد أن حموابي نفسه كان يعتقد قدسية تلك القوانين ، وأنها ترتدي حلة سماوية ، يرضى عنها جميع الألهة. يقول « أنا حمورابي الأمير الأعلى ، عابد الألهة لكي أنشر العدل في العالم، وأقضي على الأشرار الأثمين ، وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء ، وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق، أنا حمورابي الذي اختاره بل (أحد الألهة) حاكماً ، والذي جاء بالخير والوفرة ،والذي أتم كل شيئ لنبور ودريلو (آلهة أيضاً) ، والذي وهب الحياة لمدينة أرك ، والذي أمد سكانها بالماء الكثير ، والذي جمل مدينة بارسيا، والذي خزن الحب لأوراش العظيم، والذي أعان شعبه في وقت المحنة، وأمن الناس على أملاكهم في بابل، خادم الشعب ، الذي تسر أعماله أنوتيت .

لقد كانت تلك القوانين، والبالغ عددها ٢٨٥ أكثر رقياً من قوانين آشور التي جاءت بعدها بألف عام ، ولاتختلف كثيراً عن أحدث الدول الأوروبية التي تعنى بحقوق الإنسان.

وأختتم حمورابي قوانينه بقوله « إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض حكومة دعائم ثابته وحكومة طاهرة عادلة ، أنا الحكيم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أرض سومر وأكد ، وبحكمتي قيدتهم حتى لايظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة ، فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة، ليقرأ النقش الذي على أثري ، وليلق باله إلى كلماتي الخطيرة لعل هذا يكون هاديا له في قضيته ، ولعله يفهم من حالته ، ولعله يريح قلبه، فينادي قائلا: حقا إن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه ، لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر

كله ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة . ولعل الملك الذي يكون بعدي يرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري «

لم يقف الأمر عند سن القوانين ، بل تعدى إلى حفر قنولت المياة ، التي من شأنها أن تروي كل المدن الجنوبية لدولة بابل، ثم هي تقوم بتصريف المياة الفائضة عن نهر دجلة .

لم يقف الأمر أيضا عند هذا الحد ، بل تعدى إلى بناء المعابد لمردوك وزوجته إلهي بابل العزيزين . ثم قام ببناء مخزن للقمح للإلهين والكهنة. وأورثه ذلك حبا جما في نفوس أهالي مدينة بابل.

ولم يقف الأمر أيضا عند هذا الحد ، بل سخر ما يجمعه من ضرائب في تزين المدينة وبناء القصور والمنتزهات وإقامة الجسور فوق نهر الفرات لتصبح أجمل مدينة على ظهر الأرض قبل مقدم المسيح بألفي عام .

وزادت الثروة فأنتجت بابل ما تنتجه سائر بلاد العالم . ذلك أن من السنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدينة هو نفسه الذي ينذر بانحلالها وسقوطها . فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول. وهو يرقق أجسام الناس وطباعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغري أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء. وكأن ناموس الكون هو عدم الإكتمال. إن الذي يتدبر الأمر يخرج بفائدة تسمى عدم التمام، وذلك أن الغنى لايعني السعادة ، وأن الفقر لايعني التعاسة وسوء العاقبة .

وكان على الحدود الشرقية لهذة الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال تسمى قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم . فلم يمض على وفاة حمورابي إلا ثمان سنين حتي اجتاح هؤلاء حدود الدولة البابلية ، وعاثوا في أرضها فساداً يسلبون وينهبون.

وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو عرضة للإضطرابات العنصرية والفوضى السياسية ، الأمر الذي وقف حائلا دون أي تقدم يذكر في العلوم والفنون.

وهناك صورة واضحة في التاريخ من هذا الاضطراب ضمن رسائل تل العمارنة ، إذ يستغيث أهل بابل بمصر التي كانوا يؤدون إليها خراجا متواضعا بعد إنتصارات تحتمس الثالث ويتوسلون إليهم أن تمد مصر لهم يد العون حتى ينتصروا على الغزاة . بل وتضم رسائل تل العمارنة أيضا الجدل حول قيمة الهدايا التي يرسلونها إلى امنحوتب الثالث أو إلى أخناتون الذي أهملهم وانهمك في غير شؤون الحكم .

وأخرج الكاشيون من أرض بابل بعد أن حكموها ما يقرب من ستة قرون، اضطربت فيهم أحوال البلاد وتمزقت ، كما اضطربت أحوال مصر وتمزقت في عهد الهكسوس. ودام الاضطراب بعد خروجهم أربعمائة عام أخرى حكم بابل في أثنائها حكام خاملون ليس في أسمائهم الطويلة اسم واحد جدير بالذكر. ودام عهدهم حتى قامت دولة أشور في الشمال فأخضعت بابل لملوك نينوى . وماهي إلا فترة من الزمن حتى ضعف الحكم الأشورى وورثه بختنصر الذي أذاق اليهود الأمرين في فلسطين كما جاء على لسان القرآن الكريم بسورة الإسراء.

وكان بختنصر يسميه كتاب دانيال بالرجل الوغد حقدا عليه وانتقاما منه؟ وفي وسع المرء أن يستشف من خطبة بختنصر لمردك إله بابل صفات الملك الشرقي وأخلاقه . يقول بختنصر « إني أحب طلعتك السامية كما أحب حياتي الثمينة ، وإني لم أختر لنفسي بيتا في المواطن كلها الواقعة خارج المدينة ، ليت البيت الذي شدته يدوم إلى الأبد بأمرك الأله الرحيم ، ولعلي أشبع ببهائه وجماله وأبلغ فيه الشيخوخة ، ويكثر ولدي وتأتي إلي فيه الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بني الإنسان أجمعين.

وعاش هذا الملك وعمر كثيرا ، فلم ينافسه في إمبراطورية بابل الا حمورابي. فهو أعظم ملك وأعظم محارب وأعظم من شيد وأقام على الرغم من كونه أميا .

ولقد وصف هيرودت مدينة بابل بعد قرن ونصف من الزمان حين زارها بقوله « مقامة في سهل فسيح، يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلا ويبلغ عرضه حدا تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياد أن تجري في أعلاه ، ويضم مساحة تقرب من مائتي ميل مربع . وكان يجري في وسط المدينة نهر الفرات يحف بشاطئيه النخيل وتنتقل فيه المتاجر رائحة غادية بلا انقطاع . ويصل شطريها جسر جميل. وكانت المباني الكبيرة كلها تقريبا من الآجر ، وذلك لندرة الحجر في أرض الجزيرة ، ولكن هذا الآجر كان يغطى بصور الحيوان أوغيره من الصور البارزة اللامعة».

كانت بابل مدينة يميزها أن أول ماتشاهده عند دخولها صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات جدرانه من القرميد المنقوش البراق ، ويبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدم . وأغلب الظن أن هذا الصرح كان برج بابل الذي ورد ذكره في القصص العبري .

ومن أسفل تمتد المدينة نفسها من حوله، يخترقها عدد قليل من الطرق الواسعة النيرة وكثير من الشوارع الضيقة الملتوية التي كانت بلا ريب تعج بالأسواق والحركة التجارية . وكان هناك طريق للألهة بين الهياكل تستطيع أن تسير فيه حافية القدمين . وملئت التماثيل البلد حتى وصل عدد التماثيل في أحد شوارع بابل إلى ستمائة أسد.وكان قصر بختنصر على احدى ربى بابل وفي مرمى العين حدائق بابل المعلقة، والتي كان يعدها اليونان احدى عجائب الدنيا السبع. وسبب إنشاء هذه الحدائق أن بختنصر كان قد تزوج من ابنة سياخر وكانت لم تعتد جو بابل الحار، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها فأنشاء لها بختنصر تلك الحدائق العجيبة . ومن ظريف ماترويه قصص التاريخ انه إلى جوار تلك الحدائق كان هناك ممر يرتفع عن الأرض بمقدار خمس وسبعين قدما تسير فيه نساء القصر بلا حجاب ، فيكن آمنات من أعين الرقباء.

كانت تلك بابل حاضرة الدنيا وكان ذلك بختنصر الملك العادل الذي ورد ذكره على أرجح الأقوال في قوله تعالى « فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً

لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال اليار وكان وعداً مفعولا» فسماهم القرآن بقوله عباداً لنا ، وذاك دليل على قسطه وصلاحه .

هكذا تنتقل الريادة من بلاد سومر إلى بابل ومنها إلى آشور ، ونلاحظ أثناء الحكم البابلي أن التعامل مع مصر كان من باب طلب الحماية والرعاية والدعم فهل سبقت حضارة مابين النهريين ونعني بذلك سومر وبابل وآشور الحضارة الفرعونية؟ هذا ما سنتعرض لمناقشته تفصيلا بعد التعرض لحضارة مصر وأهلها .

الزراعة والري في دولة بابل

كان الأثرياء في بابل شئنهم شأن الأثرياء في أي مكان ، لايشغلهم أمر الزراعة والفلاحة والري ، ويقضون أوقاتهم في صيد الأسود والتدرب على فنون الحرب. وكان من يقوم بأعمال الفلاحة الرقيق والمستأجرون، وتنقل لنا كتب التاريخ إستخدام المحراث البابلي، الذي تجره الثيران. يشبه في ذلك محراث أهل سومر.

ولم يكن أهل بابل يتركون الماء يفيض على الأرض كما كان يتركه أهل مصر ، بل كانت كل مزرعة تحميها من الفيضان جسور من التراب ، لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم . وكان الماء الزائد على حاجة الأرض ينصرف إلى شبكة من المصارف أو يخزن في خزانات لها فتحات يخرج منها إلى الحقول وقت الحاجة أو يرفع فوق الحوجز بشواديف ، وقد امتاز عهد بختنصر بحفر عدد كبير من قنوات الري وتخزين الزائد من الماء في خزان كبير يبلغ محيطه مائة وأربعين ميلا ، تخرج منه قنوات تروي مساحات شاسعة من الأرض. ولاتزال بقايا تلك القنوات في أرض الجزيرة حتى اليوم .

وكانت أرض بابل تنتج وبوفرة الكرم والزيتون ، المحصول الذي حقق لهم التميز وانتقل بعد ذلك إلى بلاد اليونان ، هذا فضلا عن التمر الذي ينمو هناك وبكثرة.

وكان أهل بابل ينسجون القطن والصوف ، وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أثمن السلع التي تصدرها بابل إلى خارج البلاد. وتذكر السجلات البابلية أن أول إستخدام للحصان كان عام ٢١٠٠ ق.م وكان اسم الحصان لم يعرف بعد بل كانوا يسمونه الحمار القادم من الشرق. ويظهر أنه جاء من هضاب آسية الوسطى وأنه غزا بابل مع الكاشيين كما وصل إلى مصر مع الهكسوس. ولما استخدمت هذه الوسيلة في الحمل والإنتقال إنتشرت التجارة وامتدت من داخل البلاد إلى خارجها.

وساهم أيضا في انتشار التجارة وتعبيد الطرق وتمهيدها ، يقول بختنصر: لقد جعلت من الممرات الوعرة غير المطروقة طرقاً ممهدة صالحة. وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحوانيتها غلات نصف العالم المعروف ، فكانت تأتيها من الهند مارة بكابول وهيرات ، ومن مصر وفلسطين ، ومن آسية الصغرى عن طريق صور وصيدا ، وكان لهذه التجارة أثر كبير على عظمة مدينة بابل فأضحت في أيام بختنصر سوقا عظيما يضرب إليه أكباد الأبل.

النظام المالي

لم تعرف بابل حتى ذلك التاريخ سك النقود ولا المصارف ، بل كان تعاملها حتى نهاية أيام بختنصر بنظام مقايضة السلع. إلا أن نظام الإقتراض كان سائداً وكانت تقوم به بعض العائلات الثرية ، وكان الكهنة أيضا يقرضون وأخص ماكانوا يقرضون في أغراض الزراعة والمحاصيل .

لقد كانت حضارة البابليين حضارة تجارية بجوهرها ، وأكثر ما وصل إلينا من وثائقهم ذو صبغة تجارية - تتصل بالبيوع والقروض والعقود والمشاركة والسمسرة والتبادل والوصايا والإتفاقات وما إليها ونجد في هذه الألواح شواهد كثيرة تنطق بما كان عليه القوم من ثراء عظيم وبما كان يسري في نفوسهم من روح مادية إستطاعت أن تنقلب إلى الضد .

كانت عقود العبيد علامة فارقة ، فقد كانت أسعارهم تتراوح مابين العشرين والخمسين ريالا وللمرأة مابين الخمسين والمائة ريال ، وكان من حق

السيد أن يعير أويرهن عبده إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وقد كان من حق العبد أن يشتري حريته إذا ملك لذلك المال ، وكان من حق سيده أن يشركه في تجارته. الأمر الذي كان سيوفر للكثير من العبيد تحرير أنفسهم ، لكن الغالبية العظمى من العبيد مالت إلى الخنوع والاستسلام للأمر الواقع وباتت لا تطمح في التحرر. وتفسير ذلك أن نفوسها جبلت على الإسترقاق واستلذت الإستعباد. وليس شرطاً لمن يحمل تلك النفسية أن يكون عبداً تم شراءه بالمال ، بل إن هناك العديد من الأحرار يملكون نفسية العبيد .

لقد كان من الممكن تقليل نسبة العبيد داخل المجتمع البابلي ، لكن الخوف من الغد هو الذي جعل طبقة العبيد كما هي إن لم تكن إزدادت إتساعاً .

القانون

المجتمعات التي يكون فيها الغلبة لرأس المال قليلا ما تفكر في المساواة والحرية والديمقراطية ، فالمجتمع قائم على وجود طبقة تكدح وهي طبقة العبيد وطبقة تجني الثمار وهي طبقة الاقطاعيين والكهنة .

قام المجتمع على أن يورث الملك الحكم لمن يختار من أبنائه ، وبالتالي كان يعد كل واحد منهم نفسه لأخذ مكان أخيه ، وكان على استعداد تام – وقد حدث بالفعل – أن يشن الأخ حرباً على أخيه من أجل إخضاعه.

وقد كان كل موظف اداري– بل والملك نفسه – يعترف بسلطان كتاب القانون العظيم الذي تحدد من عهد حمورابي ، وقد ظل هذا القانون محتفظا بجوهره طيلة خمسة عشر قرناً .

لقد كانت القوانين قبل حموارب تقوم على مبدأ العين بالعين والسن بالسن ، فلما جاء حمورابي حاول أن يغير هذه القوانين إلى غرامات مالية . بل كانت قبل حمورابي قوانين تثير الضحك ، فإن زنت المرأة مثلا ألقوا بها في نهر الفرات فإن نجت فهي بريئة وتباركها الألهة وإن لم تنجوا فهي آثمة وتلعنها الملائكة .

وكان قانون حمورابي يفرق بين سب العبد لعبد مثله وبين سب العبد لسيده ، كان يغرم في الثانية سبعة أضعاف الأولى . وعلى الرغم من محاولة قانون حمورابي من تجنب التغليظ في العقوبة واستبدالها بالغرامات ، إلا أننا وجدنا عقوبة القتل في العديد من الجرائم مثل هتك العرض والرشوة وغيرها ، ولم نجد في داخل بابل مهنة المحماة ، فإذا اتهم رجل رجلا آخر يستحق عقوبة الإعدام ولم تثبت عليه أعدم هو .

أما إذا اتهمت الدولة أحد رجالاتها ولم تثبت عليه عوضته الدولة عن فقد سمعته وقامت بالإعتذار إليه . في أي زمان هذا ! في أي وقت هذا ! في زمن الدولةالبابلية .

آلهة بابل

لم يكن للملك أن يجلس على كرسيه الا بعد مباركة إله المدينة ، وبذا فقد كانت السلطة الإلهية وسلطة القانون السلطتان اللتان تقفان حائلا دون سلطة الملك. ولم يكن الملك يعد ملكاً بحق في أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية، واخترق شوارع المدينة ممسكاً بصورة الأله مردك . وكان الملك في هذه الإحتفالات يلبس زي الكاهن ، وكان هذا رمزاً إلى إتحاد الدين والدولة .

ومع مرور الزمن جيلا بعد جيل غدا الكهنة أصحاب ثروة عظيمة ، فالملوك على تعاقبهم يدفعون إليهم ، سواء كان ذلك من أموال الغنائم أم كان ذلك بقصد المغفرة والتودد إليهم. كانت خزائن الهياكل مليئة بالحب والدقيق والفاكهة ، وكان في كثير من الأحيان ما يحول الكهنة هذه الثروة العينية إلى ثروة مستثمرة.

ولما توفر المال في أيدي الكهنة أصبح الكهنة من كبار تجار مدينة بابل، بل وأصبحوا من المقرضين في المدينة ، وكانوا يقدمون القرض للفقراء بشروط أسهل. بل وفي بعض الأحيان بدون أي فائدة فيما خص الفقراء والمساكين.

أما آلهة بابل فقد وصلت في القرن التاسع قبل اليلاد – كما تقول المصادر– إلى خمساً وستين ألف ، وذلك لأن كل مدينة كان لها أن تتخذ لها إلهاً خاصاً بها بغرض الحماية ، ووصل الأمر في بعض الأحيان أن يكون للفرد إله.

وكانت الألهة الكبرى من بين تلك الخمس وستين ألف مردك وأشتار ، يوجهون إليهم أحر صلواتهم ودعائهم. ومردك هو إله السومريين كما تقدم معنا ، لكن أهمية أشتار «وهي استارثي عند اليونانيين وعشتورت عند اليهود» لاتكمن في أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين ، وعلى أنها النموذج الذي صاغ عليه اليونان ألهتهم أفرديتي والرومان فينوس ، بل لأنها تجمع بين أكثر من نقيض ، فهي ليست إلهة جمال الجسم والحب وحسب ، بل كانت فوق ذلك الألهة الرحيمة التي تعطف على الأمومة ، والمسئولة عن إخصاب الأرض ، والعنصر الخلاب في كل مكان .

ويستحيل علينا إذا نظرنا إلى صفات أشتار ووظائفها أن نجد أي تناسق على الإطلاق ، فقد كانت مثلا إلهة الحرب والحب وإلهة الأمهات والعاهرات وكانت تسمي نفسها المحظية المحظوظة ، وكانت تصور أحيانا في صورة إلهة ملتحية تجمع بين صفات الذكران والاناث ، وأحياناً في صورة امرأة عارية تقدم ثدييها للرضاعة.

وأتخذ البابليون هذه الألهة كشخصيات ينسجون حولها الأساطير، من هذه الأساطير أسطورة بدء الخليقة وأسطورة عودة الحياة إلى الأرض. نبدء بأولاها ، تقول الأسطورة أنه في البدء لم يكن هناك أرض ولا سماء بل كان هناك عماء ، ثم جاء أبو المحيط وهوأبو الأشياء جميعا واتحد مع تيمات العماء، وظلت تنمو تيمات العماء إلى أن أرادت أن تدمر كل شيئ فجاء مردك وقتلها جميعا بنفخة في جوفها ، ثم قام بتقسيمها إلى نصفين ، نصف رفعه إلى الأعلى فكانت السماء وقسم وضعه بالأسفل فكانت الأرض ، ثم خلط مردك دمه بالأرض فكان خلق الإنسان الذي ما خلق إلا لخدمة الألهة .

أما الأسطورة الثانية فتقول أن أشتار كانت تتخذ تموز أخا أصغر لها، وفي بعض الروايات حبيباً ومع مرور الوقت أحبته اشتار وأرادت منه زوجاً لها وبينما هم كذلك إذ جاء خنزير بري وأرداه قتيلاً ، ولم تهنأ اشتار بعريسها

الموعود ، فقد ذهب إلى العالم السفلي والذي يدعى أرالو، وكانت أختها التي تغار منها وتحسدها ارشكجال هي المسؤولة عن هذا العالم . وعزمت اشتار أمرها على أن تنزل إلى أرالو لتعيد الحياة إلى تموز وذلك بأن تغسل جروحه في مياه إحدى العيون الشافية. وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم في جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها في الدخول.

وعاملها الخازن بمقتض القرار القديم ، وهو بألا يدخل أرالو الا العراة . وبهذا فإن على اشتار أن تخلع من حليها وملابسها عند كل باب تجتازه . وبينما كانت اشتار داخل الجحيم تحاول إنقاذ حبيبها تموز ، شعرت الأرض أنها فقدت ما كان يوحى به إليها وأشتار على ظهرها ، فنسيت جميع فنون وطرائق الحب. فلم يعد النبت يلقح النبت ، وذبلت الخضرة ، ولم تشعر الحيوانات بحرارة، وامتنع الرجال عن معاشرة النساء. وأخذ السكان يتناقصون ، ثم نقصت القرابين التي كانت تقدم للآلهة ، فارتاعت الألهة وأمرت أرشكجال أن تطلق سراح أختها اشتار ، وتنصاع ارشكجال لأوامر الألهة فتطلق سراحها ، لكنها تأبى أن تغادر المكان وتعود إلى الأرض دون حبيبها تموز ، فهي لم تنزل إلى الجحيم إلا من أجله ، فتجاب أشتار إلى طلبها وتغادر الأبواب السبعة متجهة نحو الأرض. فتخضر الأرض ويعود النسل ويدب الحب في أرجاء المعمورة.

تلك هي الأسطورة الثانية ، ولابد هنا من الإشارة إلى أن البابليون كانوا يؤمنون إيماناً جازماً بكل تلك الأساطير ، فهي بالنسبة إليهم عقيدة لا يتسلل إليها الشك ولا يكتنفها الريب.

عقيدة الخلود عند البابليين

كان البابليون قديما لا يعتقدون في ثواب الجنة ولكنهم كانوا يعتقدون في الخلود ، وكان فكر البابليين عن الحياة الآخرة أشبه ما يكون بفكر اليونان ، فهم قديسون وآنذال وفيهم عباقرة وبلهاء ، يذهبون كلهم في مكان مظلم في جوف الأرض ولايرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم، وكانت هناك جنة ولكنها اختصت بالألهة فقط ، أما أرالو التي يهبط جميع الناس إليها فكانت دار العقاب في معظم

الأحوال. من هنا نرى أن الفكر عن الخلود عند البابليين فكرا مصريا يونانيا، فهو يؤمن بحياة أخرى بعد الموت بدليل أنهم كانوا يدفنون مع الميت طعامه وشرابه وملابسه الداخلية ، وإذا كانت امرأة يضعون معها عطورها وحليها. لكن البابلي على الرغم من عقيدته تلك لايؤمن بحياة سماوية وجنة عرضها السموات والأرض.وكان هذا الأمر سائداً أيضا عند الفراعنة فقد كانوا يؤمنون بالبعث بعد الممات ، لذا احتوت مقابرهم على الذهب والحلى ، الذي غدى بعد، ذلك مطمعاً للعديد من الصوص وقطاع الطرق .

الخرافات عند البابليين

كان يكفي للبابلي أن يرفع صورة لأحد الألهة ، مردك مثلا ، حتى تقيه من الشياطين. وكانت أكثر الكتابات البابلية التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال هي الكتابات المحتويه على صيغ سحرية لطرد الشياطين وإتقاء أذاهم. ومن الألواح التي وجدت – كما يقول ديورانت – كتب التنجيم . احتوت تلك الكتب على العديد من الغرائب منها ما يتعلق بتفسير الإحلام ومنها ما يتعلق بالتنبؤ بالغيب وربط ذلك ببعض أجزاء الحيوانات ، فقد كانت من أساليب التنبؤ الشائعة عند البابليين مراقبة كبد الحيوان. فما كان لملك بابلي أن يشن حرباً دون اللجؤ إلى عاف أو كاهن. وبذلك نستطيع القول أنه ليس هناك حضارة أغنى في الخرافات من الحضارة البابلية . فكل حالة من حالات الوفاة أو الولادة كان لها عند الشعب تأويل غير منطقي ، وكثيرا ما كان لها تفسير رسمي وديني يصاغ في عبارات سحرية أو خارجة عن السنن الطبيعية ، وكان في كل حركة من حركات النهرين ، وكل منظر من مناظر الهجوم ، وكل حلم ، وكل عمل غير مألوف يأتيه إنسان أو حيوان ، شاهد يكشف عن المستقبل البابلي. فمصيرالملك يمكن التنبؤ به بملاحظة حركات كلب. وعلى مثل هذه الشاكلة كانت خرافات البابليين.

الدعارة المقدسة

تبدأ هذه القصة بكلمة لهيرودت قال فيها « ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها ، وأن تضاجع غريباً» ومنهن كثيرات

يرتفعن عن الإختلاط بسائر النساء لكبريائهن الناشئ من ثرائهن، وهؤلاء يأتين في عربات مقفلة ويجلسن في الهيكل ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن في هيكل الزهرة وعلى رؤوسهن تيجان من الحبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتي لا ينقطع دخولهن وخروجهن . وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة في كل الجهات. ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء ممن يرضون. فإذا أرادت البركة كان عليها الا تعود إلى منزلها حتى يلقى أحد الغرباء قطعة من الفضة في حجرها ويضاجعها في خارج المعبد . وعلى من يلقي القطعة الفضية أن يقول : أضرع إلى الألهة ميلتا أن ترعاك ، ذلك بإن الأشوريين يطلقون على الزهرة اسم ميلتا. ومهما يكن صغر القطعة الفضية فإن المرأة لايجوز لها أن ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها في نظرهم من قداسة. وتسير المرأة وراء أول رجل يلقيها إليها، وليس من حقها أن ترفضه أيا كان فإذا ما ضاجعته وتحللت مما عليها من واجب للآلهة ، عادت إلى منزلها.

وهنا يدرك القارئ الكريم ما قدمه الأسلام للمرأة ولأنسانيتها ، فهى ليست متاعا ولا كلأ مباحا لكل من يراها.

ولم تكن النساء عاهرات بطبيعة الحال. لكن عاهرات من أصناف مختلفة كن يسكن في أرباض الهيكل ويمارسن حرفتهن ، ومنهن من كن يجمعن من حرفتهن الأموال الطائلة ، وكانت عاهرات الهياكل كثيرات في غرب أسيا ، نجدهن عند بني إسرائيل وفي فريجيا وفينيقية وسوريا وغيرها من الأقطار . وكانت البنات في ليديا وقبرص يحصلن على بائنة زواجهن بهذه الطريقة نفسها . وظلت الدعارة المقدسة عادة متبعة في بلاد بابل حتى ألغاها قسطنطين عام ٣٢٥ ق.م ، فنشأ العهر المدني في حانات الشراب عند بائعات الهوى .

زيجات وزيجات عند البابليين

كان يسمح للبابليين في العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج، ولم يكن يضن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالا غير مرخص به

«بزيجات تجريبية» تنتهي ماشاء أحد الطرفين أن ينهيها ، ولكن المرأة في هذه الحالات كان من واجبها أن تلبس زيتونة - كما أورد ديورانت - من حجر أو طين ، دليلا على أنها محظية.

وكان الأباء هم الذين يهيئون الزواج الشرعي لأبنائهم ، وكان الطرفان يقرانه بتبادل الهدايا ، ولعل هذه العادات كانت أثرا من نظام قديم هو نظام الزواج بالبيع والشراء. فكان الخطيب يتقدم إلى والد العروس بهدية قيمة ، لكن الوالد كان ينتظر منه أن يهب ابنته بائنة (صداق) أعظم قدرا من الهدية ، حتى لقد كان يصعب على المرء أن يقول أيهما المشتري المرأة أم الرجل .

على أن بعض الزيجات كانت بيعا صريحا ، ومن ذلك أن حصل شمشتريز على عشرة شواقل ثمنا لابنته. بل إن من كانت له بنات في سن الزواج كان يأتي بهن مرة كل عام في مكان يتجمع فيه عدد كبير من الرجال ، ويدلل عليهن ثم يبيعهن واحدة تلو الأخرى .

وأيا كان نوع الزيجة فلم يكن مسموحا بالخيانة الزوجية بعد الزواج. كانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على الإستمساك بالزوج بعده ، وكان القانون ينص على إغراق الزوج الزاني ومن زنت معه. أما إن زنت الزوجة ورفض الزوج إغراقها في النهر كان له أن يستبدل تلك العقوبة بعقوبة أخرى هي أن يخرجها عارية إلى الشارع الا من ملابس تستر أجزاء بسيطة جدا من جسدها.

وكان للرجل أن يطلق زوجته بعد أن يرد لها بائنتها وقوله «لست زوجتي». أما إن قالت هي له لست زوجي وجب قتلها غرقا.

وإذا لم تكن سيدة حريصة على أداء واجبها ، بل دوارة غير مستقلة في بيتها ، مهملة لشئون منزلها ، مستخفة بأطفالها وجب أن تلقى في الماء.

وبناء على ما تقدم فإن من وسعنا أن نقول أن مركز المرأة في بابل كان أقل من مركزها في مصر وروما ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن بأقل من مركزها عند اليونانيين أو عند الأوروبيين في العصور الوسطى .

لذلك فإننا نجد بعض العذر للمصريين إذا وصفوا البابليين بأنهم قوم لم يصلوا لدرجة كبيرة من الحضارة. والحق أننا لانجد عندهم ما تشهد به أداب المصريين وفنونهم من رقة أخلاقهم ومشاعرهم. ولما أن وصلت هذه الرقة إلى البابليين وصلت تحت ستار الإنحلال المخنث ، فكان الشبان يصبغون شعرهم ويقصونه ، ويعطرون أجسامهم ويحمرون خدودهم ، ويزينون أنفسهم بالعقود والأساور والأقراط والقلائد . ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على شوكتهم تحرروا أيضا من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات إلى جميع الأوساط ، وأضحت نساء الأسر الكبيرة يرين أن إظهار مفاتننهن كي يستمتع بها أكبر عدد من الناس مجاملة عادية. وجاز لنا أن نصدق قول هيرودت «كل رجل من عامة الشعب إذا عضه الفقر عرض بناته للدعارة طلبا للمال» وكتب كوتنس كورتيس عام ٤٢ ب.م يقول « ليس ثمة أغرب من أخلاق هذه المدينة . فلسنا نجد في أي مكان آخر ما نجده فيها من تهيئة كل شيء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية » . لقد فسدت الأخلاق حين أثرت الهياكل على المجتمع ، وانهمك أهل بابل في ملذاتهم فرضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيين والآشوريين والفرس واليونان.

وصدق من قال :

إنما لأمم الأخلاق مابقيــــت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الأدب عند البابليين

اللغة البابلية لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكد ، وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) حتى استلزم هذا الإختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد في النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية الفصحى والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل هذا نرى نحو ربع الألواح التي عثر عليها المنقبون في

المكتبة الملكية بنينوى معاجم في اللغات السومرية والبابلية والأشورية وكتبا في نحوها وصرفها. وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت في عهد موغل في القدم وهو عهد سرجون ملك أكد .

واللغة البابلية لا تحتوي على أحرف هجائية بل هي عبارة عن مقاطع يرمزون لها بنحو ثلاثمائة علامة. وكان البابليون كالفينيقين ، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية ، لذا لم يضيعوا كثيرا من طينهم في كتابة الأدب . وعلى الرغم من قلة الانتاج الأدبي ، إلا أننا نرى أن من أروع الأثار التي خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحا محطما وجدت في مكتبة آشور بنيبال وهي الآن في المتحف البريطاني ملحمة جلجميش ذائعة الصيت .

ملحمة جلجميش

أنقل هاهنا عن ديورانت تلك الملحمة الأسطورية ، والتي إن دلت فإنما تدل على سعة الخيال والقدرة الفائقة على التصوير. وتذكرني تلك القصة بالعديد من الروايت الأجنبية التي تحلق بقارئها في سماء الخيال وليس لها أدنى صلة بالواقع الذي نعيشه. تحتوي الملحمة على العديد من القصص ، منها قصة الطوفان ، وكان جلجميش حاكما أسطوريا لأروك وهو من نسل شمش - نيشتين الذي نجا من الطوفان ولم يمت قط . ويدخل جلجميش في القصة في صورة مركبة من صورتي أونيس وشمشون فهو طويل القامة ضخم الجسم مفتول العضلات جرئ مقدام جميل يفتن الناس بجماله، ثلثاه إله وثلثه أدمي ، لايماثله أحد في صورة جسمه ، يرى جميع الأشياء ولو في أطراف العالم ، واطلع على جميع الأسرار، وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان، ثم كتب على لوح حجري كل ماقام به من أعمال.

ثم يحكي ديورانت في كتابه العظيم قصة الحضارة أن هذه الشخصية الأسطورية ، والتي اخترقت جميع الحجب واطلعت على العلم اللدني وما خبئته الأسرار تسببت في ضجر العديد من أبناء بابل، حتى أن الأمهات بدأن في شكايته

أنه لايترك فتاة دون أن يضاجعها . وذهبت الأمهات إلى أشتار - المسؤولة عن الحب والنسل كما تقدم- ورجوها أن تهبهم ولدا سماويا ينافس جلجميش ويقف أمامه ، فأمرت أشتار أرورو أن تعجن طينا وتبصق عليه وتصور منها انجيدو. وهو رجل له بأس الخنزير ولبدة الأسد وسرعة الطير ولايعبأ انجيدو بصحبة الأدميين ، بل يعتزلهم ويعيش مع الحيوانات « يرعى الأعشاب مع الظباء ويلعب مع مخلوقات البحار ويروي ظمأه مع وحوش الحقول ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه لكنه يعجز فيذهب الصياد إلى جلجميش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع انجيدو في شباكها وشراك حبها ، فيقول له جلجميش اذهب وخذ لك كاهنة . ويذهب الصياد ويأخذ الكاهنة التي تحكي لنا الأسطورة أنه أمرها بالكشف عن مفاتنها . تقول الأسطورة على لسان الصياد» هاهو ذا أيتها المرأة فأسفري عن مفاتنك ، حتى ينال كفايته منك، ولاتحجمي ، بل أجيبيه إلى مايشتهي ، وافتحي ثوبك حتى يرقد عليك ، واثيري شهوته كما يفعل النساء «

ويبقى انجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال ، يعب فيها من السعادة ، حتى إذا مل هذه اللذة استيقظ فرأى أصدقائه من الحيوانات قد فارقته. فيغشى عليه من شدة الحزن فتزجره الكاهنة وتقول له «أنت يامن بلغت عظمة الألهة كيف يطيب لك العيش مع وحوش الحقول « تعال أخذك إلى أروك حيث يعيش جلجميش الذي لايدانيه أحد في جبروته . ووقع انجيدو في شباك الكاهنة فيسير ورائها، ويقاتل جلجميش ، فينتصر عليه جلجميش بقوته في أول الأمر ، ثم يعطفه في نهاية الأمر ، ويصبح الأثنين صديقين يدافعان عن أروك من عيلام .

ويعودان منتصران بعد أن يقوما بأجل الأعمال « وخلع جلجميش عدته الحربية ، ولبس ثيابه البيض ، وزين نفسه بالشارة الملكية ولبس التاج» . وسرعان ما تقع اشتار الشرهة في حبه وترنو إليه بعينيها الكبيرتين وتقول: «تعال ياجلجميش ، وكن لي زوجا وقدم لي حبك هدية ، وستكون أنت زوجي ، وأكون زوجتك ، وسأضعك في عربة من اللازورد والذهب ، لها دواليب ذهبية

مطعمة بالعقيق ، وستجرها لك آساد عظيمة ، وستدخل بيتنا من حولك البخور المنطلق من خشب السدر وستحتضن قدميك كل الأراضي المجاورة للبحر ، وسيخر الملوك كلهم سجدا لك ، ويأتون بثمار الجبال والسهول جزية يؤدونها لك.

ويرفض جلجميش طلبها ويذكرها بما جنته على عشاقها الكثيرين ومنهم تموز ، ومنهم باشق ، وحصان وبستاني ، ويناديها قائلا «إنك تحبينني الأن ، ولكنك ستضربينني بعد كما ضربت هؤلاء جميعا» وتطلب اشتار إلى أنو الإله الأعظم أن يخلق ريما مفترسا يقتل جلجميش . ويرفض أنو طلبها ويزجرها بقوله «الا تستطيعن السكوت وقد ذكرك جلجميش بغدرك وفضائحك. وتنذره بأنها سوف تعطل كل ما في الكون من غرائز الحب والشهوة ، حتى يهلك كل شيئ حي . ويخضع أنو لإرادتها ويخلق الريم المفترس ، لكن جلجميش يتغلب على هذا الوحش بمعاونة انجيدو . فتغضب أشتار وتلقي بانجيدو في وجه الريم المفترس فيصاب بداء عضال ، ويحزن جلجميش ويبكي صديقه الذي كان أحب إليه من النساء . ويفكر في الموت وأسرار الخلود وهل ثمة طريقة للهروب من الموت. إن رجلا واحدا فقط قد نجا منه هو شمش - نيشتين فهو إذن عنده سر الخلود بعد نجاته من الطوفان. ويقرر جلجميش أن يذهب للبحث عنه ولو اضطره هذا الأمر للطواف في العالم كله. فيبدأ رحلته ويجتاز الطريق الموصل إليه جبلا يحرسه ماردان جباران يلمس رأساهما قبة السماء ويصل ثدياهما إلى الجحيم . ولكنهما يأذنان له بالمرور ، ويسير اثنى عشر ميلا في نفق مظلم ، ويخرج بعده إلى شاطئ بحر عظيم ، ويرى من ورائه عرش سيبتو العذراء إلهة البحار. فيناديها كي تعينه في عبور الماء ويقول« إذا لم أفلح في هذا فسوف ألقي بنفسي على الأرض وألقى حتفي « . وتشفق عليه سيبتو وتساعده أن يجتاز البحر في أربعين يوما كلها عواصف وزعازع حتى يصل إلى الجزيرة السعيدة التي يسكن فيها شمش - نيشتين المخلد أبد الدهر. ويتوسل إليه جلجميش أن يفضي إليه بأسرار الخلود . فيجيبه شمش بأن يسرد عليه قصة الطوفان وكيف ندمت الألهة

على ما سببته في ثورة جنونها من دمار ، وكيف أبقت عليه هو وزوجته فخلدتهما لأنهما أنجيا النوع البشري من الفناء، ويقدم إلى جلجميش نبته تجدد ثمارها شباب من يأكلها . ويبدأ جلجميش رحلته إلى بلده مغتبطا سعيدا ولكنه يقف في طريقه ليستحم ، وبينما هو كذلك إذ تخرج إليه أفعى وتسرق النبته.

ويصل جلجميش إلى أروك يائسا حزينا ويطوف بالهياكل هيكلا بعد هيكل يصلي ويدعو الألهة أن ترد الحياة إلى انجيدو ولو لم تطل حياته إلا أنه يكلمه كلمة واحدة . ويظهر انجيدو ويسأله جلجميش عن حال الموتى ، فيرد عليه انجيدو «لا أستطيع أن اجيبك لاني لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتكما بما رأيت ، لمت من شدة الهول ولسقطت مغشيا عليك ، ولكن جلجميش يصر على طلب الحقيقة ويقول« سيقضي علي الرعب ويغشى علي ولكن خبرني عنه« ويصف له انجيدو أهوال الجحيم . وبهذه الصورة تختتم ملحمة جلجميش الناقصة .

الفن والعمارة البابلية

العصر البابلي عصرا ميزه أمران الأول التجارة والثاني الملذات والشهوات، وكلا الأمران لا يقيم فنا . ولكن على الرغم من ذلك كان للبابليين لمسات فنية وإن لم تكن تتمتع بالعمق الابداعي. فقطع القرميد التي طليت وصقلت بأعظم عناية ، والحجارة البراقة ،وأدوات البرونز الدقيقة الصنع ، والحديد والفضة والذهب والتطريز الجميل ، والسجاجيد الوثيرة والثياب ذات الصبغات الجميلة، والأقمشة المزركشة المعلقة على الجدران ، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسي، إن هذه المخلفات كلها لتخلع على الحضارة البابلية ثوبا قشيبا من الجمال والرونق وإن لم تخلع عليها كثيرا من القيمة والجلال . والحلي التي عثر عليها كثيرة ولكنها تنقصها الدقة الفنية التي نشاهدها في حلي المصريين الأقدمين ، وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعدن الأصفر أكثر مما تعرض الفن الجميل ، ويظن صانعوها أن من جمال الفن أن تصنع تماثيل كاملة من الذهب .

وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة - ناي وقيثارة وقانون ومزامير وأبواق وطبول وصنوج ودفوف ، وكان لهم فرق موسيقية ومغنون وعازفون . وكان التصوير بالألوان من الفنون الثانوية عند البابليين يستخدمونه في تزيين الجدران والتماثيل ولم يحاولوا أن يجعلوا من فنا مستقلا بذاته. ولانجد في قبور البابليين ما وجد في قبور المصريين من جدران ملونة ، كذلك لم يبرع البابليين في فن النحت كما قدم لنا فراعنة مصر من قبلهم بألف عام .

وليس في وسعنا الآن أن نحكم حكما عادلا على فن العمارة البابلي لأننا لا نكاد نجد شيئا من مخلفات هذا الفن يرتفع فوق الرمال أكثر من بضع

أقدام ، وليس بين آثارهم صور لعمائر منحوتة أو مرسومة ، يستدل منها بوضوح على أشكال القصور والهياكل وهندسة بنائها ، وكانت البيوت تبنى من الطين أو الآجر ، وكانت هذه المنازل خالية من النوافذ وتفتح أبوابها على صحن أو فناء داخلي. أما الهياكل فكانت قوم على قواعد في مستوى سقف البيوت التي كانت تلك الهياكل تسيطر على حياة أهلها. وكان الهيكل في الغالب بناء ضخما من القرميد مشيدا كالبيوت حول فناء تقام فيه معظم الحفلات الدينية. ويقوم إلى جوار المعبد برج عال يسمى بلغتهم زاجورات - أي المكان العالي - يتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض، وتتناقص كلما علت ، ويحيط بها سلم من خارجها ، وكانت تستخدم إما في الأغراض الدينية - فقد كان مزارا عاليا للأله صاحب الهيكل - وإما في الأغراض الفلكية بأن تكون مرصدا للكهنة ترقب منه الكواكب .

ولم يكن في هذه المباني شيئ كثير من الذوق الفني، فقد كانت كلها كتلا ضخمة من خطوط مستقيمة لا تتطاول إلى شيء أكثر من مجد الضخامة، وقد نجد في بقاع متفرقة من آثار البابليين عقودا وأقواس وهي أشكال أخذت عن سومر واستخدمت في غير عناية.

وعلى كل الأحوال فقد كان القرميد العنصر المميز في العمارة البابلية ويستخدمونه في كسوة الجدران كنوع من أنواع الحماية من الشمس والمطر. ولهذا السبب أضحت صناعة الخزف أخص فنون الشرق الأدنى القديم . لكن فن العمارة البابلي ظل على الرغم من ذلك فنا ثقيلا خاليا من الجمال والأناقة قضت عليه المواد التي استخدمت فيه ألايرقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى. وما أسرع ماكانت الهياكل تقوم من الطين الذي حوله العمال إلى لبنات وملاط . ولكن هذه المباني لم تصمد كثيرا كما صمدت مباني المصريين القدماء فما هي الا خمسين عاما حتى سويت بالأرض واضحت ترابا لاعوج فيه ولا أمتا .

أشـــور

تحدثنا الروايات المتواترة كما يحدثنا سفر دانيال أن بختنصر بعد أن حكم زمنا طويلا ، حالفه فيه النصر والرخاء على الدوام ، وبعد أن جمل مدينته بما شقه فيها من طرق وماشاده من قصور ، وبعد أن بنى للألهة أربعة وخمسين هيكلا ، بعد أن فعل هذا كله انتابته نوبة غريبة من الجنون فظن نفسه حيوانا ومشى على أربع واقتتات بالكلأ ، ثم يختفي اسمه اربع سنين كاملة من التاريخ ومن سجلات بابل الحكومية . ثم يعود فيظهر لحظة قصيرة ثم ينتقل إلى الدار الأخرة في عام ٥٦٢ ق.م ولا تكاد تمضي على وفاته ثلاثون عاما حتى تتصدع امبراطوريته وتتمزق . وحكم بعده نابونيدس وجلس على العرش سبعة عشر عاما آثر فيها أعمال الحفر على مهام الحكم وصرف وقته وجهده في التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى وصرف وقته وجهده في التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى وصرف وقته وجهده في التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى وصرف وقته وجهده في التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى فاضطربت أحوال الجيش ، وانهمك رجال الأعمال في شئون المال العليا ، فنسوا حبهم لبلادهم ، وغفل الناس عن فنون الحرب لاشتغالهم بشئون التجارة وانغماسهم في الملذات. واغتصب الكهنة سلطان الملوك شيئا فشيئا وملأوا خزائنهم بالأموال التي أغرت الدول الأجنبية بغزو بلادهم وفتحها. ولما أن وقف قورش وجيوش الفرس النظامية على أبواب بابل رضيت الطائفة المعادية للكهنة من البابليين أن تفتح له الأبواب ، ورضيت بسيطرته المستنيرة . وحكم الفرس بابل قرنين من الزمان كانت خلالهما شطرا من أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت . ثم أقبل الاسكندر بجبروته وفتح المدينة دون أن يجد منها أي مقاومة ، وظل يشرب الخمر في قصر بختنصر حتى مات . ولم تستفيد البشرية من الحضارة البابلية ما استفادته من حضارة المصريين ، ولم يكن فيها

من التنوع والعمق مافي حضارة الهند ، كما لم يكن فيها من الدقة والنضوج مافي حضارة الصين . غير أن بابل هي التي أنشأت القصص الساحر الذي غذى جزء من القصص الديني في أوروبا .

في خضم تلك الأحداث ظهرت حضارة جديدة شمال بابل وعلى بعد ثلاثمائة ميل منها ، واضطر أهل البلاد التي نشأت فيهم هذه الحضارة أن يحيوا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبلية التي كانت لاتنفك تهددهم من جميع الجهات . ومالبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين واستولوا على المدن التي كانت مهدهم الأول في عيلام وسومر وأكد وبابل وتغلبوا على فينيقية ومصر ، وظلوا مائتي عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى .

وكان موقف سومر من بابل وموقف بابل من أشور كموقف كريت من بلاد اليونان وموقف بلاد اليونان من روما فقد أنشأت المدينة الأولى حضارة ،وتعهدتها الثانية وأتمتها حتى بلغت ذروتها وورثتها الثالثة وأضافت إليها من عندها ، وحمتها ، وأسلمتها وهي تحتضر هدية منها إلى البرابرة الظافرين الذين كانوا يحيطون بها . ذلك أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر في وسطها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية ، أو بالتوالد غير المحدود. وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة في البلاد الإستوائية تحاول أشجارها على الدوام أن تقضي على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده ولاتعترف قط بهزيمتها ، بل تظل قرونا طوالا صابرة تترقب حتى تتاح لها الفرصة لإستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر.

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدائن ترويها مياه نهر دجلة وروافده، وهي أشور الأن قلعة شرغات ، وأربلا وهي أربل الحالية ، والكلف وهي الأن نمرود ونينوى وقويونجك ، على الضفة الأخرى لمدينة موصل .

واسم أشور هو اسم أله تلك المنطقة كذلك اسم نينوى العاصمة الثانية لملكة أشور والتي كان يسكنها في فترات عزها ما يقرب من ثلاثمائة ألف ، تلك المدينة مأخوذ اسمها من اسم الإله نينا أشتار.

أما سكان تلك المنطقة سواء كانوا من سلالة الكرد أو القفقاس فقد أخذوا لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، لكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق في شيئ عن لغة أرض بابل وفنونها ، بيد أن ظروفهم الخاصة باعدت بينهم وبين النعيم المخنث الذي انحدر إليه البابليون ، ولذلك ظلوا طوال عهدهم شعبا محاربا مفتول العضلات ، ثابت الجنان ، غزير الشعر ، كث اللحية ، معتدل القامة يبدو رجاله في آثارهم عابسين . وتستطيع القول أنهم رجال دولة وليسوا رجال سمر وغناء.

وبينما كانت بلاد بابل تتخبط في ظلمات حكم الكاشيين ضم سلما نصر الأول دويلات المدن الشمالية تحت حكمه ، واتخذ الكلخ عاصمة له . على أن أول الأسماء العظيمة في تاريخ أشور هو اسم تغلث فلامصر الأول . كان هذا الملك صيادا ماهرا . فقد كان يصيد الأمم والحيوانات على السواء . ساق هذا الملك جيوشه في كل اتجاه فأخضع الحيثيين والأرمن وأربعين أمة غيرهما ، واستولى على بابل وأرهب مصر فأرسلت إليه الهدايا، وكان من بين ما أرسلته هدية نادرة – تمساح – فهدئت من روعه .

بنى الملك الجديد فلامصر الأول من خراج دولته الهياكل لألهة أشور. ولم يطل الأمر كثيرا فخرجت بابل على حكمه وهزمت جيوشه ومات فلامصر الأول كمدا مما رأى.

انتقل الحكم بعد ذلك إلى أشور ناصر بال ، الذي استولى على اثنى عشرة دولة وعاد من حروبه بمغانم كثيرة ومات في نهاية المطاف ميتة شريفة . وحمل الراية من بعده سلما نصر الثالث ، الذي أكمل تلك الفتوح حتى دمشق وقتل في معركة واحدة ستة عشر ألف من السوريين، وفرض الجزية على الفريق المغلوب ، ثم ماهي إلا لحظات حتى انقلب عليه ابنه , وحكمت أم الملك سمورامات ثلاث سنوات ، وكان حكمها هو الأساس لأسطورة سميراميس اليونانية ، التي تجعل من الحاكمة نصف إله ونصف ملكة . وجيش تغلث فلامصر الثالث جيوشا

عديدة ، فمد ملك أشور من جبال قفقاس إلى مصر. ولما مل من الحرب وجه همه إلى شئون الحكم فأثبت أنه إداري عظيم ، وشاد كثيرا من الهياكل والقصور ، وساس إمبراطوريته سياسة قوية حازمة ، وأسلم روحه وهو في فراشه.

ويستمر الأمر على هذا المنوال في تلك المملكة الناشئة ملك يعقب ملك ، حتى أتى إلى سدة الحكم أشور بانيبال - الذي يسميه اليونان سردنابالوس - فوصلت أشور من خلاله إلى ذروة مجدها . ويحكي لنا سجله التاريخي على لسانه أنه قال « لقد خربت من بلاد عيلام ما طوله مسيرة شهر وخمسة وعشرين يوماً ، وسقت من المغانم إلى أشور أبناء الملوك ، وأخوات الملوك وأعضاء الأسرة المالكة في عيلام كبيرهم وصغيرهم ، كما سقت منها كل من كان فيها من الولاة والحكام والأشراف والصناع وجميع أهلها الذكور والإناث كبارا كانوا أو صغارا ، وما كان فيها من خيل وبغال وحمير وضأن وماشية تفوق في كثرتها أسراب الجراد . وأخضعت في مدة شهر من الأيام بلاد عيلام بأجمعها وأخمدت في حقولها صوت الآدميين ، ووقع أقدام الضأن والماشية وصراخ الأفراح المنبعث من الأهلين وتركت هذه الحقول مرتعا للحمير والغزلان والحيوانات البرية على اختلاف أنواعها.

وجيء برأس ملك عيلام القتيل إلى أشور بانيبال وهو في وليمة مع زوجته في حديقة القصر ، فأمر بأن يرفع الرأس على عمود بين الضيوف ، وظل المرح والسرور يتغمد الحاضرين لهذا المنظر ، ثم أمر به بعد ذلك أن تعلق رأسه على باب نينوى ، وظل معلقا عليها حتى تعفنت وتلفت . أما دنانو القائد العيلامي فقد سلخ جلده حيا ، وذبح كما يذبح البعير ثم قطع جسده إلى أوصال ، ووزع كهدايا لأهل البلد تذكارا بهذا النصر المبين.

لم تعرف البشرية وحشية كتلك التي عرفتها على حكم الأشوريين بإستثناء اللهم المغول والتتار ، وإن كان هذا الأمر يقبل الأخذ والعطاء. وإن كان لابد من علامة مميزة لتلك الحقبة التاريخية فهي هذه الغلظة التي ماعرفها ولا سمع بها من يدب على الأرض.

على الجانب الأخر فقد بعث الملك في جميع أرجاء دولته يدعوا المثالين والمهندسين ليضعوا له رسوم الهياكل والقصور ويزينوها كما فعل بعض الحكام الرومان بعد أن استولت روما على بلاد اليونان ، وأمر عددا كبيرا من الكتبة أن يجمعوا وينسخوا كل ما خلفه السومريون والبابليون من آداب. ووضع مانسخوه وماجمعوه كله في مكتبته العظيمة في نينوى.

وإن كان لابد من التشبيه ، فإننا نشبه أشور بانيبال هذا بفردرك الأكبر الذي كان يفخر بملكاته الأدبية كما يفخر بإنتصاراته الحربية . ولقد وصفه ديودور الصقلي بالطاغية الفاسق الخنثى ، لكننا لا نجد مايؤيد هذا القول خاصة أن الناس كانوا قريبي عهد بالهمجية .

الحكم عند الأشوريين

إنه حكم المستبد المستنير ، فعلى الرغم من بشاعة المنظر ووحشية الأداء ولا أدمية الإنتصار الا أن الإستقرار عم ربوع البلاد . فقد قامت غرب آسيا حكما كفل لهذا الإقليم قسطا من النظام والرخاء ، ذلك أن حكومة أشور بانيبال التي كانت تضم تحت جناحيها بلاد أشور وبابل وأرمينية وميديا وفلسطين وسوريا وفينيقية وسومر وعيلام ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام إداري شهده البحر المتوسط . ولم يدان أشور فيه إلا حمورابي أو تحتمس الثالث .

وكانت هذه الامبراطورية تستمتع بقسط من الحرية ، فقد احتفظت مدنها الكبرى بحظ موفور من الحكم الذاتي المحلي ، كما احتفظت كل أمة فيها بدينها وقوانينها وحاكمها ، مادامت لا تتوانى عن أداء الجزية المفروضة عليها .

كان لهذا النظام في الحكم عيبا واحدا ، أنه يغري الأخرين في إقامة الثورات ومحاولة الإنسلاخ عن حكم الدولة الأشورية. وقد كانت من الحلول التي قدمها تغلث فلامصر للتغلب على هذا العيب أن نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى بعيدة يمتزجون فيها بسكان آخرين ، فيضعف ذلك من شوكتهم .

وبسبب هذا الأمر كان الجيش أقوى دعائم تلك الدولة ، لم يميزها النظام الإداري ولم يميزها الميراث الثقافي ولكن ميزها أداءها العسكري. وبالتالي

فقد برعت أشور في صناعة السلاح وتطوير مادة الحديد لإستخدامات أخرى لم يعهدها أحد قبلهم. فلقد ألبسوا الجنود حللا حديدية سابغة كحلل الفرسان في العصور الوسطى. وكان الرماة وحملة الرماح يلبسون على رؤوسهم خوذات من النحاس أو الحديد . وكانت أسلحتهم الرماح والسهام والسيوف والقصار والصوالج والهروات المنتفخة الرؤوس والمقاذيف والبلط الحربية . وأدخل بانيبال نظام استخدام الفرسان لمعاونة المركبات ، وكانت تلك الحيلة سببا في حسم العديد من

المعارك . وكانت أهم أدوات الحصار هي الكباش المسلحة ذات المقدمة الحديدية ، وكانت أحيانا تعلق في الحبال ثم يلقى بها إلى الوراء كي ما تزيد من سرعتها وبالتالي قوتها عند القذف . وكان ضمن مايستخدم في الحصار القذائف والمشاعل والغاز الملتهب والسلاسل.

وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم. بل كانوا يعطون على كل رأس مقطوعة مكافئة. أما الأشراف المغلوبون فكانوا يلقون شيئا من المعاملة الخاصة ، فكانت تصلم آذانهم وتجدع أنوفهم وتقطع أيديهم وأرجلهم أو يقذف بهم إلى الأرض من أبراج عالية. أو تقطع رؤوسهم أو تسلخ جلودهم وهم أحياء . ولم ينظر القوم إلى مايفعلون على أنه جريمة شنعاء، فهو السبيل الوحيد للحفاظ على الامبراطورية الأشورية ، ثم إن إرتفاع نسبة المواليد تجعلهم يشعرون وكأن ما أحد غاب عن مملكتهم.

وكان يعهد إلى الولاة بجمع الضرائب وتنظيم العمال المسخرين في الأعمال العامة ، كاأعمال الري التي لم يكن في الإمكان تركها للجهود الفردية. وكان للملك جواسيس ينقلون للملك أخبار الرعية . لقد كانت الحكومة الأشورية بقضها وقضيضها أداة حرب قبل كل شيء. ذلك أن الحرب كثيرا ماكانت أنفع من السلم فقد كانت تثبت النظام وتقوي روح الوطنية ، وتزيد سلطان الملوك، وتأتي بالغنائم الكثيرة لتغني بها العاصمة ، وبالعبيد لخدمتها. ومن ثم كان تاريخ الأشوريين يدور حول مدن تنهب ، وقرى وحقول تخرب.

وتحكي لنا كتب التاريخ أنه لما حاصر بانيبال مدينة بابل ودخلها بعد حصار طويل وجدوا جثث الأدميين قد تعفنت في الشوارع واجتمع حولها الكلاب والخنازير . تلك الدرجة من القسوة كانت سببا وبلا شك في إضعاف الممالك الشرقية، والتي منها كان ضعف الدولة ومنها أيضا تسلل البرابرة إلى عقر دار الأشوريين .

التجارة والصناعة عند الأشوريين

لايوجد إختلاف كبير في الحياة العامة بين بابل وأشور، وذلك لأنهما أبناء الشمال والجنوب لحضارة واحدة . غير أن أثرياء مدينة بابل كانوا في معظمهم تجاراً ، أما أثرياء أشور فكانوا في معظمهم زراعاً ، يملكون الضياع ويقومون عليها. وكانت الصناعات التي تعتمد عليها أهل المدن واحدة ، وكان للمملكتين نظام واحد للموازين والمكاييل والمقاييس تتبادل بمقتضاه البضائع ، وامتلأت نينوى وغيرها من الحواضر بالحرف والصناعات بفضل ما جلبه لها ملوكها من ثراء عظيم.

وكانت المعادن تستخرج بكثرة من أرض البلاد أو تستورد من خارجها، وفي عام ٧٠٠ ق.م أصبح الحديد بدل البرنز المعدن الأساسي في الصناعة والتسليح. كانت المعادن تصهر والزجاج يصنع والمنسوجات تصبغ والخزف يطلى ، وكانت البيوت تؤثث كما كانت تجهز وتؤثث في أوروبا قبل الانقلاب الصناعي. وكان الناس يتعاملون بالرصاص والنحاس والذهب والفضة. وقد جرى في ذلك العهد سك أول قطعة من الفضة بقيمة نصف شاقل.

النظام الاجتماعي عند الأشوريين

كانت أشور تشجع الإكثار من النسل بقوانينها الأخلاقية وبما تسنه من شرائع ، شأنها في ذلك شأن جميع الدول العسكرية ، فكان الاجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها القانون بالاعدام ، وكانت المرأة التي تجهض نفسها تموت خزقا . وكانت منزلة النساء في أشور أقل منها في بابل ، ولم يكن يسمح

للمتزوجات بالخروج إلى الطرقات بغير حجاب ، وكان يطلب إليهن أن يكن أمينات على أعراضهن .

وكان البغاء يعد أمراً لابد منه ، وكان للملك عدد من النساء يقضين أوقاتهن في العزف والغناء والحياكة والتطريز . ولأن البرابرة كانوا يعيشون على أطراف الدولة الأشورية ، ولأن القسوة والغلظة كانت طبعا لاينفك عن الأشوريين.

إعتاد الأشوريون إتخاذ العبيد والإماء، فإن زادوا عن حاجاتهم أرسلوهم إلى الحلبة الكبرى كي تنهشهم السباع. بل كانوا يستبقون بعض الأسرى في الأقفاص والسلاسل كي يستمتع العامة برؤيتهم .

ذلك جو لايزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الأشوري هو الطب البابلي ، لم يزيدوا عليه شيئا، ولم يكن علم الفلك الأشوري إلا التنجيم البابلي ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم هو التنبؤ بالغيب، ولسنا نجد عندهم بحوث فلسفية ، ولم يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم عن طريق الدين. ومع ذلك فقد بقيت مكتبة أشور بانيبال أهم ما يخلد الحضارة الأشورية ، احتوت تلك المكتبة على ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة ، وكتب على كل لوح منها «فليحل غضب أشور على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه، وليمحوا اسمه واسم ابنائه من على ظهر الأرض»

وقد أعلن أشور بانيبال أنه أنشأ تلك المكتبة للحفاظ على الأدب البابلي ، وبالتبعية فليس هناك أدب أشوري يحافظ عليه ، اللهم سلخ جلود البشر والإطاحة برؤوسهم .

الفن الأشوري

وصلت أشور إلى ما وصلت إليه بابل ، فقد برعوا في تلك الفترة في التعامل مع المعادن ، ومنها كان الحلي ومنها كانت الموائد والصحاف ومنها كذلك كان تطعيم الخشب بالأحجار الكريمة والمعادن من ذهب وفضة في صناعة الأثاث .

وكان من بين أنواع الفنون التي برعت بها أشور النقش الغائر ، إلا أنه لم

يأخذ نصيبه من الدقة والحرفية.ولم يكن كذلك على الدوام فقد برع أهل أشور في تصوير الحيوانات أثناء معاركهم الحربية وفي رحلات الصيد بل حتى في ساعة الإحتضار. فالعين لاتمل قط من النظر إلى حركات الحيوانات ونفورها الطبيعي. وكأنما الواحد من فنانيهم إنتهى علمه عند تصوير الحيوان أسادا ، وخيلا ، وحميرا ، ومعزا، وكلابا، ودببه ، وظباء ، وطيورا ، يصورها في كل وضع من أوضاعها.

وقد كثر في تلك اللوحات تصوير الانسان عند سكرات الموت ، وما العجب فهل هناك أجمل من لوحة خيل سرجون الثاني أو اللبؤة الجريحة في قصر أشور بانيبال أو القطعة التي نحت عليها منظر أسد ولبؤة يستظلان تحت الأشجار .

لقد كان لفن النقش الغائر عند الأشوريين ما كان لفن النحت عند اليونان وما لفن التصوير الزيتي عند الايطاليين.

العمارة الأشورية

لم يبقى من العمارة الأشورية في معظمها إلا الأنقاض ، وذلك مرده إلى أن جل مبانيهم كانت من الطين ، ولم يكن لهم خبرة المصريين في تخليد مايشيدون عبر إستخدام مواد تتحدى الزمن. أضف إلى ذلك أن الأشوريين الأوائل كانوا لاينشدون الجمال في مبانيهم ، بل كانوا ينشدون العظمة والفخامة.

ومن الاضافات التاريخية أن المباني الطينية على العهد الأشوري كان لها واجهات حجرية ، ربما هي ما بقيت عنهم من آثار. وورث الأشوريون الأقواس والعقود من البابليين ، لكنهم أدخلوا عليها كثيرا من التعديل, وأجروا بعض التجارب على إقامة العمد ، مهدوا بها الطريق إلى العمد النسائية التي نشاهدها عند الفرس واليونان .

ولقد أقاموا قصورهم على مساحات واسعة من الأرض ، وكانوا غاية في الكياسة إذ لم يعلوا بها أكثر من طابقين ، وكان القصر يتألف عادة من عدد من الردهات والغرف تحيط بفناء هادئ ظليل . وكان يحرس مداخل القصر حيوانات مهولة من الحجارة ، كالتي في معابد الأقصر .

وكان أعظم المحاربيين الستة من ملوك أشور هو أيضا أعظم البنائين، فقد أعاد تغلث فلامصر الأول بناء هياكل أشور بالحجارة ، لكن الملوك الذين جاءوا من بعده كانوا على الرغم من سخائهم مع الهياكل إلا أن اهتمامهم بقصورهم كان أكبر.

فقد شاد أشور ناصر بال في كلخ قصرا عظيما من الآجر المبطن بالحجارة، وزينه بالنقوس التي تمتدح التقوى والحروب. وخلد سرجون الثاني ذكره بأن أقام قصرا فسيحا عند دور-شروكين أي حصن سرجون، في موضع خراسباد الحالية . وكان على جانبي مدخله ثيران مجنحة ، وعلى جدرانه نقوش وقرميد براقة ، وكانت حجراته الواسعة ذات آثار بديعة النقش والصنع، كما كانت تزينها تماثيل تبعث في النفس الروعة والمهابة. وكان سرجون كلما انتصر جاء بالأسرى ليعملوا في هذا الصرح العظيم ، وجاء بالرخام واللازورد والبرونز والفضة والذهب ليجمله بها . وشاد حوله طائفة من الهياكل وأقام من خلفه زجورات من سبع طبقات غطيت قمة أعلاها بالفضة والذهب.

وشاد سنحريب في نينوى قصرا ملكيا سماه «المنقطع النظير» يفوق في عظمته كل القصور القديمة ، وكانت أرضيته وجدرانه تتلألأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والأحجار ، وكانت قراميده تنافس في بريقها آيتي الليل والنهار ، وصب له صناع المعادن آسادا وثيران ضخمة من النحاس ، ونحت له المثالون ثيران مجنحة من حجر الجير والمرمر ، ونقشوا على جدرانه الأغاني الريفية . وواصل عسر هدن توسيع نينوى وإعادة ما تهدم من عمائرها ، ونقل إلى بلاده كل ما تعرف عليه أثناء إقامته في مصر من نقوش وأعمدة . وأسوأ ما يمكن أن يقال عن العمارة الأشورية أن قصر عسر هدن قد تهدم عن أخره، وذلك بعد ستين عاما فقط من بنائه.

نهاية أشور

تكون هكذا دائما نهاية الطغاة ، وكل من أسرف في القتل ، فمابالك فيمن

سلخ جلود البشر وهم أحياء ، أعني أشور بانيبال . قد يكون للواحد منهم ما يبرر به تصرفاته من زود عن الملك وصد للأعداء، ولكن من يقدم على أمر ينفر منه المجتمع لايقول أنني خالفت أو أخطأت.

لقد جلس الملك أشور بنيبال في أخر أيامه يندب حظه ويقول « إني عاجز عن إخماد الفتن التي حلت في بلدي، وعن حسم النزاع القائم في أسراتي ، وهأنذا أقضي أخر أيامي أصرخ من شدة الويل بائسا. إن المنية تنحدر بي نحو أخرتي وأنا أندب حظي ليل نهار أنوح وأعو وأتوجع « إلهي هب الرحمة لإنسان وإن كان عاقا حتى يرى نورك»

وتحكي لنا السير - وإن كانت وردت ضمن احداث مسرحية - أن نهاية أشور بنيبال كانت أن أشعل النار فيها فاحترقت وهو بداخلها . وأيا كان مدى صحة هذه الحكاية فإن تدهور حال أشور بنيبال ملك الدنيا كان علامة واضحة على نهاية الدولة الأشورية .

العمارة في حضارة مابين النهرين

وإن تضاربت الأقوال في سبق حضارة مابين النهرين للحضارة الفرعونية، إلا أننا نميل لهذا القول وذاك لسببين ، الأول هو أن تلك الأرض كانت مهبط آدام عليه السلام وعليها رست سفينة نوح ، الأمر الثاني أن الخط المسماري هو أول ما خط الإنسان على وجه الأرض. ونستطيع أن نوفق بين الرأيين في أن حضارة ما بين النهرين أول ما عرف من حضارة وأن الحضارة الفرعونية أول حضارة مكتملة يعجز الإنسان عن تفسيرها أو الإلمام بجوانبها.

أما بالنسبة للعمارة في حضارة ما بين النهرين فهي بدأت عمارة ساذجة في سومر وبابل ، كانت تبحث عن المأوى والملاذ أكثر من بحثها عن الرقي والتطور. وذاك أمر طبيعي ، فمازالت البشرية في مهدها ، وليس مطلوبا من الطفل الرضيع أن يسير على قدميين ثابتتين أول ما يفعل ، بل يحاول الجلوس أولا ، ثم يحبو ثانيا ، ثم إذا ما إستقام عوده وقويت عضلاته إستقام واقفا ، وهو ما حدث للعمارة على عهد الدولة الأشورية أي نهاية حضارة ما بين النهرين.

وقد سبق وأن أوردنا أن العمارة الأشورية أخذت عن العمارة الفرعونية. إلا أن هذا الأمر لايعنينا في هذا الكتاب ، فنحن نناقش أثر الحضارة في العمارة وأثر العمارة في الحضارة ، ولا نناقش في هذا الكتاب العلاقة الزمنية بين أقدم حضارتين . إن الملاحظة القوية التي ينبغي الإشارة إليها أن الدولة الأشورية على الرغم من إستبداد حكامها إلا أن إهتمامهم بالعمارة بدء منذ ذاك الوقت ولأسباب في معظمها سياسية .

فهم أولا يريدون إرهاب أعدائهم بما يشيدون ، وهم ثانيا يصالحون شعوبهم ويطلبون منهم المغفرة تجاه بطشهم الذي فاق كل تصور. لقد إستخدمت العمارة ومنذ ذاك التاريخ السحيق كأداة سياسية يرفعها كل من جاء من الحكام ليلغي بها عهدا مضى.

حضارة مصر القديمة

مصر تتويج للحضارة وإكتمال لناقصها في أبهى الصور. عرف العالم القديم أجزاء من تلك الحضارة ، تمثل ذلك في صنع بعض الأثاث والتماثيل ، وإيجاد بعض المعاملات التجارية وبعض التشريعات ، كما حدث في تشريعات حمورابي ، لكن الإنسان ظل إنساناً بدائيا لم ينجز علوماً يربط بين أطرافها كعلم الطب والفلك ، ولم يفكر في تخليد ما يصنع كما فكر المصريون الأوائل. لذلك فإننا نرى أن حضارة مابين النهرين وإن سبقت الحضارة الفرعونية إلا أنها لم تمثل إكتمال حضارة ، كانت قشور من هنا وهناك فيما عدا تشريعات حمورابي.

لقد أذهل المصريون العالم في فن البناء وفن التحنيط والكتابة على البردي وعلم التنجتم والدراية بما تفعله النجوم والكواكب وعلم الرياضيات وفكرة التوحيد. ويمكننا القول إن ماكان من بلاد سومر وبابل وأشور كان مقدمات حضارة لما أتى به المصريون.

إن الحضارة - كما لاحظنا - في الفصل الأول من هذا الباب وإن كانت العمارة هي الأداة التي تخلدها إنما تشمل كل ما من شأنه الرقي . فهي تتطرق إلى الثقافة والفنون والعلوم والزراعة والصناعة والتعدين والقوانيين حتى طريقة تناول الطعام والحديث إلى الأخرين .

وفي هذا الفصل سنتعرف على مصر أو كما سماها هيرودت «هبة النيل» إبتداء من عصر ما قبل الأسرات وإنتهاء بالأسرة الثلاثين ،وسنتعرف أيضا على تاريخ هذا النهر الذي لولاه لما كانت مصر. مروراً بأجمل تاريخ للبناء ، الشيء الذي أعجز العالم وأبهره فيما قدم من قواعد هندسية خلدت تلك الحقبة من الزمن ، كانت فيه تمثل العالم الأول.

ولا غضاضة على مصر في أن تعترف بالسبق لبلاد سومر. ذلك أنه مهما تكن الأصول التي استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات فإن هذه الأصول سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة هي بلا ريب من

أغنى الثقافات المعروفة في التاريخ وأعلاها شأنا وأعظمها قوة ، وهي مع ذلك من أكثرها رشاقة وجمالا ، حضارة إذا ما قيست إليها الحضارة السومرية لم تكن هذه الا بداية فجة ، بل إن حضارتي اليونان والرومان لا تفضلانها في شيئ.

ولقد لفت شوينفرت أنظار العالم إلى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة للخطر، وهي أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح ، واستئناس الماشية والماعز والضأن ، وإن ظهرت كلها في مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة ، لاتوجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر بل في بلاد أسيا الغربية وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة . ويستدل من هذا على أن الحضارة - وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة -قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب ، ثم انتشرت منها في صورة «مثلث ثقافي» إلى مابين النهرين «سومر وبابل وأشور» وإلى مصر ولكن ما وصل إلى علمنا من تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الأن ليبلغ من القلة حدا لا نستطيع معه الا أن نقول أن هذا مجرد فرض جائز الوقوع.

وأكثر من هذا احتمالا أن عناصر معينة من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين-البابليين. فنحن نعلم أن مصر وبلاد النهرين كانتا تتبادلان التجارة - وخاصة عن طريق برزخ السويس -ولعلهما كانتا تتبادلان أيضا بالطريق المائي صريق مصاب الأنهار المصرية القديمة. وإن نظرة واحدة للخريطة لتوضح لنا السبب في أن مصر طوال تاريخها المعروف تنتمي إلى أسيا الغربية أكثر منها إلى افريقية .

نهر النيل

هناك العديد من الأسئلة المشروعة عن تاريخ هذا النهر ، وكيف كانت نشأته ، وماهو مصدر مياهه ، وهل هو المكون الحقيقي لدلتا مصر كما صرح بذلك الكتور جمال حمدان في كتابه شخصية مصر .

للإجابة على هذه الأسئلة لابد من العودة للدكتور جمال حمدان نفسه إذ يقول :

«كان هيرودت جغرافيا قبل أن يكون مؤرخا حين قال إن مصر هبة النيل، ومن قبله بكثير كان قدماء المصريين يقولون إن الدلتا هي هبة النيل وهدية النهر، وكان الكهنة يذكرون دائما للمسافرين الأجانب والأغريق أن المستنقعات كانت تغطي كثيرا من الدلتا»

والثابت أن نهر النيل نشأ بفعل فالق البحر الأحمر ، فلولا الفالق لما كان النيل تبعا للنظرية الإلتوائية ، ويرى بروكس أن نهر النيل نهر حديث لا يرقى إلى أبعد من ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، أي في نهاية العصر الجليدي ، وقبل ذلك كان النيل الأزرق لأمر ما لايصل إلى مصر.

وفي كل الأحوال فإن النيل في صورته البدائية الأولية أو في صورته الحالية لايدين بوجوده وأصله إلى الحبشة أوغير الحبشة في المنابع بقدر ما يدين لجيولوجيا مصر المحلية في تطوراتها المتعاقبة . فلولا أخدود البحر الأحمر لما نشأت ثنية الوادي المقعر ، ولولا الخليج البليوسيني لما تعمقت هذه الثنية ولما توطدت أركان الوادي.

أما عن المصادر والينابيع فتتأرجح بين نظريتين ، الأولى هي نظرية الأمطار الغزيرة التي كانت تهبط على منطقة الحبشة في العصر الجليدي، والثانية أن مصدر ينابيع الحبشة مياة المحيطين الهادي والهندي، وبذا يكون أكثر من نصف مياة العالم تغذي نهر النيل.

وقد لاحظ هيرودت وغيره من الباحثين أن جميع أنهار العالم تتدفق من الشمال إلى الجنوب عدا نهر النيل الذي يتدفق من الجنوب إلى الشمال. ويخالف نهر النيل أيضا جميع الأنهار في قارة أفريقيا ، إذ أنها تتدفق إما من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق ، ويبقى النيل متفردا في جريانه.

حجر رشيد

إن الكشف عن تاريخ مصر لهو أروع فصل في كتاب علم الآثار. لقد كان

كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من مواطن المسيحية ، وكان الناس في زمن النهضة يظنون أن الحضارة بدأت من اليونان ، وحتى عصر الاستنارة لم يكن يعرف من مصر أبعد من الأهرامات، وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية. وذلك القائد العظيم بونابرت أرسل مع جيشه الرسامين الذين صوروا له البلاد على أكمل وجه . وشملت هذه الحملة أيضا بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر ، ويسعون لفهم التاريخ فهما أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ . وكانت هذه العصبة من الرجال هي التي كشفت للعالم الحديث هياكل الأقصر والكرنك، وكان كتاب وصف مصر الحكم الفصل لدى المجمع العلمي الفرنسي.

وظل العلماء في حيرة من أمرهم، فعلى الرغم من أنهم اكتشفوا ثلث آثار العالم في مكان واحد ، إلا أنهم لايستطيعون قراءة النقوش على الجدران.

وعثر شامبليون «أحد علماء الحملة» على مسلة مغطاة بهذة الرموز المقدسة مكتوبة باللغة المصرية ولكن في أسفلها نقوشا باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوبترا. وخطر له أن إحدى هذه العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتي يحيط بها الإطار الملكي هي اسم الملك والملكة، فهدته هذه الفكرة في عام ١٨٢٢ إلى تميز أحد عشر حرفاً من الحروف المصرية، وكان هذا أول دليل على أن مصر لها حروف هجائية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر كبير أسود عثر عليه جنود نابليون عند مصب رشيد . وكان على هذا الحجر نقوش كتبت بثلاث لغات ، الهيروغليفية والديموطية – اللغة الدارجة عند أهل مصر– وأخيرا اللغة اليونانية.

واستطاع شامبليون بفضل إلمامه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفا التي توصل إليها باللغة الهيروغليفية ، وبعد جهد متواصل استمر أكثر من عشرين عاما ، أن يحل رموز هذا النقش كلها وأن يعرف الحروف الهجائية المصرية بأجمعها ، وأن يمهد السبيل للكشف عن عالم عظيم مفقود .

حضارة مصر القديمة

لا تقتصر الحضارة المصرية على تاريخ لاربعة الألاف عام قبل الميلاد بل تمتد إلى أبعد من ذلك – وهنا منشأ النزاع في أيهما أسبق الأشورية أم المصرية حيث عثر في عام ١٩٠١ على قرية البداري في منتصف الطريق بين القاهرة والأقصر وعثر بداخل هذه القرية على جثث يرجع تاريخها إلى أربعين قرنا قبل المسيح . ووجدت داخل أمعاء تلك الجثث على قشور من حب الشعير غير المهضوم . ومن هنا كان الإستدلال أن البداريين كانوا يعرفون زراعة الحبوب .

بل لقد عرف سكان هذا الوادي منذ عهد سحيق أعمال الري وقطع الأدغال وتجفيف المستنقعات ، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفراسه ووضعوا أسس الحضارة على مهل. وتوحي إلينا هذه البقايا وبقايا أخرى غيرها بشيء من العلم عن حياة المصريين قبل الأسر الأولى . لقد كانت ثقافة ذلك العهد وسطا بين الصيد والزراعة ، بدأت منذ قليل بإستبدال الأدوات الحجرية بالمعدنية، وكان الناس في أيامها يصنعون القوارب ويطحنون الحب ، وينسجون الكتان والبسط ويتحلون بالحلي ويتعطرون بالعطور . وكانوا يحبون التصوير خاصة تصوير ما يصيدون من الحيوان . وكانت لهم كتابة مصورة وأختام اسطوانية شبيهة بأختام السومريين.

سلالة المصريين

مامن أحد يعرف من أين جاء المصريون الأوائل ، ويميل بعض العلماء الباحثين بأنهم مولودون من النوبيين والأحباش من جهة ومن المهاجرين من الساميين والأرمن من جهة أخرى. وأخذت هذه السلالات تتزاوج حتى نتج منها هذا الهجين حول عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد الذي بنى حضارة مصر التاريخية. وقبل أن يحل عام أربعة الآلاف قبل الميلاد كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشئوا لهم حكومة، وكان لهم شعار واحد ويعبدون إلها واحدا بمراسم وطقوس واحدة . وظل لحكام مصر سلطان يختلف قوة وضعفا بسبب قوة وضعف الملك. وظل نظام الحكم مضردا ومتدافعا حتى تكونت مملكتان الأولى في الشمال والثانية في الجنوب.

وكان أول ملوك مصر الأقوياء الملك مينا الذي وحد هاتين المملكتين في كيان واحد واتخذ من منف عاصمة له. وكانت أول الأسر المصرية وكان أيضا بداية عصر الأسرات.

المهندس الأول ..ايمحتب

يقول الدكتور جاميسون هاري عن ايمحتب وزير الملك زوسر- مؤسس الأسرة الثالثة - أنه كان وزيرا ومهندسا وساحرا وفلكيا وحكيما وكاهنا، وهو باني مجموعة هرم سقارة المدرج ، تلك التحفة المعمارية التي ليس لها مثيل في عالم الأثار، ولما مات أصبحت مقبرته مزارا للمرضى والمتألمين ، وبنيت له المعابد ورفع إلى مرتبة البطل أو نصف الإله ، ثم إلى مرتبة الأله الكامل في أواخر العصور الفرعونية.

لقد كان مرتبة المبدعيين هي تلك المكانة التي وصلت إلى العبادة . لم يكن المصريون متجاوزين ولا مبالغيين فالابداع شأن إلهي ، والله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن نفسه في محكم تنزيله إنما يتحدث عن إبداعه في خلق السموات، ما استتبع إرتفاع شأن من يقلده سبحانه . لكن المصريون القدماء نسوا أن هناك فرق وفرق كبير بين الابداع من عدم والابداع من موجود.

وعلى كل الأحوال فإن في ذلك إشارة إلى تقديس تلك الحضارة للعلم وأهله ، الأمر الذي يؤصل لها ويجعلها ضاربة لجذورها في التاريخ.

ولم يكن ايمحتب مهندسا رائعا فحسب بل كان أيضا طبيبا بارعا.يقول جاميسون هاري» إن هذا الرجل يستحق أسمى أيات الإجلال والتقدير ، يجب أن ينظر إليه الأطباء في أنحاء العالم بإعتباره العبقري المنشئ لعلم الطب ، إنه الإله الرمزي لعلم الشفاء . إن اسمه ينبغي أن ينقش على رأس قائمة قديسينا، وصورته ينبغي أن تكون شارة لمهنتنا»

ويقول أيضا « من الأفضل أن يكون على رأس مهنتنا رجل من لحم ودم، شخصية شهيرة متعددة الجوانب، بدلا من شخصية غامضة المنشأ تنتسب إلى

عالم الأساطير . إننا لا نعرف شيئا عن اسكلبيوس وأعماله في حين أنه يتبقى من ايمحتب على الأقل تحفته المعمارية الجبارة المعروف بالهرم المدرج بسقارة «

الإيحاء بفكرة ناطحات السحاب

إن ايمحتب لم يكن المهندس الأول وحسب ، بل إنه بهرمه المدرج درس للعالم قواعد الإنشاء ، وعرف العالم من خلال عمله هذا أن العمود الذي يحمل منشأ ما ينبغي أن يتدرج في السماكة ، فمن غليظ إلى أقل غلظه حتى يصل إلى الطابق النهائي، ولا ينبغي بحال من الأحوال أن تكون أبعاد العمود مقاس واحد يجوز على الطابق العلوي كما يجوز على الطابق الأرضي. ومن هنا قرأ العالم الفكرة واستطاع أن يرتفع في البناء حتى وصل إلى ناطحات السحاب .

هرم زوسر

كان ايمحتب مهندسا بارزا ، وهو بلا شك ورث بعض خبرته الهندسية عن أبيه «كا-نفر» الذي كان هو أيضا مهندسا على قدر من الإمتياز . وقد أنشأ ايمحتب الهرم المدرج بوضع خمس مصاطب متصاغرة فوق المصطبة الكبيرة، ولم تكن له تلك الكسوة الحجرية الموجودة في هرم خوفو. ويبلغ طول ضلعيه الشرقي والغربي ٣٩٦ قدما وطول الضلعين الشمالي والجنوبي ٣٥٢ قدما بينما يبلغ ارتفاعه نحو ١٩٥ قدما. وارتفاع المصاطب الست تباعا ٣٤،٥ ،٣٦، ٣٨ ، ٢٩،٥ ،٣١، ٣٢ قدما ، في حين أن عرض العتبات التي تحيط بالمصاطب يتراوح بين ٦،٧ أقدام. ولقد أقيم البناء بكتل من الحجر الجيري جلبت من التلال المجاورة، أما القاعات والدهاليز فقد كسيت بقوالب من القيشاني الأزرق والأخضر تحمل أسماء الملك وألقابه. وتلتقي الدهاليز المتعددة في بئر ضخم أخفي تحته مكان حفظ جثمان الفرعون وأثاثه الجنائزي الثمين. ويقال عادة إن هذا الهرم هو أقدم بناء حجري ضخم معروف في التاريخ، وجرت العادة على تسميته بهرم زوسر المدرج.

ويدل الهرم المدرج بسقارة على مستوى عال من المدنية ، فلابد أن كان

هناك ثراء كبير في خزانة الفرعون ، وحكومة مستقرة بفضل هذا الوزير وغيره من المسئولين ، وخبرة في تنظيم العمل ، وقدرة على الاحتفاظ بحسابات معقدة ، ومهارة فنية في قطع الأحجار من المحاجر. وفي كل هذه الدلائل يمكننا أن نرى عبقرية الوزير ايمحتب. وليس هناك شك في أن نجاح المصريين في اقامة هذا الهرم الأول قد مهد الطريق لظهور الأهرامات الضخمة التي أعقبته.

وقد كشفت الحفريات الحديثة التي أجرتها مصلحة الآثار المصرية في سقارة عن بعض المباني البارزة الأخرى التي ربما أقامها ايمحتب أيضا في وقت بناء الهرم المدرج ، وتتكون من سور ضخم محيط بالهرم طوله ٥٠٠ ياردة وعرضه ٣٠٠ ياردة ودهليز جميل من الأعمدة يبلغ طوله ٨٥ ياردة ويبدو أنه كان المدخل الرئيسي للمجموعة الهرمية ، وضم ٤٨ عمودا من الحجر الجيري الأبيض، منسقة على الجانبين زوجين اثنين. وكان السور يبلغ ارتفاعه ٢٣ قدما، بني بإسلوب الغائر والبارز محاكاة للقلاع التي كانت تبنى بالطين في العصر العتيق.

وتقدم مجموعة سقارة المعمارية نموذجا طيبا للظاهرة المميزة التي كانت شائعة في الفن المصري القديم ، وهي محاكاة الأشياء المصنوعة من مادة ما بأشياء مصنوعة من مادة أخرى. وهكذا نجد الخشب يحاكى بالحجر ، وهناك أعمدة قائمة في الفواصل الرقيقة تنبعث منها أشعة ضوئية كي تحاكي الأبواب. ومن التفاصيل التي تدعو للدهشة ذلك التقليد المتبع في معالجة الأبواب نفسها ، فكلما كانت هناك فتحة مؤدية إلى غرفة صغيرة كانوا يصنعون بابا حجريا كي يشبه الباب الخشبي بالرغم من عدم وجود نية لتحريك هذا الباب، فهذه المحاكاة ليس لها سوى غرض واحد هو التمويه. والأبواب نفسها تختلف في أشكالها فالبعض يبدو مفتوحا على اتساعه، وأبواب أخرى مفتوحة جزئيا كي تسمح فقط بالمرور.

ومن الواضح أن هذه المباني العظيمة تمثل تقدما في اسلوب معماري

كانت له من قبل بدايات متواضعة ، واستمر فيما بعد في العمارة المصرية. وقد دلت الاكتشافات الحديثة على أن الهرم المدرج كان في الأصل مغطى بكسوة من الحجر الجيري الناعم تبرز مدرجاته المتعاقبة، أي أن الهيكل المدرج الذي نراه حاليا كان مجرد القلب الخشن الذي أقيم على هذ النحو كي تجري تكسيته بالكسوة الحجرية الناعمة البيضاء.

معبد ادفو

تقول الرواية المصرية إن أول بيت من الحجر بني بإشراف ايمحتب ، وأن الهرم الذي بناه ظل النظام المتبع في تشييد المقابر لعدة قرون. وأنه هو الذي وضع تصميم هيكل زوسر الجنائزي وأعمدتة الجميلة التي تنتهي بتيجان على شكل زهرة اللوتس . ويوجد نص في المعبد يصف ايمحتب بأنه الكاهن الأكبر ايمحتب ابن بتاح الذي يتحدث أو يحاضر، وبالرغم من عمر هذا المعبد الا أنه لايزال في حالة بنائية جيدة. وبهذا المعبد وغيره من الأعمال ارتقى ايمحتب من منزلة المهندس العادي إلى مرتبة الإله المعبود وهو ليس سليل الفراعنة.

هرم خوفو

يقول هيرودت « وهم يقولون لي الأن أن العدالة ظلت توزع بالقسطاس، وأن الرخاء عم جميع أنحاء مصر إلى أيام حكم رحميسنتس، ثم حكم من بعده كيوبس فارتكب كل أنواع الخبائث ، ذلك أنه أغلق جميع الهياكل وسخر المصريين لخدمته وحده ، فعين طائفة منهم لقطع الأحجار في المحاجر ، وأمر طائفة أخرى بإستقبال الحجارة بعد أن تنقل من النهر ، وكان يعمل منهم مائة ألف في كل نوبة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة أشهر . وكل هؤلاء يكدحون عشر سنين في إنشاء الطريق الذي كانت تنقل عليه الحجارة وهو عمل لايقل مشقة عن بناء الهرم نفسه»

وبني الهرم الأكبر خلال عشرين عاما ، تجسدت خلالها قمة الإبداع المصري في وقت مبكر جدا من الحضارة البشرية ، فقد عجز العلماء عن معرفة

كيفية نقل الأحجار إلى تلك القمة العالية. ومن العجيب أيضا عدم استخدامهم مادة لاصقة تشد كل حجر إلى الحجر الذي جواره . هذا فضلا عن إخفاء غرفة الدفن الرابعة فلا يعلم أحد الطريق إليها داخل جسم الهرم حتى الأن .

ويتكون هرم خوفو من مليونين ونصف المليون من الكتل الحجرية التي يبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طنا ومتوسط وزنها طنين ونصف الطن وتبلغ مساحة قاعدته أكثر من نصف مليون قدم مربعة ويعلو في الهواء إلى إرتفاع ٤١١ قدما. وهناك في مكان رطب مظلم ساكن في أعماق ذلك الصرح لايهتدي إليه إنسان استقرت فيما مضى من الأيام عظام الملك خوفو وزوجته ، ولايزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقرا في مكانه ، لكنه محطم وفارغ لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنجي الجثة من اللصوص كما لم تنجها من جميع لعنات الألهة.

ولم يبني هؤلاء الرجال الأهرام تخليدا لفن أو إنتصارا لفكرة ، ولكن بنوها لأسباب دينية. ذلك أن الملك كان يعتقد كما يعتقد السوقة من شعبه أن في كل جسم حي تستقر - قرينة- لاتموت حتما إذا لفظ الجسم أنفاسه ، وأن هذه القرينة يضمن بقائها بقاء كاملا إذا ما احتفظ بالجسم أمنا من التجويع والتمزيق والبلى. وكانت وسيلته للبقاء ومقاومة الموت هو ذاك البناء الضخم.

هرم خفرع

وهو ابنه الذي خلفه على العرش ، وهو أيضا منافسه في البناء . ويلاحظ أن خفرع كان أكثر كياسة من أبيه ، فالبرغم من أن هرمه يسمى الهرم الأوسط الا أنه أكثر إرتفاعا وذلك يرجع إلى أمرين ، الأول بقاء القمة الرخامية ثابتة أمام عوامل التعرية ، وثانيهما وهو الأهم إختيار خفرع لهضبة مرتفعة يبني عليها هرمه ، وبذا يكون الأمر خارج عن ارادته ولايتهمه أحد في عدم إحترام أبيه.

ويؤكد ديورانت أن خفرع كان أكثر عدلا ونزاهة ، ويؤكد لنا تمثاله المحفوظ في متحف القاهرة أنه الرجل الذي حكم بحق مصر ستا وخمسين عاما ، فعلى رأسه الباشق رمز السلطة الملكية ، ولولم يكن هذا الباشق لأدركنا من هيبته

ومن كل جزء صغير من جسمه أنه ملك بحق ، فالتمثال يصوره إنسانا مزدهيا ، صريحا ، جريئا ، ثاقب النظرات، أشم الأنف ، قويا في تحفظ وهدوء.

وقد كان من عادات المصريين أن يدفنوا مع المحارب أسلحته ومع الملوك زوجاتهم وعبيدهم كي يقوموا على خدمتهم بعد الموت، وكانوا في كثيرا من الأحيان ما يلجئون إلى الرسامين كي ينحتوا ويرسموا صور الزوجات والعبيد فلا يشعر الميت بغربة أو وحشة داخل قبره.

وبعضهم كان يعتقد بأنهم يقومون على خدمتهم بعد وفاتهد. ولما كشف المصريون عن هذا المبدأ أخذ الفنانون ينتجون الشيئ الكثير من روائع الفن. ففي أحد القبور صورة لأرض تحرث يحرث ، وفي قبر أخر ترى المحصول يحصد ، وفي غيرها ترى الخبز يسوى ، كنوع من أنوا ع الإيناس للميت. وبذا لم يفعل الفن للإنسان مافعله للمصريين القدماء.

فن التحنيط

على أنهم لم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يضمنوا للقرينة طول الأجل بوضع الجثة في تابوت صخري ، وبتحنيطها تحنيطا كلفهم بلا شك أعظم الجهد والمشقة . وقد برعوا في هذا الفن براعة أبقت على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية . وما أجمل وأوضح ما وصف به هيرودت فن التحنيط حين قال« أول ما يفعله المحنطون يخرجوا المخ من المنخارين بخطاف من حديد ، فإذا ما انتزعوا جزء منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقي منه بإدخال بعض العقاقير بداخله ، ثم يقومون بفتح فتحة بحجر حاد في جنب الميت ، يخرجوا منها جميع أحشائه ، فإذا ما غسلوا البطن بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ، ثم ملئوا البطن بعطر العشبة وغيره من العطور ، وأعادوا خياطة البطن مرة أخرى، فإذا ما فعلوا ذلك كله تركوه منقوعا في النطرون سبعين يوما. فإذا ما انتهت تلك الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ. كل هذا من أجل الحياة الثانية أو اليقين

في أن المتوفى سيعود إليه قرينه بعد وفاته . ومن هذا الفن الذي انفردت به مصر وحدها أتى المثل القائل « إن العالم كله يرهب الزمن ، لكن الزمن نفسه يرهب الاهرام».

هرم منقرع

هو أقل الاهرامات الثلاثة إرتفاعا ، لرجل أكثر رقة من خفرع وأكثر خلقا وتهذيبا . ولعل النعيم والترف في هذا العهد السحيق هو ماجعل الأخلاق تزداد رقيا. وما جعل الناس تكره الحرب وتميل إلى الدعة والمسالمة.

الدولة الوسطى وعصر الإقطاع

انتهى عهد بناة الأهرام ، وللعلم فإن الأهرامات الثلاثة ليست الوحيدة القابعة على الصحراء المصرية . لكن المنطقة من الجيزة وحتى المنيا مليئة بالعديد من الأهرامات أو أجزاء الأهرامات.

ويأتي عصر الإقطاع أو الدولة الوسطى بعد نهاية حكم بيبي الثاني ، الذي حكم مصر أربعا وتسعين عاما، وما إن مات حتى عمت الفوضى البلاد وخسر خلفه عرشه وحكم إمراء الإقطاع المقاطعات حكما مستقلا. وطغى على البلاد عصر مظلم سادته الفوضى أربعة قرون ثم قام بعدها رجل قوي الإرادة شبيه بشارلمان في عصور أوروبا المظلمة ، فقبض بيد من حديد على زمام الأمور ، وأعاد النظام إلى البلاد ، ونقل العاصمة من منف إلى طيبة وتسمى باسم أمينحيت الأول وأسس الأسرة الثانية عشرة.

ولم يلبث هذا المجدد طويلا ، فبعد أن قضى على كل من حاول الإنقلاب عليه ، ترك لابنه وصية يقول فيها « استمع إلى ما سأقوله لك ، حتى تكون ملك الأرض ، وتزيد فيها الخير ، اقسى على جميع من هم دونك ، فإن الناس لايعنون الا بمن يرهبهم ، ولاتقترب منهم بمفردك ، ولاتملأ قلبك بالمودة لأخ ، ولاتعرف صديقا , وإذا نمت فاحرس بنفسك قلبك ، لأن الانسان لاصديق له في أيام الشر»

لقد أقام هذا الملك الصارم نظاما في الحكم والإدارة دام خمسمائة عام، أثرت فيه البلاد مرة أخرى ، وعاد فيه الفن إلى سابق عهوده الزاهرة وحفر قناة تصل بين نهر النيل والبحر الأحمر وصد الغزاة النوبيين وشيد الهياكل ، لكن بعد ثلاثة عشر عاما من وفاته يعود الاضطراب مرة أخرى بسبب النزاع بين المتنافسين على خلافته في الحكم. وانتهى عهد الدولة الوسطى في حال من الفوضى دام مائتي عام.

الهكسوس

في خلال تلك الفترة استغل الهكسوس – وهم بدو أسيا – حالة الفوضى وقاموا بغزو مصر ، فأحرقوا مدنها وهدموا هياكلها وبددوا ما تجمع من ثروتها ، وقضوا على كثير من معالم فنونها ، وأخضعوا وادي النيل مدى قرنين من الزمان . لكن مالبث الهكسوس أن سمنوا وأترفوا وفقدوا سلطانهم ، وجمع المصريون شملهم وشنوا حربا يبغون بها تحرير بلادهم ، فطردوا الهكسوس وأسسوا الأسرة الثامنة عشر ، وبلغت البلاد في عهدها مجدا لم تبلغه من قبل .

تحتمس الأول وحتشبسوت

لقد جدد هذا الفتح شباب مصر من جديد لكنه جر على مصر حرب استمرت ألف عام بين مصر وغرب أسيا. فقد غزا تحتمس الأول سوريا واحتل جميع البلدان الواقعة على البحر الأحمر ، وفرض عليهم الجزية.

وفي أواخر العام الثلاثين من حكمه رفع ابنته حتشبسوت على عرش مصر لتكون شريكة له في الملك. وحكم من بعده زوجها واخوها لأبيها باسم تحتمس الثاني ، وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول ، لكن حتشبسوت نحت هذا الشاب الذي علا نجمه واستأثرت دونه بالملك. وأثبتت حتشبسوت أنها لاتختلف عن الملوك في شيئ إلا من كونها أنثى. على أنها لم تعترف حتى بهذا الفرق. ذلك أن التقاليد المقدسة كانت تتطلب من كل مصري حاكم أن يكون ابن الأله العظيم أمون ، ومن أجل هذا أعدت حتشبسوت

العدة لأن تكون ذكرا، وأن تكون مقدسة ، فاخترعت لها سيرة نصت على أن أمون نزل إلى أحمسى أم حتشبسوت في فيض من العطر والنور ، فأحسنت هذه استقباله ، ولما خرج من عندها أعلن أن لأحمسى ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة. وأرادت الملكة العظيمة بعد إذ أن ترضي أهواء شعبها ولعلها أرادت أيضا أن تشبع رغبة كامنة في صدرها ، فعملت على أن ترسم على الأثار في صورة محارب ملتح من غير ثديين، ومع أن النقوش الباقية من عهدها تتحدث عنها بضمير المؤنث فإنها تسميها ابن الشمس أو سيد القطرين. وكانت حين تظهر أمام شعبها تلبس ملابس الرجال وتلتحي لحية مستعارة. ولعلها كان من حقها أن تقرر رجلا تكون أم امرأة ، وذلك أنها كانت من خير من جلسوا على عرش مصر ومن أعظمهم نجاحا .

فقد وطدت دعائم الأمن والنظام في داخل البلاد من غير أن تسرف في الإستبداد وحافظت على السلم في خارج مصر في غير خسارة ، وافتتحت سوقا جديدة لتجارة مصر ، وجاءت بكثير من الطيبات لشعبها ، وعملت على تجميل الكرنك بأن أقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين ، وشيدت في الدير البحري الهيكل الفخم الذي اختطه أبوها، وأصلحت بعض ما خربه ملوك الهكسوس ، ثم قالت في أحد نقوشها تفخر بأعمالها «لقد أصلحت ما كان من قبل مخربا ، وأكملت مالم يكن قد تم تشييده حين كان الأسيويون في وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ماكان قائما قبلهم»

ثم أنشأت في أخر الأمر لنفسها قبرا سريا مزخرفا بجوار الجبال التي تطغى عليها الرمال في الضفة الغربية للنيل ، في المكان الذي سمي فيما بعد بوادي الملوك . وحذا خلفاؤها في ذلك حذوها ، حتى كان عدد القبور المنحوتة حوالي ستين قبرا ملكيا. ولقد كان المصريون منظمين إلى أبعد الحدود ، فقد خصصوا الضفة الغربية من المدن المصرية موطن للموتى من الطبقة العليا . وكانوا إذا قالوا إن فلانا ذهب غربا قصدوا بقولهم هذا أنه مات.

ودام حكم حتشبسوت اثنين وعشرين عاما كان فيها حكما سلميا حكيما.
ثم خلفها تحتمس الثالث ، وكان حكمه مليئا بالحروب، فقد انتهزت سوريا وفاة حتشبسوت وثارت على مصر ، وظن أهلها أن تحتمس الثالث ، وهو شاب في الثانية والعشرين من عمره ، لن يستطيع الاحتفاظ بالدولة التي أقامها أبوه . لكن تحتمس لم يقعد عن العمل , فسار بجيشه في السنة الأولى من حكمه عن طريق القنطرة وغزة بسرعة عسرين ميلا في اليوم الواحد والتحم بقوات العدو عند جبل مجدو ، وهي بلدة صغيرة بين سلسلة جبال لبنان .

ومن طرائف القدر أن تلك البلدة جرت على أرضها بعد هذا التاريخ مواقع حربية أخرى , كموقعة الانجليز والأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨. وهزم تحتمس الثالث السوريين ، ثم سار بجيشه يحتل مدن أسيا الغربية ويجمع خراجها ، وعاد إلى مصر بعد ستة أشهر ، وكانت تلك حملته الأولى التي بلغت خمسة عشر حملة ، أخضع فيها تحتمس الباسل بلدان البحر الأبيض المتوسط لحكم مصر.

ولم يكن عمله عمل الفاتح فحسب ، بل إنه عمل أيضا على تنظيم فتوحه، فأقام في جميع البلاد المفتوحة حاميات قوية، وأنشأ فيها حكما منظما قديرا. وكان تحتمس أول رجل في التاريخ أدرك ما للقوة البحرية من شأن عظيم ، فأنشأ أسطولا أخضع لسلطانه بلاد الشرق الأدنى . وكان ما ظفر به من غنائم عماد الفن المصري في عهد الامبراطورية ، كما كان الخراج الذي أخذ ينصب في مصر من بلاد الشام منشأ حياة الدعة والنعيم التي تمتع بها شعبه ، فوجدت في مصر طبقة جديدة من الفنانين غمرتها بروائع الفن.

ولكي تعلم ما وصلت إليه الدولة المصرية من قوة في الاقتصاد يكفي أن تعلم أن خزانة الدولة استطاعت في يوم من الأيام أن تخرج منها ماوزنه تسعة آلاف رطل من سبائك الذهب والفضة. وراجت التجارة في طيبة رواجا لم تعهده من قبل ، وناءت الهياكل بالقربان ، وارتفع صرح بهو الاحتفالات الملكية في الكرنك ، وأنشأ فيها المنتزه العظيم بما يتفق مع عظمة الإله والملك.

وتوفي الملك بعد أن حكم اثنتين وثلاثين سنة - وتقول بعض الروايات الأخرى إنها خمسا واربعين عاما - أتم فيها لمصر زعامتها على البحر الأبيض المتوسط .

في تلك الحقبة التاريخية من التاريخ كان لمصر صدارة العالم ، وكانت شوارعها غاصة بالتجار ، وأسواقها مليئة بالبضائع الواردة إليها من مختلف أنحاء العالم . وكانت مبانيها تفوق في جمالها وروعتها جميع مباني العواصم القديمة والحديثة. وكانت قصورها الرائعة تستقبل الخراج من طوائف لاحصر لها من الولايات الخاضعة لسلطانها ، وكانت هياكلها الضخمة محلاة كلها بالذهب ومزينة بروائع الفنون على اختلاف أنواعها، وبيوتها ذات الحدائق وقصورها الفخمة ومتنزهاتها المظللة وبحيراتها الصناعية التي كانت مسرحا لكل ماهو جديد من الأزياء والأنماط . كانت هذه هي عاصمة مصر أيام مليكها .

حضارة أوسع وأعم

إن ما نؤكد عليه هاهنا سبق لنا ذكره ، فبهاء وجمال الحضارة المصرية ليس في أنها أول حضارة لبني الإنسان ، بل لأنها أول حضارة شاملة . فلقد شملت كل نواحي الحياة من زراعة وصناعة وهندسة وفلك ورياضيات وطب حتى انتهت إلى أنها صاحبة اليد الطولى على حضارات العالم . وبقي في الحضارة الفرعونية ألغاز لا نستطيع حتى الساعة فك رموزها .

الهندسة

كان فن الهندسة عند المصريين أرقى مما توصل إليه اليونان أو الرومان أو حتى ما توصلت إليه أوروبا قبل وبعد الثورة الصناعية. ربما نستثني جزئيا العصر الحالي الذي نعيشه. فلقد شاد سنوسريت الثالث حول بحيرة موريس خزان طوله سبعة وعشرين ميلا ليجمع فيها ماء منخفض الفيوم ، وأصلح بعمله هذا خمسة وعشرين ألف فدان ، فأصبحت صالحة للزراعة ، هذا بالاضافة إلى أنه اتخذ من البحيرة خزانا واسعا لماء الري، وتم حفر قنوات عظيمة منها مايصل النيل بالبحر الأحمر، واستخدمت الصناديق الغاطسة للحفر تحت الماء ،

ونقلت المسلات التي تصل إلى ألف طن إلى أماكن قاصية. وينقل لنا التاريخ عبر هيرودوت أن الأسرة الثامنة عشر قد خلفت نقشا بارزا عليه صورة لحجر ضخم يجره آلاف من العبيد على عروق من الخشب مطلية بالشحم. فإذا ما أردنا رفع هذه الحمولة في البناء رفعناها عن طريق طرق طويلة تبدأ من مسافات بعيدة ، حتى نصل للقمة التي نريدها. وليس أدل على ذلك من نقش بارز صور فيه ثمانمائة من المجدفين يدفعون سبعة وعشرين قاربا تجر وراءها صندلا للنقل يحمل مسلتين.

أما النقل البري فقد كان يقوم به الحمالون ، ثم استخدمت بعد ذلك الحمير ثم الخيل ، وأكبر الظن أن الهكسوس هم الذين جاءوا بالخيل إلى مصر. ولم يظهر الجمل في مصر إلا في عهد البطالمة . وكان الفقراء من أهل البلاد ينتقلون مشيا على الأقدام أو يستخدمون قواربهم البسيطة، أما الأغنياء فكانوا يركبون رجازات يحملها العبيد ثم صاروا بعد ذلك يركبون عربات أنيقة تجرها الخيول.

التجارة

كانت التجارة الداخلية بدائية نسبيا، يتم معظمها بطريق المقايضة ، أما التجارة الخارجية فقد نمت نموا بطيئا ، والسبب في ذلك العوائق التي كانت تفرض على البدان والتي أشبه ما تكون بالعوائق الجمركية حاليا.

على أن مصر على الرغم من هذا كانت غاصة بالتجار السوريين والكرينيين والقبرصيين ، كما كانت السفن الفينيقية تجري في النيل من مصبه في الشمال إلى أرصفة طيبة الكثيرة الحركة في الجنوب.

ولم تكن النقود قد بدأت تستعمل في البيع والشراء ، ولذلك كان كل شيئ حتى مرتبات أكبر الموظفين يؤدى سلعا. وكانت الضرائب تجبى عينا، ولم تكن خزائن الملك غاصة بالنقد بل كانت المخازن تكدس فيها آلاف السلع من منتجات الحقول وبضائع الحوانيت ولما أخذت المعادن الثمينة تتدفق على مصر بعد فتوح تحتمس الثالث وبعد إكتشاف الذهب في أرض مصر ، شرع التجار يؤدون ثمن ما يبتاعون بسبائك من الذهب ، تقدر قيمتها بالوزن في كل عملية تجارية.

وما من أحد زار متحف اللوفر إلا شاهد تمثال الكاتب المصري الجالس مطوي الساقين ، وجسمه كله يكاد يكون عاريا ، ومن خلف أذنه قلم احتياطي غير القلم الذي يمسكه بيده ، وهو يدون ما يقوم به ويسجل ما يؤدى من العمل، وما يسلم من البضائع ، وأثمانها وأكلافها ومكاسبها وخسارتها ، فهو يحصي الماشية الذاهبة إلى المذبح ، والحبوب وهي تكال للبيع ، ويكتب العقود والوصايا، ويقدر ما يجب على سيده أن يؤديه من ضريبة الدخل.

الزراعة

يتحدث هيرودوت عن فلاحين مصر القديمة فيقول» إنهم يجنون ثمار الأرض بجهد أقل مما يبذله غيرهم من الشعوب ، لأنهم لايضطرون إلى تحطيم أخاديد الأرض بالمحراث أو إلى عزقها أو القيام بعمل كالذي يضطر غيرهم من الناس إلى القيام به لكي يجنوا محصولا من الحب ، ذلك بأن النهر إذا فاض من نفسه وأروى حقولهم ، ثم انحسر مأواه عنها بعد إروائها ، زرع كل رجل أرضه وأطلق عليها خنازيره ، فإذا ما دفنت هذه الخنازير الحب بأرجلها انتظر حين يحين موعد الحصاد ، ثم جمع المحصول . وكما كانت الخنازير تدوس الحب بأرجلها ، كذلك أنست القرود ودربت على قطف الثمار من الأشجار ، وكان النيل الذي يروي الأرض يحمل لها في أثناء فيضانه مقادير كبيرة من السمك .»

إن ما ننقله عن هيرودوت يؤكد مقولته الأولى في مصر أنها هبة النيل ، وأن أرض مصر أرضا سخاء رخاء لاتحتاج إلى الكثير من العمل ، وأن النيل هو شريان حياتها والرئة التي تتنفس منها . غير أن هذا النفع لم يكن المزارع ليجني منه شيئا . بل كان كل النفع لمالك الأمر وهو الفرعون أو الإقطاعي . وكانت حياة المزارعين ضنكا ، وملبسهم رثاً ، ومنامهم على الخشن مما تحمل الأرض .

إن الفلاح كان معرضا في كل وقت إلى أن يسخر في عمله لخدمة الملك، يطهر قنوات الري ، وينشئ الطرق ، ويحرث الأرض ، ويجر الحجارة الضخمة

لبناء المسلات وتشيد الأهرام والهياكل والقصور وأكبر ظننا أن كثرة العاملين في الحقول كانت قانعة راضية بفقرها صابرة عليه ، وكان كثيرون منهم عبيدا من أسرى الحروب ، بل كانت الغارات تنظم أحيانا للقبض عليهم كعبيد ، وكان يؤتى بالنساء والأطفال من خارج البلاد ليبعن في الأسواق بأغلى الأثمان .

الصناعة

بدأت الحياة في مصر حياة زراعية صرفة على ضفاف النيل ، وحياة تجارية فيما زاد عن إستهلاكها من حبوب وغلال . ولم يكن للمعادن أو الذهب أي تطلع . حتى بدأ ملوك مصر يستخدمون السجناء والعبيد في التنجيم عن الذهب على طول الساحل الشرقي من نهر النيل وبلاد النوبة.

وليس غريبا بعد ذلك أن نرى مقابر الملوك مليئة بالمعادن الذهبية ، فضلا عن القناع الذهبي الشهير لتوت عنخامون . وفي هذا الصدد يقول العالم والمؤرخ والجغرافي الشهير جمال حمدان في كتابه شخصية مصر إن تراب مصر تراب من الذهب لكثرة توفر هذا العنصر في أراضيها. وكما حلل ديورانت من قبل أن المصريين كانوا أشبه الناس قديما بالأمريكان وذلك لحرصهم الشديد على رأس المال ، فقد كان الأخ يتزوج أخته لا لغرام نشأ بينهم إنما حفاظا على الثروة ، فإن هذا كله كان منبعه الذهب الذي علم المصريين الحرص على جمع الثروة.

ولابد من التنوية أن عمال مصر لم يكونوا بأسعد حظا من زراعها الذين يقدمون خمس مايزرعون لخزانة الدولة. لقد كان كل من يرى هؤلاء البائسين تأخذه الشفقة لفرط شقائهم ، ذلك أنه لايرى أحدا يرحم المرضى والمشوهين والعجزة ، بل إن نقطة تخفيف العمل لم ترد في الحسبان . ولابد لنا أن نعلم – وسوف نتطرق لهذه النقطة في فقرة لاحقة – أن بناء الأهرامات كما هو دليل على العبقرية البنائية وإعجاز حضاري لكل الحضارات المجاورة وغير المجاورة إلا أنه دليل على سخرة الإنسان وذله من إجل إقامة مقبرة الملك.

عرفت مصر في عهد الاسرات الأولى كيف تصنع البرنز بمزج النحاس

والقصدير، وصنعت منه الأسلحة والخوذات والدروع ، ثم صنعت منه بعدئذ العجلات والهراسات والرافعات ، والبكرات ، وآلات رفع الأثقال. وكان المصريون لايقتصرون في صناعاتهم على المعادن أو تنقية الذهب من شوائبه بل تطرقوا إلى صناعة الزجاج والفخار والحفر على الخشب، ومنه كانت التوابيت الجميلة لملوكهم ، والأثاث الفاخر.

وصنع المصريون من نبات البردي الحبال والحصر والأخفاف والورق، ولايزال عصرنا يشهد بما قدموه في هذا الفن. كما برعوا أيضا في صناعة النسيج وكان الكتان المصري هو كلمة السر ومفتاح الفرج في الإستغناء عن الجلود وإستبدالها بالكتان. وقد عثر المنقبون على نماذج منسوجة منذ أربعة آلاف عام، وعلى الرغم من تقادم الزمن إلا أن نسيج تلك القطعة كان أشبه بخطوط الحرير، لدقته المتناهية.

وفي هذا يقول بسكل «إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن، تبين لنا أننا كنا وبعد إختراع الألة البخارية لانفضل المصريين في شيئ».

وعرف عن المصريين النظام الشديد، فألفوا رابطة لأصحاب كل مهنة، وكان الأب يورث مهنته لابنه . وزاد عدد الصناع بسبب كثرة الأسرى. حتى يقول ديورانت أن رمسيس الثالث أهدى مائة وثلاثة عشر ألف أسير إلى الهياكل والمعابد. وتسجل احدى اللوحات الطباشيرية قائمة من العمال وعددهم ثلاثة وأربعون ، وقد وجد على نفس اللوح مواعيد الحضور والإنصراف وأسباب التغيب، سواء كان لمرض أو تضحية لإله أو تكاسل ، ووجد على نفس اللوحة اسم رئيس المجموعة والأجور التي تم صرفها إليهم .

وتقول بعض المصادر أنه كان هناك العديد من الإضرابات ، إذا ما تأخر الملك في صرف أجور العاملين. لكن هذا يتناقض مع ما ذكرناه من قبل من أن حياة الصناع كانت أشبه ما تكون بحياة السخرة، والتوفيق بين الأمريين أن ماكان يأخذه الصناع مقابل عملهم كان يسد الرمق ولايستر الجسد. فالكل يعمل من أجل أن يعيش، لامن أجل أن يحيا حياة كريمة.

القضاء ونظام الحكم

كان الملك مع أعيان الأقاليم المتباعدة يقومون على إدارة شئون البلاد، وتصور أحد اللوحات القديمة هؤلاء الأعيان وهم يقومون على إحصاء ما دخل الخزانة من ضريبة . كما كان يمكنهم معرفة المتوقع من الدخل لهذا العام بقياس إرتفا ع مياة النيل .

وكان للمصريين محاكم مختلفة الدرجات تبدأ من مجالس الحكم المحلية في المقاطعات المختلفة وتنتهي بالمحاكم العليا في منف وطيبة وعين شمس. وكانوا يلجئون إلى التعذيب في بعض الأحيان لحمل المجرم على الإعتراف بالحق. وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة، وكانوا يلجئون في بعض الأحيان إلى عقاب المذنب بجدع أنفه أو قطع يده ولسانه، أو نفيه إلى أقاليم المناجم، أو اعدامه بالشنق، أوبقطع رأسه، أو بإحراقه مصلوبا، وكان أشد أنواع العقاب هو تحنيط المعاقب حيا، أو إحاطته بطبقة من النطرون القارض تأكل جسمه أكلا بطيئا .

لقد كان نظام الحكم في مصر جادا وصارما ، وكانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظاما، وكانت أطول حياة من أي حكومة في التاريخ، وكان الوزير على رأس الإدارة كلها يشغل منصب رئيس الوزراء، وقاضي القضاة، ورئيس بيت المال، وكان الملجأ الأخير للمتقاضين لايعلو عليه إلا الملك نفسه. وكان الوزير يخرج كل يوم إلى الناس ليستمع إليهم ويقضي لهم حوائجهم.

الحياة العامة في مصر

حرص كثير من فراعنة مصر على الزواج من أخواتهم بل من بناتهم حفاظا على الدم الملكي وحفاظا أيضا على الثروة، حتى لاتذهب إلى أحد خارج أفراد الأسرة . وكان لفظ أخي أو أختي في الشعر المصري يعني حبيبي أو حبيبتي ولم يقتصرعلى الملوك فقط بل تسرب إلى بقية أفراد الشعب. وكان للملك فضلا عن أخواته عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب أو من بنات الأعيان، وحدث أن أهدي لأمنحوتب الثالث ثلاثمائة من صفوة الفتيات.

وكان للمرأة مركز متقدم في الحضارة الفرعونية، أماً كانت أم زوجة وفي هذا يقول ماكس ملر « ليس ثمة شعب قديم أم حديث قد رفع منزلة المرأة مثل مارفعها شعب وادي النيل» . وهناك ثمة دليل أخر على رفعة شأن المرأة في الحياة الفرعونية وهو أن كثيرا من النقوش تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس، ويقضين ما يحتجنه من المهام من غير رقيب عليهن أو سلاح بأيديهن، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن.

على أن سلطان المرأة قد بدأ في التناقص مع تقدم الزمن. وظهر جلياً بعد غزو الهكسوس لمصر. وبعد زيادة سطوة اليونان على مصر أيام البطالمة زادت حرية الطلاق زيادة ملحوظة خاصة في الطبقات الراقية.

ويرى ديورانت أن الحياء كلمة لم تعرفها الحضارة الفرعونية ، فقد كان أمرا دارجا أن تتقدم المرأة لخطبة الرجل، وكانوا يتحدثون في الشئون الجنسية بصراحة لم نعهدها في التقاليد الأخلاقية المتأخرة عن عهدهم ، وكانوا يزينون الهياكل بصور ونقوش غائرة تظهر فيها أجزاء الجسم كلها واضحة أتم الوضوح.

وعلى الرغم من هذا أشتهر عن المصريين نبل الطبع ودماثة الخلق، ففي أحد البرديات المعلقة في المتحف البريطاني « لاتطمع في ذراع من الأرض، ولا تعتد على حدود أرملة ، واحرث الحقل حتى تجد حاجتك ، وإن قدحا من الحب يعطيكه الله لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان ، وإن الفقر بيد الله لخير من الغنى في المخازن، وإن الرغيف والقلب مبتهج لخير من الغنى مع الشقاء».

ولم يكن الجمال الذي عرفته الحضارة الفرعونية إلا إنعكاسا لجمال المصريين أنفسهم ، فقد اشتهر عندهم الشعر الأسود . وكان النساء يقصصن شعورهن كأحسن ما يقصصنه هذه الأيام ، وكان الرجال يزينون أنفسهم بشعور مستعارة فخمة. وحتى زوجة الملك نفسها كانت تقص شعرها ليسهل عليها لبس التاج والشعر الملكي المستعار ، كما كانت تفعل تي أم الملك أخناتون .

وكانوا يحمرون وجوههم ويستخدمون الكحل بشكل واضح ، وكانت

العطور على إختلاف أنواعها تستخدم لتعطير الجسم والثياب كما كانت المنازل تبخر بالبخور . وعرف عن المصريين أفخم الثياب بألوانها الزاهية التي تأخذ بالألباب وتؤثر في النفوس. وكان المستخدم في ذلك الوقت الكتان الأبيض ، الذي ظهر بعده الكتان المطرز ذو الأهداب المختلفة التي لايحصى عددها. تسربت هذه الطرز المختلفة إلى جميع أفراد الشعب ، وأضحى الرجال والنساء في حب الزينة سواء . وملاك القول أن نساء مصر القديمة لن يتعلمن منا شيئا عن أدهان الشعر والوجه والجواهر لو أنهن بعثن بيننا في هذه الأيام.

البردي .. عماد الحضارة الفرعونية

إذا ما رجعنا إلى عهد السومريين سنجد أن الكتابة المسمارية كانت تحفر على مقاطع من الطين ، ثقيلة الوزن ، وبالتالي يصعب نقلها من مكان إلى آخر، لذلك كانت لا تستطيع أن تحقق دور الرسائل بشكل فعال . وابتكر المصريون وسيلة أخرى للكتابة كان يسجل عليها كل شيئ ، تلك من نبات البردي ، الذي يقومون بضغطه حتى يصبح رقائق ، ثم يقومون بلصق بعضها على بعض بأشكال متعامدة بحيث تكون في مقاس مناسب للكتابة عليها .

لقد كان الورق أحد أهم السلع التجارية ، ومن أعظم النعم الخالدة التي أنعم بها المصريون على العالم . وحسبنا دليلا على حسن الصناعة أن ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف عام لايزال حتى الأن باقيا متماسكا سهل القراءة .

وكانت الكتب تصنع من الأوراق بضمها إلى بعض وإلصاق الأطراف بعضها ببعض ، وكانوا يصنعون حبرا أسود لايتلاشى بمزج الصناج والصمغ النباتي بالماء ، أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب. بهذه الأدوات البسيطة كتب المصريون للعالم في جميع الفنون والعلوم ، وتركوا أثرا لولاه ماكان لليونانيين قدم في العلم وباع في المعرفة.

وما البردي إلا خطوة في صناعة الورق ، حتى عرفه العالم بشكله الحالي من الصينيين على يد تسى آى لون .

أما اللغة الهيروغليفية فهي قديمة قدم الأسر المصرية الأولى ، وكان أول ظهور للحروف الهجائية عام ٢٥٠٠ ق.م ، وقد خلط المصريون القدماء في كثير من الأحيان بين الحروف الهجائية وبين الصور والرموز ، الأمر الذي صعب قراءة بردياتهم .

الآداب

إن الدعة في العيش ، وإستقرار الحياة ، وتوفر الأمن والأمان ، وتوفر أدوات التدوين شجع المصريين على الإدلاء بما في جعبتهم من آداب ، فقدموا في القصص وقدموا في الشعر ، وتركوا للعالم تركة كبيرة كان منها قصة السندباد البحري . تحكي القصة أن ملاحا نزل البحر في سفينة طولها مائة وثمانون قدما وعرضها ستون ، وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين الخبيرين بمعالم الأرض والسماء ، وقلوبهم أشد بأسا من قلوب الآساد ، وهبت علينا ريح عاصفة ونحن لانزال في البحر ، ودفعتنا الرياح حتى كنا نطير أمامها ، وثارت موجة علوها ثمان أذرع ، ثم تحطمت السفية ، ولم ينج أحد ممن كان فيها ، وألقت بي موجة من أمواج البحر في جزيرة ، قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردي لا رفيق لي إلا قلبي ، أنام تحت شجرة وأعانق الظلال، ثم مددت قدمي أبحث عما أستطيع أن أضعه في فمي ، فوجدت أشجار التين والكروم وجميع صنوف الكرات الجميل ، وكان فيها سمك ودجاج وجميع أنواع الكرات الجميل ، وبعد أن صنعت لنفسي جهازا أوقد به النار أشعلتها قربانا إلى الإله .

أما القصص القصيرة فكثيرة ومتنوعة من بقايا الأدب المصري. ومن هذه قصصا عجيبة بديعة عن الأطياف والمعجزات والتلفيقات العجيبة التي تخلب الألباب والتي لاتقل في سبكها وقربها من الحقائق عن قصص الشرطة السرية التي يصدقها رجال الحكم في هذه الأيام . ومنها أيضا روايات غرامية مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات والملوك والملكات ومن ضمنها أكبر مثال معروف لقصة سندريلا ، وقدمها الصغيرة الجميلة ، والحذاء الجوال، وإنتهاء القصة من زواج سندريلا من ابن الملك . ومنها قصص خرافية على

لسان الطير والحيوان تفصح عن نقائص الآدميين وشهواتهم وعواطفهم، وتهدف في حكمة وتعقل إلى معان علمية سامية. ومن القصص المصرية التي تمزج الحوادث الطبيعية المعقولة بخوارق الطبيعة قصة أنوبو وبيتيو , وهما أخوان صغير وكبير ، كانا يعيشان في مزرعة ، حتى هامت زوجة أنوبو بحب بيتيو ، فردها عن نفسه ، فوشت به عند أخيه بأنه هو الذي أراد بها سواء ، وجاءت الألهة والتماسيح لتعين بيتيو على أنوبو ، لكن بيتيو ينفر من بني الإنسان إلى الغابات ويعتزل العالم كما فعل تيمن الأثيني فيما بعد . ويعلق قلبه في أعلى زهرة في شجرة لايستطيع الوصول إليها أحد . وتشفق عليه الألهة في وحدته فتخلق له زوجة رائعة الجمال، يشغف النبيل بحبها ، ويختلس غديره من شعرها، وتحمل مياة النهر تلك الغديرة ، فيعثر عليها الملك فيسكره عطرها ، ويأمر أتباعه بالبحث عن صاحبتها ، ويعثر عليها هؤلاء ويأتونه بها فيتزوجها ، وتدب في قلبه الغيرة فيأمر رجاله أن يذهبوا ويقطعوا الشجرة .

وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آدابا دينية ، وأقدم القصائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام. وصيغتها هي أيضا أقدم الصيغ المعروفة لنا ، وهي عبارة عن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلدوها في المزامير . وفي عصر الإنتقال من الدولة القديمة إلى الدولة الوسطى تصطبغ الآداب تدريجيا بالصبغة الدنيوية الدنسة . إلا أن النصوص المصرية لم تخلوا من حبا عذريا ، على عكس مايراه نيتشه أن الحب العذري عرفه فرسان أوروبا الوسطى. ومن النصوص التي يمكن الإستدلال بها ما أورده ديورانت على لسان احدى العاشقات وهي تقول « أنا أختك الأولى ، وأنت لي كالروضة التي زرعت فيها الأزهار، والأعشاب العطرة جميعا ، إن سماع صوتك ليسكرني ، وحياتي كلها في سماعك ، وإن رؤيتك لأحب إلي من الطعام والشراب «

نخلص من هذا إلى أن الآداب المصرية تغيرت لغتها بتقادم الزمن ، ولم

تقف عند وتيرة واحدة ولا موضوع واحد. وذاك أمر دائم التكرار في الحضارات المختلفة ، فقد حدث عند اليونان وعند الرومان وعند العرب، ولايزال يحدث إلى يومنا هذا في الحضارات والأمصار المختلفة.

العلوم

كان معظم علماء مصر من الكهنة ، ذلك لأنهم يعيشون في هدوء الهيكل ولا إتصال بينهم وبين الصخب الخارجي. ولهؤلاء العلماء مقولة شهيرة في أنهم يرجعون فضل ما توصلوا إليه من معارف إلى إله الحكمة تحوت في العام ١٨٠٠ ق.م ، وهو الوقت الذي حكم فيه الأرض ثلاثة آلاف عام. يقولون أيضا إن تحوت في فترة حكمه للأرض كتب عشرين ألف مجلد هي مخزن العلوم لهذا الكون .

ويؤكد العلماء أن منشأ علم الهندسة يرجع إلى مصر وذلك أن النيل الذي كان يفيض في بعض السنوات ويقل في الأخرى ، أو بتعبير أدق يقل في أوقات معينة من السنة ويزيد في أوقات أخرى جعل المصريين يقيسون هذا الإرتفاع ليتنبؤا بما سيدخل إلى خزينة الدولة بعد الحصاد. ومعنى كلمة Geometry يرجع فيها الإشتقاق إلى كلمتين هما قياس الأرض ، وهذا ما كان يحدث في النيل. أي قياس إرتفاعه وإنخفاضة.

بل لقد كاد المصريون أن يصلوا إلى النظام العشري في الأعداد ، فكانوا يعبرون عن الواحد بشرطة واحدة وعن الإثنان بشرطتان وعن العشرة بعلامة أخرى وعن العشرين بعلامتين من جنس العلامة الأولى ، وعن المائة بعلامة ثالثة وعن المائتين بعلامتين من جنس تلك العلامة حتى التسعمائة ، اما الألف فكانوا يعبرون عنها بصورة رجل يضرب كفا بكف فوق رأسه كأنه يعبر عن دهشته من وجود مثل هذا العدد.

والمعروف لدى الجميع أن العرب هم من سهل على العالم كله العملية الحسابية بإبتكارهم الصفر. أما جداول الضرب والقسمة فهي قديمة قدم الأهرامات. يدلنا على ذلك بردية أحمس – أقدم بردية في تاريخ الرياضيات – والتي يرجع تاريخها إلى ألفي عام قبل الميلاد.

ولم تقتصر رياضيات المصريين إلى حساب المربعات والدوائر بل إلى حساب الحجوم أيضا ومنها إلى المعادلات الجبرية من الدرجة الأولى ومعرفة النسبة التقريبية وتقديرها ب٣,١٦ . وما أعظم فخرنا بالمصريين حين نعلم أننا خلال أربعة آلاف عام استطعنا أن نصحح تلك النسبة من ٣,١٦ إلى ٣,١٤ .

أما الفلك فقد بلغ فيه الفراعنة كل مبلغ. وشاهد ذلك ما شيده رمسيس الثاني بمعبد أبوسمبل ، إذ جعل الشمس تتعامد على وجه الملك في يوم ميلاده فقط من كل عام ، الأمر الذي يتطلب الدراية الكاملة بزوايا ميل الشمس. وكان المصريون يقسمون السنة إلى ثلاثة فصول ، كل فصل أربعة أشهر . أولها فصل ارتفاع النيل وفيضه وانحساره ، وثانيها فصل الزرع ، وثالثها فصل الحصاد. وكان عدة كل شهر من شهورهم ثلاثين يوما ، لأن هذا العدد هو أقرب الأعداد السهلة إلى طول الشهر القمري الذي يبلغ تسعا وعشرين يوما ونصف اليوم . وكان لفظ الشهر في لغتهم كما هو في اللغة الانجليزية مشتقا من رمزهم للقمر .

وكانوا يضيفون أخر الشهر الثاني عشر خمسة أيام ، حتى تتفق السنة في الحساب مع فيضان النيل ومع مواقع الشمس . واختاروا لبدء السنة اليوم الذي يصل فيه النيل عادة لأقصى ارتفاعه والتي كانت فيه الشعرى العظيمة «وكانوا يسمونها سوثيس» تشرق مع الشمس في وقت واحد . ولما كان التقويم المصري يجعل السنة ٣٦٥ يوما بدل من ٣٦٥ يوما وربع ، فإن الفرق بين شروق الشعرى وشروق الشمس وهو الذي كان في أول الأمر صغيرا لايكاد يدرك قد ازداد حتى بلغ يوما كاملا بعد أربع سنوات .

وبذلك كان التقويم المصري يختلف عن التقويم السماوي الحقيقي بست ساعات في كل عام ، ولم يصحح المصريون هذا الخطأ حتى جاء فلكيو الأسكندرية فأصلحوه بأمر يوليس قيصر عام ٤٦ ق.م وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين. وهذا هو مايسمونه التقويم اليوليوسي .

وبرع المصريون في فن التحنيط ، فهم أول من فكر في إخراج أحشاء الأدامي كي لايصل إلى مرحلة البلى . وبالتبعية فقد كان لهم إسهامات طبية جليلة ، بل كان الطب هو المفخرة العلمية الكبرى للمصريين . كان المرض في نظر المصريين هو إستيلاء الشيطان على الجسد ، وتحرير الجسد من الشيطان نوع من أنواع السحر ، وسبيل ذلك التمائم .

وكان من المصريين أخصائيون في التوليد وأمراض النساء ، ومنهم من لم يكن عالج إلا اضطرابات المعدة ، ومنهم أطباء العيون . وقد بلغ شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحدا منهم إلى بلاد الفرس. أولئك هم الأخصائيون ، أما غير الأخصائيين منهم فقد ترك لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس ، وكان من عملهم فوق هذا أن يحضروا أدهان الوجه ، وصبغات الشعر، وتجميل الجلد ، ومبيدات البراغيت .

ومن أعظم البرديات الطبية بردية أدون سمث ، وسميت كذلك نسبة إلى مكتشفها وهي ملف طوله خمسة عشر قدماً ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق.م تقريبا وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيراً. حتى لو ضربنا صفحا عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البردية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة في التاريخ وهي تصف ثماني وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف من كسر في الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكي. وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثا دقيقا في نظام منطقي وعناوين مرتبة من تشخيص إبتدائي مؤقت، وفحص ، وبحث في الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة ، وتشخيص العلة والاستدلال باعراضها على عواقبها وطريقة علاجها ، ثم تعليقات على سطح المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها .

هذه مكانة متقدمة في وقت مبكر من الحضارة ، وهذا هو الفارق بين حضارة وادي النيل وغيرها من الحضارات ، فقد شملت وعمت وأسمعت وأبدعت ثم أورقت وأثمرت في حضارات أخرى. وإننا حين ننظر إلى الجدال الدائر في أي الحضارات أقدم السومرية أم المصرية ، أو السؤال النمطي الذي تردد بوعي

أو لا وعي ماهي الحضارة الأولى في العالم ، نقول إن أردتم التاريخ فالحضارة السومرية وإن أردتم النضوج والشمولية والاستيعاب فالحضارة المصرية ، لأنها تطرقت إلى الطب والهندسة والرياضيات والتحنيط والفلك والقانون والأدب والزراعة والصناعة والزخارف بل وحتى بروتوكولات تناول الطعام.

وكان هناك أمراض شائعة عند المصريين ، وتحدثنا البرديات وأجسام الفراعنة المحنطة عن تدرن النخاع الشوكي وتصلب الشرايين والحصوات الصفراوية والجدري وشلل الأطفال وفقر الدم وإلتهاب المفاصل ، وليست لدينا دلائل تثبت إصابتهم بالزهري أو السرطان. وكان لدى الأطباء المصريين مجموعة وافية من الأدوية تقي من العديد من الأمراض ، إبتداء من عضة الأفعى إلى حمى النفاس . وتصف بردية كاهون بعض أنواع اللبوس التي كانت تستخدم لإخراج ما بداخل الجسم من الطعام ، فقد فطن الفراعنة أن الأمراض تنشأ من الزائد عن إحتياج الإنسان من الطعام ، ويقول هيرودت إنما استخدم المصريون الحقن الشرجية تقليدا منهم للطائر أبي منجل حيث كان يضع منقاره في فتحة شرجه ليخرج الزائد عن إحتياجه .

عرف المصريون أن نقص الوزن فيه راحة البدن فداوموا على استخدام الحقن الشرجية والمقيئات ليخرجوا الزائد عن إحتياج الجسم من الطعام فمنه يكون المرض .

الفن والعمارة

كان الفن أعظم عناصر هذه الحضارة فنحن نجد في هذه البلاد ، وفي عهد يكاد يكون عهد بداية الحضارات فنا قويا ناضجا أرقى من فن أية دولة حديثة ، لايضارعه إلا فن اليونان . لقد كان ما امتازت به في أول عهودها من عزلة وسلم ، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغانم الظلم والحرب في عهد تحتمس الثالث ورمسيس الثاني ، ما أتاح لها الفرصة المواتية بتشييد المباني الضخمة، ونحت التماثيل المتينة والبراعة في عدة فنون ، كادت تبلغ حد الكمال في هذا العهد السحيق.

وكانت العمارة وبلا شك فن المصريين المفضل ، بدء بتزيين المقابر ونقش الواجهة الخارجية لجدران المنازل . وبدء بسيطا فقد كانت المنازل ، والتي تبنى على الجهة الشرقية من النيل ، والتي أيضا لم يتبقى منها أثر شاهد حتى اليوم، تبنى من الطين وتسقف بعروق الخشب المتواضعة ، وكان يحيط بالدار عادة سور يضم فناء ، يصعد منه درج إلى سطح البيت .

كان هذا في المنازل الخاصة بالطبقة البسيطة من أبناء الشعب ، أما قصور النبلاء وهياكل ومعابد الألهة فكان يوفر لها الغالي والثمين من أحجار البناء وكانت تشييد في ضخامة غير معهوده حتى توحي لداخلها بالرهبة والضآلة. فأعمدة الكرنك مثلا يصل قطر الواحد منها إلى ثلاثة أمتار ويصل إرتفاعها هي إلى مايزيد على العشرين مترا. لم يعرف الفراعنة وقتها نظرية الإنبعاج الإنشائية ، ولكن هذه الضخامة كانت بهدف زرع الرهبة في نفوس الداخلين ، لأنك في حضرة الإله ، وخضوع النفس وإنحناء الرأس من مستلزمات ذلك الخضوع.

إذا في عهد مبكر جدا من التاريخ أصبح للعمارة فكرة معمارية تقودها وتقود كل البنائين الذين يعملون في إقامة المبنى . لم يكن لكوربوزيه وجود هو أول من حدثنا عن بساطة الفكرة وقوة التعبير. فها هم الفراعنة يضعون الأعمدة الشاهق في بهو المعبد ، ويتخذون من شكل الهرم قبرا في حياة البرزخ . وإذا أمعنا النظر إلى شكل الهرم سنجد أنه أفضل الأشكال تعبيرا عن صعود الروح، وتعبيرا عن حالة الثبات والسكون التي يكون عليها المتوفى في داخل قبره ، لذا فقد كان الفراعنة أسبق إلى الفكرة التعبيرية من أي أحد أخر . وإن التاريخ ليشهد أن المصريين هم أعظم البنائيين في التاريخ كله بلا جدال ، ومن الناس من يضيف إلى هذا أنهم أعظم المثالين ، فلقد أنشأوا في بداية تاريخهم تمثال أبي الهول ، ذلك التمثال الذي يرمز إلى الصفات الأدبية التي اتصف بها أحد الفراعنة الأقوياء ، ولعل هذا الفرعون هو خفرع. والتمثال لاينم عن القوة فحسب

بل يفصح كذلك عن الصفات الخلقية ، فهو جسد الأسد ورأس الإنسان ، وهنا الجمع بين القوة والبيان. ولم يسلم التمثال من يد المماليك ، فلقد أصابه طلق مدفعي جدع أنفه. لكن ملامحه القوية الضخمة تعبر أحسن تعبير عما اتصف به ذلك الملك من قوة ومهابة وهدوء ونضوج ، وكلها صفات ما ينبغي أن تغادر صورة الملك. وقد علت هذه الملامح الساكنة ابتسامة عمرها خمسة آلاف سنة. كأنما الفنان المجهول الذي صاغه أو الملك المجهول الذي يرمز التمثال له يفهم كل مايريد الخلق أن يفهموه عن الخلق .

لقد كان الفراعنة مهندسين معماريين بحق ، ونحاتين بارعين دون أدنى شك . إن الهيبة والجلال لهما الصفتان الأقربان للعمارة المصرية والتي نقل عنها اليونان ثم نقلت عنها أوروبا بأكملها. فأعمدة اليونان منقولة عن الأعمدة المصرية ،وإن كانت الأعمدة المصرية تفوقها في تعدد أشكالها ، فمنها أعواد البردي واللوتس ، ومنها صور النساء ، ومنها أيضا ما هو على صورة حتحور .

لقد نقل اليونانيون عن المصريين هذه العمد وتلك العتبات ، واستخدموها في قصورهم ومعابدهم ، ونقلت بعد ذلك روما ، ثم نقلت أوروبا بأكملها. وأنتقل من تلك النقطة إلى نقطة أخرى، وبقي سر هو كيف استطاع المصريون الوصول إلى هذا الارتفاع الشاهق في مبانيهم في عصر لم تتوفر فيه روافع ولا ماكينات ، والثابت أنهم استخدموا المصاطب الرملية ، فإذا ما فرغوا من عملية البناء أزالوا تلك المصاطب ، فتظهر أعمدة الكرنك للعيان دون لبس أو مواربة. وهذا التفسير وإن كان هناك من يرفضه الا أنه ينم عن مجهود خرافي في الردم والإزالة ، وإن دل ذلك على شيئ فإنما ينم عن ولع المصريين بالعمارة . وهو الأمر الواضح والمشاهد في تلك الحضارة.

لقد بدء الخلق يتنبهون وفي وقت مبكر جدا أن العمارة أداة للتوثيق التاريخي لما وصلوا إليه من مدنية ورقي. ولم يكن أمامهم خيار أخر غير التعبير وبقوة عن قوة ذلك العصر ، سواء تمثل هذا في إرتفاع الأعمدة أم في نحت المسلات أم الكتابة عليها .

ومن عجائب ذلك الزمن أن المسلات ، التي كان يصل إرتفاعها إلى ثلاثين مترا، والتي تملئ ميادين أوروبا، كانت عبارة عن قطعة واحدة من الصخر ، تقطع برسم معالمها ثم بقطعها عن طريق حفر ثقوب متتالية وعلى خط واحد ، ثم ملئ تلك الثقوب بالخشب ، ثم سقيها بالماء. فإذا ما وصل الماء إلى الخشب الموجود في الثقوب المتعاقبة ، زاد حجم الخشب وأحدثت تلك الزيادة الحجمية فالق تتصل أطرافها بعضها ببعض بسبب قرب الثقوب. وبتلك الطريقة العبقرية إستطاع المصريون قطع قطعة واحدة من الصخر دون إستخدام منشار كهربائي. قطعوا الصخر بالماء.!

فإذا ما أرادوا تثبت تلك المسلة على قاعدة ، إستخدموا المصاطب الرملية لإيقافها. إنني أشعر وانا أسرد تلك المحاولات أن المصريين لم يقف في طريقهم عائق للوصول إلى أهداف معينة. وما أبرع أن يضاف إلى صفات الحضارة فوق صفة الشمولية صفة القدرة.

ولم تكن الأعمدة ولا التماثيل ولا الأهرامات هي الإبداعات الوحيدة للعمارة المصرية ، فلقد أخرج الفراعنة العمارة عن الفكرة المعمارية البسيطة ، وربطوها بما هو أصعب وهو الفلك ، وفي معبد أبوسمبل وقصة تعامد الشمس على وجه الملك – والتي سبق الإشارة إليها – ما يدل على ذلك . إن العجيب في تلك القصة أن منظمة اليونسكو والمنظمات العالمية عندما قامت بنقل المعبد بعد بناء السد العالي ، تأخر تعامد الشمس على وجه الملك يوما واحدا . فهل كان المصريون بأجهزتهم ومعداتهم البسيطة أبرع من اليونسكو في ضبط زوايا ميل الشمس داخل المعبد .

إن العمارة المصرية عمارة تدل على معرفة ، وتدل على تمكن وإلمام بناصية العلم. وفرق شاسع بين عمارة تبنى بالإمكانيات المتاحة وبين عمارة تتم تطويع المواد لها فتدل على التمكن والقدرة، وتشير ولو من بعيد إلى حضارة سامقة أحدثت مالم يحدثها غيرها من الحضارات.

ومامن شيئ في تاريخ النحت أجمل من تمثال خفرع المصنوع من حجر الديورانت الواقف حاليا في متحف القاهرة . هذا التمثال يتعدى عمره الخمسة آلاف عام ، لكنه ينقل إلينا كأكمل ما يكون النقل قوة الملك البدنية وسلطانه وعناده وصلابة رأيه وبسالته وذكائه. ويجلس بالقرب منه تمثال عابس متجهم لملك أقدم من صاحب التمثال الأول هو تمثال الملك زوسر والمصنوع من الحجر الجيري .

ويضاهي ذلك التمثال تمثال الكاتب المصري ، وهذا التمثال مصنوع من الخشب ، لكن الزمان لم يقو على تشويه جسمه أو ساقيه الغليظتين ، وينم وجهه المستدير بقناعة الرجل الذي يعرف مكانته ويفخر بها ، ويشعرنا رأسه الأصلع وثوبه المتهدل على واقعية الفن الذي كان في ذلك الوقت قد وصل إلى مرحلة تجيز له أن يثور على التقاليد . وفي ذلك يقول مسبيرو « لو أن معرضا أنشئ لروائع الفن في العالم كله لاخترت هذا التمثال ليمثل عظمة الفن المصري» .

هذه هي الروائع الفنية من تماثيل الدولة القديمة. لكن هناك آيات فنية أخرى أقل روعة ، منها تمثال رع حوتب وزوجته الجالسان ، ومنها التمثال القوي للكاهن رنوفو، ومنها تمثالا الملك فيوبس وولده المصبوبان من النحاس ، ومنها رأس باشق من الذهب ، ومنها الصورتان الهزليتان لعاصر الخمر وللقزم كنمحوتب ، كما أورد ديورانت. وكل هذه التماثيل موجودة في المتحف المصري في القاهرة.

ويقول ديورانت « أن هذه التماثيل قد تعرضت لعيب فني ، أن أجسامها وعيونها متجهة إلى الأمام على حين أن الأيدي والأقدام قد رسمت من أحد الجانبين ، وذلك جريا وراء عرف غريب متبع في جميع ضروب الفن المصري ، هو أن جميع أجسام تماثيل النساء تصورهن فتيات في سن الشباب ، وتماثيل الملوك تظهرهم كلهم أقوياء ، ولكن مهما يكن من الجمود والتماثل اللذين لحقا فنون النحت والتصوير والنقش البارز ومافرضه الكهنة من قيود العرف ، ومن

سلطان لهم شديد . وبالرغم من هذا كله فإن هذا النقص عوضه عمق في التفكير، وقوة ودقة في التنفيذ، وما تمتاز به الصناعة من طابع خاص»

والحق أن فن النحت لم يكن في بلد من البلدان أكثر منه حيوية في مصر. ولم تصل منتجات فن النحت المصري بعد عهد الأسر الأولى إلى ماكانت عليه في عهدها الا بعد أن مضت عليها قرون كثيرة. وإذا كان معظم التماثيل إنما صنع للهياكل أو المقابر فقد كان الكهنة هم الذين يقررون إلى حد كبير الأنماط التي يلتزمها الفنان . ومن هذا السبيل تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة ، فجثم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سببا في تدهوره . فلما أن تولى الحكم ملوك الأسرة الثانية عشر الأقوياء عادت الروح الدنيوية غير الدينية إلى الظهور وأثبتت وجودها ، واستعاد الفن شيئا من قوته القديمة ، وفاق الفنانون ماكان عليه أسلافهم الأولون من براعة . ويوحي رأس أمنمحيت الثالث المنحوت من حجر الديوريت ببعث جديد للفن وبعث للأخلاق .

وكثرت روائع الفن كثرة لم يسبق لها مثيل حتى قامت تماثيل تحمتمس الثالث ورمسيس الثاني تناطح السحاب . إن التمثال النصفي لتلك الملكة العظيمة المنحوت من الحجر الأعبل والمحفوظ في المتحف الفني في نيويورك ، وتمثال تحتمس الثالث المصنوع من البازلت والمحفوظ في متحف القاهرة ، وتماثيل أبي الهول المصنوعة في عهد أمنحوتب الثالث والمحفوظة في المتحف البريطاني ، وتمثال اخناتون الجالس المصنوع من حجر الجير والمحفوظ في متحف اللوفر، والتماثيل الضخمة التي صنعها في الصخر عند أبي سمبل مثالو رمسيس الثاني ، والآثار العجيبة الرائعة التي وجدت في تل العمارنة والتي تشمل نموذج من الجبس لرأس اخناتون ، والتمثال النصفي الجميل للملكة نفرتيتي زوج اخناتون، وهذه الأمثلة المنتشرة في بلاد العالم تصور للقارئ صورة من أعمال النحت الكثيرة الرائعة التي يفيض بها عصر الامبراطورية.

على أن جذوة النهضة الفنية لم تلبث أن خمدت بعد عهد رمسيس الثاني،

وظل الفن المصري من بعده قرونا كثيرة يكرر الأعمال والأشكال القديمة. وحاول الفن أن يقوم من كبوته في عهد الملك ساو ولكنه ماعاد أبدا إلى سابق عهده .

والعمارة والنحت أهم الفنون المصرية ، لكننا إذا أردنا الحقيقة كان علينا أن ندخل النقوش الغائرة في حسابنا . فليس في شعوب الأرض شعب جد في حفر تاريخه كما جد في ذلك قدماء المصريين. وإنا ليدهشنا لأول وهلة ما بين القصص المنقوشة من تشابه ممل ، كما يدهشنا ازدحامها وكثرتها ، ومافيها من انعدام التماثل وعدم مراعاة قواعد المنظر، أو المحاولات غير الموفقة التي بذلوها بتمثيل الأشياء البعيدة في المنظر فوق القريبة ، ونحن ندهش حين نرى طول قامة الملك وقصر قامة أعدائه ، وهذا في النقوش والتصوير ، وفي النحت يصعب علينا أن نألف عيون وصدور مرسومة كأننا ننظر إليها من الأمام على حين أن الذقون والأنوف والأقدام مرسومة كأننا ننظر إليها من أحد الجانبين . ولكننا في مقابل هذا يروعنا جمال الباشق والأفعى المنقوش على قبر الملك ونيفيش ، ونقوش الملك زوسر الجيرية على هرم سقارة المدرج ونقوش الأمير هزيريه الخشبية التي استخرجت من قبره في هذا الموضع نفسه ، وصورة اللوبي الجريح المحفورة على قبر من قبور الأسرة الخامسة في أبي صير ، وهي دراسة طويلة لعضلات الجسم المتوترة من شدة الألم ، ولايسعنا أخيرا الا أن نتأمل في أناة وهدوء النقوش الطويلة التي تقص علينا كيف اجتاح تحتمس الثالث ورمسيس الثاني في حروبهما كل ما اعترض سبيلهما ، وندرك روعة النقوش التي حفرت لسيتي الأول في الكرنك ونتبين ما بلغته من كمال ، ونتتبع بعظيم الشوق واللذة النقوش المحفورة على جدران معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري.

والنقش الغائر هو همزة الوصل بين النحت والرسم بالألوان على أن الرسم الملون لم يرقى في مصر إلى منزلة الفن المستقل إلا في عهد البطالمة وبتأثير بلاد اليونان ، أما فيما عدا ذلك فقد كان فنا ثانويا تابعا لفنون العمارة والنحت والنقش . وكان عمل الرسام هو ملء الخطوط الخارجية التي ملئها عدد

غيره من الفنانيين ، ولم تقتصر مهمته على ذلك فقط بل تعدى ذلك إلى دهان الأسطح وتلوين التماثيل . ولم نجد من الماضي ما يمثل هذا الفن إلا صورة أخرجت من قبر في ميدوم . ولاتوحي تلك الصورة إلا بشيء واحد هو إقتراب المصريين القدماء من حد الكمال في فن التلوين على عهد الأسر الأولى .

فلما كان عصر الإمبراطورية غصت القبور بالرسوم الملونة وكان الفنان المصري قد توصل إلى صنع كل لون من ألوان الطيف ، وتاقت نفسه لى أن يظهر للناس حذقه في إستخدامها فأخذ يحاول تصوير الحياة المنتعشة في الحقول المشمسة على جدران المنازل والهياكل والقصور والمقابر وعلى سقوفها كلها ، فصور عليها طيور تطير في الهواء وسمكا يسبح في الماء ، وحيوانا يعيش في الآجام .ونلاحظ في هذه الرسوم كما لاحظنا في النقوش الغائرة أن الخطوط جميلة لكن التركيب ضعيف. ونرى الرسام في ذلك الوقت يحب أن يضع أجزاء الصورة بعضها على بعض بدل أن يراعي في وضعها قواعد المنظور، كما أشرنا إلى ذلك من قبل. على أن الجمود الناشئ عن المحافظة على القواعد الشكلية وعلى التقاليد في النحت المصري كان هو السائد في ذلك الوقت، ولذلك لا يكشف لنا هذا الفن عن الفكاهة الباعثة على البهجة أو على الواقعية ، وهما الصفتان اللتان يمتاز بهما فن النحت في ما بعد ذلك العصر.

وملاك القول أن فن الرسم المصري رغم مافيه من عيوب لم يسبقه فن مثله في أي حضارة شرقية إلا في عصر الأسر الوسطى في بلاد الصين. أما الفنون الصغرى فكانت أعظم فنون مصر . ذلك أن الحذق والجد اللذين شيدا الكرنك والأهرام ، واللذين ملئا الهياكل بتماثيل الحجارة ، قد انصرفا أيضا إلى تجميل المنازل من داخلها ، وتزين الأجسام ، وابتكار جميع متع الحياة ونعمها. فالنساجون قد صنعوا الطنافس والقماش المزركش الذي يزين الجدران، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة في نسجها رقة لايكاد يصدقها العقل. ولقد كشفت مخلفات توت عنخ آمون عما كان عليه أثاث قدماء المصريين

من ترف عجيب ، وعما بلغته كل قطعة وكل جزء من قطعة من صقل بديع ، سواء في ذلك كراسيه المكسوة بالفضة والذهب البراقين ،والسرر ذات الرسوم الفخمة والصناعة الدقيقة ، وصناديق الجواهر وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش ، والمزهريات التي لاتضارعها الا مزهريات الصين . وكانت موائدهم تحمل آنية ثمينة من الفضة والذهب والبرنز، وكؤوسا من البلور وجفانا براقة من حجر الديوريت صقلت ورقت حتى كاد الضوء ينفذ من خلال جدرانها الحجرية . وإن ما اشتملت عليه مخلفات توت عنخ آمون من أنية المرمر ، وعثر عليه المنقبون في خرائب بيت أمنحوتب الثالث في طيبة من الأزورد ومن طاسات للشراب ، ليدل على ما بلغته صناعة الخزف من مستوى رفيع . وآخر ما نذكره من هذا جواهر الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد كان لهذين العهدين من الحلي الثمينة الكثيرةما لا يكاد يفوقه شيئ في جمال الشكل ودقة الصنع. وتشمل المجاميع الباقية من تلك الأيام قلائد ، وتيجانا ، وخواتم ، وأساور ، ومرايا ، وحليات للصدر وسلاسل ، ورصائع ، صيغت من الذهب والفضة والعقيق والفلسبار واللازورد والجمست ، وكل ما نعرفه من الحجارة الكريمة.

وكان أثرياء المصريين كأثرياء يسرهم جمال مايحيط بهم من التحف الصغيرة فكان كل مربع من العاج في علب حليهم ينقش ويزين أجمل زينة وأدقها . لقد كانوا يلبسون أجمل الملابس ، وكانوا ينعمون بأحسن عيشة ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم اليومي يمتعون أنفسهم بنغمات الموسيقى الهادئة على العود والقيثارة والصلاصل والناي . وكان للهياكل والقصور فرق من العازفين والمغنيين ، وكان من موظفي قصر الملك «مشرف على الغناء» يقوم بتنظيم العازفيين والموسيقين الذين يقومون على تسلية الملك. وكان أسنفرو ونفر نابغتي الغناء في أيامهما. ومن الأمور الشاذة غير المألوفة أن يبقى اسم هذين الفنانين الذين خلدوا بجهودهم ذكريات الأمراء والقساوسة والفنانين والملوك ولم يكن لديهم من الوسائل ما ينقلون به ذكرهماإلى من يجيئ من بعدهم، وإن كنا

نسمع بإيمحوتب مهندس عهد زوسر ، وهو رجل يكاد يكون اسمه اسطورة من الأساطير القديمة ، ونسمع عن إنيني الذي أعد رسوم المباني العظيمة أمثال معبد الدير البحري ، وعن بويمر ، وحبوسنب ، وستموت الذين شادوا المباني العظيمة للملكة حتشبسوت ، وعن الفنان تحتمس الذي كشف في بقايا مرسمه كثير من روائع الفن، وعن بك المثال الفخور الذي يقول لنا أنه لولاه لعفي على اسم اخناتون الزمان . وكان لأمنحوتب الثالث مهندس معماري يسمى أيضا أمنحوتب بن حابو ، وكان الملك يضع تحت تصرف هذا المهندس ثروة يخطئها الحصر. وذاع اسم هذا المهندس حتى عبدته مصر واتخذته إلها من آلهتها ومع ذلك لم يأخذ الفنانين والموسيقين نفس القدر من الإهتمام .

العمارة في بلاد النيل

العمارة في وادي النيل عمارة وصلت إلى مرحلة النضج وبلغت حد الرشد، والغريب أننا إنخفضنا عن هذا الحد في عمارتنا المعاصرة . لقد قدم القدماء المصريون إلى العالم درسا مفاده ، أن العمارة لا تبلغ حد الخلود إلا إذا ربطت بالإعجاز العلمي ، فلا يجوز للمهندس المعماري أن يكون مشكلا وفقط ، ولا يجوز له أن يتغزل في جمال الخطوط دون إحاطة بعلوم الإنشاء أو أسرار الفلك. وقد تجسد هذا الأمر في أبوسمبل والدير البحري والأهرامات. ولم تعد العمارة تؤدي وظيفة الإيواء ولا الحماية من الوحوش الكاسرة ، بل تعد الأمر للبحث عن الخلود وتدوين التاريخ من خلال المسلات.

إن هذا الفهم أكسب العمارة معنا إضافيا ، وأضحت العمارة للمرة الأولى الأداة التي يدون بها التاريخ. لم تكن تبحث فيها عن خطوط جميلة أو ألوان زاهية إنما تبحث عن إعجاز في التصميم وإبتكار في التنفيذ. وما ذاك إلا قبلة كل مهندس مبدع.

حضارة فارس

الحضارة الفارسية ملكت الدنيا مائتي عام ، فما الذي قدمته إلى الحضارة العالمية ؟ وهل اختلف عمران الفرس عن عمران الفراعنة ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذا الجزء من الكتاب.

من هم الفرس ؟

هم أقوام من الجنس الهندورتي يرجح أنهم جاءوا من شواطئ بحر الخزر إلى غرب آسية قبل المسيح بنحو ألف عام ، ويشيد الزند-أبستاق وهو كتاب الفرس المقدس بذكر هذا الموطن القديم ويصفه بأنه جنة من الجنان .

ويقول ديورانت في كتاب قصة الحضارة «ويلوح أن الميديين كانوا يضربون في إقليم بخارى وسمرقند ، وأنهم توغلوا منه نحو الجنوب شيئا فشيئا ، حتى وصلوا في آخر الأمر إلى بلاد فارس ، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والأحجار الكريمة في الجبال التي اتخذوها موطنا لهم.

وهذا الإختلاف الظاهر بين الهند أوبخارى وسمرقند ليس حقيقيا. فكلاهما من بلاد الهند .

ولأن الميديين قوما أشداء بسطاء في معيشتهم فقد أخذوا يفلحون أرض السيول وسفوح التلال وعاشوا عيشة رخية . وفي ملتقى الطرق الكثيرة الواقعة في واد جميل المنظر أخصبته المياة الذائبة من الثلوج المغطية لقمم الجبال أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى ، وزينها بقصر ملكي يشرف عليها ويغطي ثلثي ميل مربع من الأرض . ويقول في فقرة من كتابه لم تجد ما يؤيدها : إن ديوسس هذا قد وصل إلى ما وصل إليه من القوة بما اشتهر به من العدالة ، فما أن بلغ ما بلغ طغى وتجبر وأصدر أوامر تقضي بأن لا يسمح لإنسان بالمثول بين يديه بل عليه أن يعرض أمره على يد رسله ، وأن يعد من سوء الأدب أن يضحك إنسان أو يبصق أمامه ، وقد أراد بهذه المراسم التي فرضها حوله أن يبدو لمن لايرونه أنه من طبيعة غير طبيعتهم «

وقوي ساعد أهل فارس الجدد وأصبحوا من أصحاب الجلد والصبر،

اللتان لاغناء عنهما في المعارك. وغدى الميديين خطرا يهدد أشور ، فأغارت آشور على بلاد ميديا وظنت أنها قد هزمتها هزيمة منكرة لا تجرؤ معها على مناوئتها ولكنها وجدتها لا تمل الكفاح لنيل حريتها . واستطاع سياخار أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . وأوحى هذا النصر أمالا كبارا فاجتاحت جيوشه بلاد آسيه الغربية حتى وصلت إلى أبواب سرديس، ولم يرد هذه الجيوش عنها إلا كسوف الشمس . فقد ارتاع القائدان المتقاتلان لهذا الذي ظناه نذيرا لهما من السماء ، فوقعا معاهدة للصلح أبرماها بأن شرب كل منهما جرعة من دماء عدوه، كما أورد ديورانت.

ومات سياخار في السنة التالتة بعد أن وسع رقعة دولته من خلال حكمه وحده فأصبحت إمبراطورية تشمل آشور وفارس بعد أن كانت خاضعة لسلطان غيرها ، لكن هذه الامبراطوية قضي عليها ولم يمضي على وفاة هذا الملك جيل واحد . وقد كانت هذه الدولة قصيرة الأجل، فلم تستطع لهذا السبب أن تسهم في الحضارة بقسط كبير، إذا ما استثنينا ما قامت به من تمهيد السبيل إلى ثقافة بلاد الفرس . فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية، وحروفهم الهجائية التي تبلغ عدتها ستة وثلاثين. وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين ، ويستخدمون في العمارة العمد على نطاق واسع . وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقي الذي يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير ما أمكنهم في وقت السلم ، وبالشجاعة التي لاحد لها في وقت الحرب . أما أدبهم وفنهم فلو يبق منهما حرف ولا حجر . على أن انحطاط الميديين كان أسرع من نهضتهم نفسيا . فقد أثبت استياجس ، الذي خلف أباه سياخار، ما أثبته التاريخ من قبل، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمن مغبتها ، وأن الذكاء المفرط يتقاربان كل القرب في وراثة الملك.

قورش ..أعظم ملوك الفرس

كان قورش من الحكام الذين خلقوا ليكونوا حكاما ، فلقد كان ملكا بحق في روحه وأعماله ، قديرا في الأعمال الإدارية ، كريما في معاملة المغلوبين،

محبوبا من أعدائه السابقين ، فلا عجب حين يتخذ اليونان منه موضوعا لعدة روايات ، وأن يصفوه بأنه أكبر أبطال العالم قبل الاسكندر الأكبر. وكان قورش وسيما بهي الطلعة ، لأن الفرس اتخذوه لجمال الجسم حتى آخر أيام فنهم القديم ، وأنه أسس الأسرة الاكمينية أسرة الملوك العظام ، وترجح بعض التفاسير أن قورش هو ذو القرنين الذي ورد ذكره في سورة الكهف ، ومما يؤيد هذا الرأي أنه استولى على سرديس وبابل وقضى على حكم الساميين في الغرب فلم تقم لهم بعدئذ قائمة ، مدى ألف عام كاملة.

وقد كان قورش أحب الفاتحين إلى النفوس، وأنه أقام دولته على النبل وكريم السجايا ، وأن أعدائه كانوا يعرفون عنه لين الجانب فلم يحاربوه بتلك القوة التي يحارب بها الرجال حين لايجدون بدا من أن يقتلوا .

ومما يذكر له عن طريق هيرودوت أنه انجى كروسس - أحد أعدائه - من الحطب المحروق الذي وضع عليه في سرديس ، ثم أكرمه وجعله أحد مستشاريه. هذا فضلا عن حسن معاملته لليهود. لقد كان قورش أول من ترك لرعيته حرية الاعتقاد كما كان اخناتون هو أول من دعى إلى التوحيد.

ولم ينتهي قورش عند هذا الحد بل كان كثيرا ما يبدي الإكبار والمجاملة لألهة الشعوب المغلوبة ، ويساهم بماله في المحافظة على أضرحتها، بل إن البابليين أنفسهم ، وهم الذين كانوا يحاربونه بالأمس إلتفوا حوله وتحمسوا له حين رأوه يحافظ على هياكلهم ويعظم آلهتهم . ولم يعب قورش إلا تلك الخصلة التي كانت سبب هلاكه ألا وهي كثرة المطامع ، ذلك أنه لما فرغ من فتح الشرق الأدنى بأجمعه وضمه إلى ملكه ، أراد أن يحرر ميديا وفارس من غزو البدو الهمج الضاربين في أواسط آسيا. ويبدو أنه أوغل في حملاته حتى وصل إلى ضفاف نهر جيحون شمالا وإلى الهند شرقا ، فلما وصل إلى ذروة مجده قتل فجأة وهو يحارب ، فكان كالاسكندر افتتح امبراطورية متسعة الرقعة ، لكن المنية عاجلته قبل أن ينظمها .

قمبيز وريث قورش

وجاء من بعده ابنه قمبيز فورث عن أبيه قوته ولم يرث عنه كرمه، وبدأ حكمه بقتل أخاه سمرديس ، منافسه على السلطة . ثم أغوته ثروة مصر فزحف عليها ليمد حدود الامبراطورية الفارسية إلى نهر النيل ، وأفلح فيما كان يبتغيه، ولكنه على ما يظهر أضاع في سبيل ذلك رشده . ولم يكلفه الاستيلاء على منف كبير مشقة ، ولكن الجيش الذي أرسله للاستيلاء على واحة آمون هلك في الصحراء .

كما أخفقت حملة سيرها إلى قرطاجنة لأن بحارة الاسطول الفارسي الفينقيين أبوا أن يهاجموا مستعمرة فينيقية كما يقول ديورانت. وجن جنون قمبيز فذهبت عنه حكمة أبيه وماكان يتصف به من حكمة وتسامح، فأخذ يسخر من دين المصريين ، وطعن بخنجره العجل أبيس معبودهم وموضع إجلالهم وتقديسهم وهو يستهزئ به. ولم يكفه هذا ، بل أخرج الجثث المحنطة من مدافنها ونبش قبور الملوك ولم يبال في ذلك بما كان من لعنات قديمة، ودنس الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من الاصنام ، ظنا منه أن عمله هذا سوف يشفي المصريين من خرافاتهم وأوهامهم ، فلما انتابه المرض - ويبدو أن مرضه كان نوبات مرض تشنجيه - لم يبقى لدى المصريين شك في أن مرضه كان إنما هو عقاب حل به من قبل آلهتهم وأن دينهم لم يبق فيه بعدئذ ريبة لمرتاب. وكأن قمبيز قد أراد أن يبرهن مرة أخرى على مساوئ الملكية المطلقة، ففعل ما فعل نابليون في بعض ساعات امتعاضه، إذ أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه بركسبييس بسهم من قوسه، ودفن اثنى عشر من أعيان الفرس أحياء . وعلم وهو عائد إلى بلاده أن مغتصبا قد استولى على عرش فارس وأن ثورة صماء اندلع لهيبها من طول البلاد وعرضها لتأييده . ومن هذه اللحظة يختفي قمبيز من التاريخ وفي بعض الروايات أنه انتحر ، وكان المغتصب ادعى أنه سمرديس وأنه نجا بإحدى المعجزات من حسد أخيه قمبيز. أما الحقيقة فإنه كان أحد رجال الدين

المتعصبين من أتباع المذهب المجوسي القديم، وكان يعمل جاهدا للقضاء على الزردشتية دين الدولة الفارسية الرسمي. ثم شبت في البلاد ثورة أخرى أطاحت بعرشه، وكان الذين نظموها سبعة من أشراف البلاد اختاروا بعدئذ واحدا هو دارا بن هشتسبش ورفعوه على العرش. وبهذه الوسيلة الدموية بدأ أعظم ملوك الفرس حكمه.

الحياة الفارسية

لم تكن بلاد فارس في تلك الأيام ، وهي البلاد التي قدر لها أن تحكم أربعين مليون من البشر مدى مائتي عام ، هي بعينها المعروفة تلك باسم إيران. بل كانت هي الاقليم الاصغر المصاحب للخليج الفارسي من جهة الشرق والمعروفة لدى الفرس الأقدمين باسم بارش ، ولدى الفرس المحدثين باسم فارس أو فارستان . وهذا الاقليم يكاد يكون كله صحراء وجبال ، أنهاره قليلة ، معرضة للبرد القارس والحر الجاف اللافح ، ولذلك لم يكن فيه من الخيرات مايكفي سكانه البالغ عددهم مليونين من الأنفس ، إلا إذا استعانوا بمن قد يأتيهم من خارج بلادهم عن طريق التجارة والفتح. وأهل البلاد الجبليون الأشداء ينتمون كما ينتمي الميديون إلى الجنس الهندوسي ، ولعلهم جاءوا إلى تلك البلاد من جنوب روسيا ، وتكشف لغتهم وديانتهم المبكرة عن صلة نسب وثيقة بينهم وبين الآريين ، الذين عبروا أفغانستان ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة في شمال الهند.

لقد وصف دارا الأول نفسه في نقش رستم بأنه « فارسي ابن فارس، آري من سلالة آرية » ويسمي الزردشتيون وطنهم الأول إيريانا فيجو أي موطن الآريين.

ويبدو أن الفرس كانوا أجمل شعوب الشرق الأدنى في الزمن القديم ، فالآثار الباقية من عهدهم تصورهم شعبا معتدل القامات ، قوي الأجسام، قد وهبته حياة الجبال شدة وصلابة ، ولكن ثروتهم الطائلة رققت طباعهم ، وهم ذو ملامح متناسبة متناسقة ، شم الأنوف لايكادون يفترقون في ذلك عن اليونان ،

تبدو على وجوههم سمات النبل والروعة، وكانوا يعدون من سوء الأدب كشف أي جزء من أجزاء الجسم خلا الوجه ، لذلك كان كل جسمهم مغطى من عمامة الرأس أو عصابته أو قلنسوته إلى خفي القدمين. فكان لباسهم سروالا مثلث الطيات ، وقميصا أبيض من التيل ، ومئزرا من طبقتين ، ذا كمين يغطيان اليدين، وكانت هذه الملابس تحفظ أجسامهم دفئة في الشتاء حارة في الصيف . ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا بفتحة عند الصدر، وكان الرجال يطلقون لحاهم ويتركون شعر رأسهم ينساب في غدائر.

ولما زادت الثروة في عهد الإمبراطورية أكثر الأهلون، رجالهم ونساؤهم من إستعمال أدوات التجميل ، ومن نشأ عندهم طبقة من المزينين كانوا خبراء في فن التجميل ، وعملهم تجميل الأثرياء وكان الفرس خبراء في عمل الروائح العطرية ، وكان القدماء يعتقدون أنهم هم الذين اخترعوا أدهان التجميل. ولم يكن مليكهم يخرج إلى الحرب إلا ومعه علبة ثمينة من الزيوت العطرية ، يتعطر بها في حالتي النصر والهزيمة.

وتكلم الفرس عدة لغات في أثناء تاريخهم الطويل ، فكانت الفارسية القديمة لغة البلاط وأعيان البلاد في عهد دارا الأول ، وهذه اللغة وثيقة الصلة باللغة السنسكريتية حتى ليبدوا لنا جليا أن اللغتين كانتا في وقت من الأوقات لهجتين من لغة أقدم منهما عهدا ، وأنهما واللغة الانجليزية فروع من أصل واحد.

ولما مارس الفرس الكتابة استخدموا في نقوشهم الخط المسماري، واستخدموا الحروف الهجائية الآرامية لكتابة وثائقهم . وبسطوا مقاطع اللغة البابلية الثقيلة الصعبة، فأنقصوها من ثلاثمائة رمز إلى ست وثلاثين علامة ، تبدلت شيئا فشيئا من مقاطع إلى حروف هجائية مسمارية. على أن الكتابة كانت تبدوا للفرس لهوا خليقا بالنساء لايكادون يقتطعون له وقتا من بين مشاغلهم الكثيرة في الحب والحرب والصيد . وكان الرجل العادي أميا راضيا يبذل جهده كله في فلاحة الأرض. وكانت بعض الأراضي يزرعها ملاكها المزارعون، وكان

هؤلاء الملاك يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونه من عدة أسر لتزرع مجتمعة مساحات واسعة من الأراضي، والبعض يمتلكه الأشراف الإقطاعيون ويزرعه مزارعوه نظير جزء من غلته.

وكانوا يستخدمون محاريث من خشب ذات أطراف من حديد تجرها الثيران. وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى الحقول بطرق الري الصناعية . وكان الشعير والقمح أهم المحاصيل وأهم مواد الغذاء .

ولم تكن للصناعة شأن عند الفرس من حرف يدوية أو فنون محلية ، لكنهم على عكس ذلك اعتنوا تماما بأمور النقل ، يقول هيرودوت « أنه

كان عند نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونزل فخمة ، وكان الطريق كله يخترق أقاليم عانرة بالسكان ، وكان في كل محطة خيول أخرى بديلة متأهبة لمواصلة السير بالبريد « ولهذا فإن البريد الملكي كان يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التي يجتازها بها الآن سرب من السيارات الحديثة ، أي في أقل قليلا من أسبوع ، مع أن المسافر العادي في تلك الأيام الغابرة كان يجتاز تلك المسافة في تسعين يوما.

وكانوا يعبرون الأنهار الكبيرة في قوارب ، ولكن المهندسين كانوا يستطيعون متى شأوا أن يقيموا على الفرات أو على الدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات الفيلة الوجلة وهي آمنة ، وكان ثمة طرق تصل فارس بالهند كما أورد ديورانت في كتابه العظيم قصة الحضارة. وقد جعلت هذه الطرق مدينة السوس مستودعا وسطا لثروة الشرق التي كانت حتى ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لايكاد يصدقها العقل. وقد أنشأت هذه الطرق في الأصل لأغراض حربية وحكومية ، وذلك لتيسير سيطرة الحكومة المركزية وأعمالها الإدارية، ولكنها أفادت أيضا في أمور التجارة وانتقال العادات والأفكار.

ولم يكن للفرس أسطول بحري ، بل كانوا يكتفون بإستئجار سفن الفينيقيين أو الإستيلاء عليها. وأصدر خشيار شاي أمره الملكي إلى قسم من

قواته البحرية بأن تدور حول إفريقية ، ولكنها لم تكد تجتاز مضيق جبل طارق حتى عادت بالخزي والعار . وكانت الأعمال التجارية تترك في الغالب لغير أبناء البلاد- البابليين والفينيقيين واليهود - ذلك أن الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون أن الأسواق بؤرة للكذب والخداع.

الحياة السياسية

كانت حياة فارس حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية ، عماد ثروتها القوة لا الصناعة، من أجل ذلك كانت مزعزعة الكيان أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعا غير قائم على أساس طبيعي . وكان النظام الإمبراطوري الذي يمسك هذا الكيان المصطنع من أقدر الأنظمة ولايكاد يوجد له شبيه فقد كان على رأسه الملك أوخشترا أي المحارب، وهو لقب يدل على منشأ الملكية الفارسية وصبغتها العسكرية. وإذا كان تحت سلطانه ملوك يأتمرون بأمره فقد كان الفرس يلقبونه بشاهنشاه أي ملك الملوك .

وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة ، فكانت كلمة تصدر من فمه تكفي لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب ، وقلما كان أحد من الأهلين ومن بينهم كبار الأعيان يجرؤ على إنتقاد الملك أو لومه. كما كان الرأي العام عاجزا عجزا مصدره الحيطة ، فكان كل ما يفعله الذي يرى الملك يقتل ابنه البرئ ، أمام عينيه، رميا بالسهام أن يثني على مهارة الملك العظيمة في الرماية .

كان ملوك فارس على هذا النحو ، ولو كان لهم من النشاط ما لقورش أو دارا الأول لكان لهم أن يملكوا ويحكموا ، لكن الملوك المتأخرين كانوا يعهدون بأكثر شئون الحكم إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم أو إلى خصيان قصورهم. أما هم فكانوا يقضون أوقاتهم في الحب ولعب النرد أو الصيد .

الجيش الفارسي

مما لاشك فيه أن كان لإنشغال ملوك فارس عن الحياة السياسية أبلغ الأثر في انتشار الدسائس وتطلع الناس لما في أيدي ملوكهم ، وتطلع العمال

أولى لأنهم أكثر قربا من الملوك . إلا أن الجيش كان عماد القوة ، ذلك أن دوام الملك يدور مع دوام القوة أو إن شئت فقل مع دوام القتل.

يقول ديورانت أنه حدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية فما كان من الملك إلا أن أمر بقتلهم الثلاثة. وأرسل والد آخر أربعة أبنائه إلى ميدان القتال ، ثم رجا خشيارشاي أن يسمح ببقاء أخيهم الخامس ليشرف على ضيعة الأسرة فقطع جسم هذا الأبن نصفين بأمر من الملك ووضع كل نصف على أحد جانبي الطريق الذي سيمر منه الجيش.

هكذا كان بطش الجيش وهكذا كان البطش بالجيش.

أما بالنسبة لسلاح الجيش فحدث ولا حرج ، فهناك السهام والسيوف والحراب والخناجر والرماح والتروس والخوذ والمجنات ، وكانوا يركبون الخيول والفيلة ، ويصحبهم الكتبة والخصيان والعاهرات ، وقد بلغت أحدى حملات خشيارشاي مليون وثمانمائة ألف مواطن ، وإن كان الرقم مبالغ فيه بعض الشيئ - كما ورد في قصة الحضارة - الا أنه يدل على أن دولة فارس قامت على البطش والترهيب ولم تقم على التطوير والتعمير ، وليت الملوك أنذاك كانوا يملكون ناصية القرار ، بل على العكس تماما ، كانوا منشغلين في الحب واللهو وغيرهم ينظم الصفوف ويقود المعارك .

يضاف إلى تلك العوامل القوانين الصارمة التي كانت تنفذ فيمن تسول له نفسه بإقتراف ذنب من الذنوب ، وبهذه العناصر وبتلك حكمت الدولة الفارسية مائتي عام .

زردش

تروي الأقاصيص الفارسية أن نبيا عظيما ظهر في أريانا فيجو ، «موطن الأريين» قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان شعبه يسميه زرشترا، لكن اليونان لم يكونوا يطيقون هجاء البرابرة أسموه زروسترز. تقول

الأسطورة : حملت به أمه حملا إلهيا ذلك أن الملاك الذي كان يرعاه

تسرب إلى نبات الهوما ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن كان يقرب القرابين المقدسة. وفي ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب متناسقة الشرف ، وتزوج الكاهن بالفتاة ، وامتزج الحبيسان الملاك والشعاع ، فنشأ زرشترا من هذا المزيج ، فلما ولد قهقه عاليا من أول يوم ولد فيه، ففرت من حوله الأرواح الخبيثة التي تجتمع حول كل كاهن وهي مضطربة وجله ، وأحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس وأثر أن يعيش في برية جبلية ، وأن يكون طعامه الخبز وثمار الأرض ، وأراد الشيطان أن يغويه ولكنه أخفق بل ظل مستمسكا بإيمانه ، وتجلى له اهورا-مزدا «الإله الأعظم» ووضع بين يديه الإبتساق أي كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه، حتى سمعه أخيرا أمير فارسي عظيم الشأن اسمه فتشتشبا، فأعجبه ماسمع ووعده أن ينشر الدين الجديد بين شعبه . وهكذا ولد الدين الزردشتي .

وهذه القصة قصة خلافية بين المؤرخيين ، أعني أن كثيرا من المؤرخيين لايؤمن بأصل وجود زردش ويشكك فيه ، أما المؤمنين فيحدد له موعدا زمنيا بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد.

ولما ظهر زردش بين قومه وجدهم يعبدون الحيوانات، شئنهم في ذلك شأن غيرهم من الهندوس، وكان أكبر الألهة وأعظمها في الدين السابق للدين الزردشتى مثرا إله الشمس ،وأنيتا إلهة الخصب والأرض ، وهوما الثور المقدس الذي مات ثم بعث حيا ، ووهب الجنس البشري دمه شرابا ليسبغ عليه نعمة الخلود ، وكان الإيرانيون الأولون يعبدونه بشرب عصير الهوما المسكر وهو عشب ينمو على سفوح جبالهم .

وهال زردش مارأى من عبادة لألهة بدائية ، وهذه الطقوس الخمرية فثار على المجوس وأعلن في شجاعة لاتقل عن شجاعة معاصريه عاموس وإشعيا أن ليس للعالم إلا إله واحد ، هو في بلاده مزدا إله النور والسماء . ولعل عقيدة الدين الزردشتى تشابه عقيدة التوحيد عند أخناتون ، وكلها كانت محاولات في البحث عن الحقيقة الكونية لهذا الوجود.

وجعل دارا الأول الدين الزردشتي الدين الرسمي للدولة وحارب المجوس بل وحملهم على إعتناق هذا الدين.

وكان إله زردشت في بادئ الأمر هو «دائرة السماوات كلها» . فأهور مزدا يكتسي بقبة السماوات الصلبة يتخذها لباسا له، وجسمه هو الضوء والمجد الأعلى ، وعيناه هما الشمس والقمر .

وكان أهور مزدا أيضا كما وصفه زردشت ذو سبع صفات ، فهو النور والعقل الطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والخلود . ولما كان أتباعه اعتادوا أن يعبدوا أربابا متعددة فقد فسروا هذه الصفات على أنها أشخاص (سموهم أميشا ،اسبنتا أو القديسين الخالدين) الذين خلقوا العالم ويسيطرون عليه بإشراف أهور مزدا وإرشـاده. وبذلك حدث في هذا الدين ماحدث في المسيحية فانقلبت الوحدانية الرائعة إلى تعددية مقتها الناس مع مرور الوقت.

وكان الشيطان أو إله الظلمة أو صاحب الروح الشريرة عند الفرس يدعى أهرامان. وكانت الفرس تؤمن أنه هو خالق الأفاعي والحشرات المؤذية والجراد والظلمة والخطيئة واللواط والحيض وغيرها من مصائب الحياة .

لقد كانت هذه العقائد وقت أن جاء بها زردشت قريبة كل القرب من عقيدة التوحيد ، بل إنها حتى بعد أن اقحموا فيها أهرامان ظل فيها من التوحيد بقدر مافي المسيحية بإبليسها كما يورد ديورانت في كتابه.

الديانة الزردشتية

لما صور الزردشتيون العالم في صورة ميدان يصطرع فيه الخير والشر، أيقظوا بعملهم هذا في خيال الشعب حافزا قويا مبعثه قوة خارجة من القوى البشرية ، كما يمثلون الكون في صورة ميدان كفاح بين الأرواح الشريرة والأرواح الخيرة ، وبذلك كان كل إنسان مقاتلا ، أراد ذلك أم لم يرده ، في جيش الله أو في جيش الشيطان، وكان كل عمل يقوم به أو يغفله يرجح قضية أهورا مزدا أو قضية أهرامان . وتلك فلسفة فيها من المبادئ الأخلاقية ما يعجب به

المرء أكثر مما يعجب بما فيها من مبادئ الدين. فهي فلسفة تضفي على الحياة الإنسانية من المعنى والكرامة ما لا تضفيه النظرة العالمية القائلة بأن الإنسان ليس إلا حشرة لا حول لها ولا قوة كما كان يقول أهل العصور الوسطى ، أو ألة تتحرك بنفسها كما كان يقول أهل الثورة الصناعية. ذلك أن بني الإنسان حسب تعاليم زردشت ليسوا مجرد بيادق تتحرك بغير إرادتها ، بل لهم إرادة تمكنهم من اختيار طريق الخير أو طريق الشر.

ونشأ من هذه الفلسفة قانون أخلاقي مفصل ، رغم بساطته إلا أنه يدور حول قاعدة ذهبية هي « الطبيعة لا تكون خيرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيرا له هو نفسه « وهي ترجمة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ..أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك» .

وتقول الأبستاق أن على الأنسان واجبات ثلاثة «أن يجعل العدو صديقا وأن يجعل الخبيث طيبا وأن يجعل الجاهل عالما» . وأعظم الفضائل عنده التقوى، يأتي بعدها مباشرة الشرف والأمانة عملا وقولا. وحرم أخذ الربا ، ورأس الخطايا كلها الكفر ، وكان عقوبته الإعدام دون تردد. وعلى الرغم من أن الشريعة الزردشتية يغلب عليها جانب الرحمة إلا أن تطبيقها في جانب الإلحاد كان معدوما.

ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فإن أول ما يجب على الإنسان في هذه الدنيا أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة ، ولم تكن فارس الزردشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام ، بل كانوا ينشئون المذابح المقدسة في قمم الجبال ، وكانوا يوقدون النار المقدسة فوقها تكريما لاهورا-مزدا.

وكانوا يتخذون النار نفسها إله يعبدونه ويسمونه أنار ، ويعتقدون أنها ابنة أله النور. وكانت كل أسرة تجتمع حول النار وتحرص على أن تظل نار بيتها موقده. وكانت الشمس هي نار السماوات الخالدة ، بل لقد جاء في كتبهم « يجب أن تعظم شمس الصباح حتى وقت الظهيرة وشمس الظهيرة حتى العصر

وشمس العصر حتى المساء. والذين لايعظمون الشمس لاتحسب لهم أعمالهم الطيبة في هذا اليوم».

وكانوا يقدمون القرابين للشمس وللنار من أزهار وخبز وفاكهة وخيل وجمال وحمير بل حتى من بني الإنسان. وظلت العادة الآرية وهي تقديم شراب الهوما المسكر إلى الألهة قربانا مستمرة حتى بعد إنتشار الدين الزردشتي بزمن طويل .

وكان من العقائد المقررة في هذا الدين أن أستواد إله الموت يستطيع أن يعثر على أي آدمي مهما كان مقره ، فهو الباحث الواثق الذي لايستطيع أن يفلت منه أحد ولو كان في باطن الأرض. كما فعل أفرسياب التركي الذي شيد لنفسه قصرا تحت الأرض محمول على أعمدة عديدة ويفعل بداخله ما يحلو له ، وعلى الرغم من ذاك لم يستطع الإفلات من أستواد. وكما فعل دهاق أيضا الذي طاف البلاد شرقها وغربها بحثا عن الخلود وهربا من الموت فلم يفده ذلك شيئا ، وصدق الله في محكم كتابه إذ يقول: « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة»

لقد كانت فكرة الموت فكرة قوية في عقول الزردشتيين ، وتلك طبيعة الأديان أن يحيا الإنسان بين الرهبة والرغبة وبدونهما لايستقيم له حال. ولا يخلو من جنونه وشططه .

ولم يكن الموت هو المحطة الأخيرة عند الزردشتين . بل عرفت تلك العقيدة عقيدة الثواب والعقاب ، والنعيم والجحيم ، بل عرفوا أيضا أنه قد يكون نعيم مؤقت أو جحيم مؤقت بحسب الأعمال .

ويحدثنا الزردشتيون الصالحون بأن العالم يقترب من نهايته المحتومة ، ذلك أن مولد زردشت كان بداية الحقبة الأخيرة من العالم والتي طولها ثلاثة الألف عام . بعدها يأتي يوم الحساب العظيم وتجتمع الأرواح الطيبة لتحيا في عالم خال من الشرور والظلام والآلام . فيبعث الموتى وتعود الحياة للأجسام

وتتردد فيها الأنفاس، ويخلو العالم كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والإنحلال.

إننا نلحظ أن الأنسان على إختلاف الحضارات وهو يبحث عن إله لهذا الكون. يبحث عن خالقه وصانعه وواجده على تلك الأرض. فمنذ عهد السومريين مرورا بالفراعنة والفرس والسؤال سؤال واحد . وقد كانت هناك محاولات في الأقتراب من الحقيقة ، كمحاولة حمواربي وأخناتون وزردشت . ومرد هذا الأمر الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

آداب الفرس

يقول ديورانت» إن الذي يدهشنا بحق هو ما بقي لدى الميديين والفرس من وحشية رغم دينهم هذا «وهو محق في تلك المقولة ففي نقش بهستون يقول دارا الأول أعظم ملوك الفرس « وقبض على فرافارتش وجيئ به إلى ، فجدعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وقطعت لسانه ، وفقأت عينيه ، وبقي مقيدا بالأغلال في بلاطي يراه الناس جميعا ثم صلبته «

الا ترى في تلك الكلمات تنافرا شديدا مع ما أوردنا من قبل عن العقيدة الزردشتية ؟ لقد كان بطش ملوك الفرس شديدا بمن خان لهم عهدا . ولك أن تتخيل دون تفصيل أو إطالة ما كان يفعله الملوك من أجل الحفاظ على سلطانهم. وعلى الجانب الأخر فإن دولة فارس قل فيها الخونة ، ربما بسبب هذا العذاب الشديد الذي كان ينزل بكل من تسول له نفسه. وقل لنا أن نرى في التاريخ فارسيا يستأجر لمحاربة الدولة الفارسية، لكننا وجدنا ذلك عند اليونان .

وخليق بنا أن نذكر أن خلافاتهم لم تبلغ من القسوة ذلك الحد الذي يتبادر إلى أذهاننا من قراءة تاريخهم الحافل بالدم والحديد . لقد كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد. يراعون آداب المجلس ويحرصون عليها حرصا لا يقل عن حرص الصينيين. وكانوا إذا تقابل منهم شخصان متساويان في المرتبة تعانقا وقبل كل منهما الآخر في شفتيه ، فإذا قابل الواحد منهم من هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناءة كبيرة تشعره بالخضوع والاحترام.

وكانوا يستنكرون تناول شيئ من الطعام أو الشراب على قارعة الطريق، كما يسوؤهم أن يبصق الإنسان أو يتمخط أمام الناس. وقد ظلوا أيام خشيرشا مقتصدين في مأكلهم ومشربهم لا يطعمون إلا وجبة واحدة في اليوم.وكان الفرس يعتقدون أن الأعمال الطيبة إذا صدرت على أيد قذرة لاقيمة لها. وكانوا يعتقدون أيضا أن الأنسان إذا لم يقضى على الفساد فإن الملائكة لاتسكن جسمه.

ولم يكن القانون لا يشجع البنات على أن يظللن عذارى ولا العزاب أن يبقوا بلا زواج ، ولكنه كان يبيح التسري وتعدد الزوجات ، ذلك لأن المجتمعات الحربية بحاجة إلى كثرة الأبناء. وفي ذلك تقول الأبستاق «إن الرجل الذي له زوجة يفضل كثيرا من لازوجة له، والرجل الذي يعول أسرة يفضل كثيرا من لا أسرة له، والذي له أبناء يفضل من لا أبناء له ، والرجل ذو الثراء أفضل كثيرا ممن لاثروة له»كانت تلك المعايير شائعة في الأمم السابقة لكن الفارق أن الفرس كان إهتمامهم زائد بالأسرة كرابط إجتماعي.وكان الأباء ينظمون شئون الزواج لمن يبلغ الحلم من أبنائهم ، وقد ورد أن الأخ كان يتزوج أخته والأب يتزوج ابنته والأم تتزوج ولدها ، وكان التسري من المتع التي اختص بها الأغنياء ، بل كانوا لايخرجون للحرب إلا ومعهم سراريهم . وقد بلغ عدد السراري في قصر الملك في العصور المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية ٣٦٠ ، أي أن الملك كان لايضاجع امرأة واحدة مرتين إلا إذا كانت شديدة الجمال.

وكانت للمرأة كامل الحرية في التنقل والقيام بأعمال زوجها سواء كان ذلك بالوكالة أم بغيرها من الطرق المتبعة في ذلك العهد. إلا أنه كان هناك بعض الفروق في المستويات الإجتماعية فيما يخص درجة تلك الحرية. فالثريات منهن كن يتمتعن بحرية أكبر، أما السراري فكن أكثر حرية من غيرهن. ولم ترسم النساء قط على النقوش أو التماثيل العامة، وكان الأبناء كما كان الزواج من الشروط الرئيسية للإجلال والإكبار، فالذكور منهم ذوو فائدة اقتصادية لآبائهم

وحربية لملوكهم ، أما الإناث فلم يكونوا يرغبوا فيهن ، لأنهن كن ينشأن لغير بيوتهن، وليستفيد منهن غير آبائهن. ومن أقوال الفرس في هذا المعنى « إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم البنات ، والملائكة لاتحسبهن من النعم التي أنعم بها على بني الإنسان»

ومن هنا نرى أن عادة وئد البنات عند العرب لم تنشأ من فراغ ، بل إن ذلك لهو التراكم الزمني لبعض الحضارات السابقة والمعاصرة للحقبة العربية.

وأخيرا فإننا نرى أن ما ميز الحضارة الفارسية نظرتها للأسواق على أنها مكان للكذب والخداع حتى أنهم كانوا لايبنون مدرسة إلى جوار سوق ، وكان الحد الأدنى للتعليم ثلاثة أشياء – وهو أمر يقتصر على الطبقة الفقيرة من الشعب – ركوب الخيل والرمي بالقوس وقول الحق. فإذا كانت لكل حضارة إفرازات قيمية ، فإن ما ورد ذكره كان إفرازات الحضارة الفارسية.

العلوم والفنون

يبدو لنا أن الفرس قد تعلموا ألا يعلموا أبناءهم أي فن من الفنون عدا فن الحياة أو صناعة الحياة من وجهة النظر القاصرة حيث الإغراق في الملذات. أما الأدب فقد كان في نظرهم ترفا قل أن يحتاجوا إليه ، وأما العلوم فقد كانت في نظرهم سلعا يستطيعون أن يستوردوها من بابل أو من مصر.

حقا لقد كانوا يتذوقون بعض الشيئ الشعر أو الروايات الخيالية ، ولكنهم تركوا هذين الفنين للمستأجرين وذوي المنزلة الدنيا منهم ، وأثروا متعة الطرب على متعة البحث والقراءة.

ومن هنا يستطيع القارئ أن يتنبأ بدوام أو بزوال هذه الحضارة ، فما انتشرت هذه الآفات في أمة إلا أذنت بنهايتها كما يقول العلامة مالك بن نبي في شروط النهضة.

وأيا كان الأمر فقد كان الشعر عندهم يغنى أكثر مما يقرأ ، وذاك دليل أخر على درجة الثقافة . فلما مات المغنون مات الشعر . وكان الطب في بادئ

الأمر من أعمال الكهنة. وكانوا يعالجونه من باب أن المرض ليس إلا مزيج من فعل الشيطان والإهمال في قواعد الصحة العامة. وكانوا يعتمدون في علاجهم على الرقى أكثر من إعتمادهم على العقاقير، وحجتهم في ذلك أن الرقى إن لم تشف من المرض ، لا تقتل المريض ، وهو ما لا يستطاع قوله في العقاقير. إلا أن الطب رغم ذلك نشأ بين غير رجال الدين حينما زادت ثروة الفرس زيادة مطردة، حتى كان عهد آرت خشتر الثاني تكونت في البلاد نقابة للأطباء وحدد القانون أجورهم كما حددها قانون حمورابي.

وتقول الأخبار التي وصلت إلينا من الحضارة الفارسية أنهم كانوا يفرقون في العلاج بين أهل البلد أو أبناء لاهور الصالحين وبين الغرباء والمهاجرين أو أبناء الشيطان. وعلى الطبيب الناشئ أن يجرب أولا في أبناء الشيطان ، فإن ثبت أنه طبيب ماهر، أمكن له أن يعالج أبناء أهورا-مزدا ، وانظر إلى هذا النص : يقول رب النور « ياخالق الكون ياقدوس ، إذا شاء عبد من عباد الله أن يمارس فن العلاج ، فأي الناس يجب أن يجرب فيهم حذقه؟ أيجربه في عباد أهورا- مزدا أم في عبدة الشياطين ؟ فأجاب أهورا-مزدا بقوله يجب أن يجرب نفسه في عبدة الشياطين لا في عباد الله ، فإذا عالج بالمبضع عبدا من عبدة الشياطين فمات ، وإذا عالج بالمبضع عبدا ثانيا من عبدة الشياطين فمات ، وإذا عالج بالمبضع عبدا ثالثا من عبدة الشياطين فمات ، كان غير صالح أبد الدهر ، ويجب أن يمتنع عن علاج أي عبد من عباد الله » .

ومن الأشياء التي ساهمت في عدم إهتمام الفرس بالفنون والعلوم إهتمامهم بالحرب وإقامة الدولة. واعتمدوا في الفنون والعلوم على مايأتيهم من خارج الدولة ، شأنهم في ذلك شأن الرومان . نعم كانوا يتذوقون جمال الأشياء ولكنهم كانوا يكلون إلى الفنانين الأجانب صنع هذه الأشياء. وكانت لهم بيوت جميلة وحدائق غناء ، وأثاث قيم غالي الثمن من نضد مصفحة برقائق الفضة والذهب. وكانت لهم سرر فرشت عليها أغطية جاءوا بها من خارج البلاد . وكانوا يشربون في كؤوس من ذهب ويزينون نضدهم ورفوفهم بمزهريات من

صنع الأجانب ، وكانوا مولعين بالعزف والغناء وبأنغام الناي والقيثار والنقر على الطبول والدفوف . وكانت الجواهر كثيرة لديهم من تيجان وأقراط إلى خلاخيل وأحذية مذهبة ، وحتى الرجال أنفسهم كانوا يتباهون بحليهم يزينون بها أعناقهم وآذانهم وأذرعهم .

وكانوا يستوردون اللؤلؤ والياقوت والزمرد واللازورد من خارج بلادهم، أما الفيروز فكانوا يستخرجونه من المناجم الفارسية . وكانت لهم حلي ذات أشكال رهيبة غريبة تمثل في ظنهم ملامح الشياطين المعروفة لديهم، وكان ملكهم يجلس على عرش من ذهب تغطيه أكنان ذهبية مرفوعة على قوائم من الذهب.

العمارة الفارسية

لم يكن للفرس طراز فني خاص إلا في العمارة . فقد شادوا في أيام قورش ، ودارا الأول، وخشيارشاى الأول مقابر وقصور ،كشف علماء الأثار القليل منها. من جهة أخرى فلقد أبقى لنا الإسكندر الأكبر بفضل ما أثر عنه من كريم الشيم قبر قورش في بازار جادة. وغدى الناس يطوفون بين قصر قورش الذي فيه قبره وقصر ابنه المختل عقليا، ولم يبقى من تلك الأماكن الإ بعض العمد.

والمباني الفارسية الأخرى التي نجت من الحروب والغارات والسرقات وفعل الأجواء مدى ألفين من الأعوام ،هي خرائب القصور ، فقد شاد ملوك الفرس الأولون في أكباتانا مسكنا لهم من خشب الأرز والسرو المصفح بالمعادن، كان لايزال قائما في أيام يوليبوبس – حوالي ١٥٠ ق.م – أما الأن فلم يبقى له آثر .

أما أروع الآثار الفارسية القديمة التي تنفرج عنها الأرض الكتوم يوما بعد يوم فهي الدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التي كشفت في برسبوليس. ذلك أن دارا ومن جاء بعده من الملوك قد أقاموا لهم فيها قصورا يحاولون بها أن يرجئوا الوقت الذي تنسى فيه أسمائهم . ولسنا نجد في تاريخ العمارة كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة التي كان القادم من السهل يرقاها إلى الربوة التي شيدت عليها القصور.

وما من شك أن هذه الدرج كانت مدخلا بديعا إلى الطوى الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علوا يترواح بين عشرين وخمسين قدما.

كانت هذه الدرج ليست إلا تعظيما للمبنى المقام بإعتباره مبنا غير عادي. وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل أمامي كبير نصبت على جانبيه تماثيل ثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية . وكانت في الجهة اليمنى بعد هذا المدخل أية العمائر الفارسية ، تلك الردهة الواسعة التي تقابل غرف الإنتظار والتي تزيد مساحتها عن ساحة معبد الكرنك.

وكانت هناك مجموعة أخرى من الدرج تؤدي إلى هذه الردهة الكبرى ، وتحف بها من كلا الجانبين جدر مزينة رسمت عليها نقوش بارزة، أخذت بلا شك عن حضارات أخرى ، ولايزال حتى اليوم ثلاثة عشر عمود من الأثنين وسبعين التي كانت قائمة في قصر خشيارشاى تشهد على تلك الحضارة .

وقد خطت على جذوع تلك الأعمدة بعض الوثائق ، وتشبه قواعدها أجراسا تغطيها أوراق أشجار مقلوبة الوضع، ومعظم تيجانها في صورة لفائف من الأزهار تكاد تشيه اللفائف الأيونية وترتكز عليها عوارض السقف. ولسنا نشك في أن هذه العوارض كانت من الخشب ، لأن أمثال هذه العمد لا تقوى على تحمل الدعامات الحجرية الثقيلة، فهي ليست كأعمدة الكرنك في قوتها وفي حجمها . وكانت نوافذ ذلك القصر براقة كأنها من خشب الأبنوس. أما الجدران فكانت من الأجر يغطيها القرميد المصقول.

ولعل هذين القصرين كانا أجمل ماشيدت الحضارة الفارسية. ويمكن لأي محلل لعناصر الفن أن يتحدث كما يحلو له الا أنه يبقى شيئ واحد ثابت في تلك الحضارة أن عناصرها كلها مستعارة من خارج البلاد ، فقبر قورش استعير شكله الخارجي من ليديا - كما أورد ديورانت في قصة الحضارة - و عمده الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من الحضارة الآشورية مع شيئ من التحسين ، وبهو الأعمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد بأنها قد أوحت بها نقوش مصر ، وتيجان الأعمدة التي على صورة حيوان تسربت إليهم من

نينوى وبابل. أما الذي جعل فن العمارة الفارسي فنا قائما بذاته مختلفا عن غيره من فنون العمارة هو اجتماع هذه العناصر كلها والمواءمة بينها ، وهو الذوق الارستقراطي الرقيق الذي زاد عناصر العمارة في مختلف الحضارات رقة وجمالا.

نهاية فارس

يتشابه سقوط فارس بسقوط روما في جملته وتفاصيله ، فقد اقترن فيه عنف الأباطرة بفساد أخلاق الشعب وانحلالهم ، وحل بالفرس ماحل بالميديين قبلهم إذ استحال ماكانوا يتصفون به من تقشف وزهد منذ أجيال قليلة ، وأصبح أكبر ما تهتم به الطبقة الأرستقراطية ملء البطون بما لذ وطاب من المأكل والمشرب ، وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسم من قبل الا يأكلوا إلا وجبة واحدة يفسرون معنى الوجبة الواحدة ، بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتلأت مخازن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيرا ماكانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم، وتفننوا في إبتكار أنواع المشهيات والحلوى ، وغصت بيوت الأثرياء بالخدم الفاسدين، وأصبح السكر الرذيلة الشائعة بين كل الطبقات، وملاك القول أن قورش ودارا قد أوجدا بلاد الفرس وأن خشيارشاي ورثها عنهما ، ثم جاء من خلفهم من الملوك فدمروها تدميرا.

فساد خشيارشاي

كان خشيارشاى الأول ملكا اجتمعت فيه كل صفات الملوك الجسمية، كان طويل القامة، قوي الجسم يقر له الملوك بأنه أجمل إنسان في الإمبراطورية كلها، ولكن الرجل الوسيم غير المغتر لم يخلق بعد في هذا العالم، كما لم يخلق فيه بعد الرجل المغتر الذي لن تقده النساء .

لقد كان خشيارشاى نهبا لسراريه ، وماكان أكثرهن ، وضرب أسوأ الأمثال لشعبه في الفسق والفجور ، ولذا فإن هزيمته في سلاميس هزيمة طبيعية ومتوقعة ، فالذي كان عنده من العظمة هو حب التعاظم لا قدرته على مغالبة العدو. وبعد أن قضى هذا الملك عشرين عاما في الدسائس الشهوانية ،

والتراخي والإهمال في شئون الحكم اغتاله أحد أفراد حاشيته.

وليس في التاريخ كله ما يماثل المجازر المروعة والدم المراق اللذان تطالعنا بهما سجلات الفرس الملكية . لقد اغتال أرت خشتر الأول خشيارشاى وبعد أن حكم أرت خشتر حكما طويلا اغتاله خشيارشاى الثاني ، ثم اغتاله بعد عدة أسابيع من حكمه أخ له غير شقيق يدعى سجديانوس، ثم قتله بعد ستة أشهر دارا الثاني وأمر بتقطيع زوجته اربا ودفن أمه واخوته أحياء .

فكيف لدولة هذه ملامحها أن تستمر أكثر من قرنين من الزمان . إن الهرم والضعف يدب في الدولة أول ما يدب من داخلها .

وتستمر المسرحية في أن اثنين من أبناء أرت خشتر يتأمرون لقتله ، ويحكم ابنه أوكوس عشرين سنة ثم يموت مسموما - كما أورد ديورانت في قصة الحضارة - وأجلس المتسبب في قتله أو قاتله أو صانع الملوك ابن اوكوس ويدعى ارسيس على العرش واغتال أخاه ليكسب مكانة عنده ، ثم اغتال ارسيس وابناه ورفع على العرش كودومانوس وهو صديق له مخنث ، حكم ثمانى سنين ، وتسمى بدارا الثالث فمات وهو يحارب الاسكندر بموقعة اربل حيث كانت بلاده تلفظ انفاسها الأخيرة.

وحقيقة الأمر أن مما يضاف إلى الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الفارسية ، فضلا عن ترف حكامها ، أن هؤلاء الحكام لم يحاولوا مد جسور المحبة بينهم وبين شعوبهم. وقنعت الإمبراطورية أن تحكم خليطا من الأمم لا تجانس بينهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أخذ الأمراء يمارسون شهوة الحكم فيما تحت أرجلهم فقط ، غير عابئين بوحدتهم ووحدة شعوبهم . وما أن إلتقوا بالاسكندر تبين لهم أنهم لا يكاد يوجد بينهم إلا كل منخوب القلب ، ولم يكن الجنود على أفضل حال من حيث التدريب والعتاد ، ولم يكن القادة على علم بما استجد من فنون الحرب. ارتكب هؤلاء القادة أشنع الأغلاط وكان جنودهم أهدافا لسهام المقدونيين .

واجتاز الأسكندر مضيق الدردنيل دون أن يجد مقاومة ، وكان ذلك من مصلحة اليونانيين الذين كانوا يعملون كمرتزقه بالجيش الفارسي. وحاول جيش فارس المؤلف من أربعين ألف مقاتل أن يصد جيش الاسكندر ولكن دون جدوى. وزحف الاسكندر إلى الجنوب حيث المدائن، وحكمها وأقام فيها ، وبعد مرور العام إختار دارا أن يقابل الاسكندر بجيش قوامه ستمائة ألف جندي .

ولكن دارا كان كعادته في الإستهتار وعدم الكياسة وقلة الحيلة ، فاختار موقعا للقاء الاسكندر لايتسع لجموع جيشه ، وقتل من جيش الاسكندر ٤٥٠ رجلا ومن جيش دارا مائة وعشرة ألاف ، وفر دارا من المعركة تاركا أمه وزوجته وأبنتيه. وتقول الروايات أن الاسكندر عامل النساء بشهامة الفارس واكتفى أن يتزوج احدى بناته ، لكن الأم وقعت في غرام الاسكندر حتى أنها امتنعت عن تناول الطعام فقضيت نحبها. وهو ماقاله كونتس كوريتس أحد مؤرخي اليونان.

وبسط الشاب الرائع سلطانه على غرب آسيا ، وخرج سكان بابل والقدس يقابلونه بالبشاشة والترحاب ، ويقدمون له العطايا ، فأقام بينهم العدل وأصلح لهم هياكلهم ، ثم ضم الاسكندر صور ومصر إلى أملاكه ، ولم يستطع دارا أن يصالح الاسكنر بأمواله ولا أن يهزمه لكنه فر من الميدان في لقائه الثاني ، ولم يستطع جنوده إحتمال ذلك فقتلوه وهو هارب .

عمارة فارس

عمارة الفرس عمارة منقولة ، فهم قوم انصرفوا إلى ملذات الحياة ، من مأكل ومشرب ومعاشرة نساء. وفي المقابل كان الإهمال والإستهتار بكل ما يمت إلى العلوم والفنون والآداب بصلة. ومن عجيب القول أنهم أسندوا إمارة الجيوش إلى الغرباء وعابري السبيل. فقد يتفهم الإنسان إنصرافهم عن الأدب والعلوم ، ولكن أليس في تركهم إمارة الجيوش تهديدا بأمنهم القومي ؟

هل تبلغ الشهوة من الإنسان كل هذا المبلغ ؟

ربما كان ذلك كله تفسيرا لقصر عمر دولتهم . فلا فنا أجادوا ولا تقدما هندسيا أبدعوا ، اللهم إلا فنون القتال.

حضارة الهــند

إنه ليس من العقل ولا من الإنصاف إغفال الحديث عن شبه قارة كانت تتمتع بأعظم المدنيات. توفر لها من أسباب القوة أن صدرت تلك الأفكار إلى خارجها. وكيف لنا أن نغفل الحديث عن أرض بها أسماء مثل موهنجو-داروا وبوذا وغاندي ورامان وطاغور.

لقد كانت الهند أقدم المدنيات، اجتمع لديها ديانات كثيرة من الوثنية البربرية إلى أدق عقيدة في وحدة الوجود وأكثرها روحانية. لها من الفلاسفة من عزفوا مئات الأنغام على وتر التوحيد بادئين من أسفار «اليوبانشاد» في القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى شانكارا في القرن الثامن بعد الميلاد . ولها من العلماء من برزوا في علم الفلك منذ ثلاثة ألاف عام . ولها من الشعراء من تغنى بها مثل طاغور وغيره. ولها من رجال الفن من شيدوا لها المعابد الجبارة لآلهة الهندوس، تراها منتشرة من التبت إلى سيلان.

جغرافيا الهند

الهند ليست الهند المعاصرة وعاصمتها دلهي ، بل إنها تمتد إلى أقاليم أخرى اقتطعت منها بسبب الحروب والإستعمار. إن مسرح التاريخ مثلث كبير يضيق جوانبه تدريجيا من ثلوج الهملايا الدائمة إلى حرارة سيلان التي لم تبرد منذ الأزل، وفي ركن من جهة اليسار تقع فارس التي تشبه الهند الفيدية شبها قويا في أهلها ولغتها وآلهتها ، فإذا ما تتبعت الحدود الشمالية متجها نحو الشرق وقعت على أفغانستان، حيث ترى قندهار التي كان اسمها جاندهار قديما. وفيها إلتقى النحت اليوناني الهندي حينا ثم افترقا، وهناك أيضا تجد من النحوت الجبلية لبوذا وألهة الهند مايدلل على ذلك. فإذا انتقلنا إلى الشمال وجدت كابل، التي إنطلقت منها غارات المسلمين والمغول على القارة الهندية، وحكموا بعدها الهند ألف عام . وإلى الطرف الشمالي من الهند مباشرة يقع إقليم كشمير الذي يدل اسمه نفسه على مجد تليد ظفرت به صناعة النسيج . وجنوبيهما يقع إقليم البنجاب ومعناها أرض الأنهار الخمسة .

ويجرى نهر السند خلال الجزء الغربي من البنجاب ، وهو نهر عظيم واسمه مشتق من الكلمة الاقليمية التي معناها نهر وهي «سندو» ، وقد حورها الفرس إلى هندو ، ثم أطلقوا على الهند الشمالية كلمة هندوستان أي بلاد الأنهار.

وينبع من البنجاب نهرا جمنة والكنج اللذان يجريان في خطو وتيد إلى الجنوب الشرقي، أما جمنة فيروي العاصمة الجديدة دلهي ويعكس على صفحته تاج محل عند «أجرا» وأما نهر الكنج فيزداد إتساعا كلما صار نحو المدينة المقدسة بنارس، ويطهر بمائة مائة ألف عابد من عباده كل يوم، ويخصب بمصباته الأثنى عشر اقليم البنغال والعاصمة البريطانية القديمة كلكتا، فإذا ما ازددت إيغالا في مسيرك نحو الشرق ، ألفيت بورما بمعابدها الذهبية. وإلى الجنوب والغرب ترى مكان الرئاسة أو اقليم بمباي، الذي من مدنه سوارات وأحمد أباد وبمباي وبونا. وإلى الجنوب والشرق تجد دولتان عظيمتان هما حيد أباد وميسور

وتنتشر في أرجاء الهند هنا وهناك غابات بدائية، ترتع فيها النمور والفهود والذئاب والثعابين، وفي الثلث الجنوبي من الهند يقع اقليم دكن حيث تزداد حرارة الشمس. وتبقى تلك الحرارة هي العنصر السائد من دلهي إلى سيلان، تلك الحرارة التي أضعفت الأبدان وقصرت الشباب، وكما يقول ديورانت انتجت للناس ديانتهم وفلسفتهم المسالمتين فليس يخفف عنك الحرارة إلا أن تجلس ساكنا، لاتعمل شيئا، ولاترغب في شيئ .

الهنود الآريون

كانت الهند في عصر ماقبل التاريخ غابة موحشة حتى هاجر إليها الآريون أبناء عمومة الأوربيين، هاجروا من شطئان بحر قزوين الفنون والعلوم إلى شبه جزيرة موحشة يكتنفها ظلام الليل. أما السكان الأصليين فهم «الناجا»، وهم قوم كانوا يعبدون الثعابين، بل ويضعونها فوق رؤوسهم على شكل تيجان .

فإذا توغلت ناحية الجنوب وجدت الأرض التي كان يسكنها عندئذ قوم سود البشرة فطس الأنوف ويسمون بالدرافيديين. ولم تكن غزوة الآريين لهذه القبائل المزدهرة، وانتصارهم عليها إلا حلقة من سلسلة متصلة من الغزوات، كانت تقع على فترات منتظمة بين الشمال والجنوب فينقض الشمال إنقضاضا عنيفا على الجنوب المستقر الآمن، وقد كان ذلك مجرى من المجاري الرئيسية التي سارت فيها حوادث التاريخ، فالآريون قد هبطوا على الدرافيديين، والأخيون والدوريون قد هبطوا على الكريتيين، والجرمان قد هبطوا على الرومان ، واللمبارديون قد هبطوا على الإيطاليين، والإنجليز قد هبطوا على العالم بأسره .

يقول ديورانت : في نفس الوقت الذي كان الكاسيون الآريون يكتسحون فيه بابل، كان الآريون الفيديون يدخلون فيه الهند. ومن هنا نعلم منشأ الهنود ونسبهم، بيد أننا لابد لنا أن نعلم أن هؤلاء الآريون كانوا أقرب إلى المهاجرين منهم إلى الفاتحين. شأنهم في ذلك شأن الجرمان مع الإيطاليين .

والآريون كسائر الشعوب كانت لهم قواعد الزواج في حدود العشيرة، وخارج حدودها كان يحرم الزواج . لكنهم لما شاهدوا أنهم أقل عددا من الذين يسودونهم أباحوا الزواج منهم، وبذا كان منشأ الهنود الآريون. في ذلك الوقت زالت الفوارق وزالت الطبقات التي بين الناس . لكن مع تقدم الزمن بدعت هذه الطبقات تظهر للعيان. والأمر الذي يعنينا أن العرق الهندي به نزعة آرية منذ القدم، ولايشمل هذا أهل الهند وحدهم بل يشمل بلاد الأفغان والباكستان وايران. وبدء الهنود حياتهم بالحرب والسلب ثم بالزراعة والرعي.

أسفار الفيدا

هي الديانة الأولى للهند، حيث وجدها الآريون عندما دخلوا الهند منتشرة بين «الناجا» عبدة الثعابين، وهي تتلخص في عبادة أرواح مختلفة تسكن الصخور والحيوانات والأشجار ومجاري المياة والجبال والنجوم، وكانت الثعابين والأفاعي مقدسة لقوتها وشدة فتكها . وهناك أسماء بعينها لألهة الهند مثل: ناجا الإله

الإفعوان وهاتومان الإله القرد ونادس الثور المقدس والياكشا إله الأشجار، حيث أن بوذا كان يرى في الأشجار صمت الجلال الذي يؤهلها للعبادة.

ولما كانت هذه الأرواح منها الخبيث ومنها الطيب، فلايستطيع أي إنسان منع روح خبيث مثلا من التسلل لجسد آدمي وإيذاءه، انتشر السحر بين الهنود وأصبحت الرقى والتمائم هي الحل الوحيد للنجاة من تلك اللعنة.

وكانت أقدم ألهة ذكرتها أسفار الفيدا هي قوى الطبيعة كالسماء والشمس والنار والضوء والريح والماء والجنس، فكان ديوس - الذي هو عند اليونانيين زيوس- هو السماء. وقد كانوا يعتقدون أن السماء أبا والأرض أما وأن النبات هو ناتج الحب بينهم. وفي الحقيقة نحن لاننظر إلى تلك العقيدة بنوع من الإستخفاف بل ننظر إليها على أنها محاولات للبحث عن إله يعبد. كان لهم ألهة أخرى كثيرة كالمطر الذي اسمه بارجانيا والنار التي أسمها آجنى والريح فانو، أما إذا كانت الريح مهلكة فهي روذرا ، وإن كانت عاصفة فهي إندرا، والفجر أوشاش، ومجرى المحراث في الحقل سيتا، والشمس سوريا، والنبات المقدس سوما، ومنه كان الشراب المسكر للألهة وللأفراد.

ربما يكون تقديس الهنود للبقر حتى يومنا هذا راجع إلى أسفار يوبانشاد حيث ورد فيها عن خالق هذا الكون ما يلي « حقا إنه لم يشعر بالسرور، فواحد وحده لا يشعر بالسرور ، لقد كان كبير الحجم حتى ليعدل جسمه رجلا وامرأة تعانقا، ثم كان لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج تملؤه الزوجة، وضاجع زوجته وبهذا انسل البشر، وسألت نفسها الزوجة كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه فإختف ، واختفت في صورة البقرة ، وانقلب هو ثورا ، فزاوجها وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية ، فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ هو الجواد ، ثم أصبحت هي حمارة فأصبح هو حمارا وزاوجها حقا ، وولد لهما ذوات الحوافر ، وانقلبت عنزة فانقلب لها تيسا ، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشا ، وولد لهما الماعز والخراف ، وبهذا كان خالق كل شيئ ، ومن هنا نشأ الخلق»

بسبب هذا النص الخطير ، الموجود في أسفار يوبانشاد ، نشأت فكرة وحدة الوجود أو تناسخ الأرواح ، ولكن الأخطر إن سلمنا جدلا أن كل ذلك كان محاولة من الأنسان في البحث عن خالقه ، أو محاولة لمحو أميته عن خالق هذا الكون وكيف خلق ، فكيف له أن يستمر حتى الآن ! في وقت إنتقل فيه العالم من ثورة الإتصالات إلى الثورة البيولوجية. لاأفهم ذلك حقا أن أدخل مكتب أحد الوزراء أو مديري العموم فأجده يعلق صورة بقرة في مكتبه ، لكنها الهداية ولسنا بصدد النقد أو التذيل ، لكننا نحاول قراءة نشأة الحضارات القديمة.

إن فكرة تناسخ الأرواح أو وحدة الوجود تعني أن الخالق وخلقه شيء واحد . ويعتقد المذهب اليوبانشادي أن كل صورة كانت في يوم من الأيام صورة أخرى ، وعلى هذا أقاموا مذهبهم ، بل ورد في أسفار يوبانشاد «يفنى الفاني كما تفنى الغلال، ويعود إلى الحياة في ولادة جديدة كما تعود الغلال» .

هذه العقيدة لم تكن موجودة في الديانة الفيدية. أما فكرة النار المقدسة فالسبب فيها أننا لم نعرف للهنود معابد أو أصنام ، سواء كان ذلك على

أيام أسفار فيدا أم على زمن أسفار يوبانشاد، ولكننا عرفنا المذابح ، فكان المقصود من النار المقدسة أنها تلك التي ترفع القرابين إلى السماء.

فلسفة جميلة

إن أجمل ماقدمته الفلسفة الهندية تلك النظرة الصوفية للأشياء. تقول أسفار اليوبانشاد وبالمناسبة كلمة اليوبانشاد تعني الجلوس بقرب، بمعنى الجلوس بقرب المعلم أو تلقي أسراره . تقول الأسفار» سيدي ما غناء إشباع الرغبات في هذا الجسد النتن المتحلل ، الذي يتألف من عظم وجلد ونخاع ومني ودم ومخاط ودموع ورشح ؟ ما غناء إشباع الرغبات في هذا الجسد الذي تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور ؟ ما غناء إشباع الرغبات إذا كان الجسد يعود إلى الأرض مرة بعد مرة.

والحقيقة أن الأمر الذي قصدته بكلمة فلسفة جميلة هو الشق الأول من

الحديث ، ألا وهو النظر إلى متطلبات الجسد بشيئ من الإزداء ، وذلك بوصفه فاني لا بوصفه يعود إلي الأرض مرة بعد مرة.

يقول ياجنافالكيا في شرح اليوجا «إذا اقتلع الإنسان بالتزهد كل شهوات نفسه ، لم يعد هذا الأنسان فردا جزئيا قائما بذاته، وأمكنه أن يتحد في نعيم أسمى مع روح العالم، وبهذا الإتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد». إذا فهذا سر الإيمان بوحدة الوجودة ' عدم الولادة من جديد، والزهد في الشهوات طريقها .

زمن بوذا

لما شب بوذا رجلا وجد القيعان والشوارع بل والغابات في شمال الهند تتجاوب كلها بأصداء نزاع فلسفي، كان في جملته ينحو نحو الإلحاد . وإنك لترى أقدم الأسفار البوذية ملئا بالإشارات إلى هؤلاء الزنادقة ، فقد كان هناك طائفة كبيرة من السوفسطائيين الجوالين ويسمونهم باريباجاكا أو المتجولين ، كانوا ينفقون معظم أيام السنة في تعلم المنطق ، ويعتبرونه العلم الذي يبرهن ويقيم الحجة على الأشياء . وأخرون طفقوا يبرهنون على عدم وجود الله وعدم ضرورة اصطناع الفضيلة ، وكانت جموع كبيرة تحتشد لسماع هذا الكلام وتلك المحاضرات ، وبنيت قاعات خاصة لهذا الغرض ، بل كان الأمراء يكافئون الظافرين من هذه الحلبات الفكرية. لقد كان عصرا يدهشك بحرية فكره ، وبألوان التجارب التي أجراها أهله في عالم الفلسفة.

أسطورة بوذا

تصف الرواية الهندوسية والد بوذا «شد دوذانا» بأنه رجل غمس نفسه في الحياة ، وهو من أبناء عشيرة «جواتاما» التي تنتسب إلى قبيلة شاكيا المدلة بنفسها ، كان أميرا أو ملكا عند سفح الهملايا. ويحدد العلماء ميلاد بوذا بعام ٥٦٣ ق.م. وتتذكر المراجع وعلى رأسها قصة الحضارة لديورانت قصة غريبة لميلاده ، فقد رأت أمه في منامها «أربعة ملوك عظماء يرفعونها من سريرها

ويأخذونها إلى جبال الهملايا ، ويضعونها على هضبة ماتوسيلا ، ثم رأت ملكات هؤلاء الملوك الأربعة، يأتين إليها فيأخذنها إلى بحيرة أنوتانا، ويغمسنها في الماء ليزلن عنها الصبغة البشرية، ويلبسنها أردية سماوية ويعطرنها بالعطور ويزينها بالزهور القدسية، ثم رأت جبلا من فضة وعليه قصر من ذهب، وهنالك أعددن لها سريرا إلهيا رأسه إلى الشرق، وأرقدنها عليه ، وهنا انقلب «بوذيساتاوا» فيلا أبيض ، وكان على مقربة المكان جبلا من ذهب ، فلما أن بلغه هبط منه إلى جبل الفضة آتيا إليه من جهة الشمال، وفي جعبته زهرا أبيض من زهر اللوتس، وبعدئذ نفخ في الصور ودخل قصر الذهب ودار تجاه اليمين دورات ثلاث حول سرير أمه ، ثم ضرب جنبها الأيمن وظهر له كأنه يدخل رحمها «

وأستيقظت الملكة في اليوم التالي وقصت على الملك مارأت في منامها ، فدعا الملك إلى حضرته أربعا وستين من البراهمة، وبعد أن أكرم وفادتهم طلب منهم تأويل الرؤيا.

فقال البراهمة « لايأخذنك الهم أيها الملك ، فقد حملت الملكة ذكرا ، وسيكون لك ولد يحكم الدنيا بأسرها مادام في داره ، أما إن خرج من داره إلى أحضان العالم فسيصبح بوذا وسيكون في هذا العالم رافع الغشاوة عن أعين الناس . وكان حمل بوذا عشرة أشهر، ثم كان وضعه أمرا غريبا – كما تقول الكتب البوذية المقدسة – فقد نزل كما ينزل الواعظ من منبر وعظه ، ونزل كأنه الرجل ينزل من سلمه ، ومد يديه وقدميه ، ووقف لايلوثه القذر ولا تشوبه الشوائب.

وتقول كتبهم « عند مولد بوذا ظهر في السماء ضوء لامع ، وسمع الأصم ونطق الأبكم، واستقام الأعرج على ساقيه «

والحقيقة أن منهجنا في هذا الكتاب عدم مناقشة الأفكار بل سردها ورؤية تأثير الفكر على الحضارة ، لكن ما ورد في ميلاد بوذا أمر مستفز للغاية ، فمثل هذه الأوصاف لم يرد ذكرها عند ميلاد سيد الخلق سيدنا محمد.

وتصور لنا الأساطير ما أحاط بنشأته من عز وترف ، عاش عيشة الأمير الهانئ في ثلاثة قصور كما أورد ديورانت في قصة الحضارة ، وكان أبوه يقيه مدفوعا بحبه الأبوي شر الإتصال بما تعانيه الحياة البشرية من آلام وأحزان، وكان يقوم على تسليته أربع آلاف راقصة، ولما بلغ رشده عرضت عليه خمسمائة سيدة ليختار إحداهن للزواج، وتزوج وعاش عيشة هادئة وديعة

ويروي الرواة أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطرقات حيث عامة الناس، وهناك رأى شيخا كهلا ، وخرج يوما ثانيا فرأى رجلا مريضا وخرج يوما ثالثا فرأى ميتا، واسمع له يروي القصة بنفسه كما نقلها أتباعه في الكتب المقدسة «وبعدئذ أيها الرهبان جرت خواطري على النحو الآتي - فيما كنت فيه من جلال عيش ورفاهية بالغة - قلت لنفسي إن رجلا جاهلا من سواد الناس، ستنال منه الكهولة كما نالت من ذلك الشيخ، وليس هو بالبعيد عن نطاق الشيخوخة ، يضطرب ويستحي وتعاف نفسه حين يبصر بشيخ كهل لأنه يتصور نفسه في مثل حالته. وهكذا أيها الرهبان قبل أن أهتدي سواء السبيل لما وجدتني ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت في طبيعة هذه الولادة ماذا تكون، ولما وجدتني ممن تجوز عليهم الشيخوخة بحثت في طبيعة هذه الشيخوخة ماذا تكون، وكذلك المرض ، وكذلك الحزن ، وكذلك الدنس ، ثم فكرت لنفسي : مادمت أنا نفسي ممن تجوز عليه الولادة فماذا لو بحثت في طبيعتها، فلما رأيت مافي طبيعة الولادة من تعس، جعلت أبحث عمن لايولد ، أبحث عن السكينة العليا. إن الموت هو أصل الديانات كلها، ويجوز أنه لم يكن هناك موت لما كان للآلهة عندنا وجود. هذه النظريات كانت بداية التنوير عند بوذا «

وكما يرتد الإنسان عن دينه في لحظة ، كذلك حدث لبوذا أن صمم فجأة أن يترك أباه وزوجته وابنه الرضيع، ليضرب في الصحراء زاهدا، ولما أسدل الليل ستاره تسلل إلى غرفة زوجته ونظر إلى ابنه «راهولا» نظرة أخيرة ، ونزل من القصر وخلف المدينة وهو على ظهر جواده «كانثاكا» في ظلمة الصباح الباكر

.ثم تبدى له مارا أمير الشر وأغواه بملك عريض، لكن بوذا أبى عليه غوايته ، وظل راكبا جواده حتى صادفه نهر عريض ، ووقف عند مكان اسمه يوروفيلا، يقول وقلت لنفسي،إن هذا المكان رائع ، وإن هذه لغابة جميلة، فالنهر ينساب صافيا،وأماكن الأستحمام تبعث في النفس السرور وكل ما حولي مروج وقرى ، وفي تلك الساعة أخضع نفسه لأقصى أنوا ع التقشف ، ولبث ستة أعوام في الغابات ، اقتات فيها بالروث ، ثم جعل طعامه بعدذلك حبة من الأرز كل يوم ، ولبس ثيابا من الوبر ، وانتزع شعر لحيته ورأسه لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب ، وكان ينفق الساعات الطوال واقفا أو راقدا على الشوك، وكان يترك التراب والقذر يتجمع على جسده ، وكثيرا ما كان يرتاد مكانا تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش فينام بين هذه الجثث العفنة. وقلل بوذا بعد ذلك من طعامه حتى برزت عظام صدره وقدماه .

وأورث ذاك التعذيب والحرمان في نفس بوذا شيئا من القدسية.

ماهافيرا

في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ولد صبي لرجل ثري من أشراف قبيلة لشافي في ضاحية من ضواحي مدينة فابشالي في إقليم بهار، وكان أبواه على ثرائهما ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن يعود، وتنظر إلى الإنتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر ، فلما أن بلغ وليدهما عامه الحادي والثلاثين ، أزهقا روحيهما بجوع متعمد ، فتأثر ابنهما الشاب تأثرا بالغا ، بلغ منه أن طرح العالم كله خلف، وخلع ثيابه وزينته ، وضرب في أرجاء الأقليم الغربي من البنغال زاهدا متقشفا ، ينشد تطهير نفسه من أدرانها كما يقصد أن يزداد بسر الوجود فهما وعلما ، وبعد أن قضى في انكار ذاته ثلاثة عشر عاما أعلنت جماعة من أتباعه أنه جنا أي قاهر ، ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم القدر - هكذا كانوا يعتقدون - أن يظهروا على فترات دورية ليهدوا شعب الهند . واختار هؤلاء الاتبا ع لزعيمهم اسما جديدا هو ماهافيرا أو البطل العظيم.

ولك أن تتخيل أن هذا الرجل عندما جاءته منيته وهو في الثانية والسبعين ترك وراءه أربعة عشر ألف راهب من اتباع مذهبه. وأخذت هذه العقيدة شيئا فشيئا يخرج من جوفها مذهبا من أعجب ما شهده تاريخ الديانات من مذاهب ، فقد بدأ هؤلاء الأتباع بمنطق واقعي ، إذ وصفوا المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبي ، فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة ، ولو نظر إلى هذا الحق من وجهات نظر أخرى لكان الأرجح أن يكون باطلا . وكان يلذ لهم دائما رواية قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على أجزاء مختلفة من جسم الفيل ، فمن وضع يده على أذنه ظن أن الفيل مروحة ضخمة لذر الغلال، ومن وضع يده على ساقه قال إن الفيل عمود مستدير. فالأحكام كلها إذن محدودة بحدود وهي نسبية تختلف بإختلاف الموقع الذي نفسر من الأشياء. أما الحقيقة المطلقة فلا يعرفها الا المخلصين أمثال الماهافيرا .

ولقد قال أتباع الماهافيرا أو الجانتيون أنه ليس من الضروري أن نفرض وجود خالق أو سبب أول ، وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن نعتقد أن الكون كان موجودا منذ الأزل .

وكانوا يؤمنون بعدم إيذاء أي كائن حي ، ولزام على كل متقشف جانتي أن يأخذ على نفسه عهودا خمسة ، ألا يقتل كائنا حيا ، وألا يكذب ، وألا يأخذ مالم يعطه ، وأن يصون عفته ، وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها، وفي رأيهم أن اللذة الخارجية خطيئة دائما ، والمثل الأعلى ألا تأبه للذة أو ألم وأن تستغني إستغناء تاما عن الأشياء الخارجية كلها ، فالزراعة حرام على الجانتي لأنها تمزق التربة وتسحق الحشرات والديدان ، والجانتي الصالح يرفض أكل العسل لأنه حياة النحل، ويصفي الماء قبل شرابه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامنا فيه من كائنات ، ويغطي فمه خشية أن يستنشق مع الهواء أحياء عالقة، ويحيط مصباحه بستار كي يقي الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه كي لايطئ الحشرات فيقتلهم.ولايجوز للجانتي أبدا أن يذبح حيوانا أو يضحي به مهما كلفه الأمر.

والجانتي يجواز له الانتحار خاصة إن كان عن طريق الجوع ، لأن ذلك إنتصار للروح على الحياة التافهة. ولقد مات جانتيون كثر على هذا النحو خاصة القادة والرواد .

إن عقيدة دينية كهذه قائمة على أساس من الشك العميق في قيمة الحياة والإنكار الشديد لها ، كان يمكن أن تجد صدى وشيوعا بين الناس ، إلا أن هذا التطرف في الزهد كان حائلا في إلتحاق العديدن بتلك الديانة.

ولقد كان غاندي شديد التأثر بالمذهب الجانتي ، وامتنع عن ايذاء الكائنات الحية كعقيدة ومذهب وسياسة ، ورضي من الثياب بقطعة واحدة تستر ردفيه ، ولم يكن يستحيل عليه أن يقتل نفسه جوعا .

تعاليم بوذا

لم يدعى بوذا أن كلامه مقدسا ، ولم يدعي أنه يوحى إليه ، ولكنه اكتسب تلك القدسية من تعذيبه لنفسه وزهده في الدنيا ونظرته للموت . ولخص بوذا مذهبه في تعاليم حفظها تلاميذه وأتباعه . لم يدعى بوذا أنه يوحى إليه لكن أتباعه وصفوه لنا على أنه أهمسا - كما أورد ديورانت- والأهمسا هو الإمتناع عن قتل الكائنات الحية على إختلافها. وهنا لابد من وقفه فبوذا في بداية حياته كان من طبقة المقاتلين «الكشاترية» لكنه بعد دخوله مرحلة الزهد والخلوى خلع عن رقبته سيفه ورمحه .

وعاش بوذا مرحلته العمرية الثانية محبا للسلام ومشجعا لدوام الصداقة ومصلحا بين الناس عند التخاصم . فإذا وصل مع من يجادله إلى مرحلة أن يهينه آثر هو الصمت وكان يقول « إذا أساء إلى إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبي إياه حبا مخلصا ، وكلما زادني شرا زدته خيرا « . وعلى خلاف الكثرة من القديسين كانت لبوذا روح الفكاهة ، لأنه أدرك أن البحث في فلسفة الكون إن لم يصاحبها الفكاهة أورثت صاحبها الكبرياء.

وكان لبوذا طريقة مختلفة في إرساء تعاليمة ، فقد كان يتنقل بين القرى

والمدن في صحبة من تلاميذه ، وما أن يصل إلى مدخل القرية أو المدينة حتى يضرب خيامه ، ويخصص فترة العصر للتأمل وفترة المساء للتعليم. وكان لايهتم بطعامه وشرابه ويتركه لمن ينزل ضيفا عنده ، وكان يجري محادثاته في صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف في الحوار ، أو كان يسوق تعالبمه في عبارات مقتضبه يرمي بها إلى تركيز آرائه تركيزا يجعلها في صورة الإيجاز والترتيب . وكان أحب عباراته المقتضبة إلى نفسه عبارة الحقائق السامية الأربعة . التي بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعا.

أيها الرهبان الألام صورها : ألم الولادة ، وألم المرض ، وألم الشيخوخة، وألم الحزن والبكاء والخيبة واليأس

وسببه أيها الرهبان الشهوة ، الشهوة هي التي تؤدي إلى الولادة ، الشهوة التي تمازجها لذة الإنغماس في اللذة ، شهوة الحياة ، شهوة العاطفة وشهوة العدم

ووقف الشهوة أيها الرهبان بتجنب ذلك كله ، فلا تبقى له بقية في نفوسنا، والسبيل هو الإنقطاع والعزلة

وكي نحصن نفوسنا أيها الرهبان لابد من الإلتجاء إلى ثماني شعب هي سلامة الرأي ، وسلامة النية ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش، وسلامة الجهد ، وسلامة مانعنى به ، وسلامة التركيز

رد لابد منه

إن هذا الكلام - وإن كنا ألمحنا سابقا إلى أننا لانهدف في هذا الكتاب إلى مناقشة الأفكار ولكننا نسرد الأفكار ونرى تأثيرها على البناء الحضاري-

إلا أنه كلام معتل ففيه فناء البشرية وخراب الكون ، لو أن كل واحد منا اعتزل الشهوة وطلقها لفني الكون وكانت النهاية . وما أجمل ما أتى به الإسلام من توازن بين قبضة الطين ونفخة الروح.

هذا مع علمنا من سلامة المقصد في تهذيب النفس بترك شهواتها . لكن البون كبير بين إجتهاد البشر وإتزان الخالق الوهاب.

الألم أفضل من اللذة

ونعود إلى بوذا مرة أخرى حيث يرى أن الألم أرجح كفة من اللذة في الحياة الأنسانية ، لذا فهو يرى أنه خير للإنسان ألا يولد . ويقول إن ماسفح الإنسان من دموع لهو أعز من كل ما تحتوي المحيطات العظيمة الأربعة من مياة . فعنده أن كل لذة تحمل سمها في ذاتها، لمجرد أنها لذة عابرة قصيرة . يقول «أذلك الذي يزول ولا يقيم ، أهو الحزن أم السرور ، فيجيبه أحد تلاميذه إنه الحزن يامولاي »

إنها نظرة عميقة ، قمة في الإنغماس الفكري في فلسفة ما يأتيه الإنسان. لكنها لاتلبي بقاء الكون ، والله خلقنا للإعمار ولم يخلقنا للإنزواء والتأمل . إن لذة البذل والعطاء والصبر على البلاء لهي أفضل بكثير من تعاليم بوذا التي أتفهمها على أنها محاولات بشرية لتفسير الكون دون اللجوء إلى الوحي أو الإستعانة بالنبوة.

ويرى بوذا أن رأس الشهوات كلها هي الشهوة الجنسية ، والتي منها يكون التناسل ، الذي يطيل سلسلة الحياة إلى ألم جديد بغير غاية مقصودة. ومن هنا فهم بعض تلاميذ بوذا أنه يجيز الإنتحار.

وجه الشبه بين تعاليم بوذا والمسيح

طلب بعض تلاميذ بوذا أن يصف لهم الحياة السليمة ، فأوصى بخمس وصايا.

- لايقتلن أحد كائنا حيا
- لايأخذن أحد مالم يعطه
- لايقولن أحد كذبا
- لايشربن أحد مسكرا
- لايقمن على دنس

ويضيف بوذا في مواضع أخرى تشبه رحمة المسيح فيقول «على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يزيل الشر بالخير ، فإن النصر يولد المقت لأن المهزوم في شقاء ، وإن الكراهية يستحيل عليها أن تزول بكراهية مثلها ، إنما تزول بالحب»

كراهية بوذا للنساء

هو عنوان صادم ، لكن ما أورده ديورانت يؤيده ، فقد نقل لنا حوار دار بين بوذا وأحد تلامذته يدعى أناندا يقول الحوار :

أناندا: كيف لنا يامولاي أن نسلك إزاء النساء ؟

بوذا: كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا

أناندا: لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن ؟

بوذا: لا تتحدث إليهن يا أناندا

أناندا: لكن ماذا إذا ما تحدثن إلينا يامولاي؟

بوذا: كن منهن على حذر تام يا أناندا

هذا الحوار يوضح لك نظرة بوذا للنساء وإن كانت بسبب الهروب من الشهوة التي هي مصدر الألم.

وكان فكر بوذا عن الدين أنه سلوك فقط ، سلوك للناس قويم يسيرون به بين البشر فيقيمون كل معوج ويرعبون كل صدع ، أما العبادات والشعائر فلا قيمة لها ولاتستحق النظر ، مع أن تلك العبادات هي التي تربي النفس البشرية. إن من عجائب الأمور أن يلجأ بوذا إلى اليوجا كتدريب للنفس ويغفل عن العبادات أن تؤدي نفس الوظيفة بل أكثر وأعظم.

بل إنك لن تجد في التاريخ من هو أغرب من بوذا ، يؤسس لمذهب كبير ومع ذلك يأبى أن يدخل في نقاش عن الله والأبدية والخلود، فاللانهائي أسطورة، وخرافة من خرافات الفلاسفة !

ويبلغ بوذا قمة إلحاده حين يقول «إن القدسية والرضى لايكونان في

معرفة الكون والله ، وإنما يكونان في العيش الذي ينكر فيه الإنسان ذاته ويبسط كفه للناس إحسانا ، ثم يضيف إلى ذلك تهكما بشعا فيقول أن الألهة أنفسهم، لو كان لهم وجود، لما كان في وسعهم أن يجيبوا على أمثال هذه المسائل .

وأضع بين يدي القارئ قصة كفاذا التي أوردها ديورانت في كتاب قصة الحضارة والتي تدل على ما يخفي بوذا بداخله من استهتار وعجرفة وتعالي على مبدأ أن يكون لهذا الكون خالق ، فضلا على كونه بذا أحق أن يعبد، وإليك القصة «حدث مرة ياكفاذا– والحديث هنا لبوذا– أن طاف الشك بزميل من طائفة الزملاء حول النقطة التالية ، أين تمضى هذه العناصر الأربعة الكبرى : التراب والماء والنار والهواء بحيث لا تترك ورائها أثرا ، وجعل ذلك الزميل يقدح عقله، وأخذته حالة من الوجد صعد معها إلى مملكة الملوك الأربعة الكبار ، وخاطب الألهة قائلا : أين يا أصدقائي تذهب العناصر الأربعة ؟ فلما أن فرغ من سؤاله أجابة الألهة، وخاطب الألهة قائلا : أين يا أصدقائي تذهب العناصر الأربعة ؟ فلما أن فرغ من سؤاله أجابه الألهة إننا يا أخانا لاندري من ذلك شيئا لكن هنالك الملوك الأربعة الكبار سلهم يجيبوك. عندئذ ياكفاذا ذهب ذلك الزميل إلى الملوك الأربعة ، فأحيل إلى الثلاثة والثلاثين ، الذين أحالوه بدورهم إلى ملكهم ساكا ، الذي أحاله إلى آلهة ياما ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم سوباما، إلى أن انتهى إلى آلهة العالم البرهمي ، ويذهب ياكفاذا ويسئلهم نفس السؤال، فيجيبون بنفس الإجابة ويدعونه إلى الذهاب إلى البراهما العظيم ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، مدبر كل أمر ، ومالك كل شأن ، فيذهب ويسأله نفس السؤال ، فيجيبه قائلا : أنا لا أعلم شيء، حاش لله

إن بوذا بتلك القصة أسقط جميع الأقنعة ، وشوه ما بداخل مدرسته الصوفية من جمال ، إنه أبان عما بداخل نفسه من رفض للإله الخالق .

ويقول تعليقا على الإلتجاء إلى الله وطلب العون والمساعدة منه سبحانه «إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سببا في سعادتك أو شقائك،

لأن السعادة والشقاء دائما نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن» . وحقيقة أمر بوذا أنه من ضمن ما دعاه إلى عم الإيمان بالله أنه ربط في اللاشعور أن هذا الإيمان مرتبط بتقديم القرابين ، وذاك أمر يصادم ما دعى إليه من عدم قتل روح أي كائن حي .

هو لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالخلود ، فهو لايرى على هذا المسرح الذي تمتزج فيه الفوضى والنظام ، والخير والشر ، مبدأ ينم عن الدوام ، ولا مركزا لحقيقة أبدية خالدة ، وكل مايراه في الحياة دوامة تدور وحركة ما تنفك في تغير.

بوذا في أيامه الأخيرة

ظل تناسخ الأرواح في عقيدة الهنود أمرا مسلما به ، لايناقشه أحد أو يشكك في مصداقيته أو يزيد عليه ، وظلت الأجيال تتوارثه جيلا بعد جيل، إلى أن حاول بوذا أن يفك طلاسمه فقال ، إن الروح لاتنتقل من جسد إلى جسد إلا إذا وصل صاحبها إلى مرحلة النرفانا ، والنرفانا تعني كبح الشهوة وإخماد سعيرها. يفهم من هذا أن التناسخ والحياة السرمدية القائمة على عدم موت الروح وإنتقالها من جسد إلى جسد مشروط بكبح الشهوات ومقاومتها.

أما عن بوذا في أيامه الأخيرة، فتقص علينا الكتب البوذية المقدسة أن بوذا إلتف حوله العديد من التلاميذ ، وذاعت شهرته في الجزء الشمالي من مدائن الهند. ولما سمع أبوه أنه على مقربة من كابيلافاستوا -مكان إقامته - أرسل إليه من يستدعيه ، وحضر بوذا ، فسر به والده، وسر بما صار إليه أن، أصبح ذاك الغلام قديسا تحوطه هالة من الإكبار والتبخيل. وجاءته زوجته ، التي أخلصت له طيلة فترة غيابه ، تلبس ثيابا باللون الأصفر . فهو لون ثياب الزاهدين وهو ما كان يرتديه بوذا من ألوان.

وخضعت الزوجة بين يديه ، وأخبرته أنها لما علمت أنه طلق النوم على سرير كبير طلقت هي أيضا النوم على السرير الكبير وغدت تنام على الكنبة، ولما علمت أنه لا يأكل إلا وجبة واحدة تقشفا أكلت هي أيضا وجبة واحدة ،

عندئذ باركها بوذا ورضي عنها وضم إبنه راهولا - كما سبق معنا - إلى طائفته الدينية. وتذكر الكتب البوذية المقدسة أن ناندا ابن الملك ترك حفلة تنصيبه وذهب إلى بوذا يريد الإلتحاق بطائفته الدينية ، وحزن الملك ، ثم قال لبوذا « لما طلق مولانا الدنيا لم يكن ذلك هين الوقع على نفسي ، وكذلك حين غادرنا ناندا ، إن حب الوالد لولده يحز الجلد واللحم والمفاصل والنخاع ، فرجائي إليك يامولاي ألا تدع أتباعك الأشراف يضمون إلى طائفتكم إبنا إلا بإستئذان أبيه وأمه ،فوافق بوذا وجعل استئذان الوالدين شرطا لازما لانضمام العضو الجديد إلى طائفته.

وكثر اتباع المذهب في أيامه الأخيرة ، ومن اللطائف أن أتباعه اختاروا لأنفسم عبارة تميزهم عن الأخرين عند التحية، كانوا يقولون «السلام على الكائنات جميعا».

وفي أيام بوذا الأخيرة رفعه أتباعه إلى مرتبة التأليه ، ولم ينتظروا حتى موته، على الرغم من أنه كان دائما يحفزهم على الشك في صحة ما يقوله لهم ، حتى يفسح لكل منهم مجال التفكير الحر أمام نفسه،وورد في محاورة من أواخر محاوراته :

«جاء ساريبوتا الوقور إلى حيث كان النبي المعظم، وحياه وجلس إلى جانبه في احترام وقال: مولاي، إن إيماني بالنبي العظيم ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أحدا فيما مضى أو فيما هو آت ، أو أن أحدا فيمن يعاصروننا سواء أكان من طائفة المتجولين أو طائفة البراهمة ، أعظم وأحكم من النبي العظيم فيما يخص الحكمة العليا .

فأجابه الأستاذ «كلماتك عظيمة جريئة يا ساريبوتا » الحق أنك بعبارتك هذه قد رحت تنشد أغنية كما ينشد النشوان أغانيه! وكأني بك -إذن- قد عرفت كل الأنبياء المعظمين فيما مضى ، وفهمت آراءهم بعقلك ، فعلمت كيف كانوا يسلكون وفيم كانوا يفكرون ، وأي ضروب التحرر قد بلغوا ، لا ياسيدي، لم أبلغ من الأمر كل هذا ، إذن فلا أقل ياساريبوتا من أن تكون قد عرفتني ، وأن تكون قد تغلغلت

في ضمير عقلي ، حتى ولا هذا يامولاي ، إذن فها أنت ذا ترى ياساريبوتا إنك لاتعرف أفئدة الأنبياء القادرين المتيقظين الذين ظهروا فيما مضى ، والذين سيظهرون في المستقبل ، لماذا إذن تقول هذه الكلمات الجريئة العظيمة »

هذه القصة تدل على أن بوذا نفسه لم يطلب لنفسه الألوهية أو النبوة ، بل أتباعه هم السبب فيما وصل إليه مذهبه . ومات بوذا عام ٤٨٣ ق.م، وهو في عامه الثمانين. وكانت آخر كلماته لرهبانه « والأن أيها الرهبان، هاأنذا أوجه إليكم الخطاب ، إن كل ماهو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجاد».

عصر النهضة الهندية

منذ وفاة أشوكا إلى قيام امبراطورية جوبتا - وهي مدة تبلغ ستمائة عام- تقل النقوش والوثائق الهندية قلة تجعل تاريخ هذه الحقبة يضطرب بالغموض ، وليس هو بالضرورة عصرا مظلما لقلة علمنا بتاريخه، فقد ظلت به جامعات عظيمة مثل جامعة تاكسيلا قائمة تنشر العرفان ، كما أنه حدث في الجزء الشمالي الغربي من الهند إبان تلك الفترة أن ازدهرت حضارة في إثر غزو الاسكندر، وتأثر الهند بالفرس في فن العمارة وباليونان في فن النحت ، وكان ذلك في القرنين الأول والثاني قبل المسيح.

في هذا الوقت نشأت البوذية الجديدة على يد جوتاما ، الذي دعا بالألوهية لبوذا ، ونشر مذهبه في الصين واليابان كما أورد ديورانت في قصة الحضارة، وأرسل بجيشه إلى البنغال ونيبال والهند الجنوبية ، وفي فترات سلمه اهتم بالموسيقى والأدب والشعر. وتبع هذا الملك ملكان أخران هم سامدرا جوبتا وابنه فكر امادتيا فوسعا من رقعة الفتوحات الحربية والغزوات العقلية حتى لقد بلغت الهند في عصر هذين الملكين ذروة لم تكن قد جاوزتها منذ بوذا ، كما بلغت في وحدتها السياسية مبلغا لم تبلغ مثيله الا في عهد أشوكا وعهد أكبر .

وأضحت الهند المكان الذي يحج إليه البوذيين من الصين واليابان. بل تدلنا مذكرات «يوان تشوانج» أعظم البوذيين الصينيين على أن الروح العقلي الذي ساد هذا العصر كان روحا من نشوة دينية ، وهو يرسم لنا في مذكراته صورة رائعة تنم عن شهرة الهند إذ ذاك في سائر الأقطار ، فهذا الصيني الأرستقراطي يغادر حياته المترفة في بلدة تشانجان ليعبر الصين الغربية التي لم تبلغ من الحضارة الا مبلغا ضئيلا ، ويمر بطشقند وسمرقند - التي كانت مدينة زاهرة إذ ذاك - ،ثم يتسلق الهمالايا ليدخل الهند ، يقيم ثلاثة أعوام يدرس دراسة المتحمس في جامعة الدير بمدينة نالاندا .

الفتح الاسلامي

كانت أول غزوة من المسلمين غزوة عابرة على ملطان التي تقع في الجزء الغربي من البنجاب عام ٦٦٤م ، ثم وقعت منهم غزوات أخرى لتلك الديار على مدى القرون الثلاث التالية لهذا التاريخ ، حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم في وادي نهر السند. على أن الفتح الحقيقي للهند لم يأتي إلا بعد نهاية الألف عام الأولى من التاريخ الميلادي ، ففي سنة ٩٩٧م تولى شيخ من الشيوخ الأتراك يسمى محمود سلطنة دولة صغيرة، في الجزء الشرقي من أفغانستان، تسمى دولة غزنة ، وأدرك محمود أن ملكه ناشئ وفقير ، ورأى الهند عبر الحدود بلدا قديما .

تيمورلنك

إن من طبيعة الحكومات أن يصيبها الإنحلال، لأن القوة - كما قال شلي تسمم كل يد تمسها ، فقد أدى إسراف سلاطين دلهي إلى فقدانهم تأييد الهنود لهم ، حتى إذا ما أغارت على البلاد جيوش مغيرة جديدة من الشمال ، منى هؤلاء السلاطين بالهزيمة بغير عناء، وأول من انتصر عليهم في ذلك تيمورلنك ، الذي أعد قائمة نسب ترده إلى جنكيزخان ، كي يضمن تأييد المغول .

فلما أن فرغ من الإستيلاء على عرش سمرقند ، أغرته نفسه أن يتوغل في

الفتوحات ، وظل يحمس المسلمين بمن عنده من المشايخ وبما يحفظ من كتاب الله ، حتى عبر نهر السند وقتل واستعبد كل من وقعت عليهم يداه ، وهزم جيوش السلطان محمود طغلق واحتل دلهي . لكن المصادر تقول أن تيمورلنك لم يبقى بها بل أخذ كل ما وقعت عليه عيناه من أموال وجواري وتركها خاوية ، وطفق راجعا إلى سمرقند . وكان الفاتح الحقيقي ومؤسس أسرة المغول هو بابور ، سليل تيمورلنك وجنكيزخان.

ولما كان سليل تيمور وجنكيزخان فقد ورث كل ما اتصف به هذان الحاكمان من قدرة دون أن يرث ماكان لهما من غلظة قلب ، وكان يعاني من فرط نشاط في جسده وعقله . فقد كان بإمكانه أن يسير على ظهر جوادمسافة تزيد على المائتي ميل – وقد حدث –،وكان بإمكانه أيضا أن يصارع خمس جنود في آن واحد.

وله ذكريات يستهلها بقوله « لما بلغت من العمر اثنى عشر عاما اصبحت حاكما على فرغانة» ، ولما بلغ هو الخمسة عشر حاصر سمرقند واستولى عليها ، ثم ضاعت من يده لعجزه عن دفع رواتب جنده، واعتلت صحته حتى أوشك على الموت، واعتصم بالجبال حينا ثم عاد إلى المدينة فاحتلها وفرض سيطرته عليها. ثم استولى على كابل. وحاصل الأمر أن بابور مؤسس أسرة المغول كان يجمع بين الفلاحة والجندية . ففترة استراحة من الجهاد كانت للزراعة والحصد. هذا الرجل مات في سن السابعة والأربعين وقد قضى أواخر عمره القصير في قرض الشعر.

ولد له ابن اسمه هميون ، لكنه كان من الضعف والهوان بصورة لم يسبق لها مثيل ، حتى أن شرشاه أحد شيوخ الأفغان هزمه في موقعتين دمويتين . لكنه استعاد ملكه بعد اثنى عشر عاما قضاها في المنفى ، في تلك الفترة أنجب ابنا وسماه محمداً. وكانت عادات وتقاليد الهند تقضى أن من يسمى محمدا يدعونه أكبر .

أكبر العظيم

تولى أكبر مقاليد الحكم بعد وفاة أبيه بسقوطه من شرفة القصر، وجمع أكبر كل صفة جميلة من أجداده ،بابور وتيمورلنك وجنكيزخان، فقد كان شجاع القلب يحب إرتياد الغابات وصيد الأسود وترويض الفيلة مهما بلغت حد الإفتراس ، وكان من تأكيد تلك الصفات أن دعي لكي يلقب بغازي ومعناها قاتل الكفار . ومن طقوس هذا اللقب أن يقدم له أسير فيبتر رأسه في لمح البصر .

ولما بلغ الثامنة عشر من عمره تسلم مقاليد الأمور من يد الوصى على عرشه ، وكانت رقعة ملكه تمتد حينئذ فتشمل أكثر من ثمن مساحة الهند. لم يكتفي أكبر حينذاك بتلك المساحة فشرع يوسع في ملكه ، واستطاع عن طريق سلسلة من الحروب أن يبسط سلطانه على الهندستان كلها ، ماعدا مملكة راجبوت التي تخضع لأسرة موار ، فلما عاد إلى دلهي نزع عن نفسه السلاح وكرس جهده لإعادة تنظيم حكومة ملكه.

وكانت القوانين والضرائب في عهده قاسية وباهظة ، فقد بلغ ما كان ينفقه صاحب الأرض من ضرائب إلى سدس أو ثلث المحصول. وكان من سمات قوانينه أنه حرم على الزوجة أن تقتل نفسها بعد وفاة زوجها ، وقد كانت تلك عادة متبعة في الهند. وأجاز زواج الأرامل ومنع استرقاق الأسرى وذبح الحيوانات للقرابين وأطلق حرية العقيدة للديانات كلها .

لكن قوة الحاكم كثيرا ما تنعكس سلبا على حكومته ، فقد كان بناء الحكم قائما إلى حد كبير على أكبر ذاته . وفي ذلك كان نهاية ملكه ، هذا على الرغم من أنه كان يروى عنه من الصفات ما لايصدقه عقل، فيقول فرشتا « إن رحمته لم تعرف حدودا ، بل إنه كثيرا ماذهب بهذه الفضيلة حتى جاوز حدود الحكمة « ويقول جوويتي « إنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا عطاياهم الحقيرة بوجه باسم ، فيتناولها بيديه ويضمها إلى صدره ، مع أنه كان لايفعل ذلك مع أفخر الهدايا التي يقدمها له الأشراف . ولقد صدق أحد تلامذته في وصفه حين قال

« لولم يجلس على عرشه لكان صوفيا ومعتزلا». كان كثير التأمل ، كثير العس بالليل ، يبحث لكل معضلة عن حل . ومن غريب ماورد عنه أنه كان مهندسا معماريا أيضا ، أو إن شئت قل بناء معماريا ، فعلم الهندسة كان لم يأخذ حظه من الإتساع بعد .

الفنون في عصره

شخصية بهذه المواصفات لابد لها أن ترفع من شأن الفن ، وقديما قالوا إن رقي الوجدان مرتبط إرتباطا وثيقا بالإنتاج الفني. وقد كان لأكبر شاعره الخاص ويدعى بربال . وقد قربه منه وأدناه ، حتى أنه جعله على ماهو أهل «لإمارة الجيش» . ولم يقتصر الأمر على الشعر ، بل أمر أكبر أن تترجم العديد من الروايات إلى اللغة الفارسية كما يقول ديورانت في قصة الحضارة. وكان تتويج ذلك الملحمة الهندية الخالدة «ماهابهارتا».

وازدهرت الفنون كلها في ظله وبتشجيعه، فشهدت الموسيقى الهندية والشعر الهندي في عهده عصرا من أعظم عصور الفنون على الإطلاق ، وكان إنعكاس ذلك في العمارة الهندية العريقة. وشاهدنا في ذلك أن أكبر أمر ببناء خمسمائة مبنى سميت بالحصن وعدها معاصروه بأنها من أجمل مارأته العين بالعالم كله.

وكان لأكبر إتجاه أعمق من الفنون والعمارة وهو الفلسفة ، فهو ذلك الرجل رقيق المشاعر الذي كثيرا ما يحب التأمل في كل شيئ. إن أكبر الذي فتح العالم وأخضع العديد من المدائن إلى سلطانه ، هو نفسه الذي لم يستطيع أن يفهم العالم أويفك طلاسمه وهو القائل « على الرغم من أني أسود مثل هذا الملك الفسيح ، وزمام الحكومة كلها في يدي ، فلست مطمئن الفؤاد لهذه العقائد الكثيرة والمذاهب المختلفة من حولي ، مادامت العظمة الحقيقية في تنفيذ إرادة الله، فدع عنك هذه الأبهة المحيطة بي ، وقل لي كيف أطيب بالا . إني لأرقب ظهور رجل حصيف ذي مبدأ ليزيح عن ضميري هذه المشكلات التي لا أستطيع

حلها ». إنها كلمات الباحث عن الحقيقة في خضم بحر من الأساطير بسبب طبيعة الهند. ويقول باودني « كان يحج إلى قصره طوائف العلماء من كل أمة والحكماء من كل ملة ومذهب ، وكانوا يشرفون بإستماعه إليهم ، وكان الحديث ما يتطرق إلى عجائب التاريخ وغرائب الطبيعة». وكان لأكبر كلمة ذهبية هي « إن سيادة الأنسان تعتمد على جوهرة العقل».

ولما كان أكبر فليسوفا فلا عجب أن يأخذه شغف شديد بالدين ، وقد أغرته قراءته الدقيقة لملحمة «ماهابهاراتا» ودراسته الوثيقة لشعراء الهنود وحكمائهم إلى دراسة العقائد الهندية . وقد لبث حينا من الوقت يؤمن بمبدأ التناسخ ، وخيب فيه ظن أتباعه حين ظهر على الملا بعلامات دينية هندية على جبهته ، وقد كان له شغف بملاطفة أصحاب العقائد كلها ، لذلك تودد إلى الزرادشتيين بأن لبس مايلبسوه من قميص، وإنصاع إلى للجانتيين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد وذبح كل روح. ولما سمع بالديانة الجديدة المسماه بالمسيحية، والتي جاءت إلى الهند مع بعثة «جوا» البرتغالية أرسل رسالة إلى هؤلاء المبشرين التابعين يدعوهم أن يبعثوا له باثنين من علمائهم ، وحدث بعد ذلك أن قدم جماعة من الجزويت مدينة دلهي ، وحببوه في المسيح حتى أمر كتابه أن يترجموا له العهد الجديد، وأباح لهؤلاء الجزويت أن ينصروا من شاءوا ، بل عهد إليهم بتربية أحد أبنائه.

وفي الوقت الذي كان الكاثوليك يفتكون بالبروتستانت في فرنسا، والبروتستانت يفتكون بالكاثوليك في انجلترا، ومحاكم التفتيش تفتك باليهود في أسبانيا وبرونو يقذف بهم في النار في إيطاليا كان أكبر يوجه الدعوة لممثلي الديانات لعقد مؤتمر يوجب التسامح ويؤصل للسلام بين الأديان . وقد عرف عنه أنه بسبب تلك القناعة تزوج من نساء البراهمة ونساء البوذية ونساء المسلمين.

ولكن أكبر لم يستمر طويلا على تلك السماحة ، فبعد أن جادل العديد من مختلف الديانات ، وكان يجلس من مساء الخميس أحيانا إلى ظهر الجمعة في

جدال مستمر ، طرأت له فكرة أن يجمع بين الديانات جميعا في ديانة جديدة يكون هو رئيسها ، فيأخذ أجزاء من البوذية على أجزاء من البراهمية على أجزاء من الإسلام ثم يؤلف بينهم. وكانت تلك النهاية، فقد قاومه المسلمون بشراسة وأبلوا معه خير بلاء .

وكان ابنه جهان كير أحد الخارجين عليه ، فقتل صديق والده ورئيس وزرائه في حملة مكونه من ثلاثين ألف جندي ، لكنه لم يحكم إلا يوما واحد ، فما لبث أباه إلا أن أعاده إلى حظيرة حكمه . ومات أكبر بمرض الدسنتاريا أو قيل مسموما على إختلاف الأراء ، لكن الثابت أن جنازته كانت متواضعة وأن أبناءه لبسوا عليه ثياب الحداد يوما واحدا ، فقد كانوا فرحين بوفاة أبيهم ووراثتهم للحكم. وحكم أكبر أربعين عاما كانت أسواءها سنواته الأخيرة .

تدهور المغول

لم يكن جهان كير متوسط القدرات أو ضعيف الشخصية ، لكنه كان منحلا داعرا . وكان مكثراً في تناول الخمر ، وكان له ستة آلاف امرأة يرعون له حياته الجنسية. لكنه فيما بعد انصرف إلى زوجة مفضلة هي «نورجهان» التي ظفر بها بقتل زوجها . وكان يسود حكمه عدل محايد لكنه قاس. ولما دنا عهد من ختامه زاد الرجل انغماسا في خمره ، واهمل واجباته الرسمية في الحكومة ، وزادت المؤمرات وحاول ابنه شاه جهان أن يعتلي العرش ، ثم لما فاضت روحه قتل ابنه جهان جميع اخوته حتى يستتب له الأمر .

وحاول شاه جهان أن يكفر عن قسوته وبطشه بكرمه وسخائه وبذوقه المعماري الفذ ، فقد قام ببناء مقبرة لزوجته «ممتاز محل» ، التي أنجبت له أربعة عشر طفلا وماتت وهي تلد ابنها الأخير . فشيد لها شاه جهان مقبرة بلغت حد الكمال في الروعة والأناقة هي «تاج محل» أية الفن الهندي

وهذا القبر الذي شيده جهان إن هو إلا واحد من مائة أية فنية شيدها في آجرا ودلهي الجديدة .

كل هذه القصور في الوقت الذي كان يعاني في الهند من مجاعة مزمنة. لقد كانت أعوامه الثلاثون التي قضاها في الحكم بمثابة الأوج في ازدهار الهند وعلو مكانتها ، وكان هذا الملك الشامخ بأنفه حاكما قديرا ، ولئن كان أهلك بحروبه أنفسا كثيرة ، فقد هيأ لبلاده جيلا من السلام . كتب حاكم بريطاني عظيم لبمباي هو «مونت ستيواريت إلفنستون» يقول: إن من ينظر إلى الهند في حالتها الراهنة قد يميل إلى الظن بأن الكتاب الوطنيين إنما يسرفون في وصف ثراء البلاد قديما ، لكن المدن المهجورة والقصور الخاوية والقنوات المسدودة التي لا نزال نراها ، بما هناك من خزانات كبرى وجسور في وسط الغابات ، والطرق المتهدمة والآبار ومحطات القوافل التي كانت على امتداد الطرق الملكية، كل ذلك يؤيد شهادة الرحالة المعاصرين بحيث يميل بنا إلى العقيدة بأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون أقوالهم على سند صحيح.

كان جهان قد بدأ حكمه بقتل إخوته ، لكن فاته أن يقتل أبناءه كذلك، فكتب له أحد هؤلاء الأبناء أن يخلعه عن العرش ، وذلك هو «أورنجزيب» الذي ثار ثورته عام ١٦٥٧ م وجاء زاحفا من الدكن ، فأمر جهان قواده أن يهزموا الجيش الثائر ، على ألا يقتلوا ابنه ، لكن أورنجزيب غلب جميع الجيوش التي أرسلت لمحاربته ، والقى القبض على أبيه وسجنه في «حصن أجرا» ، حيث بلغ الملك المخلوع تسعة أعوام يعاني مر العذاب ، ولم يزره ابنه في سجنه قط ، ولم يكن إلى جواره من يرعاه سوى ابنته المخلصة «جهانارا» . وكان ينفق أيامه جالسا في برج الياسمين مرسلا بصره عبر «جمنة» إلى حيث ترقد الحبيبة ممتاز في قبرها المزدان بالجواهر. على أن هذا الملك الذي فعل الأفاعيل بأبيه كان صواما قواما يرتل كتاب الله أناء الليل وأطراف النهار ، وكان دائم الصدقة وينفق في الصلاة الكثير من الوقت .

وكانت شخصيته متسقة الجوانب فتواضع في عزة ، وصبر في وجه المعتدي ، وهدوء نفس في وقت المحنة . وقد كان كل همه – كما أورد ديورانت في قصة الحضارة – محو كل ديانة غير ديانة الإسلام .

وللأسف الشديد كان هذا التصرف ، الذي هو ليس من الدين في شيئ ، مدعاة لأن يكرهه الناس ويتمنو موته ، وكان دخولهم في الإسلام عن غير قناعة، وما أن فارق الحياة حتى عاد الكثير منهم إلى الهندوسية مرة أخرى .

لقد أمر قبل وفاته أن تكون جنازتة بسيطة إلى حد الزهد ، وألا ينفق في كفنه الا الروبيات الأربع التي كسبها بحياكتة الطواقي ، وأن يغطى نعشه بقطعة من الخيش ، ومات وعمره تسعة وثمانون عاما . ولم تمض بعد موته سبعة عشر عاما حتى تحطمت إمبراطوريته إربا إربا ، وكان ما كسبه أكبر بحكمته من مناصرة الناس للحكومة ، قد أضاعه جهان كير بقسوته ، وشاه جهان بإسرافه، وأورنجزيب بتعصبه .

وكانت الأقلية المسلمة قد انهدمت قواها بحرارة الهند ، وفقدت النخوة العسكرية والقوة الجسدية ، التي كانت لها أيام شبابها. في نفس الوقت كانت جزيرة نائية ترسل بتجار لها ، وما لبث أن تحول هؤلاء التجار، بسبب الوضع الراهن في ضعف الدولة ، إلى مدافع ودشم عسكرية .

الحياة العقلية

جهود الهند في العلم قديمة جدا وحديثة جدا في آن معا ، ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية وصميمها ، فإن العلوم التي كان من شأنها أن تعاون الدين هي التي سبقت غيرها بالرعاية والنمو : فالفلك قد نشأ من عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابيين، ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية صحيحة في تركيبها ومخارج أصواتها، وعلى الرغم من أنها تقال وتكتب بلغة ميتة فقد كان علماء الهند - كما كانت الحال في العصور الوسطى - هم كهنتها ، بكل مافي ذلك من خير وشر.

نشأ علم الفلك عن التنجيم نشأة غير مقصود ، ثم أخذ رويداً رويداً ينفض عن نفسه الأغلال في ظل اليونان وأقدم الرسائل الفلكية - وهي السد ذانتا

حوالي ٤٢٥ ق.م - كانت قائمة على أساس العلم اليوناني كما أورد ديورانت في قصة الحضارة . إلا أنه كان للمصريين القدماء جهودا غير مكتوبه -سبق الإشارة إليها - قبل هذا التاريخ .

وقد كان أول كتاب هندي في علوم الفلك هو كتاب فارهاميرا بعنوان « مجموعة كاملة للتنجيم الطبيعي» . واعترف فارهاميرا بإعتماده على اليونان في تأليف هذا الكتاب. وعلل في هذا الكتاب الكسوف والخسوف والإعتدالين والإنقلابين في حركة الأرض حول الشمس ، وأعلن عن كروية الأرض ودورتها اليومية حول محورها . وقد أورد في كتابه ، في تاريخ سابق لعصر النهضة الأوروبي ما يلي « إن عالم النجوم ثابت ، والأرض في دورتها هي التي تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفاءها في الغرب «

ولكي يحسبوا هذه العمليات المعقدة ، فكر الهنود في حساب رياضي يفوق ما كان عليه الأغريق ، ولذا فإن أهم ما ورثناه عن الحضارة الهندية الأعداد العربية والنظام العشري . دليل ذلك أن الأعداد العربية كانت منقوشة على صخرة المراسيم التي خلفها اشوكا ٢٥٦ق.م .

وفي هذا الصدد يقول الرياضي الرائع لابلاس « إنها الهندية هي التي علمتنا الطريقة العبقرية في التعبير عن كافة الأعداد برموز عشرية»

يقول ديورانت « عرف آريا بهاتا وبراهما جوبتا النظام العشري قبل ظهوره في كتابات العرب بزمن طويل ، وأخذته الصين عن البوذيين الرحل، ويظهر في كتابات محمد بن موسى الخوارزمي أعظم الرياضيين في عصره - الذي توفي عام ٨٥٠ م ، هو أول من أدخله إلى بغداد . اما الصفر فيرجع فضله إلى العرب منذ وثيقة عام ٨٧٣ م « أما الجبر فهو علم يدل اسمه - والذي لازال يستخدم حتى الأن في أوروبا وأمريكا - على أصوله العربية ، والجبر يعني ملاءمة التركيب

غير أن الهنود لم يكونوا على هذه الدرجة من التوفيق في الهندسة ، ولو

أن الكهنة استطاعوا في قياس مذابح القرابين وبنائها أن يصوغوا النظرية الفيثاغورسية مثلا . على النقيض تقدمت الكيمياء في الهند بادئة طريقها من مصدرين : الطب والصناعة ، ظهر ذلك في صب الحديد في الهند القديمة ، وفي الرقي الصناعي العظيم في عصور جوبتا ، وقد كان العالم بأسره حتى روما القيصرية ينظر إلى الهند على أنها أمهر الأمم جميعا في صناعة الكيماويات مثل الصباغة ، والدبغ، وصناعة الصابون والزجاج والأسمنت ، وفي تاريخ بلغ من القدم القرن الثاني قبل الميلاد ، خصص «ناجارجونا» كتابا بأكمله للبحث في الزئبق ، فلما أن كان القرن السادس كان الهنود أسبق بشوط كبير من أوروبا ، فكانوا أساتذة في التكليس والتقطير والتصفية والتبخير واللحام ، وخلط المساحيق المنومة والمخدرة ، وتحضير الأملاح المعدنية والمركبات والمخلوطات في مختلف المعادن .

وقد كان يضرب المثل بالهند عند العرب في صناعة السيوف ، حتى أنهم كانوا يطلقون على جيد السيوف الهندي. جاء ذلك على لسان العديد من الشعراء.

وكان التشريح وعلم وظائف الأعضاء نتيجتين عرضيتين للطب الهندي، ففي القرن السادس قبل الميلاد كان الأطباء الهنود يعرفون خصائص الأربطة العضلية ورتق العظام والجهاز اللمفاوي والضفائر العصبية والأنسجة الذهنية والأوعية الدموية والأغشية المخاطية والمفصلية وأنواع من العضلات أكثر مما نستطيع أن نتبينه من جثة حديثة .

وقد وقع أطباء الهند في العصر السابق لميلاد المسيح في نفس الخطأ الذي وقع فيه أرسطو ، إذا ظنوا أن القلب مركز الشعور ، وأن الأعصاب تصعد من القلب وتهبط إليه .

وتبدأ مدونات الطب الهندي بكتاب «أترافا-فيدا» ، ففي هذا الكتاب تجد أمراض مقرونة بأعراضها ، لكنك تجدها محاطة بكثير جدا من السحر والتعزيم. ومن هنا نعلم أن منشأ الطب في الهند كان تحت البناء الشاهق للسحر ، الذي

ذاع وانتشر في ربوع الهند . فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل سحرية لشفاء المريض ، على أساس أن هذه تساعد على نجاح ما يكتبه له من دواء ، ثم أخذ مع مرور الزمن يزيد من إعتماده على الوسائل الدنيوية .

وفي ذيل كتاب « أترافا-فيدا » ملحق يسمى «أجوا-فيدا» ومعناها علم إطالة العمر ، ويذهب هذا الطب الهندي القديم إلى أن المرض يسببه واحد من العناصر الأربعة : الهواء والماء والبلغم والدم . وأن صرائق العلاج هي الأعشاب والتمائم السحرية. ولايزال كثير من طرائق الطب القديم في وصف الأمراض وعلاجها مأخوذ من الهند ، الأمر الذي يثير الغيرة في نفوس أطباء الغرب. بل إنك تجد في كتاب «رج-فيدا» نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب ، وهو يحبذ الماء على أنه خير علاج لمعظم هذه الأمراض ، وصدق الله سبحانه وتعالى حين قال:

«وجعلنا من الماء كل شيئ حي»

وأعظم اسمين في الطب الهندي هما «سوشروتا» في القرن الخامس قبل الميلاد و«شاراكا» في القرن الثاني بعد الميلاد . وقد كتب سوشروتا ، وقد كان أستاذا للطب بجامعة بنارس ، باللغة السنسكريتية مجموعة من أوصاف الأمراض وطرائق العلاج . كما ذكر أيضا في نفس الكتاب الجراحة والتوليد والطعام الصحي والإستحمام والعقاقير وتغذية الرضع والعناية بهم . أما شاركا فقد أنشأ «سامهيتا» ومعناها موسوعة تشمل علم الطب، وهي لاتزال مأخوذ بها في الهند . وبالاضافة إلى القيمة العلمية لتلك الموسوعة إلا أنها تحمل بين طياتها العديد من العبر والفوائد الفلسفية ، فمما هو مأخوذ عنه قوله: لا ينبغي أن تعالجوا مرضاكم ابتغاء منفعة لأنفسكم ، ولا إشباعا لشهوة من شهوات الكسب الدنيوية ، ولكن عاجوهم لأجل غاية واحدة هي التخفيف عن تلك الإنسانية المعذبة.

ويتلو هذين الإسمين في تاريخ الطب الهندي اسم «فاجيهاتا» ٦٢٥م الذي

أعد موسوعة طبية نثرا ونظما، ثم اسم «بهافامسرا» ١٥٥٠م الذي جاء في كتابه الضخم عن التشريح ووظائف الأعضاء والطب ، وذكر الدورة الدموية قبل أن يذكرها «هارفي» بمائة عام ، ووصف الزئبق علاجا لذلك المرض الجديد مرض الزهري. ثم تبعه اسم «سوشوترا» الذي وصف الكثير من العمليات الجراحية مثل : الماء في العين والفتق وإخراج الحصاة من المثانة وبقر الأمهات عن الأجنة وغير ذلك كما ذكر إحدى وعشرين ومائة أداة من أدوات الجراحة منها المشارط والملاقط وغيرها . وعلى الرغم من تحريم البراهمة لتشريح جثث الموتى إلا أنه ظل يدافع عن ضرورة التشريح في تدريب الجراحين.

بل إن العديد من عمليات التجميل - بلغة اليوم - تنسب إليه مثل :ترقيع الأذن وتقويم الأنف وغيرها . يقول جارسن « لقد أجرى قدماء الهنود كل العمليات الكبرى تقريبا ، ماعدا عملية ربط الشرايين ، فقد بتروا الأطراف ، واجروا العمليات في البطن وجبروا كسور العظام «

وكان العلاج الطبي في الهند في عهد يوان شوانج يبدأ بصيام مداه سبعة أيام ، وكثيرا ما كان يشفى المريض في تلك الفترة ، فإذا بقي المريض لجئوا بعد ذلك لإستخدام العقاقير ، لكنهم لم يكونوا يسرفون في استخدام العقاقير حتى في أمثال هذه الحالات ، إذ كان معظم اعتمادهم على تدبير الطعام الملائم والاستحمام والحقن الشرجية والاستنشاق والحقن في مجاري البول واخراج الدم بدود العلق أو بالكؤوس ، وكان لأطباء الهند شهرة خاصة في تكوين ترياقات السموم ، ولايزالون يفوقون الأطباء الأوروبيين في علاج عضة الثعبان ، ولقد عرفت الهند التطعيم منذ عام ٥٥٠م ، مع أن أوروبا لم تعرفه إلا في القرن الثامن عشر.

والطب الهندي بصفة عامة قد تطور تطورا سريعا في العهدين الفيدي والبوذي ، ثم أعقب ذلك قرون سار فيها التقدم بخطوات الوئيد الحذر ، ولسنا ندري كم يدين أتريا ودانوانتاري وسوشوترا لليونان ، وكم تدين اليونان لهم .

يقول جارسن : إنه في أيام الاسكندر الأكبر كان لأطباء الهنود وجراحيهم شهرة هم جديرون بها ، بما يتميزون به من علم ومهارة في العمل . وحتى أرسطو نفسه – في رأي طائفة من الباحثين – مدين لهم . وكذلك قل في الفرس والعرب . فمن العسير أن تقطع برأي في ما أخذه الطب الهندي من بغداد ، ومن الطب البابلي و الطب المصري . فمن جهة ترى بعض طرائق العلاج مثل الأفيون والزئبق وبعض وسائل الكشف عن حقيقة المرض مثل جس النبض ، قد جاءت إلى الهند من فارس ، لكنك من جهة أخرى ترى العرب والفرس قد ترجموا إلى لغتيهما في القرن الثامن الميلادي موسوعتي «سوشوترا» و «شراكا» الأثنين وكان قد مضى عليهما ألف عام.

وقد اعترف الخليفة هارون الرشيد بالتفوق العلمي والطبي للهنود واستدعى الأطباء الهنود لتنظيم المستشفيات ومدارس الطب في بغداد. وينتهي «لورد آمتهل» إلى نتيجة هي أن أوروبا الوسطى والحديثة مدينة بعلمها الطبي للعرب بطريق مباشر ، وللهند عن طريق العرب ، ولعل هذا العلم الذي هو أشرف العلوم وأبعدها عن التخمين ، قد نشأ في بلاد مختلفة في واقت واحد ، ثم جعل يتطور بما كان بين الأمم المتعاصرة في سومر ومصر والهند من صلات وتبادل فكري، لكن الهند كانت أطول ذراعاً وأرمي سهما في علوم الطب.

الحياة الأدبية

يقول ديورانت كما أن الفلسفة وكثيرا من الأدب في أوروبا الوسيطة كانا يكتبان بلغة ميتة ، فكذلك كانت الفلسفة والأدب الكلاسيكي في الهند يكتبان بسنسكريتية كانت قد أهملت بين الناس كأداة للتفاهم منذ زمن بعيد. معنى هذا أن أدباء الهند كانت لهم شفرة أو كان لهم مجتمعهم الذي يعزلهم عن السوقة والدهماء، وإن كان في ذلك موت لتلك الفلسفة أو ذاك الأدب.

ولما كانت هذه اللغة الأدبية بعيدة عن الإتصال بحياة الأمة ، فقد أصبحت نموذجا يحتذيه من أراد أن يكون أسكولاني التفكير أو مهذب اللسان ، وكانت

الكلمات الجديدة تصاغ - لابخلق تلقائي يصدر من عامة الناس - بل تبعا لحاجة المدارس في بحوثها الفنية، حتى انتهى الأمر بالسنسكريتية التي كتبت بها الفلسفة إلى فقدانها للبساطة القوية التي نلمسها في الترانيم الفيدية. لكن عامة الناس في الوقت نفسه كانوا - في شمال الهند حول القرن الخامس قبل الميلاد - قد حوروا السنسكريتية إلى براكريتية ، وما أشبه ذلك بإيطاليا حين غيرت اللاتينية إلى الإيطالية فأصبحت اللغة البراكريتية حينا من الدهر لغة البوذية والجانتية ، ولبثت كذلك حتى تطورت بدورها إلى البالية - وهي اللغة التي كتب بها أقدم ما هبط إلينا من الأدب البوذي - فلما أن كان القرن العاشر من التاريخ المسيحي ، كان قد تولد عن هذه اللغات التي شهدتها الهند لهجات مختلفة كان أهمها اللغة «الهندية» ثم ولدت هذه بدورها في القرن الثاني عشر اللغة الهندستانية التي باتت لغة النصف الشمالي من الهند ، حتى جاء المسلمون فاتحين وأدخلوا على الهندستانية ألفاظ فارسية فكونوا بذلك لهجة جديدة هي الأردية .

المسرحية

المسرحية في الهند قديمة جدا ، بل ربما يكون قدمها قدم الفيدات، ذلك لأن بذورها الأولى موجودة في كتب «يوبانشاد» ، ولاشك أن المسرحية بداية أقدم من تلك الكتب المقدسة ، بداية أكثر فاعلية - وأعني بذلك الاحتفالات والمواكب الدينية التي كانت تقام للقرابيين وأعياد الطقوس - وكان للمسرحية مصدر ثالث غير هذين ، وهو الرقص - فلم يكن الرقص مجرد وسيلة لإخراج الطاقة المدخرة، وأبعد من ذلك أن نقول أنه كان بديلا للعملية الجنسية ، لكنه كان شعيرة جدية يقصد بها أن يحاكي ويوحي بالأعمال والحوادث الحيوية بالنسبة للقبيلة. وربما إلتمسنا مصدرا رابعا للمسرحية ، وهو تلاوة شعر الملاحم تلاوة علنية تدب فيها الحياة . فهذه العوامل كلها تعاونت على تكوين المسرح الهندي، وطبعته بطابع ديني ظل عالقا به خلال العصر القديم كله من حيث بناء المسرحية

ذاتها، ومصادر موضوعاتها الفيدية والملحمية، والمقدمة التي كانت تتلى دائما قبل البدء في التمثيل استنزالا للبركة. وربما كان آخر البواعث التي حفزتهم على إنشاء المسرحية هو اتصال الهند باليونان اتصالا جاء نتيجة لغزو الاسكندر ، فليس لدينا شاهد يدل على وجود المسرحية قبل أشوكا

وإلى عهد قريب كانت أقدم مسرحية هندية معروفة للباحثين العلميين هي «عربة الطين» ، ومؤلفها رجل مغمور يدعى «الملك شودراكا» يوصف بأنه خبير بكتب الفيدا وبالرياضة وترويض الفيلة وفن الحب ، ومهما يكن فقد كان خبيرا بالمسرح ، ومسرحيته هذه أمتع ما جاءنا من الهند ، وليس في ذلك سبيل إلى الشك ، فهي مزيج يدل على براعة من الغناء والفكاهة ، وفيها فقرات رائعة لها ما للشعر من حرارة وخصائص.

ولعل خلاصة موجزة لحوادثها أنفع في توضيح مميزات المسرحية الهندية من مجلد بأسره يكتب في شرحها والتعليق عليها ، ففي الفصل الأول نلتقي ب»شارو-دانا» الذي كان ذات يوم من الأغنياء ، ثم أصابه الفقر لجوده وسوء حظه ، ويلعب صديقه «مايتريا» -وهو برهمي فدم- دور المضحك في المسرحية ، ويطلب «شارو» من «مايتريا» أن يهب الألهة قربانا، ولكن البرهمي يرفض الطلب قائلا « ماغناء القربان للآلهة التي عبدتها مادامت لم تصنع لك شيئا ؟» وفجاءة دخلت امرأة هندية شابة ، من أسرة رفيعة ولها ثراء عريض ، دخلت مندفعة في فناء دار شارو ، تلتمس فيه ملاذا من رجل يتعقبها ، وإذا بهذا المتعقب أخو الملك واسمه «سامز ثاناكا» وهو شرير إلى درجة لم تدع فيه أدنى مجال للخير، حتى ليتعذر على الإنسان وجود مثل هذا الشر الخالص، فيحمي شارو الفتاة اللائذة بداره ويطرد «سامز ثاناكا» الذي يتوعده بالإنتقام، فيزدري منه هذا الوعيد وتطلب الفتاة «فاسانتا-سينا» أن يحفظ لها وعاء فيه جواهر كريمة تحت حراسته الآمنة خشية أن يسرقه الأعداء ، وخشية الا تجد عذرا تتذرع به للعودة لزيارة منقذها، فيجيبها إلى ما طلبت ، ويحفظ لها الوعاء ، ويحرسها حتى يبلغ بها دارها الفخمة.

ويأتي الفصل الثاني بمثابة فصل هزلي ، فالفصل الثالث حيث يسطو لص على الوعاء ، وفي الفصل الرابع نرى اللص «شارفيلاكا» يقدم الوعاء هدية لخادمة «فاسنتا–سينا»

وتمضي المسرحية إلى أن تنتهي بمقتل «فاسنتا–سينا» وإدعاء شارفيلاكا أن شارو هو الذي قتلها. وفي الفصل التاسع وصف للمحاكمة، حيث يخون «مايتريا» سيده خيانة غير مقصودة ، وذلك بأن أسقط من جيبه جواهر فاسنتا ، فحكم على شارو بالموت. ونراه في الفصل العاشر في طريقه حيث ينفذ فيه الإعدام ، ويلتمس ابنه من الجلادين أن يضعوه مكان أبيه ،لكنهم يرفضوا، ثم تظهر فاسانتا في اللحظة الأخيرة فقد شاهد «شارفيلاكا» «سامز ثاناكا» فأسرع إلى إخراج جسدها قبل فوات الآوان، وأعادها إلى الحياة وانقلب الوضع ، فقد انقذت فاسانتا شارو من الموت، واتهم شارفيلاكا أخا الملك بتهمة القتل، لكن شارو أبى أن يؤيد الإتهام ، فأطلق سراح سامز ثاناكا وعاش الجميع في سلام .

وتلك هي النهاية المعتادة للقصص الهندية ، نهاية سعيدة . إلا أن القصة في مجملها متقدمة جدا فيما تحمل من معاني ودراما ، ولا يظن ظان أنها أولى المسرحيات الهندية على الإطلاق.

وأشهر المسرحيات الهندية هي «شاكونتالا» ل «كاليداسا» لم يزاحمها في ذلك مزاحم منذ ترجمها «سير وليم جونز» (٣٨٠–٤١٣م)

النثر والشعر

النثر ظاهرة مستحدثة في الأدب الهندي ، ويمكن إعتباره ضربا من الفساد جاءه من الخارج بفعل الإتصال مع الأوروبيين، فروح الهندي الشاعرة بطبعها ترى أنه لابد لكل شيئ جدير بالكتابة أن يكون شعري المضمون . يستثير في الكاتب رغبة في أن يخلع عليه صورة شعرية ، فمادام الهندي أحس بأن الأدب ينبغي قراءته بصوت مرتفع ، وأدرك أن نتاجه الأدبي سينتشر في الناس ويدوم بقاؤه – ذلك إن انتشر ودام – بالرواية الشفوية لا في الذاكرة ، ولهذا كان

الأدب في الهند كله أدبا منظوما ، فالبحوث العلمية والطبية والقانونية والفنية أغلبها مكتوب بالوزن والقافية ، حتى قواعد النحو ومعاني القاموس قد صيغت في قالب الشعر ، والحكايات الخرافية والتاريخ ، وهما في الغرب يكتفيان بالنثر.

الأدب الهندي خصيب بالحكايات الخرافية بصفة خاصة ، والأرجح أن تكون الهند مصدرا لمعظم الحكايات الخرافية التي عبرت الحدود بين أقطار العالم ، فالبوذية لقيت أوسع انتشار لها حين كانت أساطير «جاتاكا» عن مولد بوذا ونشأته شائعة بين الناس ، وأشهر كتاب في الهند هو المعروف باسم «بان كاتانترا» أي العنوانات الخمسة حوالي ٥٠٠ ميلادية ، وهو مصدر كثير من الحكايات الخرافية التي أمتعت أوروبا كما أمتعت أسيا.

وكتاب «هيتو باديشا» أي «النصيحة الطيبة» فيه مختارات ومقتبسات من الحكايات الموجودة في «بان كاتانترا» والعجيب أن كلا الكتابين ينزلان عند الهنود في قسم إرشادات في السياسة والأخلاق.

وفي معظم الحالات يقال في هذه القصص إنها من إنشاء برهمي ، ابتكرها ليعلم بها أبناء ملك من الملوك ، وكثيرا ما تستخدم هذه الحكايات أحط الحيوانات للتعبير عن ألطف معاني الفلسفة . فحكايات القرد الذي حاول أن يدفئ نفسه بيراعة ، وهي حشرة تضئ بالليل ، وقتل الطائر الذي بصره بخطئه، في ذلك تصوير بديع رقيق لما يصيب العالم الذي يتصدى لإرشادات الناس إلى مواضع الخطأ في عقائدهم . وما كتاب كليلة ودمنة إلا كتاب هندي الأصل.

ولم تنجح كتابة التاريخ في الهند أن ترتفع عن مستوى سرد الحقائق عارية. ويجوز أن يكون الهنود قد أهملوا العناية بكتابة التاريخ بحيث ينافسون بها هيرودوت أو ثيوسيديد أو فلوطرخس أو تاسيس أو جبن أو فولتير، إما لإزدرائهم لحوادث الزمان والمكان المتغيرة ، أو لإيثارهم النقل بالرواية الشفوية على المدونات المكتوبة.

بل حتى في التراجم ، فالهنود حين يترجمون للمشاهير من رجالهم

لايتمتعون بقدر عال من الدقة . لدرجة أن مؤرخي الهند تفاوتوا في تحديد تاريخ أعظم شعرائهم «كاليداسا» تفاوتا تراوح بين طرفي فترة طولها ألف عام . إن الهنود يعيشون - ومازالوا كذلك إلى يومنا هذا - في عالم لايكاد يتغير فيه شيئ من عادات وأخلاق وعقائد ، حتى ليوشك الهندي الا يفكر قط في تقدم ما ، ويستحيل عليه أن يعنى بالأثار القديمة، فهو تكفيه ما ورث عن الاسلاف من حكايات وأساطير. وهم يميلون بطبيعتهم إلى تصديق الأساطير منها إلى الحقائق ، فلما كتب أشفاغوشا كتاب عن حياة بوذا «بوذا-شارتا» كان أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقائق وصدقه الناس ، ولما كتب بانا كتابه عن حياة الملك هارشا «هارشا-شارتا» كان أقرب إلى وضع صورة مثالية ، الصورة التي ينبغي أن تكون لا الصورة الحقيقة القائمة، وكذلك صدقه الناس .

أما المسلمون فقد كانوا أدق شعورا بكتابة التاريخ ، وخلفوا لنا مدونات نثرية تدعو إلى الإعجاب لما صنعوه في الهند ، ودليل ذلك البيروني ودراسته لتاريخ الهند ، ومذكرات بابور الذي عاصر أكبر . فقد خلف لأجيال المستقبل وصفا لأساليب مولاه في إدارة البلاد.

غريب القصائد

عنيت بغريب القصائد ليس غريب المعنى أو غريب اللفظ ، ولكن هذه المرة الأولى التي أعثر فيها على مايفيد بأن هناك قصائد تصل إلى ثلاثين وأربعين ألف بيت ، وهذا هو الخيال الهندي .

وقد بلغت قصيدة «كاذا سارتزا جارا» ومعناها المحيط الجامع لأنها القصص ٢١٥٠٠ زوج من الشعر. وفي كتاب بعنوان «أنشودة قطيع البقر المقدس يتحول غزل الهندي إلى دين ، ويصبغ ذلك الغزل بصبغته الحب الجسدي ل«راذا» و «كرشنا» وهي قصيدة مليئة بالعاطفة الحية الجسدية ، لكن الهند تؤولها مدفوعة بالشعور الديني ، إذ تفسرها بأنها قصيدة رمزية صوفية .

وفي القرن الحادي عشر الميلاد نظم أعظم شعراء الهند «شاند-بارداى»

قصيدة باللغة الهندية الحديثة بلغت ستين ألف بيت . فلا حديث عن المطولات من معلقات العرب القديمة !وقد قيل لقد كان «شاندي-داس» وهو كائن فقير يهز البنغال هزا بما ينشده من الشعر. يخاطب في ذلك الشعر فتاة ريفية كما كان دانتي يخاطب بياترس . ويقال في شأن هذا الشاعر أنه طرد من طائفة البراهمه، لأنه جلب العار لديهم بجهره بهذا الحب . ولقد أقيم له حفل إستتابه وكاد أن ينكر حبه لولا أنه لمح معشوقته بين الحضور ، فركض إليها وركع بين يديها .

وشاعر الهند على الإطلاق ، والذي يشبه بشكسبير هو تولسي. يقال أن أبواه ألقاه في العراء ،لأنه ولد في يوم منحوس ، وتبناه متصوف فرباه على أغاني «راما» ، وبعد أن تزوج وتوفي له ولد هجر الناس وعاش في الغابات ، ثم بدء بكتابة راما من جديد ، وقدمه للهند بإعتباره الإله الأسمى الذي لا إله الإهو . يقول تولسي: ثمت إله واحد هو راما خالق السماء والأرض ومخلص الإنسانية. ومن أجل عبادة المخلصين عاش بيننا . وفي ذلك يقول غاندي « إنني أعد راما-يانا التي كتبها تولسي أعظم كتاب في الأدب الديني كله»

الفن الهندي

إنا نقف إزاء الفن الهندي كما نقف أمام أي مظهر من مظاهر المدنية الهندية ، نقف مندهشين لما نرى من قدم وعراقة ورسوخ .فقد وجد في «موهنجو-دارو» تماثيل من الحجر الجيري وتماثيل من الطين وكذلك خرزات وغيرها من أدوات الزينة المصنوعة من العقيق وحلي من ذهب رقيق الصناعة . وعلى الرغم من أن الفن لم يكن ترة الحضارة الهندية مقارنة بالشعر ، إلا أننا نقسم الفن الهندي إلى: فن التصوير وفن النحت وفن العمارة. مع العلم بأن فن العمارة منه ماهو إسلامي ، ومنه ما هو هندوسي.

فن التصوير

جهان كير حاكم هندي وإمبراطور لن يتكرر ، له ذوق رفيع في الفن ، الا أنه لايتذوق التصوير بالزيت ، كما كان يفعل الأوروبيون.

رأى ذات مرة لوحة رسمت بالزيت فامتعض لها ولم يتذوقها . وذلك لأن نظرته نشأت من البيئة والإقليم الذي ترعرع فيه . فالفن لا يتقدم أو يتأخر بتقدم الزمن لكن الفن يتنوع وتتعدد صوره .

وأقدم صورة هندية يمكن تحقيق تاريخها ، مجموعة من الزخارف الجدارية البوذية (١٠٠ق.م) وجدت على جدران كهف في «سرجيا» في المقاطعات الوسطى . منذ ذلك العهد والتصوير الجداري فن معتبر في الهند .

يقول ديورانت « لقد بلغت جدارن كهف أجانتا درجة من الكمال لم يبلغها ليناردو» وتلك مقولة يجب التوقف عندها . فكما أشرنا منذ قليل أن الفن لا يأتي بالتدرج أو بالترتيب أو التسلسل الزمني . لذا تجوز تلك المقولة في حق الكهف الهندي . ومن الجدير بالذكر أن كل الكهوف الهندية تعتبر معابد ، وقد عثر على ثلاثين منها في القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أن العديد من تلك المعابد كان قد أعمل الزمن فيه أداته ، فضاعت بهجته ، ولم يبقى به من اللوحات الجدارية الا ما نذر .

فن النحت

ليس في مقدورنا أن نتعقب مراحل النحت في الهند بادئين بالتماثيل الصغرى التي وجدت في «موهنجو- داروا» ومنتهين بعصر «أشوكا» . فأقدم التماثيل الحجرية التي بقيت لنا في الهند لا يرجع إلى عهد أقدم من «أشوكا» لكن هذه التماثيل تدل على مهارة بلغت من الرقي حدا رفيعا لايدع لنا مجالا للشك في أن الفن كان قبل ذلك آخذاً في نموه عدة قرون، وجاءت البوذية فوضعت حوائل معروفة تقوم في وجه التصوير والنحت معا، وذلك بمقتها للأوثان وللتصاوير الدنيوية. لكن هذا التزمت – فيما يظهر – أخذ يتراخى شيئا فشيئا كلما تهاونت البوذية في تشددها وازدادت مشاطرة للروح الدرافيدية التي تميل إلى الرمز والأساطير ، فلما عاد فن النحت إلى الظهور من جديد (حوالي سنة ٢٥٠ق.م) في التماثيل الحجرية البارزة القائمة على «السور» الذي يحيط بأكمات المدافن

البوذية في «بوذا - جايا» و «بهارهوت» كانت هذه التماثيل أقرب إلى أن تكون جزء لايتجزأ من التصميم المعماري للبناء منها إلى أن تكون فنا مستقلا مقصودا لذاته ، ولبث الجزء الأكبر من النحت الهندي حتى ختام مراحله التاريخية تابعا لفن العمارة ، وكان طوال الوقت يؤثر النحت البارز على الحفر، وقد بلغ هذا النحت البارز ذروة رفيعة من الكمال في المعابد الجانتية وفي الأضرحة البوذية في «أمارافاتي» و «أجانتا» ، ويقول أحد الثقات الراسخين أن السور المنحوت في «أمارافاتي» : أرق زهرة في النحت الهندي وأوغلها في أسباب الترف.

في ذلك الوقت عينه ، كان نمط آخر من أنماط النحت في سبيله إلى الرقي في اقليم «جاندهارا» الواقع شمال غربي الهند ، وذلك في رعاية الملوك «الكوشيين ، وهم أبناء أسرة يحيط بها الغموض ، انبثقت بغتة من الشمال ومن الجائز أن يكون في أصولها جذور هلينية ، فظهر بظهورها ميل نحو إدخال القوالب الفنية اليونانية ، فاستطاع بعض المعلمين اليونان أن يوجهوا النحت الهندي وجهة اصطنع فيها لفترة من الزمن وجها هلنيا طليقا ، فتحول بوذا إلى ما يشبه أبولو- كما يذكر ديورانت في قصة الحضارة - وأصبحنا نرى الثياب تناسب أذيالها على آلهة الهندوس ، على نحو مانرى في نحت «فيدياس»، كما أصبحنا نرى تماثيل تصور «بوذيساتوا» وهو يصاحب «سيلبني» الطروب المخمور.

ومثلوا مولاهم بوذا وتلاميذه في تماثيل جملوا أجسادها وكادوا يجعلونها مخنثة الأجزاء ، إذ أخرجوها على غرار نماذج يونانية بشعة تمثل اليونان ، من ذلك تمثال بوذا في لاهور. في هذا التمثال بوذا يتضور جوعا فترى كل ضلع من أضلاعه ، وكل عصب من أعصاب جسده ، ثم تراهم ركبوا على هذا الجسد وجه امرأة ، وقد تأثر « يوان شوانج» لهذا الفن الذي يمزج بين اليونانية والبوذية والذي انتقل إلى الصين وكوريا واليابان ، وبفضل «يوان شوانج» هذا وغيره ممن حجوا إلى الهند كان نقل هذا الفن فيما بعد ، لكن هذا الفن لم يكن له إلا

قليل الأثر في قوالب النحت وطرائقه في الهند ذاتها ، فلما انقضى عهد مدرسة جاندهارا بعد بضعة قرون قضتها في نشاط مزدهر ، عاد الفن الهندي من جديد إلى الحياة في ظل حكام من الهندوس واستأنف التقاليد التي خلفها الفنانون الوطنيونفي «بهارهوت»و«امارفاتي»و«مأثورة» ولم ينظر الا بطرف عينه إلى آثار الفترة اليونانية القصيرة التي ظهرت في جاندهارا .

وازدهر النحت - كما ازدهر تقريبا كل شيء في الهند - تحت حكم أسرة جوبتا ، وكانت البوذية عندئذ قد نسيت عداوتها لتصوير الأشخاص ، ونهضت البرهمية وقد تجدد نشاطها ، فشجعت الرمزية وزخرفة الدين بكل أنواع الفنون ، فنرى في متحف «مأثورة» تمثالا حجريا لبوذا أتقنت صناعته ، بعينان تنمان عن تأمل عميق ، وشفتين حساستين ، وجسد بالغوا في رشاقته ، وقدمين قبيحتين مستقيمي الخطوط ، وترى في متحف «سارنات» تمثالا حجريا آخر لبوذا في جلسة قرفصاء التي كتب لها أن تسود النحت البوذي ، وفي هذا التمثال تصوير بارع لأثار التأمل الهادئ والرقة القلبية الصادرة عن ورع.

بقي أن نقول أنك حيثما تجولت في أرجاء الهند سترى فن النحت في الألف عام التي سبقت قدوم المسلمين إليها ، هذا على الرغم من أن فن النحت كان خاضعا لفن العمارة ، وكان الدين يحدد له خطاه.

فن العمارة

إذا كانت العمارة بحق أم الفنون ، وذلك لأنها فن لايعتمد على جمال الخطوط أو بهاء الألوان فحسب ، بل أيضا على علوم الإنشاء ، ومعادلات توفير الطاقة ، فقط تجسد ذلك في الهند لأسباب أخرى ، وذلك كما مر معنا لأن العقيدة البوذية كانت تحرم النحت والتصوير إلا في إطار العمارة. فهل إختلفت العمارة الهندوسية عن العمارة الإسلامية في الهند، هذا ما سنحاول تناوله أو التفريق بينه.

العمارة الهندوسية

لقد صحب الفن الهندي الديانة الهندية في عبورها للمضايق والحدود، حتى بلغ معاً سيلان وجاوه وكمبوديا وسيام وبورما والتبت وتركستان ومنغوليا والصين وكوريا واليابان. ففي وادي الكنج استقرت جماعات هندوسية في القرن الخامس قبل المسيح ، وبعد ذلك بمائتي عام أرسل أشوكا بابنه وابنته ليحولا أهل تلك الجزيرة إلى البوذية. وعلى الرغم من أن تلك الجزيرة الغادسة بسكانها ظلت تقاوم هذا الغزو الثقافي خمسة عشر قرنا إلا أنك تجد من الشواهد الكثير على تأثرها بالعمارة الهندوسية.

بدأ الفن السنغالي في تلك الجزيرة بما يسمى بالداجوبات ، والداجوبا ضريح قديم ذو قبة يشبه «أكمة المدافن»عند بوذيي الشمال ، ثم تطورت الداجوبات حتى أصبحت معابد عظيمة . وقد كان مما أنتجه ذلك الفن عدد من تماثيل بوذا تعد بين أجمل التماثيل البوذية ، كما أنتج تشكيلة كبيرة من التحف الفنية ثم بلغ ختامه مؤقتا حين أقام آخر ملك عظيم حكم سيلان - وهو الملك «شري راجا» معبد السن في كاندي.

والعجيب أن أعظم المعابد البوذية لاتراه في الهند ، بل تراه في جاوه، ففي القرن الثامن فتحت أسرة «شايلندر» السومطرية جزيرة جاوه وأقامت فيها البوذية ديانة رسمية ، وأعدت المال اللازم لبناء المعبد الضخم في « بوروبودور» - ومعنى تلك الكلمة بوذيون كثيرون - ، والمعبد في ذاته معتدل الحجم غريب التصميم ، فهو عبارة عن أكمة للمدافن صغيرة يعلوها ما يشبه القبة ، ويحيط بها اثنتان وسبعون أكيمة رصت حولها في دوائر متحدة المراكز . أما ما يخلع الجلال على البناء فقاعدته التي تبلغ أربعمائة قدم مربعة ، فهي مصطبة عظيمة تتألف من سبع درجات ، تتدرج صغرا كلما علوت معها ، وفي كل درجة منها أركان للتماثيل ، حتى لقد بدا لمن قاموا بنحت التماثيل في «بوروبودور» أن يقيموا تمثال بوذا في هذا الركن أو ذاك أربعمائة وستا وثلاثين مرة ، ولم يكفهم

هذا فنحتوا في جوانب الدرج ثلاثة أميال من النقوش البارزة يصورون بها ما ترويه الأساطير عن مولد بوذا ونشأته ، وأظهروا في كل ذلك مهارة جعلت هذه النقوش البارزة من أبدع مثيلاتها في أسيا. وبلغت العمارة الجاوية أوجها في هذا الضريح البوذي الجبار لم تبلغه أي قطر مجاور في أسيا.

ويروي ديورانت أنه يقترب من هذا المعبد معبد آخر ، لكنه ليس في الهند، ولو أن هذا المعبد قد طمسته الغابة التي اكتنفته بأشجارها مدى قرون عدة ، حتى جاء مستكشف فرنسي سنة ١٨٥٨ م ، وهو يشق لنفسه الطريق خلال الجزء الأعلى من وادي نهر ميكونج ، وعندئذ وقع بصره من خلال الأشجار والغصون ، على منظر بدا له معجزة من المعجزات ، إذ رأى معبدا ضخما يبلغ في تصميم بنائه حدا من الجلال لايكاد يصدقه العقل ، رأه قائما وسط الغابة حوله وتكاد تخفيه أوراق الشجر.

ولم يؤمن أحد بصدق ما رواه هذا الرحالة «هنري موهو» حتى ذهب إلى المكان غيره من الأوروبيين وأيدوا روايته . وبعدئذ هبطت بعثة علمية على ذلك المكان الذي كان يوما صومعة مسكونة، وقامت مدرسة بأسرها في باريس هي «مدرسة الشرق الأقصى» كرست نفسها لرسم هذا البناء المستكشف ودراسته. هذا البناء هو المعروف حاليا ب»أنجوروات» ، الذي يعد اليوم أعجوبة من أعاجيب العالم.

وكان يسكن الهند الصينية «كمبوديا» قوم أغلبهم صينيين ، لكنهم هنود الديانة ، سواء نِزعوا في ذلك إلى بوذا أو إلى غيره، لكنهم في النهاية يعبدون الثعبان «ناجا» ، الذي ترى رأسه المروحية أينما وجهت نظرك في الفن الكمبودي، يضاف إلى ذلك الثالوث الهندي وهم براهما وفشنو وشيفا ، وفي أواخر القرن التاسع أهدى سكان كمبوديا شيفا أقدم معابدهم «معبد بايون».

وهو الأن خرابة منفرة تكسوه أغصان النباتات ، ولقد كان هذا المعبد -كما يقول ديورانت - أية فنية تضارع أجمل الأثار المعمارية عند المصريين أو

اليونان أو بناء الكاتدرائيات في أوروبا ، ويحيط بهذا المعبد فندق كبير طوله اثنا عشر ميلا، ويعبر الخندق جسر مرصوف تحرسه ثعابين الناجا المخيفة ، نحتت من الحجر .

وينهض البناء على رقعة فسيحة ، درجة فوق درجة كأنه هرم مدرج ، حتى يصل إلى حرم الإله ، الذي يرتفع مائتي قدم ، وضخامة الحجم في هذا المعبد لا تقلل من روعة الجمال ، بل تتعاون الضخامة مع الجمال فيتكون منها جلال يروع النفس ، ويهز عقل المشاهد والناظر إليها.

وعلى مقربة من تلك المنطقة تقع سيام التي أخذ شعبها - ونصفه من التبت والنصف الأخر من الصين -بالإرتقاء الفني فيها حتى تكون سيام أبهى وأجمل من كمبوديا. فبنوا عاصمة جديدة هي أيوذيا، التي ما لبس أن استولى عليها أهل بورما ، وخربوا ما كان فيها من إبداع ، شيده عقل ويدا هذا المخلوق الضعيف المسمى بالإنسان. وقد كان أهل بورما من أعظم من شهدت أسيا من بناة العمارة . فقد جاءوا هابطين من الحقول الخصبة في منغوليا والتبت ، فأسسوا لفن عظيم ، وأخذوا ينحتون التماثيل وينتجون الفنون على الطرز البوذية والفشناوية ، ويقيمون «أكمات المدافن» التي بلغوا بها ذروتهم في معبد «أناندا». ثم شيد أهل بورما في «رانجون « ضريحا يعد من أبدع ما لديهم من أضرحة ، هو «شوي داجون» المشهور، ذلك المعبد الذهبي ، الذي يحج إليه البوذيون كل عام.

العمارة الإسلامية في الهند

شهد الحكم المغولي آخر مراحل النصر التي بلغتها العمارة الهندية ، إذ برهن أتباع محمد صلى الله عليه سلم على أنهم أساتذة في فن البناء حيثما حلوا بقوة سلاحهم ، سواء في غرناطة أم القاهرة أم أورشليم أم بغداد.

فقد كان المنتظر من هؤلاء الرجال الأشداء ، بعد أن يوطدوا ملكهم في الهند على أركان ثابتة ، أن يقيموا على هذه الأرض التي فتحوها ، مساجد في

تأنق وبهاء مسجد قبة الصخرة أو المسجد الحرام أو مسجد السلطان حسن في القاهرة. لقد قامت الأسرة الأفغانية بإقتباس أساس الفن الهندوسي ، بل نقلت العمد من معابد الهنود وعدلت فيها بما يجعلها ملائمة لأغراضهم في العمارة ، بحيث لم يكن كثير من المساجد سوى معابد هندية أعيد بناؤها لصلاة المسلمين. لكن هذه المحاكاة الطبيعية سرعان ما تحولت إلى طراز يمثل النزعة الإسلامية يبلغ من الدقة حداً يثير فيك العجب ، وتعجب أن ترى تاج محل في الهند ولاتراه في فارس أوشمال أفريقيا أو أسبانيا .

أما «منار قطب» فهو مسجد أمر ببناءه قطب الدين أيبك تخليداً لذكرى إنتصاراته على الهنود ، وقد قيل إن تصميمه مأخوذ من سبعة وعشرين معبداً هندياً ، الأمر الذي يفيد أن عمارة الهند الإسلامية كانت ممزوجة بعناصر هندوسية . والمسجد له منارة بلغ إرتفاعها خمسة وعشرين قدما ، ذات لون أحمر رملي جميل ، صمدت سبعة قرون أمام عوامل التعرية ، ولاتزال أية في دقة الصناعة وروعة الفن.

وعلى وجه الجملة كان سلاطين دلهي في شغل بالقتل بحيث لم يبقى لهم من وقتهم فراغ طويل ينفقونه في فن العمارة ، وأكثر الأبنية التي خلفوها لنا مقابر أنشأوها لأنفسهم في حياتهم ، مثال ذلك مقبرة «شرشاه» و«تاج محل» ، وإن كانت تاج محل بناها السلطان لزوجته بعد وفاتها.

ثم جاء أكبر ليؤكد على ماكان يحمله بين جنباته من عقيدة - بغض الطرف عن العمارة - فهو كان يؤمن بمزج العقائد للوصول إلى الحيادية، ومن ثم فالمزج الذي بدء قبله بين عناصر العمارة الهندوسية والإسلامية ، أشتد ساعده وقوي عوده حتى بلغ حد الكمال في عهد «شاه جهان» . ولم يسهم «جهان كير» في تاريخ العمارة عند شعبه إلا بقسط قليل ، أما ابنه «شاه جهان» فقد كاد أن يجعل من اسمه إسماً يضارع اسم «أكبر» في سطوعه ، وذلك لميله الشديد نحو البناء الجميل، فأخذ ينثر ماله نثراً على الفنانيين ، على نحو مانثر «جهان كير»

ماله بغير حساب على زوجاته . بل لقد صنع ما صنعه ملوك أوروبا في إستدعاء رجال الفن الإيطاليين ، وجعلهم يعلمون رجال النحت في بلاده كيف يطعمون المرمر بفسيفساء الأحجار الكريمة. وقد ترك مسجدان أية في الروعة والجلال وهما، مسجد الجمعة في دلهي ومسجد اللؤلؤة في «أجرا» .

ولم يقتصر الأمر على المساجد ، بل بنى جهان العديد من القصور ، بعد أن أمر بهدم قصور أكبر ، وأمر أيضا ببناء قاعتين للإجتماعات الخاصة والعامة. مع العلم بأن قاعة الإجتماعات الخاصة صنع سقفها من الفضة والذهب، وأعمدتها من المرمر ، وعرشها المسمى عرش الطاوس ، والذي بات أسطورة يتحدث بها على ألسنة العالم أجمعين.

وعلى وجه اليقين فقد قدم «شاه جهان» للعمارة مالم يقدمه أحد في الهند. فوسط الحدائق الغناء تجد مسجد اللؤلؤة ومسجد الجوهرة وقاعتا الإجتماعات الخاصة والعامة وقصر العرش وحمامات الملك وقاعة المرايا وقصور «جهان كير» و «شاه جهان» وقصر الياسمينة ل«نور جهان» وبرج الياسمينة الذي يطل منه «شاه جهان» وهو أسير ، يطل منه عبر «الجمنة» على القبر الذي ابتناه لزوجته الحبيبة «ممتاز محل» ويعرف العالم كله ذلك القبر باسم تلك الزوجة المختصر «تاج محل» ، وما أكثر مهندسي العمارة الذين يعتبرون هذا البناء في منزلة تجعله أكمل بناء قائم على وجه الأرض . وقد وضع تصميمه ثلاثة مهندسين ، فارسي يدعى «أستاذ عيسى» ، وإيطالي يدعى «جيرونيمو فيرونيو» وفرنسي يدعى « أوستن دي بوردو» ولم يسهم في فكرته هندي واحد ، فهو بناء لا هندوسي من أوله إلى آخره ، وهو إسلامي خالص ، حتى مهرة الصناع جيئ ببعضهم من بغداد والاستانة وغيرهما من مراكز الملة الإسلامية . وقد لبث اثنان وعشرون ألف عامل اثنين وعشرين سنة في بناء التاج. والمبنى ملئ بالجواهر ومرصع بالأحجار الكريمة ومطعم بآيات من القرآن الكريم ، وعلى الرغم من ذلك فليس هذا المبنى أفخم الأبنية ، لكنه أجملها جميعا .

نهاية الحضارة الهندية

كانت تلك المدنية قد ماتت بالفعل من عدة وجوه ، حين كشف «كلايف» و«هيستنجر» كنوز الهند، فحكم «أورنجزيب» الطويل الذي مزق أوصال البلاد، وما تبعه من فوضى وحروب داخلية، ترك الهند ثمرة دانية القطوف لمن أراد أن يغزوها من جديد، قد كان هذا «قضاءها المحتوم» ولم يكن أمام القدر إزاءها سوى أن يختار الدولة الأوربية من بين الدول العصرية الأساليب، لتكون أداة لذلك الغزو ، فحاول الفرنسيون غزوها وأصيبوا بالفشل، وضاعت الهند من أيديهم، في موقعتي «رسباخ» و «ووترلو».

لقد كان «فاسكو دا جاما» أرسى فلكه عام ١٤٩٨م في مياه «كلكتا» بعد مرحلة دامت أحد عشر شهراً بدأت من لشبونة ، فأحسن لقاء حاكم ملبار الهندي وسلّمه رسالة ودية من ملك البرتغال: «لقد زار مملكتي فاسكو دا جاما، وهو شريف من أشراف أسرتكم، فسررت بزيارته سروراً عظيماً ،وإن في مملكتي لوفرة من القرفة والقرنفل والفلفل والأحجار الكريمة، وما أريده من بلادكم هو الذهب والفضة والمرجان والنسيج القرمزي»

فكان جواب صاحب الجلالة المسيحية مطالبة الهند مستعمرة برتغالية لأسباب لم يكن في مقدور الراجا أن يفهمها لجهله ، فلكي يوضح له الأمر، أرسلت البرتغال أسطولاً إلى الهند مزوداً بتعليمات لنشر المسيحية وإثارة الحروب ، وبعدئذ جاء الهولنديون في القرن السابع عشر، وطردوا البرتغاليين ، ثم جاء الفرنسيون والإنجليز في القرن الثامن عشر، وطردوا الهولنديين، ونشبت بين الفريقين معارك حامية الوطيس لتقرر أي الفريقين يتولّى إدخال المدنية إلى الهند وفرض الضرائب على أهلها

وكانت «شركة الهند الشرقية» قد تأسست في لندن عام ١٦٠٠م لتشتري منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسة وتبيعها بأثمان مرتفعة في أوروبا وقد أعلنت الشركة عام ١٦٨٦م عزمها على «إقامة مستعمرة إنجليزية

واسعة في الهند، بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم إلى الأبد» وأنشأت مراكز تجارية في كلكتا وبومباي ، وحصنتها، وجاءت إليها بجنود وخاضت معارك القتال ، ورشت وارتشت ، ومارست غير ذلك من مهام الحكومة ، ولم يتردد «كلايف» في قبول « الهدايا» التي بلغت قيمتها أحياناً مائة وسبعين ألفا من الريالات ، قدمها له الحكام الهنود المعتمدون على نيران مدافعه ، كما ظفر منهم – بالإضافة إلى تلك «الهدايا» – بجزية سنوية تعادل مائة وأربعين ألفا من الريالات ، وعين الأمير جعفر حاكماً على البنغال لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين ريال ، وراح يضرب كل أمير وطني بالآخر، ويضم أملاكهم إلى حظيرة «شركة الهند الشرقية» شيئا فشيئا ، وأدمن في أكل الأفيون، واتهمه البرلمان وبرأه ، وأزهق روحه بيده سنة ١٧٧٤م

فما جاءت سنة ١٨٥٧م حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالي الشرقي من الهند إفقاراً أوغر صدور الأهالي فشقوا عصى الطاعة في ثورة يائسة ، عندئذ تدخلت الحكومة البريطانية ، وقمعت «العصيان» وتولّت هي الحكم في الأراضي التي سيطرت عليها ، واعتبرتها مستعمرة للتاج ، ودفعت عن ذلك تعويضا سخيا للشركة ، وأضافت ثمن الشراء هذا إلى الدين العام في الهند ، لقد كان هذا فتحا للبلاد صريحا غاشما ، وقد لا يجوز لنا أن نحكم عليه بمعيار «الوصايا الخلقية» التي يحفظها الناس، إذ ربما كان الأجدر أن نفهم الموقف على أساس «دارون» و«نيتشه»: فشعب عجز عن حكم نفسه أو عجز عن استغلال موارده الطبيعية ، لابد من وقوعه فريسة لأمم تعاني مما يستثيرها من دوافع الجشع وبسط النفوذ.

وعاد هذا الفتح ببعض المزايا على الهند ، فرجال أمثال «بنتنك» و«كاننج» و«منرو» و «إلفنستون» و «ماكولي» أدخلوا في إدارة الأجزاء البريطانية من الهند شيئا من سخاء الحرية التي سادت إنجلترا عام ١٨٣٢، فقد استطاع «لورد وليم بنتنك» بمساعدة المصلحين من أهل البلاد ، وبحافز منهم، أمثال

«رام موهون روي» ، استطاع أن يلغي عادة دفن الزوجة حيّة مع زوجها الميت وأن يحرّم ما كانت تقوم به طائفة من خنق الأغنياء إرضاء للإلهة «كالي»، ولئن حارب الإنجليز مائة وإحدى عشرة حرباً في الهند، مستخدمين فيها أموال الهند ورجالها ليتمموا فتح الهند، فقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع شبه الجزيرة كلها، ومدوا الطرق الحديدية، وأقاموا المصانع والمدارس، وفتحوا الجامعات في كلكتا ومدراس وبومباي ولاهور والله آباد، ونقلوا من إنجلترا علومها وفنونها الصناعية إلى الهند ، وألهبت الشرق بروح الغرب الديمقراطية ، ولعبوا دوراً هاماً في إطلاع العالم على ما شهدته الهند في ماضيها من ثروة ثقافية غزيرة، وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغياناً مالياً مكن لطائفة من الحكام المتتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاماًبعد عام قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية التي تثير في الإنسان عوامل الفاعلية والنشاط، وكان ثمن هذه الخيرات طغياناً إقتصادياً قضى على الصناعات الهندية، وقذف بملايين صناعها الفنيين إلى الأرض يزرعونها فلا تكفيهم طعاماً ، وكان ثمن هذه الخيرات كذلك طغياناً سياسياً كان من أثره - وقد جاء بعد طغيان «أورنجزيب» الضيق الأفق بزمن قصير - أن يميت روح الشعب الهندي قرناً كاملاً.

كلمة وداع الهند

لسنا نستطيع أن نختم الحديث في تاريخ الهند على نحو ما نختمه في تاريخ مصر أو بابل أو أشور، لأن تاريخ الهند لا يزال في دور تكوينه، ومدنيتها لا تزال في طور إبداعها، لقد دبت الحياة من جديد في الهند من الوجهة الثقافية بإتصالها بالغرب اتصالاً عقلياً، حتى لترى أدبها اليوم في خصوبة شتى الآداب في البلاد الأخرى، وأما من الوجهة الروحية، فهي ما تزال تكافح الخرافة والإسراف في بضاعتها اللاهوتية، ولكننا لا نستطيع التنبؤ بالسرعة التي تستطيع بها أحماض العلم الحديث أن تذيب آلهتهم التي تزيد عن حاجتهم، ومن الوجهة السياسية شهدت الهند في المائة سنة الأخيرة وحدة لم تشهد لها

مثيلاً فيما مضى إلا نادراً، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى توحيد الحكومة الأجنبية القائمة عليهم، وإلى حد ما إلى توحيد اللغة الأجنبية التي يتكلمونها، ولكنه يرجع فوق هذا وذلك إلى إتحادهم في الطموح إلى الحرية طموحاً صهرهم في وحدة متماسكة، ومن الوجهة الإقتصادية تنتقل الهند الآن من حياة العصور الوسطى إلى حياة الصناعة الحديثة بما في هذا الإنتقال من حسنات وسيئات، وستنمو ثروتها وتزداد تجارتها، نمواً وازدياداً يؤهلانها بغير شك إلى أن تكون قبل نهاية هذا القرن بين دول العالم الكبرى.

وليس في وسعنا أن نزعم أن هذه المدنيَّة قد أفادت المدنية الأوروبية إفادة مباشرة، كما إستطعنا أن نتعقب بعض جوانب المدنية الغربية إلى أصولها في مصر أو الشرق الأدنى، ذلك لأن مصر والشرق الأدنى كانا السَّلَفَيْن المباشرين لتلك الثقافة ، بينما تدفن تاريخ الهند والصين واليابان في مجرى آخر، وهو آخذ لتوه اليوم في مس تيار الحياة العربية والتأثير فيه، إنه على الرغم من حيلولة حاجز الهملايا، قد استطاعت الهند أن تبعث إلينا عَبْرَ تلك الجبال طائفة من ألوان التراث المشكوك فيه، مثل النحو والمنطق والفلسفة والحكايات الخرافية والتنويم المغناطيسي والشطرنج، وفوق هذا كله، بعثت إلينا الأرقام التي نستعملها في الحساب والنظام العشري، لكن هذه ليست صفوة روحها، وهي توافه إذا قيست إلى ما قد نتعلمه منها في مقبل الأيام، فبينما تعمل الاختراعات والصناعة والتجارة على ربط القارات بعضها ببعض، أو بينما تعمل هذه العوامل على بث روح الشقاق بيننا وبين آسيا، فسيتاح لنا في أي من الحالتين أن ندرس مدنيتها عن كثب أكثر من ذي قبل، وسنمتصُّ - حتى في حالة قيام الخصومة بيننا - بعض أساليبها وأفكارها، فربما علمتنا الهند مقابل ما لقيتْه على أيدي الأوروبيين من فتح وعنجهية واستغلال، التسامح والوداعة اللذين يتصف بهما العقل الناضج، والقناعة المطمئنة التي تتميز بها النفس إذا كفت عن الجشع في جمع المال، وهدوء الروح البصيرة بحقائق الوجود، وحب الكائنات الحية جميعاً، الذي من شأنه أن يبث في الناس اتحاداً وسلاماً.

العمارة الهندية

العمارة في الهند رغم أن بداياتها كانت بدايات منقولة عن الفرس واليونان، لكن سرعان ما اشتد عودها واكتملت جوانبها ، ولم يبقى لها إلا أن تتحدد معالمها من خلال محددات مثالية صوفية ، تعتمد على الإحتواء والتناغم وصولا إلى تناسخ الأرواح.

وحتى يكون الكلام أكثر تحديدا ، فبعقد مقارنة بين قبة تاج محل والقباب الأخرى ، وهي القبة التي يعتمد رسم مقطعها على نقطتي إرتكاز ويطلق عليها القبة البصلي ،لأن شكلها الخارجي يقترب من شكل البصلة، فإن هذه القبة تعبر عن معنى الإحتواء أكثر من أي قبة أخرى. وبشكل عام فإن العمارة الهندية ، هندوسية كانت أم إسلامية ، لاتحمل معاني الصرامة والجدية التي كانت في العمارة الفرعونية.

ولما كان إستنباطنا عن العمارة الفرعونية أنها عمارة مربوطة بالعلم ، فإننا نرى أن العمارة الهندية عمارة ناعمة تقترب من روحانيات ومثالية المجتمع الهندي. وعليه فإن خطوط العمارة الهندية خطوط وجدانية.

وليس هذا بالضرورة مدحا ، بل ربما يكون بداية ضعف التصميم المعماري ، وإن كنا لا نقصد ذلك فيما يتعلق بالعمارة الهندي. لكننا ألفنا في الوقت الحاضر مشاريع بلا هوية ، ولا تحملها فكرة قوية ، فإذا ما سألت صاحبها عن الفكر الذي يقف ورائها ، قال لك «الشكل الجميل»!

إن الخطوط التي ترسم من خلال العاطفة والوجدان ، ولاتحمل ورائها فكر قوي ، كخلفية علمية أو إنشائية أو إقتصادية أو تراثية إجتماعية فكرة ضعيفة.

حضارة الصين

لقد كانت دراسة بلاد الصين عملاً من الأعمال المجيدة التي تمت في عصر الإستنارة وقد قال فيهم ديدرو: «أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الأسيويين في قدم عهدهم، وفي فنونهم، وعقليتهم، وحكمتهم وحسن سياستهم، وفي تذوقهم للفلسفة، بل إنهم في رأي بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة». وقال فولتير «لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين، أو العادات، أو اللغة، أو في أزياء الأهلين. وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم «. وهذا الإجلال الذي ينظر به علماء ذلك الوقت إلى بلاد الصين قد حققته دراستنا لتلك البلاد عن كثب، والذين خبروا تلك البلاد وعرفوها حق المعرفة قد بلغ إعجابهم بها غايته. إنظر إلى ما قاله الكونت كيسرلنج :

«لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية. وكانت فيها صور مألوفة عادية. وأنشأت أعلى ثقافة عامة عرفت في العالم كله. وإن عظمة الصين لتتم وتؤثر في كل يوم أكثر من الذي قبله. وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا. وإن أولئك السادة لهم طراز سام من البشر. وسموهم هذا هو الذي يأخذ بلبي. إن تحية الصيني المثقف لتبلغ حد الكمال!. وليس ثمة من يجادل في تفوق الصين في كل شأن من شئون الحياة. ولعل الرجل الصيني أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم».

والصينيون لا يهتمون كثيراً بإنكار هذه الأقوال، وقد ظلوا حتى هذا القرن - ماعدا نفراً قليلاً في الوقت الحاضر- مجمعين على أن أهل أوربا وأمريكا برابرة همج. وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ أن يترجموا لفظ « أجنبي « في وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لهمجي أو بربري، وكان لابد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين في معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة. والصينيون كمعظم شعوب الارض «يرون أنهم أعظم الأمم مدنية وأرقهم طباعاً».

ولعلهم محقون في زعمهم هذا رغم ما في بلادهم من فساد وفوضى من الناحية السياسية، ورغم تأخرهم في العلوم، وكدحهم في المصانع، ومدنهم الكريهة الرائحة، وحقولهم الملأى بالأقذار، وفيضان أنهارهم، وما ينتاب بلادهم من القحط، ورغم جمودهم وقسوتهم وفقرهم وخرافاتهم، وقلة عنايتهم بتربية ابنائهم، وحروبهم المدمرة، ومذابحهم وهزائمهم المذلة. ذلك أن ما وراء هذا المظهر المظلم الذي يبدو الآن لعين الغريب عن بلادهم مدنية من أقدم المدنيات القائمة في العالم وأغناها: فمن ورائه تقاليد قديمة في الشعر، يرجع عهدها إلى عام ١٧٠٠ ق. م، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غير المعجزة الدرك، ومن ورائه براعة في صناعة الخزف والنقش لا مثيل لها من نوعها، واتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعهم فيه إلا اليابانيون، وأخلاق قويمة قوية لم نر لها نظيراً عند شعوب العالم في أي وقت من الأوقات، ونظام إجتماعي ضم عدداً من الخلائق أكثر مما ضمه أي نظام آخر عرف في التارخ كله ودام أحقابا لم يدمها غيره من النظم، ظل قائما حتى قضت عليه الثورة ويكاد أن يكون هو المثل الأعلى للنظم الحكومية التي يدعو إليها الفلاسفة، ومجتمع كان راقياً متمدناً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة. ترى أي سر عجيب أبقى هذا النظام الحكومي تلك القرون الطوال، وحرك هذه اليد الفنية الصناع، وأوحى إلى نفوس أولئك القوم بهذا العمق والاتزان؟

الدولة الوسطى الزاهرة

إذا عددنا الروسيا بلاداً أسيوية- وقد كانت كذلك إلى أيام بطرس الأكبر وقد تعود أسيوية مرة أخرى- لم تكن أوروبا الإ أنفا مسننا في جسم آسية، وامتداداً يشتغل بالصناعة من خلفه قارة زراعية كبيرة، ومخالب أو نتوءات ممتدة من قارة جبارة مهولة. وتشرف الصين على تلك القارة المترامية الأطراف، وهي لا تقل عن أوربا في اتساع رقعتها وتعداد عامرها.

وقد كان يكتنفها في معظم مراحل تاريخها أكبر المحيطات وأعلى الجبال،

وصحراء من أوسع صحارى العالم. لذلك استمتعت بلاد الصين بعزلة كانت هي السبب في حظها النسبي من السلامة والدوام، والركود وعدم التغيير، وهو حظ كبير اذا قيس إلى حظ غيرها من الامم. ومن أجل هذا فإن الصينيين لم يسموا بلادهم- الصين، بل سموها تيان- هوا- «تحت السماء« أو زهاي- «بين البحار الاربعة»-أو جونج-جوو «الدولة الوسطى»- أو جونج- هوا- جوو- «الدولة الوسطى الزاهرة» أو الاسم الذي سماها به مرسوم الثورة جونج- هوا- مين- جوو- «مملكة الشعب الوسطى الزاهرة». والحق ان الأزهار اليانعة كثيرة فيها، كما أن فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التي يمكن أن تهبها أياها الشمس الساطعة، والسحب السابحة، وشعاب الجبال الوعرة، والأنهار العظيمة، والاغوار العميقة، والشلالات الدافقة بين التلال العابسة. ويجري في قسمها الجنوبي الخصيب نهر يانج- دزه الذي يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل، وفي الشمال يتحدر الهوانج هو، أو النهر الأصفر من سلاسل الجبال الغربية مخترقا سهولاً من اللويس، ويحمل معه الغرين ليصبه الآن في خليج بتشيلي، وكان من قبل يصبه في البحر الاصفر، ولعله سيعود في الغد فيصبه في هذا البحر مرة أخرى. على ضفاف هذين النهرين وعلى ضفتي نهر الواي وغيره من المجاري الواسعة، بدأت الحضارة الصينية تنتزع الأرض من الوحوش والآجام، وتصد عنها الهمج المحيطين بها، وتنظف الأرض من الحسك والعليق، وتطهرها من الحشرات المهلكة والرواسب الأكالة القارضة كأملاح البوتاسا وغيرها. وتجفف المناقع، وتقاوم الجفاف والفيضان، وما يطرأ على مجاري الأنهار من تحول يعود على البلاد وسكانها بالخراب والهلاك، وتجري الماء في صبر وحذر من اولئك الاعداء الأوداء في آلاف القنوات، وتقيم يوماً بعد يوم خلال القرون الطوال أكواخا وبيوتا ومعابد ومدارس وقرى ومدنا ودولا. ألا ما أطول الآجال التي يكد الناس خلالها ليشيدوا صرح الحضارة التي يدمرونها في سهولة وسرعة عجيبتين!

على أن طول هذه العهود يجب ألا يغشى أبصارنا فنبالغ في تجانس هذه

الثقافة أو تجانس الشعب الصيني نفسه. فقد يلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان. من ذلك أن خزف هونان المنتمي إلى العصر الحجري الحديث لا يكاد يفترق في شيء عن خزف أنو والسوس. والجنس «المغولي» الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً وتكراراً بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوب الروسيا ووسط آسية كما أورد ديورانت في كتابه القيم قصة الحضارة. فالصين من هذه الناحية كالهند يجب أن نشبهها بأوروبا بأكملها لا بأمة واحدة من أممها، فليست هي موطنا موحدا لأمة واحدة، بل هي خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة في الاخلاق والفنون، وكثيراً ما يعادي بعضها بعضاً في العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية.

قصة الخلق عند الصينيين

تسمى الصين «جنة المؤرخين»، ذلك أنها ظلت مئات وآلافا من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع فيها، وكثيرا مما لا يقع. على أننا لا نثق بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٦ ق. م - يقول ديورانت - ولكننا اذا استمعنا إلى هذه الاقوال رأيناهم يحدثوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ ٣٠٠٠ ق. م، ورأينا أكثرهم تقى وصلاحا يصفون خلق العالم كما يفعل المطلعون على الغيب في هذه الايام. ومن أقوالهم في هذا أن «بان كو» أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالي عام ٢,٢٢٩,٠٠٠ ق. م بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام. وتجمعت أنفاسه التي كان يخرجها في أثناء عمله فكانت رياحا وسحبا، وأضحى صوته رعداً، وصارت عروقه أنهاراً، واستحال لحمه أرضاً، وشعره نبتا وشجرا، وعظمه معادن، وعرقه مطرا؛ أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين. وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ننقض به هذا العلم الكوني العجيب.

وتقول الاساطير الصينية أن الملوك الاولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف

عام، وانهم جاهدوا أشق جهاد ليجعلوا من قمل «بان كو» خلائق متحضرين. وتقول لنا هذه الأساطير ان الناس «كانوا قبل هؤلاء الملوك السماويين كالوحوش الضارية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة، ويعرفون أمهاتهم، ولكنهم لا يعرفون آباءهم»- ولا يرى استرندبرج أن هذا الوصف الأخير مقصور على الأقدمين أو على الصينيين. ثم جاء من بعد هؤلاء الامبراطور فوشي في عام ٨٥٢ ق. م بالتحديد، فعلم الناس بمعاونة زوجه المستنيرة الزواج، والموسيقى والكتابة والتصوير، وصيد السمك بالشباك، وتأنيس الحيوان، وإطعام دود القز للحصول منها على الحرير. وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه سن نونج، فأدخل هذا الأمبراطور في البلاد الزراعة، واخترع المحراث الخشبي، وأقام الأسواق وأوجد التجارة، وأنشأ علم الطب بما عرفه من خواص النبات العلاجية، هذا ما تقوله الاساطير التي تعلي الأشخاص أكثر مما تعلي الأفكار، وتعزو إلى عدد قليل من الأفراد نتائج كدح الأجيال الطوال. ثم حكم إمبراطور محارب قوى يدعى هوانج- دي لم يطل عهده أكثر من مائة عام، فجاء إلى الصين بالمغناطيس والعجلات، ووظف المؤرخين الرسميين، وشاد أول أبنية من الآجر في الصين، وأقام مرصدا لدراسة النجوم، وأصلح التقويم، وأعاد توزيع الأرض على الأهلين. وحكم «يَو» قرنا آخر، وبلغ من صلاح حكمه أن كنفوشيوس، حين كتب عنه بعد زمانه بثمانمائة وألف عام في عهد كان يبدو له بلا ريب عهدا «حديثا» فاسدا، أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف وإنحلال.

ويحدثنا الحكيم القديم- الذي لم يستطع رغم حكمته التورع عن «الكذبة الصالحة» يضيفها إلى القصة ليجعل لها مغزى خلقيا- يحدثنا هذا الحكيم القديم أن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى «يو»، وكان أول ما قدمه «يو» من معونة للمصلحين أن وضع في خارج باب قصره طبلاً يضربونه اذا أرادوا أن يدعوه لسماع شكواهم ولوحاً يكتبون عليه ما يشيرون به على الحكومة ويقول كتاب التاريخ الذائع الصيت:

«أما يَوْ الصالح فيقولون عنه إنه حكم جونج- جُوُو مائة عام لأنه عاش

مائة عام وستة عشر، وكان رحيماً خيراً كالسماء، حكيماً بصيراً كالآلهة، وكان ضياؤه يبدو من بعيد كالسحابة اللامعة، فإذا إقتربت منه كان كأنه الشمس الساطعة. وكان غنياً في غير زهو، عظيماً في غير ترف وكان يلبس قلنسوة صفراء، ومئزرا قاتم اللون، ويركب عربة حمراء تجرها جياد بيض. وكانت طنف أسقف بيته غير مشذبة، وألواحه غير مسحجة، ودعائمه الخشبية غير ذات أطراف مزينة. وكان أغلب ما يقتات به الحساء أيا كان ما يصنع منه، لا يهتم بإختيار الحبوب التي يصنع منها خبزه، وكان يشرب حساء العدس من صفحة مصنوعة من الطين، ويتناوله بملعقة من الخشب. ولم يكن يتحلى بالجواهر، ولم تكن ثيابه مطرزة، بل كانت بسيطة لا يختلف بعضها عن بعض. ولم يكن يعني بغير المألوف من الاشياء أو الغريب من الأحداث، ولم يكن يقيم وزنا للأشياء النادرة الغريبة، يستمع لأغاني الغزل، عربته الرسمية خالية من أسباب الزينة. يلبس في الصيف رداء بسيطا من القطن، ويلف جسمه في الشتاء بجلود الظباء. ومع هذا كله فقد كان أغنى من حكم جونج- جوو، طوال عهدها كله، وأرجحهم عقلا، وأطولهم عمرا، وأحبهم إلى قلوب الشعب.

وكان شون آخر هؤلاء «الملوك الخمسة» مثالا في البر، كما كان هو البطل الذي جاهد لحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج- هو، والذي أصلح التقويم، وضبط الموازين والمقاييس، وكسب محبة الأجيال التي جاءت بعده من تلاميذ المدارس بتقصير طول السوط الذي كانوا يربون به. وتقول الروايات الصينية إن شون في آخر أيامه رفع معه على العرش أقدر مساعديه، وهو المهندس العظيم يو، الذي تغلب على فيضان تسعة أنهار بشق تسعة جبال وحفر تسع بحيرات، ويقول الصينيون «لولا يو، لكنا كلنا سمكا». وتقص الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر في أيامه وقدم للإمبراطور، ولكن «يو» صبه على الأرض وقال متنبئا: «سيأتي اليوم الذي يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشيء ملكاً»، ثم نفي من كشف هذا الشراب من البلاد وحرم على الناس شربه. فلما فعل هذا جعل الناس

خمر الأرز شرابهم القومي، فكان ذلك درساً علموه لمن جاء بعدهم من الخلائق.

وغيّر يو المبدأ الذي كان متبعا من قبله في وراثة الملك وهو أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش، فجعل الملك وراثياً في أسرته، وأنشأ بذلك أسرة الشيتية (أي المتحضرة)، فكان ذلك سببا في أن يتعاقب على حكم الصين العباقرة والبلهاء وذوو المواهب الوسطى. وقضى على هذه الاسرة إمبراطور ذو أطوار شاذة، يدعى جية أراد أن يسلي نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصينيين أن يموتوا ميتة هنيئة بالقفز في بحيرة من النبيذ.

وليس لدينا ما يحقق لنا صدق ما ينقله إلينا ديورانت عن المؤرخين الصينين من أخبار. وكل ما نستطيع أن نقوله أن علماء الفلك في هذه الايام قد حققوا تاريخ الكسوف الشمسي الذي ورد ذكره في السجلات القديمة فقالوا انه قد حدث في عام ٢١٦٥ ق. م، ولكن الثقاة الذين يعتد بآرائهم لا يؤمنون بحساب أولئك الفلكيين. وقد وجدت على بعض العظام التي كشفت في هونان أسماء حكام تعزوهم الروايات الصينية إلى الأسرة الثانية أو أسرة شانج؛ ويحاول المؤرخون أن يعزوا بعض الأواني البرنزية الموغلة في القدم إلى أيام تلك الأسرة. أما فيما عدا هذا فمرجعنا الوحيد هو القصص الذي يحوي من الطرافة واللذة أكثر مما يحوي من الحقيقة. وتقول الروايات القديمة ان وو- يي أحد أباطرة أسرة شانج كان كافرا يتحدى الآلهة ويسب روح السماء، ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ويأمر أحد أفراد حاشيته بان يحرك القطع بدل الروح، فإذا أخطأ سخر منه. ثم أهدى إليه كيساً من الجلد وملأه دماً، وأخذ يسلي نفسه بأن يصوب إليه سهامه. ويؤكد المؤرخون- وفيهم من الفضيلة أكثر مما في التاريخ نفسه- ان وو- يي أصابته صاعقة فأهلكته.

وكان جوسين آخر ملوك هذه الأسرة ومخترع عصى الطعام خبيثا آثما إلى حد لا يكاد يصدقه العقل، فقضى بإثمه على أسرته. ويحكى عنه أنه قال: «لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات، وأحب أن أتثبت من صدق هذا القول

في بي كان»– وزيره، وكانت تاكي زوجة جو مضرب المثل في الفجور والقسوة، فكانت تعقد في بلاطها حفلات الرقص الخليع، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين في حدائقها. فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت إلى كم أفواههم بإختراع ضروب جديدة من التعذيب، فكانت ترغم المتذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية في النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل، فإذا سقط الضحايا في الحفرة طربت الملكة حين تراهم تشوى أجسادهم في النار.

وقضت على عهد جوسين مؤامرة دبرها الثوار في داخل البلاد، وغارة من ولاية جو الغربية، ورفع المغيرون على العرش أسرة جو، وقد دام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى في بلاد الصين. وكافأ الزعماء المنتصرون من أعانوهم من القواد والكبراء بأن جعلوهم حكاماً يكادون أن يكونوا مستقلين في الولايات الكثيرة التي قسمت إليها الدولة الجديدة. وعلى هذا النحو بدأ عهد الإقطاع الذي كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد، والذي كان رغم هذا باعثاً على النشاط الأدبي والفلسفي في بلاد الصين. وتزاوج القادمون الجدد والسكان الأولون وامتزجوا جميعا، وكان إمتزاجهم هذا تمهيداً بيولوجياً لأولى حضارات الشرق الأقصى في الازمنة التاريخية.

الحضارة الصينية الأولى

لم تكن الولايات الإقطاعية، التي وهبت الصين بعدئذ ما استمتعت به من نظام سياسي قرابة ألف عام، من عمل الفاتحين، بل نشأت من المجتمعات الزراعية التي قامت في الأيام البدائية بإمتصاص أقوياء الزراع ضعافهم، أو باندماج الجماعات تحت رياسة زعيم واحد حتى يستطيعوا أن يدفعوا عن حقولهم من يغيرون عليها من الهمج المحيطين بهم. وبلغ عدد هذه الإمارات في وقت من الأوقات سبع عشرة ألف ولاية تتكون كل منها في العادة من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف

من مجموعها محيط دفاعي واحد. ثم أخذت هذه الولايات يندمج بعضها في بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية تشمل الإقليم الذي يعرف الآن بإقليم هونان وما جاوره من أقاليم شانسي، وشنسى، وشانتونج. وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين ولاية تشي التي وضعت أساس الحكومة الصينية، وولاية تشين التي أخضعت سائر الولايات لحكمها وأنشأت منها إمبراطورية موحدة، وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروفة به في جميع بلاد العالم إلاّ فيها هي نفسها.

وكان السياسي العبقري الذي وضع لولاية تشي نظامها هو جوان جونج مستشار الدوق هوان. وقد بدأ جوان حياته السياسية بمساعدة أخى هوان عليه في نزاعهما من أجل السيطرة على تشي، وكاد يقتل هوان في إحدى الوقائع الحربية. ولكن هوان انتصر في آخر الأمر وأسر جوان وعينه رئيس وزراء دولته. وزاد جوان من قوة سيده بإستبدال الأسلحة والأدوات الحديدية بنظائرها المصنوعة من البرنز، وبإحتكار الحكومة للحديد والملح أو بالسيطرة عليهما، ثم فرض الضرائب على النقود والسمك والملح «لكي يساعد الفقراء ويكافئ الحكماء وذوي المواهب». وأصبحت تشي في أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام ذات عملة مستقرة، ونظام اداري محكم، وثقافة زاهرة. وقد قال عنه كنفوشيوس- وهو الذي لم يكن يمتدح الساسة إلا بأوجز عبارة- «إن الناس لا يزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التي أسبغها عليهم، ولولا جوان جونج لظللنا حتى اليوم ذوي شعر أشعث، ولظلت ملابسنا تزرر جهة الشمال» .

وفي بلاط نبلاء الإقطاع نشأت طريقة التحية التي إمتاز بها الصينيون المهذبون، كما نشأت فيها شيئا فشيئا تقاليد من الأخلاق والإحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حدا يكفيها لأن تحل محل الدين عند الطبقات العليا في المجتمع. ثم وضعت أسس الشرائع وبدأ نزاع شديد بين حكم العادات التي نمت عند عامة الشعب وبين حكم القانون الذي وضعته الدولة. وأصدرت دوقيتا جنج

وتشين (في عامي ٥٣٥ - ٥١٢ ق. م) كتبا في القانون ملأت قلوب الفلاحين رعبا، وتنبئوا بما سيحل بهما من عقاب سماوي شديد على هذه الجريمة الشنيعة. وحدث بالفعل أن دمرت النار عاصمة جنج بعد ذلك بقليل. وكان في هذه الشرائع محاباة للطبقات العليا، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم.

من ذلك أن القاتل منهم كان يسمح له بأن ينتحر، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذي أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السموراي في اليابان. واحتج عامة الشعب على هذه التفرقة، وقالوا أن في مقدورهم هم أيضا أن يؤدبوا أنفسهم، وتمنوا أن يقوم بينهم وطني مخلص شبيه بهرموديس أو أرستجيتون يحررهم من ظلم القوانين. ثم تراضت الفئتان آخر الأمر واتفقتا على حل سليم فضيقت دائرة القانون الوضعي حتى لم تعد تشمل الا المسائل الكبرى أو المسائل القومية، وظلت أحكام العرف والعادة هي الفيصل فيما دونها من الأمور. واذ كانت الكثرة الغالبة من شئون البشر من المسائل الصغرى فقد ظل حكم العادة هو السائد بين كافة الطبقات.

واستمر تنظيم الولايات يجري في مجراه، وجمعت قواعد هذا النظام في الجو- لي، أو «دستور جو» وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى جو جونج عم دوق جو الثاني وكبير وزرائه، وهو بالطبع قول لا يقبله عقل لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد.

والواقع إن الإنسان يلمح فيها روح كونفوشيوس ومنشيس، ولهذا فأكبر الظن أنها وضعت في آخر أيام أسرة جو لا في أيامها الأولى. وقد ظلت مدى ألفي عام تمثل فكرة الصينيين عن النظام الحكومي: وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق، وأنه «ابن السماء» يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح، وأعيان، بعضهم بحكم مولدهم وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم، يصرفون أعمال الدولة، وشعب يرى أن واجبه فلح الارض يعيش في أسر أبوية

ويتمتع بالحقوق المدنية ولكنه لا رأي له في تصريف الشؤون العامة، ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم على ناحية من النواحي الآتية وهي: «حياة الإمبراطور وأعماله، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر، والمراسيم والتنبؤات الدينية، والاستعداد للحرب والسير فيها، وتوزيع العدالة بين السكان وتنظيم الأشغال العامة». ويكاد هذا القانون يكون قانونا مثاليا، وأكبر الظن أنه نبت في عقل فيلسوف أفلاطوني مجهول لم يتحمل أعباء الحكم، لا من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية ويتعاملون مع خلائق حقيقيين.

ولما كان الشر المستطير قد يجد له مكانا حتى في أكمل الدساتير، فقد كان تاريخ الصين السياسي هو التاريخ المألوف الذي يتناوبه الفساد الطويل وفترات الإصلاح القصيرة. ذلك أن الثروة حين زادت أدت إلى الإسراف والترف فأفسدا الطبقة العليا، كما غصّ بلاد الأباطرة وغصت فيما بعد لويانج عاصمة الدولة بالموسيقيين والقتلة والسفاحين والسراري والفلاسفة. وقلما كانت تمضي عشر سنين دون أن يهاجم فيها الدولة الجديدة البرابرة الجياع الذين لم ينقطعوا يوما ما عن الضغط على حدودها، حتى أضحت الحرب أولا ضرورة لا بد منها للدفاع، ثم صارت بعد قليل حرب هجوم وإعتداء، وتدرجت من ألعاب يتسلى بها الأعيان إلى مسابقات في التقتيل بين عامة الشعب، يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس، فلم يمض إلاّ قرنان من الزمان أو أكثر منهما بقليل حتى قتل من الملوك ستة وثلاثون، وعمت البلاد الفوضى، ويئس الحكام من إصلاح الأمور.

وظلت الحياة تتعثر في طريقها متخطية هذه العقبات القديمة فكان الفلاّح يزرع ويحصد لنفسه في أحيان قليلة وللنبلاء الإقطاعيين في أكثر الاحيان، لأنه هو وأرضه كانا ملكا لهؤلاء النبلاء، ولم يبدأ الفلاحون في إمتلاك الارض إلاّ في أواخر أيام هذه الأسرة. وكانت الدولة- وهي مجتمع مهلهل من النبلاء الإقطاعيين يعترفون بعض الإعتراف بسيادة واحد منهم- تجند العمال للأشغال العامة، وتروى الحقول من قنوات كثيرة منبثة في أنحاء البلاد، وكان الموظفون

العموميون يعلّمون الأهلين زرع الحقول وغرس الأشجار، ويشرفون على صناعة الحرير بكافة أجزائها. وكان صيد السمك واستخراج الملح من باطن الأرض إحتكارا للحكومة في كثير من الولايات. وكانت التجارة الداخلية رائجة في المدن فنشأت من رواجها طبقة وسطى صغيرة العدد تستمتع بنعم لا تكاد تفترق عن نعم الحياة الحديثة، وكان أفرادها ينتعلون أحذية من الجلد، ويرتدون ملابس من الحرير، أو من نسيج آخر يغزلونه بأيديهم، وينتقلون في عربات مختلفة الانواع، أو في قوارب تسير في الأنهار، ويسكنون بيوتا حسنة البناء، ويستخدمون الكراسي والنضد، ويتناولون طعامهم في صحاف وأواني من الخزف المنقوش. وأكبر الظن أن مستوى حياتهم كان أرقى من مستوى حياة معاصريهم في بلاد اليونان أيام صولون أو في روما أيام نوما.

وسرت في الحياة الذهنية في الصين بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة في البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ بها الناس، فقد وضعت في هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة والفن. ونشأ من إئتلاف الحياة التي أصبحت آمنة بفضل التنظيم الإقتصادي والإدخار مع الثقافة التي لم تكن قد وحدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التي تفرضها عليها التقاليد والحكومة الإمبراطورية القوية السلطان، نشأ من إئتلافهما ذلك الإطار الإجتماعي الذي احتوى أكثر العهود إبداعا وإنشاءً في تاريخ الصين الذهني. فكان في كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء وفي آلاف من المدن والقرى شعراء ينشدون القصائد، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسفسطائيون يعلمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحاجة الذهنية، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول.

وبقي الشعر والفلسفة من نتاج هذا العصر الذي نتحدث عنه بنوع خاص، وهما يجعلانه أكثر عصور الفكر الصيني ازدهاراً. ولقد ضاع معظم ما كتب

من الشعر قبل كنفوشيوس، وأكثر ما بقي منه هو ما اختاره هذا الفيلسوف من نماذج كلها جد وصرامة، جمعت في الشي- جنج، أي «كتاب الأغاني» وقيل في فترة تزيد على ألف عام تمتد من أيام الشعر القديم الذي قيل في أيام أسرة شانج إلى الشعر ذي الصبغة الحديثة الذي قيل في زمن معاصر لفيثاغورس. وتبلغ عدة هذه القصائد الباقية خمس قصائد وثلثمائة قصيدة، وكلها موجزة إيجازاً يجعلها مستعصية على الترجمة، ذات تصوير إيحائي، تتحدث عن الدين ومتاعب الحرب وهموم الحب.

وفي القصائد كثير من أغاني الحب المختلفة النغم التي تضرب على أوتار القلوب، وإن كان ذلك العصر يبدو لنا لفرط جهلنا عصر الهمجية الصينية وبداية تاريخها. ونحن نستمع في احدى هذه القصائد إلى صوت الشباب المتمرد إلى أبد الدهر يهمس في آذاننا من خلال القرون البائدة، التي كانت تبدو عهودا نموذجية لكنفوشيوس، وكأنما هي تقول أن لا شيء يماثل التمرد والعصيان في قدم العهد: »ديورانت – قصة الحضارة«

أتوسل إليك يا حبيبي
أن تغادر قريتي الصغيرة
وألاّ تهشم أغصان صفصافي
وليس ذلك لأن تهشيمها يحزنني
بل لأني أخشى أن يثير تهشيمها غضب أبي.
والحب يناديني بعواطفه المقهورة
«إن أوامر الأب يجب أن تطا ع»
أتوسل إليك يا حبيبي
أو تحطم أغصان توتي
وليس ذلك لأني أخشى سقوطها
بل لأني أخشى أن يثير سقوطها غضب أخي.

والحب يناديني بعواطفه المقهورة
«إن كلام الأخ يجب أن يطاع»
أتوسل إليك يا حبيبي،
ألاّ تتسلل إلى الحديقة
ولا تحطم أشجار الصندل
وليس هذا لأني أعني بهذه أو تلك
بل لأني أرهب حديث المدينة
وإذا ما سار المحبون على هواهم
فماذا يقولون عنهم جيرانهم

وثمة قصيدة أخرى هي أقرب هذه القصائد إلى الكمال، أو أحسنها ترجمة، وهي تدل على أن العواطف البشرية قديمة موغلة في القدم:

جلال الصباح يعلو فوق هامتي
وتحيط بي الازهار الشاحبة بيضاء وأرجوانية وزرقاء وحمراء وأنا قلقة البال
وتحرك شيء بين الحشائش الذابلة
فظننت أن ما سمعته هو وقع أقدامه
وإذا جندب يصر
وتسلقت التل ساعة أن بزغ الهلال
فأبصرته مقبلا من الطريق الجنوبي
فاستراح قلبي وأطرح عنه حمله.

تلك بعض النماذج الشعرية الصينية التي أوردها ديورانت ، وإن كانت تنبأ بما تقدم ذكره ، الإ أنها تدل على أن جميع البشر نطقوا شعرا في مقتبل حضاراتهم ، لابعد بناء الحضارة ، فالشعر يأتي من المعاناة ، لا من الدعة والراحة.

ننج شي سقراط الصين

يمتاز هذا العصر بفلسفته. وليس يعيب الجنس البشري أن يوجد في كل عصر من العصور من يسبق حكمته، ومَنْ مثله العليا كانت تخطو بأسرع من خطى مسلكه. وها هو ذا يو- دزه في عام ١٢٥٠ ق. م ينطق بتلك العبارة القصيرة التي تعد من جوامع الكلم، والتي طالما رددها الناس من قبله، ولكنها لم تبل جدتها بعد، إذ لا يزال الناس في حاجة إلى من يذكرهم بأن كل مجد مآله كرب وشقاء:

«من يطرح المجد ولا يعبأ به ينج من الأحزان».

ألا ما أسعد الانسان الذي لا تاريخ له! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة.

فكما أن الهند أرقى بلاد العالم في الأديان، وعلم ما وراء الطبيعة، فكذلك الصين أرقاها في الفلسفة الإنسانية غير الدينية، إذ لا يكاد يوجد في الأدب الصيني كله كتاب ذو شأن في علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التي يبدأ بها تاريخ التفكير الصيني المدون، وهي الوثيقة المعروفة بإسم إي- جنج، أو «كتاب التغيرات». وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وانج، أحد مؤسسي أسرة جو في سجنه، وأن أبسط مبادئه مستمدة من فوشي الذي عاش قبله بزمن طويل. وهم يقولون لنا أن هذا الامبراطور الاسطوري قد اخترع «الجوات» الثماني أو التثاليث الرمزية التي ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها. وهم يقولون أن كل واحد من هذه التثاليث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو اليانج وبعضها متقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو الين.

وكذلك يمثل اليانج في هذه الثنائية الرمزية العنصر الإيجابي الفعال، المنتج، السماوي، عنصر الضوء والحرارة والحياة، على حين أن الين يمثل العنصر السلبي المنفعل، الأرضي، عنصر الظلمة والبرودة والموت وقد خلد ون

يانج ذكره، وأتعب عقول آلاف الملايين من الصينيين بمضاعفة عدد الشرط في الخطوط المتصلة والمتقطعة، فرفع بذلك عدد تباديلها وتوافيقها إلى أربعة وستين كل منها يقابل قانونا من قوانين الطبيعة، ويحتوي على جميع العلوم والتاريخ. والحكمة جميعا تكمن في هذه الأربع والستين شَيْبَنْجَة- أو الآراء الممثلة تمثيلاً رمزياً في التثليثات السالفة الذكر. والحقائق كلها يمكن ردها إلى تعارض وإتحاد العاملين الأساسيين في الكون وهما عنصرا الذكورة والأنوثة أي اليانج والين.

وكان الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتابا يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب، ويعدونه أعظم تراثهم الأدبي، ويقولون أن كل من فهم ما فيه من توافيق يدرك جميع القوانين الطبيعية. وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه، وجمله بما علق عليه من الحواشي، وكان يفضله على كل ما عداه من كتب الصينيين، ويتمنى أن يخلو لنفسه خمسين عاماً يقضيها في دراسته.

ولا يتفق هذا السفر العجيب مع روح الفلسفة الصينية، وهي الروح الايجابية العملية، وإن كان يلائم غموض النفس الصينية ونحن نجد في الصين فلاسفة في أبعد الازمان التي وصل إلينا تاريخها، ولكن كل ما حفظه التاريخ لهم قبل أيام لو- دزه، لا يعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك، أو مجرد اسم من الأسماء، وقد شهد القرنان السادس والخامس في بلاد الصين، كما شهدا في الهند وفارس واليونان، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية، بدأت كما بدأت في بلاد اليونان بعصر من «الإستنارة» العقلية.

ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الأنساب العريقة مسالك للرقي، وحفز أهل المدن على أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية. وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما في علوم الدين من إبهام وغموض، وما في الأداة الحكومية من نقص، وعرفوا أن المقاييس الاخلاقية مقاييس نسبية، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا والكمال المطلق.

وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاجتهم. وتقول إحدى الروايات الصينية أن كنفوشيوس نفسه، وهو وزير الجريمة في مقاطعة لو، حكم بالإعدام على موظف صيني متمرد بحجة أنه «كان في وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال، وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال، وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة ما يمكنها من الوقوف في وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس». ويصدق زوما- تشين هذه القصة ولكن بعض المؤرخين الصينيين يرفضونها، ونحن نرجو ألا تكون صحيحة.

وأشهر هؤلاء المتمردين العقليين هو تنج شي الذي أعدمه دوق جنج في شباب كنفوشيوس، ويقول كتاب ليه- دزه: ان تنج هذا كان «يعلم النظريات القائلة ان الحق والباطل أمران نسبيان، ويؤيد هذه الآراء بحجج لا آخر لها». واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستنكف أن يثبت اليوم رأيا ويثبت عكسه في غد، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الأجر، وكان يعرض خدماته على من لهم قضايا في المحاكم، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن يطلبها من الناس.

ووضع تنج شي قانونا للعقوبات تبين أنه أرقى مما تطبقه حكومة جنج. ولما ضاق رئيس الوزراء ذرعا بالنشرات التي كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم إلصاقها في الأماكن العامة، فما كان من تنج إلا أن عمد إلى توزيعها على الناس بنفسه، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء مخبوءة بين أشياء أخرى، فلما أعيت الحكومة الحيل أمرت بقطع رأسه.

لو- دزه

كان لو- دزه، أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس، أكثر حكمة من تنج شي، فقد كان يعرف حكمة الصمت، وما من شك أنه عمر طويلاً. ويحدثنا المؤرخ الصيني زوماتشين أن لو- دزه عافت نفسه سفالة السياسيين، ومل عمله في

أمانة مكتبة جو الملكية، فاعتزم أن يغادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد منعزل في الريف. «فلما أن وصل إلى حدود البلاد قال له الحارس ين شي: إنك إذن تنشد العزلة، وأنا أرجوك أن تكتب لي كتابا. فكتب له لو- دزه كتابا من جزأين في الدو والدي يشتمل على خمسة آلاف كلمة. ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات».

لكن الروايات والاقاصيص، التي لا تخفى عليها خافية، تقول أنه عاش سبعة وثمانين عاما. ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه.

فأما لو- دزه، فوصف معناه «المعلم القديم» وأما أسمه الحقيقي فهو، كما تقول الرواية، لي- أي البرقوقة. والكتاب الذي يعزى إليه مشكوك فيه شكا أثار كثيرا من الجدل العلمي حول أصله ولكن الباحثين جميعا متفقون على أن الدو- ده- جنج- أي «كتاب الطريقة والفضيلة»- هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدوية التي يقول العلماء الصينيون أنها وجدت قبل لو- دزه بزمن طويل، والتي كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول، والتي صارت فيما بعد دينا تعتنقه أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا، وجملة القول أن مؤلف الدو- ده- جنج مسألة ذات أهمية ثانوية، وأما الآراء التي احتواها الكتاب فمن أبدع ما كتب في تاريخ الفكر الانساني.

ومعنى لفظ الدَّو هو الطريقة: وهي أحيانا طريقة الطبيعة، وأحيانا الطريقة الدوية للحياة الحكيمة. أما المعنى الحرفي لهذا اللفظ فهو الطريق. وهو في الأصل طريقة للتفكير أو للإمتناع عن التفكير، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحي لاغير ليس فيه إلا الجدل والمحاجاة، يضر الحياة أكثر مما ينفعها. أما «الطريقة» فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله، وبالإلتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادئ في الطبيعة. وليس العلم في رأي صاحب الكتاب فضيلة، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم. وليس العلم هو الحكمة، ذلك لأنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من

«صاحب العقل». وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها حكومة الفلاسفة، ذلك أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي، وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الأراء، وفي ذلك يقول الكتاب:

«إن المهرة لا يجادلون، وأصحاب الجدل عطل من المهارة، وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب، والحكيم يبقي الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة، وإذا وجد من لهم علم منعهم من الإقدام على العمل» وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في الدو لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس بل ليجعلوهم سذجاً جهلاء، والصعوبة التي يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته ينكل بها ويفسد شئونها، أما الذي لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة.

وإنما كان صاحب الفكر خطرا على الدولة لأنه لا يفكر الا في الأنظمة والقوانين، فهو يرغب في إقامة مجتمع على قواعد هندسية، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضي على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية، وما في أجزائه من نشاط وقوة. أما الرجل البسيط الذي يعرف من تجاربه ما في العمل الذي يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة، وما ينتجه من ثمرة، فهو أقل من العالم خطرا على الأمة إذا تولى تدبير أمورها، لأنه لا يحتاج إلى من يدله على أن القانون شديد الخطر عليها، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها. فهذا الرجل لا يضع للناس من الأنظمة إلا أقل قدر مستطاع، وإذا تولى قيادة الامة إبتعد بها عن جميع أفانين الخداع والتعقيد، وقادها نحو البساطة العادية التي تسير فيها الحياة سيرا حكيما على النهج الطبيعي الحكيم الرتيب الخالي من التفكير، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها في هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر. فإذا تحررت غرائز الناس الإقتصادية التلقائية التي تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التي تفرضها الحكومات دفعت عجلة الحياة في مسيرها البسيط الصحيح. وفي هذه الحال تقل المخترعات التي لا تفيد إلا في

زيادة ثراء الاغنياء وقوة الاقوياء، وتنمحي الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى إلا التجارة القروية.

«إن كثرة النواهي والمحرمات في المملكة تزيد من فقر الأهلين. وكلما زاد عدد الأدوات التي تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطرابا، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق، ولهذا قال أحد الحكماء: « لن أفعل شيئا، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم، وسأولع بأن أبقى ساكنا فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم، ولن أشغل بالي بأمور الناس فيثرى الناس من تلقاء أنفسهم، ولن أظهر شيئا من المطامع فيصل الناس من تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية، وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل، وسأجعل الناس فيها، وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن يؤسف له، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه)، ومع أن لهم سفنا وعربات فإنهم لا يرون ما يدعوا إلى ركوبها، ومع أن لهم ثيابا منتفخة وأسلحة حادة، فإنهم لا يجدون ما يدعوا إلى لبس الأولى أو إستخدام الثانية، وسأجعل الناس يعودون إلى إستخدام الحبال المعقودة .وسيرون أن طعامهم (الخشن) وملابسهم (البسيطة) جميلة، ومساكنهم (الحقيرة) أمكنة للراحة، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا نراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ونباح الكلاب، فإني لن أجعل للناس وان طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم».

نظرية غريبة! .. غير واقعية ، لكنها تحمل في طياتها الفكر الصوفي ، إذ توحى بالقناعة والرضا ، وتقيم أركانا للبساطة وعدم الحرص.

ترى ما هي هذه الطبيعة التي يرغب لَوْ- دزه، في أن يتخذها مرشدا له

وهاديا؟ إن هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقا محددا واضح المعالم، كما فعل روسو من بعده في عباراته الطنانة الرنانة التي يطلق عليها الناس اسم «التفكير الحديث». فالطبيعة في نظره هي النشاط التلقائي، إنسياب الحوادث العادية المألوفة، وهي النظام العظيم الذي تتبعه الفصول وتتبعه السماء، وهي الدو أو الطريقة الممثلة المجسمة في كل مجرى وكل صخرة وكل نجم، وهي قانون الأشياء العادل الذي لا يحفل بالأشخاص، ولكنه مع ذلك قانون معقول يجب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا في حكمة وسلام. وقانون الأشياء هذا هو الدو أو طريقة الكون كما أن قانون السلوك هو الدو أو طريقة الحياة. ويرى لو- دزه، أن الدوين في واقع الأمر دو واحد وأن الحياة في تناغمها الأساسي السليم ليست إلا جزءا من تناغم الكون. وفي هذا الدو الكوني تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتكون مادة الحقائق كلها التي يقول بها اسبنوزا، وفيه تجد كل الصور الطبيعية على إختلاف أنواعها مكانها الصحيح، وتجتمع كل المظاهر التي تبدو للعين مختلفة متناقضة، وهو الحقيقة المطلقة التي تتجمع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتكون منها وحدة هيجل الشاملة».

ويقول لو إن طبيعة قد جعلت حياة الناس في الايام الخالية بسيطة آمنة، فكان العالم كله هنيئا سعيدا. ثم حصل الناس «المعرفة» فعقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية، وانتقلوا من الحقول إلى المدن، وشرعوا يؤلفون الكتب، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة. فالعاقل اذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضري وهذا التيه المفسد الموهن تيه القوانين والحضارة، ويختفي بين أحضان الطبيعة، بعيدا عن المدن والكتب، والموظفين المرتشين، والمصلحين المغترين. وسر الحكمة كلها سر القناعة الهادئة، وهي وحدها التي يجد فيها الانسان السعادة الأبدية، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز، والشعور في ثقة وإطمئنان، والجري على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها في تواضع.

ولعلنا لا نجد في الأدب كله فقرة أكثر انطباقا على العقل والحكمة من الفقرة الآتية:

إن كل ما في الطبيعة من أشياء تعمل وهي صامتة، وهي توجد وليس في حوزتها شيء، تؤدي واجبها دون أن تكون لها مطالب، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتخمد، وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها إلى أصله، وعودة الاشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه. وعودتها هذه قانون أزلي، ومعرفة هذا القانون هي الحكمة.

والخمود الذي هو نوع من التعطل الفلسفي وإمتناع عن التدخل في سير الأشياء الطبيعي وهو ما يمتاز به الحكيم في جميع مناحي الحياة، فإذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام فخير ما يفعل بها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظما لواجبه، وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى في سكون، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه، إذا كان لا بد من الكسب، بالخضوع والصبر، ذلك أن المرء ينال من النصر بالسكون أكثر مما يناله بالعمل، وفي هذا يحدثنا لو- دزه حديثا:

«إذا لم تقاتل الناس فإن أحدا على ظهر الارض لن يستطيع أن يقاتلك. قابل الإساءة بالإحسان. أنا خير للأخيار، وخير أيضا لغير الأخيار، وبذلك يصيرالناس جميعا أخيارا، وأنا مخلص للمخلصين، ومخلص أيضا لغير المخلصين وبذلك يصيرالناس جميعا مخلصين. وألين الأشياء في العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها، وليس في العالم شيء ألين أو أضعف من الماء، ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية» .

وتبلغ هذه الآراء غايتها في الصورة التي يتخيلها «لو» للرجل الحكيم. وقبل أن نرسم للقارئ هذه الصورة نقول أن من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين بل يتحدثون عن الحكماء، وأنهم لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة.

فليس الرجل المثالي في نظر الصينيين هو التقي العابد، بل هو صاحب العقل الناضج الهادئ، الذي يعيش عيشة البساطة والسكون وإن كان خليقا بأن يشغل مكانا ساميا في العالم. ذلك أن السكون هو بداية الحكمة، والحكيم لا يتكلم حتى على الدو والحكمة، لأن الحكمة لا تنقل إلا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ، والذي يعرف الطريقةلا يتحدث عنها، والذي يتحدث عنها لا يعرفها، والذي يعرفها يقفل فاه ويسد أبواب خياشيمه»

والحكيم شيمته التواضع، لأن الانسان متى بلغ الخمسين من عمره فقد آن له أن يدرك أن المعرفة شيء نسبي، وأن الحكمة شيء ضعيف سهل العطب، وإذا عرف الحكيم أكثر مما يعرف غيره من الناس حاول أن يخفي ما يعرفه «فهو يحاول أن يقلل من سناه ولألائه ويوائم بين سناه وقتام غيره، وهو يتفق مع السذج أكثر مما يتفق مع العلماء، ولا يألم من غريزة المعارضة التي هي غريزة طبيعية في الأحداث المبتدئين. وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان، بل يخضع شهواته إلى الحد الأدنى الذي يكاد يتفق مع العقيدة البوذية:

«ليس لشيء عندي قيمة، وأشتهي أن يخضع قلبي خضوعا تاما، وأن يفرغ حتى لا يبقى فيه شيء قط، يجب أن يبلغ الفرا غ أقصى درجاته، وأن يحاط السكون بقوة لا تمل، ومن كانت هذه صفاته لا يمكن أن يعامل بجفاء أو في غير كلفة. وهو أكبر من أن يتأثر بالمكاسب أو الأذى وبالنبل أو الإنحطاط وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء».

ولسنا نرى حاجة لبيان ما في هذه الآراء من إتفاق مع آراء جان جاك روسو وحسبنا أن نقول ان الرجلين قد صبا في قالب واحد مهما يكن بعد ما بينهما من الزمن، وإن فلسفتهما من نوع الفلسفة التي تظهر وتختفي ثم تعود إلى الظهور في فترات دورية، ذلك بأن الناس في كل جيل يملون ما في حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسابق، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الرتيبة كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الامور. وما من شك

في أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن إذا شاء أن يكتب شعرا عن الريف «والطبيعة» لفظ طيع سهل على لسان كل باحث في الأخلاق أو الدين، وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية نيتشة أكثر مما يوائم فلسفة «لو- دزه» والمسيح المتعقلة الحلوة.

ذلك أن الإنسان إذا ما سار على سنن الطبيعة أدى به هذا إلى قتل أعدائه وأكل لحومهم لا إلى ممارسة الفلسفة، وقلّ أن يكون وضيعا ذليلا، وأقل من هذا أن يكون هادئا ساكنا. بل إن فلح الأرض- وهو العمل الشاق المؤلم- لا يوائم قط ذلك الجنس من الناس الذي اعتاد الصيد والقتل، ولهذا كانت الزراعة من الاعمال «غير الطبيعية» مثلها في هذا كمثل الصناعة سواء بسواء.

على أن في هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئا من السلوى وراحة البال. وأكبر ظننا أننا نحن أيضا حين تبدأ نيران عواطفنا في الخمود سنرى فيها غير قليل من الحكمة، وسنرى فيها السلم المريح الذي ينبعث من الجبال غير المزدحمة ومن الحقول الرحبة. إن الحياة تتأرجح بين فولتير وروسو، وبين كنفوشيوس ولو- دزه.

واذا ما استقرت كل فكرة زمنا ما في عقولنا، ودافعنا عنها دفاعا ليس فيه شئ من البسالة أو من الحكمة، مللنا نحن أيضا تلك المعركة وتركنا إلى الشباب ما كان قد تجمع لدينا من مثل عليا تناقص عديدها. فإذا ما حدث هذا لجأنا إلى الغابات مع جان جاك ومع لو- دزه وأمثالهما، وصادقنا الحيوان، وتحدثنا ونحن أكبر رضا وأطمئنانا من مكيفلي إلى عقول الزراع السذج، وتركنا العالم ينضح بالشرور، ولم نفكر قط في إصلاحه. ولعلنا وقتئذ نحرق وراءنا كل كتاب فيه إلا كتابا واحدا، ولعلنا نجد خلاصة الحكمة كلها في الدو- دي- جنج.

وفي وسعنا أن نتصور ما كان لهذه الفلسفة في نفس كنفوشيوس من أثر مؤلم محنق. فقد جاء هذا الفيلسوف في سن الرابعة والثلاثين، وهي السن التي لا يكتمل فيها نضوج الذهن، إلى لويانج حاضرة جو ليستشير المعلم الكبير في

بعض أمور دقيقة ذات صلة بالتاريخ ويقال أن لو- دزه أجابه إجابة فظة غامضة قصيرة:

«إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم ترابا، ولم يبق إلا ألفاظهم، وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة، أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام في سبيل كل ما يحاوله. ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على اخفاء ثروته، ويعمل عمل من لا يملك شيئا من حطام الدنيا- وأن الرجل العظيم بسيط في أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال، فتخلص من كبريائك ومطامعك الكثيرة، وتصنعك وآمالك المفرطة البعيدة. إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك. وهذا ما أشير به عليك».

ترى هل هذه الفلسفة باعثة على بناء حضارة؟

وهل هي تكسب الإنسان سوى الكسل والبلادة؟

يقول المؤرخ الصيني الذي يروي هذه القصة ان كونفوشيوس أحسّ من فوره بسداد هذه النصيحة، ولم ير في هذه الألفاظ ما يسيء إليه، بل أنه رأى فيها عكس هذا، وقال لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المحتضر:

«إني أعرف كيف يطير الطير، ويسبح السمك، ويجري الحيوان، ولكن الذي يجري على الارض يمكن اقتناصه، والذي يسبح في الماء يمكن صيده، والذي يطير في الجو يمكن إصابته بالسهام. غير أن هناك تنينا مهولا- ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق به السحاب ويعلو في أجواء الفضاء. لقد قابلت اليوم لو- دزه، ولست أستطيع أن أجد له مثيلا غير التنين». ثم خرج المعلم الجديد ليؤدي رسالته، وليكون أعظم فلاسفة التاريخ أثراً.

كنفوشيوس

ولد كونج- فو- دزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج- تشيو يسمونه في عام ٥٥١ ق.م في مدينة تشو- فو إحدى البلاد التي كانت تُكوّن وقتئذ مملكة لو، والتي تُكوّن الآن ولاية شان تونج.

وتصف الأقاصيص الصينية، وهي التي لا تضارعها أقاصيص أخرى في خصب خيالها، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعي، وكيف كانت الهولات تحرسها والأرواح الإناث تعطي لها الهواء وهي تلده في أحد الكهوف. وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنين، وشفتا ثور، وفم في سعة البحر، وإنه ولد من أسرة هي أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم هوانج- دي، وإن له أحفاداً كثيرين، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا. ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور، ولا تزال البلدة التي ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلا نسله- أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد.

وكان والد كونج في السبعين من عمره حين ولد له ولده، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة. وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته، ولعله قد تعود في طفولته تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن، والتي لازمته في كل خطوة خطاها طوال حياته. لكنه مع هذا وجد متسعاً من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى، وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً. ولم يكن يتفق إتفاقاً تاماً مع نيتشه في أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج، ذلك أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره، ولكنه طلق زوجته وهو في الثالثة والعشرين، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً.

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم، واتخذ داره مدرسة له، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة. وكانت الموارد التي يشملها برنامجه ثلاثاً: التاريخ والشعر وآداب اللياقة. ومن أقواله: «إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم» (أي آداب الحفلات والمجاملات) «وتعطرها الموسيقي».

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه، وذلك مصدر لا يوثق به. وقد ترك إلى الفلاسفة مثلاً قل أن يعبئوا به- وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين، وألا يضيعوا وقتهم في دحض حججهم. ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية. ومن أقواله في هذا المعنى: «إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول: ماذا أرى في هذا؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً». وإني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه في صدره. وإذا ما عرضت ركناً من موضوع ما على إنسان، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإني لا أعيد عليه درسي»، ولم يكن يشك في أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان لا يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن تصلح دراستها من خلقه وعقله. «وليس من السهل أن نجد إنسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً».

ولم يكن له في بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ، ولكن سرعان ما تواترت الإشاعات بأن وراء شفتي الثور والفم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلاً يفيض بالعلم والحكمة، فالتف الناس حوله حتى استطاع في آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة في العالم.

وكان بعض الطلبة- وقد بلغ عددهم في وقت من الأوقات سبعين طالباً- يعيشون معه كما يعيش الطلبة الهنود المبتدئون مع مدرسيهم (الجورو)، ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ في بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرّض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة.

وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه، ولما مات هُوِي بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه. وسأله دوق جاي يوماً من الأيام أي تلاميذه أحبهم إلى المعلم فأجابه: «لقد كان أحبهم إلى العلم ين هُوِي، لقد كان يحب أن يتعلم، ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هُوِي). لم يقدم لي هُوِي معونة، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له.وكان إذا غضب كظم غيظه، وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه. ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له في هذا الوقت نظير. وكان الطلبة الكسالى يتحاشون لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة. ومن أقواله: «ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم، دون أن يجهد عقله في شيء. لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر- إن هذا الإنسان وباء».

وما من شك في أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف في حجرته أو في الطريق العام، يعلم مريديه التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة، ولا يقل استعداده وهو في الطريق عن استعداده وهو في حجرته. وتمثله الصور التي رسمها له المصورون الصينيون في آخر سنين حياته رجلاً ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة، قد تجعد وتعقد لكثرة ما مر به من التجارب، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يشعر قط بما يصدر عن الرجل في بعض الأحيان من فكاهة، وما ينطوي عليه قلبه من رقة، وإحساس بالجمال مرهف يُذكّر المرء بأنه أمام إنسان من الآدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق، وقد وصفه في أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال:

«لقد تبينت في جونج- تي كثيراً من دلائل الحكمة، فهو أجبه واسع العين، لا يكاد يفترق في هذين الوصفين عن هوانج- دي. وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة، ويبلغ طول قامته تسع أقدام (صينية) وست بوصات.

وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة، وما من موضوع إلا سمع به، قوي الذاكرة لا ينسى ما يسمع، ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد. ألسنا نجد فيه حكيماً ناشئاً؟».

وتعزو إليه الأقاصيص «تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس». ولما فرّقت بعض الحوادث بينه وبين مريديه في أثناء تجواله، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين، قال إنه التقى برجل بشع الخلقة «ذي منظر كئيب شبيه بمنظر الكلب الضال». ولما أعاد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال: «عظيم!عظيم!».

وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنائي عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم. وكان شديد المراعاة للمراسم، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه، وكان يبذل ما في وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة. ويلوح أنه كان يزكي نفسه في بعض الأحيان. ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام مقالة فيها بعض التواضع– «قد يوجد في كفر من عاشر أسرة رجل في مثل نبلي وإخلاصي، ولكنه لن يكون مولعاً بالعلم مثلي». وقال مرة أخرى «قد أكون في الأدب مساوياً لغيري من الناس، ولكن (خلق) الرجل الأعلى الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد «لو وجد من الأمراء من يوليني عملاً لقمت في اثني عشر شهراً بأعمال جليلة، ولبلغت (الحكومة) درجة الكمال في ثلاث سنين». على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعا في عظمته. ويؤكد لنا تلاميذه أن «المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب، كان لا يجادل وفي عقله حكم سابق مقرر، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده، ولم يكن عنيداً ولا أنانياً». وكان يصف نفسه بأنه «ناقل غير منشىء». وكان يدعي أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الإمبراطورين العظيمين يو وشون. وكان شديد

الرغبة في حسن السمعة والمناصب الرفيعة، ولكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شيء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما. وكم من مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة. وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول:

«لست أبالي مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً، وإنما الذي أعنى به أن أجعل نفسي خليقاً بذلك المنصب الكبير. وليس يهمني قط أن الناس لا يعرفونني، ولكنني أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفني الناس».

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هِي، أحد وزراء دوق لو، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك جو في لو- يانج، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفي البلاط- راجع ديورانت قصة الحضارة - ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو- دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول. فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممزقة الأوصال بما قام فيها من نزا ع وشقاق، فانتقل منها إلى ولاية تشي المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين في طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة. ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا في هذه القفار عجوزا تبكي بجوار أحد القبور. فأرسل إليها كنفوشيوس تسه- لو يسألها عن سبب بكائها وحزنها، فأجابته قائلة: «إن والد زوجي قد فتك به نمر في هذا المكان، ثم ثنى النمر بزوجي، وهاهو ذا ولدي قد لاقى هذا المصير نفسه». ولما سألها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة في هذا المكان الخطر، أجابته قائلة: «ليس في هذا المكان حكومة ظالمة». فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم: «أي أبنائي اذكروا قولها هذا، إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر».

ومثل كنفوشيوس بين يدي دوق تشي وسرّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة: «توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً، والوزير وزيراً، والأب أباً والابن ابناً»، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج

مدينة لن -شيو، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجابه بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء. وأراد الدوق أن يحتفظ به في بلاطه وأن يجعله مستشاراً له، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له: «إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطاع تقليدهم، وهم متغطرسون مغرورون بآرائهم، لا يقنعون بما يعطى لهم من مراكز متواضعة. وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عداً. ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالاً طوالاً». ولم يثمر هذا اللقاء ثمرة ما، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاماً أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً في الدولة.

وواتته الفرصة حين عُيّن في أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة في مدينة جونج- دو. وتقول الرواية الصينية - ديورانت- إن المدينة في أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة، فكان إذا سقط شيء في الطريق بقي حيث هو أو أعيد إلى صاحبه. ولما رقاه الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع في مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمة في الشئون الزراعية، ويقال أنه لما رقي بعدئذ وزير للجرائم كان مجرد وجوده في هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة. وفي ذلك تقول السجلات الصينية: «لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاّ برأسيهما واختفيا، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء. وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب».

إن في هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك، وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلاً. وما من شك في أن المجرمين قد أخذوا يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به. ويقول المؤرخ الصيني: إن الولايات القريبة من «لو» دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة «لو» الناهضة. ودبّر وزير ماكر من وزراء تشي مكيدة ليفرق بها بين دوق

«لو» وكنفوشيوس، فأشار على دوق تشي بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان «الفتيات المغنيات» وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالاً.

وأسرت البنات والخيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس (وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة)، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالاً معيباً. وقال دزه- لو لكنفوشيوس: «أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل». واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره، وغادر لو، وبدأ عهد تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاماً. وقال فيما بعد «إنه لم ير قط إنساناً يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال». والحق أن من أغلاط الطبيعة التي لا تغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتيان منفصلين لا مجتمعين.

وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوباً عليهم في وطنهم، فأخذوا يتنقلون من إقليم إلى إقليم، يلقون في بعضها مجاملة وترحاباً، ويتعرضون في بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى. وهاجمهم الرعاع مرتين، وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعاً، وبرّح بهم ألم الجوع حتى شرع تْزَه- لو نفسه يتذمر ويقول إن حالهم لا تليق «بالإنسان الراقي». وعرض دوق وى على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق.

وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال تشي إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو -دزه، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة. وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس، ولام تْزَه- لو، على سيره في ركابه، وقال له: «إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف، ومن ذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية؟». وفكر كنفوشيوس في هذا اللوم طويلاً ولكنه لم يفقد رجاءه في أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم.

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم، ويدعونه أن يعود إلى موطنه. وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززاً مكرماً، وكثيرا ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحونه، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفاً إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين. ولما سأل دوق شي تْزَه- لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس، قال له: « لِمَ لم تجبه بأنه ليس إلا رجلاً ينسيه حرصه على طلب العلم الطعام والشراب، وتنسيه لذة (طلبه) أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه» وكان يسلي نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، ومن أقواله في ذلك الوقت: «لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكباً على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل.

ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره، وسمعه بعضهم يوماً من الأيام يغني في الصباح الباكر تلك الأغنية الحزينة:

سيدك الجبل الشاهق دكا،

وتتحطم الكتلة القوية،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات.

ولما أقبل عليه تلميذه تْزَه- كونج قال له: «لن يقوم في البلاد ملك ذكي أريب، وليس في الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذني معلماً له. لقد تصرم أجلي وحان يومي».

ثم آوى إلى فراشه ومات بعد سبعة أيام من ذلك اليوم. وواراه تلاميذه التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوي عليه قلوبهم من حب له وجلال، وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكونه كما يبكي الأبناء آباءهم. وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعا أكواخهم إلاّ تْزَه- كونج، وكان حبه إياه يفوق حبهم جميعاً، فبقي بجوار قبر أستاذه ثلاث سنين أخرى واجماً حزيناً تتشعبه الهموم.

الكتب التسعة

وترك كنفوشيوس وراءه خمسة مجلدات يلوح أنه كتبها أو أعدها للنشر بيده هو نفسه، ولذلك أصبحت تعرف في الصين باسم «الجنحات الخمسة» أو «كتب القانون الخمسة». وكان أول ما كتبه منها هو اللي- جي أو سجل المراسم، لإعتقاده أن هذه القواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس الدقيقة التي لا بد منها لتكوين الأخلاق ونضجها، واستقرار النظام الاجتماعي والسلام.

ثم كتب بعدئذ ذيولاً وتعليقات على كتاب إلاي- جنج أو كتاب التغيرات، وكان يرى أن هذا الكتاب خير ما أهدته الصين إلى ذلك الميدان الغامض ميدان علم ما وراء الطبيعة الذي كان جد حريص على ألا يلج بابه في فلسفته. ثم اختار ورتب الشي- جنج أو كتاب الأناشيد ليشرح فيه كنه الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة. وكتب بعد ذلك التشو- شيو أو حوليات الربيع والخريف، وقد سجل فيه تسجيلاً موجزاً خالياً من التنميق أهم ما وقع من الأحداث في «لو» موطنه الأصلي. وكان خامس أعماله الأدبية وأعظمها نفعا أنه أراد أن يوحي إلى تلاميذه أشرف العواطف وأنبل الصفات فجمع في الشو- جنج أي كتاب التاريخ أهم وأرقى ما وجده في حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقاصيص التي تسمو بها الأخلاق وتشرف الطباع، وذلك حين كانت الصين إمبراطورية موحدة إلى حد ما وحين كان زعماؤها، كما يظن كنفوشيوس، أبطالاً يعملون في غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه.

ولم يكن وهو يعمل في هذه الكتب يرى أن وظيفته هي وظيفة المؤرخ بل كان فيها كلها معلماً ومهذباً للشباب، ومن أجل هذا اختار عن قصد من أحداث الماضي ما رآه ملهماً لتلاميذه لا موئساً لهم.

فإذا ما عمدنا إلى هذه المجلدات لنستقي منها تاريخاً علمياً نزيها لبلاد الصين فإنا بهذا العمل نظلم كنفوشيوس أشد الظلم. فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطباً وقصصاً من عنده، صب فيها أكثر ما يستطيع من الحض على الأخلاق الكريمة والإعجاب بالحكمة. وإذا كان قد جعل ماضي بلاده مثلاً أعلى بين ماضي الشعوب، فإنه لم يفعل أكثر مما نفعله نحن .

ويضيف الصينيون إلى هذه الجنحات الخمسة أربع شوءات أو «كتب» (كتب الفلاسفة) يتكون منها كلها «الكتب التسعة القديمة». وأول هذه الكتب وأهمها جميعاً كتاب لوق بو أو الأحاديث والمحاورات المعروف عند قُرَّاء اللغة الإنجليزية باسم «مجموعة الشذرات» أي شذرات كنفوشيوس، كما سماه «لج» في إحدى نزواته، وليست تلك الكتب مما خطه قلم المعلم الكبير، ولكنها تسجل في إيجاز ووضوح منقطعي النظير آراءه وأقواله كما يذكرها أتباعه. وقد جمعت كلها بعد بضع عشرات السنين من وفاته، ولعل الذين جمعوها هم مريدو مريديه، وهي أقل ما يرتاب فيه من آرائه الفلسفية. وأكثر ما في الكتب الصينية القديمة طرافة وأعظمها تهذيباً ما جاء في الفقرتين الرابعة والخامسة من الشو الثاني، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم الداشوه أو التعليم الأكبر. ويعزو الفيلسوف والناشر الكنفوشي جوشي هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه كما يعزو باقي الرسالة إلى درنج- تسان أحد أتباعه الصغار السن. أما كايا- كويه العالم الصيني الذي عاش في القرن الأول بعد الميلاد فيعزوهما إلى كونج جي حفيد كنفوشيوس، على حين أن علماء اليوم المتشككين يجمعون على أن مؤلفهما غير معروف. والعلماء كلهم متفقون على أن حفيده هذا هو مؤلف كتاب جونج يونج أو عقيدة الوسط وهو الكتاب الفلسفي الثالث من كتب الصين. وآخر هذه

الشوءات هو كتاب منشيس الذي سنتحدث عنه توّاً. وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة وإن لم يكن خاتمة العهد القديم للفكر الصيني. وسنرى فيما بعد أنه خرج على فلسفة كنفوشيوس التي تعد آية في الجمود والمحافظة على القديم متمردون عليها وكفرة بها ذوو مشارب وآراء متعددة متباينة.

لا أدرية كنفوشيوس

فلنحاول أن نكون منصفين في حكمنا على هذه العقيدة. ولنقرّ بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يجاوز الواحد منا الخمسين من عمره، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبابنا. وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هي الفلسفة التي يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن، لكي ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شئ يمكن فهمه وإدراكه.

ولا يظن القارئ أنه سيجد في لا أدرية كنفوشيوس نظاماً فلسفياً- أي بناء منسقاً من علوم المنطق وما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة تسري فيه كله فكرة واحدة شاملة .

لقد كان كنفوشيوس يعلّم أتباعه فن الإستدلال، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقي، بل بتسليط عقله القوي تسليطاً دائماً على آراء تلاميذه، ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئاً عن المنطق ولكن كان في وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً.

وكان أول الدروس، التي يلقيها عليهم المعلم، الوضوح والأمانة في التفكير والتعبير، وفي ذلك يقول: «كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوما»- وهو درس لا تذكره الفلسفة في جميع الأحوال. «فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه، وإذا لم تعرفه، فأقرّ بأنك لا تعرفه- وذلك في حد ذاته معرفة». وكان يرى أن غموض الأفكار، وعدم الدقة في التعبير، وعدم الإخلاص فيه، من الكوارث الوطنية القومية. فإذا كان الأمير الذي ليس أميراً بحق والذي لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً، وإذا كان الأب الذي لا يتصف بصفات الأبوة لا

يسميه الناس أباً، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً، إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون في «تزه- لو» ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التي طالما غطتها الألفاظ. ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس: «إن أمير ويه في انتظارك لكي تشترك معه في حكم البلاد فما هو رأيك في أول شيء ينبغي عمله؟ فأجابه كنفوشيوس جوابا دهش له الأمير والتلميذ: «إن الذي لا بد منه أن تصحح الأسماء».

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هي تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية. صحيح أن ذكر «السماء» والصلاة كان َيرِدْ على لسانه أحياناً، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية في عبادة الأسلاف والقرابين القومية، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال في أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللا أدريين. فلما أن سأله تزه- كونج، مثلا: «هل لدى الأموات علم بشيء أو هل هم بغير علم؟» أبى أن يجيب جواباً صريحاً. ولما سأله كي -لو، عن «خدمة الأرواح» (أرواح الموتى) أجابه «إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم؟». وسأله كي- لو: «هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت؟» فأجابه: «إذا كنت لا تعرف الحياة، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئاً عن الموت». ولما سأله فارشي عن «ماهية الحكمة» قال له: «إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمي هذه حكمة».

ويقول لنا تلاميذه إن «الموضوعات التي لم يكن المعلم يخوض فيها هي الأشياء الغريبة غير المألوفة، وأعمال القوة، والاضطراب، والكائنات الروحية». وكان هذا التواضع الفلسفي يقلق بالهم، وما من شك في أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها. ويقص علينا كتاب-

لياتزه وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو: «هل الشمس أقرب إلى الأرض في الصباح حين تبدو أكبر ما تكون، أو في منتصف النهار حين تشتد حرارتها». وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وإنسجام بين قواعد السلوك الحسن وإطراد النظم الطبيعية.

وقال مرة لأحد المقربين إليه«نقلا عن قصة الحضارة»: «أظنك يا تزه تعتقد أني من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها في ذاكرتهم؟» فأجابه تزه- كونج بقوله: «نعم أظن ذلك ولكني قد أكون مخطئاً في ظني؟» فرد عليه الفيلسوف قائلا «لا، إني أبحث عن الوحدة، الوحدة الشاملة» وذلك بلا ريب هو جوهر الفلسفة.

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول، وكان يرى أن الفوضى التي تسود عصره، فوضى خلقية، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وإنتشار الشك السفسطائي في ماهية الصواب والخطأ. ولم يكن علاجها في رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة، وإنما علاجها هو البحث الجدي عن معرفة أتم من المعرفة السابقة وتجديد أخلاقي قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم. والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم الأكبر تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفي الكنفوشي.

«إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهذيب نفوسهم، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع، وهذا التوسع

في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء.

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم، ولما تطهرت قلوبهم، تهذبت نفوسهم، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم، ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة.

تلك هي مادة الفلسفة الكنفوشية، وهذا هو طابعها، وفي وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه، وأن يحتفظ بهذه المعاني التي هي «جوهر الفلسفة وقوامها» وأكمل مرشد للحياة الإنسانية. ويقول كنفوشيوس «إن العالم في حرب لأن الدول التي يتألف منها فاسدة الحكم، والسبب في فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الإجتماعي الطبيعي الذي تهيئه الأسرة. والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الإجتماعي الطبيعي، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يُقوّموا نفوسهم وهم يعجزون عن أن يقوموا أنفسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أي أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة، وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم، لا يقدرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها، وهم لا يخلصون في تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع معارفهم إلى أقصى حد مستطاع. ببحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء. فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا في تفكيرهم، وليخلصوا في تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ، ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم، ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم؛ وليس الذي تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التي تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع، بل الذي يصلحها هو، ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة؛ ولتنتظم شئون

الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعي يتيسر معه قيام حكم صالح.

ولتحافظ الدولة على الهدوء في أرضها والعدالة في جميع أرجائها يسد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه- تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس.

أثر كنفوشيوس في الأمة الصينية

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحاً كاملاً. لقد كان يضرب في فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل إحتمال لإصراره على تحقيقها.

وإذ كان رجال الأدب في كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب، فإن أدباء القرون التي أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد إستمساك بمبادئه، واتخذوها سبيلاً إلى السلطان وتسلم المناصب العامة، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة في الإمبراطورية بأجمعها. وانتشرت المدارس في أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التي تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر، ونماها مِنْشِيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام. وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية في الصين فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التي تدهورت فيها البلاد من الوجهة السياسية، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعي في العصور المظلمة التي تلت سقوط رومة.

وكانت في البلاد طائفة أخرى هي طائفة «القانونيين» استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كنفوشيوس في عالم السياسة، وأن تسير الدولة حسب مبادئها هي في بعض الأحيان.

ومن أقوالهم في الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذي يضربه الحاكمون، وعلى الصلاح الذي تنطوي عليه قلوب المحكومين، يعرّض

الدولة لأشد الأخطار، إذ ليس في التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التي تسترشد في أعمالها بهذه المبادئ المثالية. وهم يقولون أن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام، وإن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين. ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف، وحتى التجار أنفسهم، وإن أثروا، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوقون في ذكائهم، فهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة، وكثيرا ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة.

ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رؤوس الأموال ملكاً عاماً للمجتمع، وأن تحتكر هي التجارة، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة في أيدي عدد قليل من الأفراد. هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة في تاريخ الحكومة الصينية.

ولكن فلسفة كنفوشيوس كتب لها النصر آخر الأمر. وسنرى فيما بعد كيف سعى شي هوانج- دي، صاحب الحول والطول، يعاونه رئيس وزراء من طائفة القانونيين، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية. ولكن تبين مرة أخرى أن قوة اللسان أعظم من قوة السنان. ولم يكن لعداء «الإمبراطور الأول» من نتيجة إلاّ أن يجعل الكتب التي أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة، وأن يستشهد الناس في سبيل المحافظة عليها.حتى إذا انقضى عهد شي هوانج- دي، وعهد أسرته القصير الأجل، وجلس على العرش إمبراطور أحكم منه، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعيّن العلماء الكنفوشيين في مناصب الدولة، وثبّت حكم أسرة هان، وقوى دعائمه، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمة في برامج تعليم الشبان الصينيين وفي الحكومة. وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس، وأمر الإمبراطور بأن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة، وأصبحت الكنفوشية دين

الدولة الرسمي. وناهض الكنفوشية في بعض الأحيان نفوذ الدَّوية، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية، حتى إذا كان عهد أسرة تانج أعادتها إلى مكانتها السابقة، وأعلت من شأنها.

ولما جلس على العرش تاي دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس في كل مدينة وقرية في جميع أنحاء الإمبراطورية، وأن يقرب له فيها القرابين العلماء والموظفون. وفي عهد أسرة زونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحاً وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة في بلاد الشرق الأقصى، وبعثت في اليابان نهضة فلسفية قوية. وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدأ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو- أي ما يقرب من ألفي عام- تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها في قالبها.

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين، ذلك أن كفايات معلمها الأكبر ظلت جيلاً بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية، يكاد كل صبي يتخرج في تلك المدارس أن يحفظها عن ظهر قلب، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها الحكيم القديم في قلوب الصينيين، وسرت في دمائهم، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً في التفكير لا نظير لهما في غير تاريخهم أو في غير بلادهم، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التي اجتاحت بلادها، وأن تشكل هي الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها. ولسنا نجد في غير المسيحية والبوذية ما نجده في الكنفوشية من جهود جبارة لتحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقّة.

ولسنا نجد في هذه الأيام- كما لم يجد الأقدمون في الأيام الخالية-

دواء يوصف للذين يقاسون الأمرّين من جراء الإضطراب الناشئ من التربية التي تُعنى بالعقل وتهمل كل ما عداه، ومن إنحطاط مستوى القانون الأخلاقي وتدهوره، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية، لسنا نجد دواء لهذا كله خيراً من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية . لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملاً للروح. لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات الفوضى والضعف إلى النظام والقوة، ولكنها غل ثقيل يقيد البلد الذي ترغمه المنافسات الدولية على أن ينمو ويتطور.

ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التي شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعي أضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية في طريق مرسوم لا تتحول عنه، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمتة، وتقف في سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشري، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم، ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداءها للرقي إلا حبها للسلام.

وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشيوس، وأن نوجه إليه اللوم من أجله، إذ ليس في مقدور إنسان أياً كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان. بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضيء لنا بطريقة ما، وبفضل تفكيره طوال حياته، سبيل الفهم الصحيح. وقَلَّ أن تجد في العالم - فيمن ليسوا رسلاً - من اضطلع بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشيوس. وإذا ما قرأنا تعاليمه، وتبينا ما يجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف في العالم وتبدل أحواله، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية في عالمنا الحاضر نفسه، إذا فعلنا هذا نسينا من فورنا ما يشوب فلسفته من تفاهة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى، واشتركنا مع كونج جي حفيده الصالح

التقي في هذا التسبيح الأعلى الذي كان بداية تأليه كنفوشيوس.

إحياء العلوم.

لقد كانت حياة الشعب الصيني في هذه الأثناء تجري في مجراها العادي خلال جميع ضروب التجارب والنظم التجارية والنظم الإدارية، لا تضطرب ولا تؤثر فيها الحادثات التي كانت لبعدها لا تصل إلى مسامعه، إلا بعد أن تمر وتنقضي بزمن طويل لقد زال حكم آل سونج في شمالي البلاد ولكنه عاد من جديد في جنوبيها وانتقلت العاصمة من بيان لينج (وهي الآن كايفنج) إلى لين - آن (هانج تشاو الآن). وبدت مظاهر العز والنعمة في العاصمة الجديدة كما كانت في العاصمة القديمة، وأقبل التجار من كل فج ليبتاعوا منتجات الصناعة الصينية والفن الصيني.وضرب الإمبراطور هوى دوزنج نفسه لشعبه أروع الأمثال في بيان - ليانج بأن كان فناناً قبل أن يكون حاكما، فكان في الوقت الذي يهاجم فيه البرابرة عاصمة ملكه يشتغل برسم الصور الفنية. وقد أنشأ مجمعاً للفن بعث النشاط في الفنون بما كان يعرض فيه من روائعها وما يغدقه على الفنانين من جوائز جعلت الفنون أكبر مفاخر أسرة سونج وأجدرها بتخليد ذكراها في سجلات الحضارة الإنسانية.

وقد حوت المتاحف وقتئذ مجموعات موحية من النقوش الفنية على البرنز وأحجار اليشب ومن الصور الزيتية والمخطوطات، وأنشئت في البلاد دور الكتب التي بقى بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية كعبة يحج إليها العلماء والفنانون.

وفي أيام هذه الأسرة دخلت الطباعة البلاد فأحدثت في حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس مداها وقتئذ، وكان هذا الفن قد نما شيئاً فشيئاً في خلال القرون الطوال حتى بلغ أوجه في أيام تلك الأسرة، فأتم مرحلتيه الكبيرتين إذ صنعت الألواح المحفورة لتطبع عليها صفحات كاملة،وصُفت الحروف المفككة المفردة، من المعادن المجموعة في القوالب .وكان هذا الاختراع الصيني الخالص. أعظم اختراع في تاريخ الجنس البشري بعد الكتابة.

وكانت الخطوة الأولى في هذا الاختراع العظيم هي كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب الذين قنع بهما الصينيون. ذلك أن الحرير غالي الثمن والغاب ثقيل، وقد احتاج مودى في تجواله إلى ثلاث عربات نقل يحمل عليها معه الكتب المدونة على شرائح الغاب التي كانت أثمن ما يملك من متاع الدنيا.

وكان شي هوانج - دي يضطر إلى مراجعة مائة وعشرون رطلا من الوثائق الحكومية في كل عام. فلما كان عام ١٠٥ ب.م أبلغ رجل يدعى تساي لون الإمبراطور أنه اخترع مادة للكتابة أقل من الغاب ثمناً وأخف منه وزناً مصنوعة من لحاء الشجر والقنب الهندي والخرق وشباك السمك. وعين الإمبراطور تساي لون هذا في منصب كبير، ومنحه لقباً رفيعاً، ولكنه تورط مع الإمبراطورة في بعض الدسائس، وافتضح أمره «فذهب إلى منزله، واغتسل ومشط شعره، ولبس أحسن ثيابه، وتجرع السم». وسرعان ما انتشرت الصناعة الجديدة انتشاراً واسع النطاق، وشاهد ذلك أن أقدم ما لدينا من الورق هو ما وجده سير أرول اشتين في طنف من السور الكبير، وهو مجموعة من الوثائق الرسمية دونت فيها حوادث وقعت فيما بين عامي ٢١-١٣٧ بعد الميلاد، وأكبر الظن أنها كانت معاصرة لآخر الحوادث التي دونت عليها. ولهذا فإن عهدها يرجع إلى حوالي عام ١٥٠ م.ب أي بعد خمسين عاماً لا أكثر من الوقت الذي أبلغ فيه تساي لون الإمبراطور نبأ اختراعه. وكان هذا الورق القديم يصنع من الخرق البالية دون غيرها من المواد، فهو من هذه الناحية شبيه بما يصنع في هذه الأيام من ورق يحتاج فيه إلى طول البقاء. واستطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعه الورق إلى أعلى درجة وذلك باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجلاتين مخلوطة بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف، وليجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر. ولما أن أخذ العرب عن الصينيين هذه الصناعة في القرن الثامن الميلادي، ثم أخذتها أوروبا عن العرب في القرن الثالث عشر، كانت قد بلغت غاية الكمال.

وكان اختراع الحبر أيضاً في بلاد الشرق. نعم إن المصريين قد صنعوا

الورق والحبر في العهد الذي نستطيع أن نسميه أقدم العهود، ولكن الصين هي التي أخذت عنها أوروبا طريقة خلط الحبر بسناج المصابيح. ولقد كانت «الحبر الهندي» صيني الأصل. وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق شائع الإستعمال في الصين من أيام أسرة هان. فلما ظهر الحبر الأسود في القرن الرابع الميلادي أصبح استعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة. وكان إختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة، لأنه كان أصلح المواد للاستعمال في القوالب الخشبية، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تمحى مطلقاً. فلقد وجدت أكداس من الورق في آسية الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطنت ولكن ما عليها من الكتابة ظل واضحاً تستطيع قراءته.

وكان استخدام الأختام في مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التي نشأت عنها الطباعة. ولا يزال اللفظ الصيني الذي يطلق على الطباعة هو نفسه الذي يطلق على الخاتم. وكانت الأختام الصينية تطبع في بادئ الأمر على الطين كما كانت تطبع عليه في بلاد الشرق الأدنى. ثم أخذوا في القرن الخامس الميلادي يُنَدُّونها بالحبر. وفي هذه الأثناء كانت أمهات الكتب الصينية القديمة تحفر على الحجر في القرن الثامن بعد الميلاد، وسرعان ما نشأت بعدئذ عادة استخراج صور من هذه النقوش المحفورة بعد طلاءها بالحبر. وفي القرن السادس نجد الدَّوِّيين يستعملون أختاما من الخشب لطبع الرقى السحرية، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يجرون التجارب بقصد استخراج عدة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضاح وطباعة على المنسوجات، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود.

وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رقية سحرية طبعت في اليابان حوالي عام ٧٧٠م مكتوبة باللغة السنسكريتية وبحروف صينية- يقول ديورانت- فهي بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات في بلاد آسية. وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الكليشهات) في هذه أيام أسرة تانج، ولكن يلوح أنها قد تلفت أو فقدت في أثناء الفوضى والقلاقل التي أعقبت عهد

منج هوانج.

وقد طبعت الكتب الأولى على قوالب خشبية، وأول ما وصل إلينا بطريق ديورانت من نبأ عن هذا العمل ما ورد في رسالة صينية كتبت حوالي ٨٧٠م. فقد جاء فيها: «حدث وأنا في سشوان أن فحصت في حانوت وراق كتاباً مدرسياً مطبوعاً عن أصل خشبي» . ويلوح أن فن الطباعة كان قد تقدم تقدما كبيراً في الوقت الذي عثر فيه على هذا الخطاب. ومن الظريف أن نلاحظ أن هذا التقدم حدث أولا في الولايات الغربية مثل سشوان والتركستان- وهي الولايات التي دفعها في تيار المدينة البوذيون الذين جاءوا من الهند والذين كانت لهم من عهد بعيد ثقافة خاصة مستقلة عن ثقافة العواصم الشرقية. ثم دخلت طريقة الطبع بالقوالب إلى الولايات الشرقية في أوائل القرن العاشر حين أقنع فنج - دو أحد رؤساء الوزارات الإمبراطور أن يخصص بعض المال لطبع أمهات الكتب الصينية القديمة. وتطلب القيام بهذا العمل عشرين عاما، وكان مقدار ما طبع منها مائة وثلاثين مجلداً، وذلك لأن المطبوع لم يكن مقصورا على نصوص هذه الكتب بل شمل أيضاً أشهر شروحها. ولما أن تم طبع هذه الكتب انتشرت في البلاد انتشاراً واسعاً كان سبباً في إحياء المعارف القديمة وتقوية دعائم العقائد الكنفوشية في عهد الملوك من أسرة سونج.

وكان صنع الأوراق النقدية من أقدم ما أخرجته الطباعة بالقوالب. وقد ظهرت هذه الأوراق أولا في سشوان في القرن العاشر الميلادي ثم أصبحت عملا هاما من أعمال الحكومة الصينية، ولم يكد يمضى على إختراعها قرن من الزمان حتى أدت إلى تجارب في التضخم المالي، واتبعت بلاد في عام ١٢٩٤ م هذه الطريقة الجديدة من طرق خلق الثروة.

وقد وصف ماركو بولو في عام ١٢٩٧ في دهشة بالغة ما يظهره الصينيون من تقدير لهذه القصاصات من الورق. أما أوروبا فلم تعرف النقود الورقية إلا في عام ١٦٥٦ حين أصدرت أولى عملتها منها.

وكان من نتائج هذا الاختراع المجيد- الطباعة- أن غمر البلاد فيض من الأدب لم يكن له مثيل من قبل، وأن عمت البلاد نهضة في الآداب الإنسانية شملت كل ما شملته النهضة في إيطاليا وسبقتها بمائتي عام كاملة. وطبعت من الآثار الأدبية القديمة نحو مائة طبعة، كما طبعت لها شروح وتعليقات تبلغ الألف عدّا. وأجاد المؤرخون العلماء دراسة الحياة الصينية في الأيام الخالية، ووضعوها بين أيدي ملايين القراء مطبوعة بحروف الطباعة الجديدة العجيبة. ونشرت مجموعات كبيرة من الأعمال الأدبية، ووضعت معاجم لغوية واسعة وألفت موسوعات ضخمة جبارة انتشرت في طول البلاد وعرضها. وكانت أولى ما صدر من الموسوعات ذات الشأن هي الموسوعة التي أصدرها ووشو (٩٤٧-١٠٠٢)، وقد حالت الصعاب الناشئة من عدم وجود حروف هجائية سهلة دون إصدارها مرتبة ترتيباً هجائيا، فاضطر إلى تقسيمها حسب الموضوعات. وكان أهم ما احتوته من المعلومات ما يتصل منها بالعالم المادي.

وفي عام ٩٧٧ أمر الإمبراطور تاي دزونج أحد أباطرة أسرة سونج أن تجمع موسوعة أخرى أوسع من الأولى، بلغت مجلداتها اثنين وثمانين مجلداً، معظمها مختارات من ١٦٩٠ كتاباً كانت موجودة قبل ذلك الوقت. ثم وضعت موسوعة أخرى فيما بعد في عهد الإمبراطور يونج لو من أباطرة أسرة منج (١٤٠٣-١٤٢٥)، وبلغت مجلداتها عشرة آلاف، ولكن كثرة النفقات حالت دون طبعها. وحدث في فتنة الملاكمين التي قامت في عام ١٩٠٠ أن احترقت النسخة الوحيدة التي أورثتها ذلك العهد الأجيال التالية فلم يبق منها إلا مائة وستون مجلداً. إن التاريخ لم يشهد قبل تلك الأيام عهداً سيطر فيه العلماء على الحضارة كما سيطروا عليها في ذلك العهد.

بعث الفلسفة

لم يكن هؤلاء العلماء كلهم من أتباع كنفوشيوس، ذلك أن مدارس فكرية منافسة لمدرسته قد نشأت في خلال الخمسة عشر قرناً الخالية، وحدثت في

الحياة العقلية لهذا الشعب الخصيب حركات قوية أثارت لديه أعنف الجدل حول هذه الآراء والآراء المناهضة لها. ولم تقف المبادئ البوذية التي تسربت إلى نفوس الصينيين عند عامة الشعب وطبقاته الوسطى، بل وصلت إلى الفلاسفة أنفسهم، فآثر معظمهم الآن طريقة العزلة والتأمل، وبلغ من بعضهم أن احتقروا كنفوشيوس لإحتقاره لفلسفة ما وراء الطبيعة، ونبذوا الطريقة التي كان يتبعها في معالجة مشاكل الحياة والعقل، وعابوا عليها أنها طريقة خارجية فجة إلى حد كبير، وأضحت طريقة التأمل الذاتي هي الطريقة المستحبة في دراسة الكون والكشف عن خفاياه، وظهرت لأول مرة نظرية فلسفة المعرفة بين الصينيين، وصار الأباطرة يتخذون الفلسفة البوذية أو الدوّية وسيلة يتحببون بها إلى الشعب أو يسيطرون بها عليه، ولاح في وقت من الأوقات أن سلطان كنفوشيوس على العقلية الصينية قد انقضى عهده إلى غير رجعة.

وكان أهم ما ثار حوله الجدل الفلسفي في ذلك الوقت معنى فقرة في كتاب العلم العظيم يعزوها كل من جوشي ومعارضيه إلى كنفوشيوس، فكان المتجادلون يتساءلون: ما معنى هذا المطلب العجيب القائل بأن نظام الدول يجب أن يقوم على تنظيم أحوال الأسرة، وأن يقوم تنظيم الأسرة على تهذيب الإنسان لنفسه، وأن تهذيب النفس يقف على الإخلاص في التفكير، وأن الإخلاص في التفكير ينشأ من «انتشار المعرفة إلى أبعد حد» وذلك عن طريق «البحث عن حقائق الأشياء؟».

وكان جواب جوشي عن ذلك أن هذه الفقرة تعني بالضبط ما يفهم من ألفاظها، تعني أن الفلسفة والأخلاق وسياسة الحكم يجب أن تبدأ كلها بدراسة الحقائق دراسة متواضعة. وكان يقبل بلا معارضة أو مناقشة النزعة الإيجابية التي اتصف بها المعلم الأكبر، ومع أنه كان يجهد نفسه في دراسة علم أصول الكائنات الحية دراسة أطول مما كان يرتضيه كنفوشيوس لو أنه كان حيا، فقد أوصله هذا الدرس إلى أن يمتزج الإلحاد بالتقوى مزجاً غريباً لعله كان

يعجب حكيم شانتونج. وكان جوشي يعترف بوجود شيء من الاثنينية المتناقضة في الحقائق الواقعية كما كان يعترف بها كتاب التغيرات الذي كانت له على الدوام السيطرة على علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين، فهو يرى أن اليانج والين- أي الفاعلية والانفعالية، أو الحركة والسكون - يمتزجان في كل مكان امتزاج الذكورة والأنوثة، ويؤثران في العناصر الخمسة الأساسية: الماء والنار والتراب والمعادن والخشب ليوجدا منها ظواهر الخلق، وأن اللي والجي- أي القانون والمادة - وكلاهما عنصر خارجي، ويتعاونان معاً للتحكم في جميع الأشياء واكتسابها صورها. ولكن من فوق هذه الصور شئ يجمعها ويؤلف بينهما، وهو التاجي- أي الحقيقة المطلقة أو قانون القوانين غير البشرى، أو بناء العالم. جوشي يقول: إن هذه الحقيقة المطلقة هي التين أو السماء الذي تقول به الكنفوشية الصادقة. وكان يرى أن الله هو عملية عقلية في الكون منزه عن الشخصية أو الصور المحسوسة، وأن «الطبيعة إن هي إلا القانون».

لقد كان في هذه الفلسفة كثير من التناقض، ولكن هذا التناقض رغم كثرته لم يثر ثائرة كبير معارضيها وهو وانج يانج - منج صاحب الشخصيةالظريفة الفذة. ذلك أن وانج لم يكن فيلسوفاً فحسب بل كان إلى جانب ذلك قديساً تملكته نزعة التأمل التي اتصفت بها البوذية المهايانية ، وسرت عاداتها إلى أعماق نفسه. وقد بدا له أن غلطة جوشي الأساسية ليست فيما يقوله عن الأخلاق بل في طريقته، ولقد كان يرى أن البحث عن حقائق الأشياء يجب ألا يبدأ بدراسة العلم الخارجي بل بما هو أعمق من هذا العالم وأكثر منه إظهاراً للحقائق وهو دراسة النفس الداخلية كما يقول الهنود. ذلك أن العلوم الطبيعية في بلاد العلم كلها إذا اجتمعت لا تستطيع أن تفسر حقيقة غصن خيزران أو حبة أرز، وفي هذا يقول:

قلت لصديقي تشين في السنين الخالية: «إذا كان لابد للإنسان أن يبحث كل ما تحت قبة السماء لكي يكون حكيما أو إنساناً فاضلا، فكيف يستطيع إنسان في الوقت الحاضر أن يستحوذ على هذه القدرة العظيمة؟» ثم أشرت

إلى أعواد الخيزران التي أمام خيمتي وطلبت إليه أن يفحص عنها ويرى نتيجة فحصه. فواصل تشين نهاره بليله يبحث في عناصر الخيزران، وأضنى عقله وتفكيره بهذا البحث ثلاث أيام كاملة، حتى نضب معين جهوده العقلية وسئم العمل. وظننت في بادئ الأمر أن منشأ عجزه أن جهوده وقواه لم تكن كافية لهذا العمل، فأخذت أنا على عاتقي أن أقوم بهذا البحث، وقضيت فيه ليلى ونهاري ولكني عجزت عن فهم كنه الخيزران. وبعد أن واصلت العمل سبعة أيام انتابني المرض أنا أيضاً من فرط ما أجهدت نفسي وفكري، فلما إلتقينا بعدئذ قال كلانا لصاحبه في حسرة: «إنا لا نستطيع أن نكون حكيمين أو فاضلين».

ومن هذه البداية المثالية وصل إلى المبادئ الأخلاقية التي وصل إليها جوشي والقائلة أن الطبيعة هي الخير الأسمى، وأن الفضيلة الكبرى إنما تكون بإطاعة قوانين الطبيعة والعمل بها كاملة. ولما قيل له إن في الطبيعة أفاعي كما فيها فلاسفة أجاب إجابة فيها أثر من فلسفة أكويناس وسبنوزا ونيتشة فقال إن «الخير» و «الشر» إن هما إلا رأيان مبتسران ولفظان تسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى للفرد أو لبني الإنسان. وكان يعلم أتباعه أن الطبيعة نفسها فوق الخير والشر لا تعرف ما نطلقه نحن عليها من أسماء مبعثها الأنانية وقد نقل عنه أحد تلاميذه، أو لعله وضع من عنده، حواراً كان في مقدوره أن يعنونه: ما وراء الخير والشر. ثم قال بعد ذلك بقليل: «إن منشأ هذه النظرة إلى الخير والشر في الجسم نفسه وأكبر الظن أنها نظرة خاطئة».

الفن

طلب الحكمة والهيام بالجمال هما قطب العقل الصيني، وفي استطاعتنا أن نعرف بلاد الصين بأنها بلاد الفلسفة والخزف، وإن لم يكن هذا التعريف جامعاً مانعاً. وكما أن طلب الحكمة لم يكن معناه في بلاد الصين الجري وراء أخيلة ميتافيزيقية لاعلاقة لها بالحياة، بل كان فلسفة إيجابية تهدف إلى ترقية الفرد والنظام الاجتماعي، فكذلك لم يكن عشق الجمال إحساساً به كامناً في

النفس أو هواية خاوية للأشكال الفنية التي لا صلة لها بالشئون الإنسانية، بل كان تزاوجاً أرضيا وثيقاً بين الجمال والمنفعة، وتصميما عملياً لتزيين موضوعات الحياة اليومية وأدواتها.

ومن أجل ذلك ظلت الصين، إلى الوقت الذي أخذت فيه تخضع مثلها العليا لتأثير الغرب، تأبى أن تعترف بوجود فرق ما بين الفنان والصانع أو بين هذا و بين العامل العادي. ولقد كانت الصناعات كلها إلا القليل منها من عمل الأيدي البشرية، وكان كل ما تعمله الأيدي منها حِرفاً متقنة، وكانت الصناعة كما كان الفن تعبيراً عن شخصية الصانع بالشيء المصنوع، ولذلك بزت الصين كل ما عداها من البلاد في الذوق الفني وفي كثرة ما لديها من الأدوات الجميلة التي تستخدمها في حياتها اليومية، وإن لم تمد أهلها عن طريق الصناعات الكبيرة بالسلع التي تنعم بها كثرة الناس في البلاد الغربية. فقد كان الصيني المتوسط الثراء يتطلب أن يكون كل ما يحيط به، من الحروف التي يكتب بها إلى الصحاف التي يأكل فيها، مما يشجع حاسة الجمال، وأن يدل بشكله وصنعه على الحضارة الناضجة الذي هو رمز لها وقطعة منها.

وبلغت هذه الحركة التي ترمي إلى تجميل الجسم والمعبد والمسكن غايتها في عهد أسرة سونج. لقد كانت هذه الحركة عنصراً من عناصر الحياة في عصر أسرة تانج، وكان من شأنها أن تستمر وتنتشر في عهد الأسر التي أعقبتها، ولكن عهد النظام والرخاء الطويل الذي عم البلاد قد أمد الفنون كلها بحاجتها من الغذاء، وخلع على الحياة الصينية جمالا وزينة لم تستمتع بمثلهما من قبل. ولقد بلغ الصناع الصينيون في صناعة النسيج والمعادن في عهد أسرة سونج وما بعدها درجة من الإتقان والكمال لم يفقهم فيها أحد قبلهم، وبزوا جميع منافسيهم في كافة أنحاء العالم في اليشب وغيره من الأحجار الصلبة، ولم يتفوق عليهم في نحت الخشب والنقش على العاج إلا من أخذوا عنهم هذه الصناعة من اليابانيين. لقد كان أثاث المنازل يصنع على أشكال متعددة مختلفة،

فذة في صورتها ولكنها غير مريحة لصاحبها، وكان صناع الأثاث، الذين تكفيهم صفحة من الأرز يوما كاملا، يخرجون منه تحفة فنية صغيرة إثر تحفة.

وكان الفنان ذو اليد الذي يخرج هذه الروائع الفنية الدقيقة يزين بها داره ويتخذها بديلا من الأثاث الغالي الثمن ومن أسباب المتعة المنزلية، وكانت تبعث في نفس مالكها بهجة لا يدركها في بلاد الدنيا إلا الخبراء الأخصائيون.

أما الحلي فلم تكن موفورة العدد ولكنها كانت بديعة القطع، وكان الرجال والنساء يبردون وجوههم بمراوح مزخرفة من الريش والخيزران، أو الورق أو الحرير الملوّن، بل إن المتسولين أنفسهم لم تكن تنقصهم المراوح الجميلة وهم يمارسون حرفتهم التليدة.

ونشأ فن الطلاء باللك في الصين، وبلغ ذروة الكمال في اليابان. واللك في بلاد الشرق الأقصى نتاج طبيعي لشجرة أصلها من أشجار الصين، ولكنها الآن تزرع بكثرة في بلاد اليابان، ويؤخذ عصيرها من جذعها وغصونها، ثم يصفى ويغلى ليزول منه ما لا حاجة لهم من السوائل، ويطلي به الخشب الرقيق كما يطلى به المعدن والخزف في بعض الأحيان، ثم يجفف بتعريضه للرطوبة. ويتكوَّن الطلاء من طبقات تتراوح بين عشرين وثلاثين طبقة يبذل في تجفيف كل واحدة منها وصقلها جهد عظيم وعناية بالغة، وتختلف كل طبقة عن غيرها في لونها وسمكها. وينقش الصينيون بعدئذ هذه الطبقات بعد تمامها بآلة حادة على شكل بحيث يصل كل حز إلى الطبقة ذات اللون الذي يتطلبه الشكل المطلوب.

وقد نما هذا الفن على مهل وبدأ في صورة كتابة على شرائح من الخيزران، وكانت مادة اللك تستخدم في عهد أسرة جو لتزيين الأواني والسروج والعربات وما إليها. ثم استخدم في القرن الثاني بعد الميلاد لطلاء الأبنية والآلات الموسيقية، وفي عهد أسرة تانج صدرت الصين كثيرا من الأدوات المطلية باللك إلى اليابان. ولما تولت المُلك أسرة تانج كانت كل فروع صناعة اللك قد ازدهرت وتحددت أشكالها، وكانت ترسل منتجاتها بحرا إلى الثغور النائية كثغور الهند

وبلاد العرب. ولما ولي الملك أباطرة أسرة منج خطا الفن خطوة أخرى في طريق الكمال، وبلغ في بعض نواحيه ذروته. فلما جلس على العرش الإمبراطوران المستنيران كانج - شي، وتشين لونج من أباطرة المانشو صدرت الأوامر الإمبراطورية بتشييد المصانع والإنفاق عليها من مال الدولة، فأخرجت من روائع الفن أمثال عرش تشين لونج والستر الذي أهداه كانج - شي إلى ليوبولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية. واحتفظ هذا الفن بتلك الدرجة الرفيعة حتى القرن التاسع عشر، فكانت الحروب التي أوقد نارها التجار الأوربيون، وما للمستوردين والعملاء الأوربيين من أذواق منحطة كانت هذه وتلك سبباً في حبس معونة الأباطرة عنه فتدهور مستواه وانحطت رسومه، وانقطعت زعامته إلى اليابان.

ومن أجمل النماذج الباقية من أيام أسرة سوج مبخرة في صورة جاموسة البحر، وقد ركب عليها لو - دزه وهو هادى مطمئن ليثبت بهذا قدرة الفلسفة على إخضاع الوحوش الكاسرة، ولا يزيد سمك جدران المبخرة على سمك الورقة، وقد اكتسبت على مر الزمان قشرة أو طبقة خضراء مرقشة خلعت عليها جمال القدم ، ثم انحط هذا الفن انحطاطاً تدريجياً بطيئاً في عهد أسرة منج. فزاد حجم التحف وقلت جودتها، وأصبح البرنز، الذي كان مقصوراً على صنع آيات الفن في عهد الإمبراطور يو، فناً عاما تصنع منه الآنية العادية التي تستخدم في الأغراض اليومية، وتخلى في مكانته الأولى للخزف.

ولم يكن النحت من الفنون الكبرى، ولا من الفنون الجميلة، عند الصينيين. وسبب هذا أن تواضع الشرق الأقصى أبى عليه أن يتخذ الجسم البشرى نموذجاً من نماذج الجمال. ولهذا فإن الذين اتخذوا صناعة التماثيل البشرية حرفة لهم وجهوا قليلا من عنايتهم إلى تمثيل ما على الأجسام من ملابس، واستخدموا تماثيل الرجال - وقلما استخدموا تماثيل النساء - لدراسة بعض أنواع الإحساسات أو لتصويرها، ولكنهم لم يمجدوا الأجسام البشرية. ومن

أجل ذلك تراهم في الغالب قد قصروا تصوير الناس على تماثيل القديسين البوذيين والحكماء الدويين، وأغفلوا تصوير الرياضيين والسراري ممن كانوا وكن مصدر الإلهام للفنانين من اليونان.

وفقد فن النحت إلهامه الديني بعد أسرة تانج، واصطبغ بصبغة دنيوية تنحط أحياناً إلى صبغة شهوانية، حتى شكا رجال الأخلاق في ذلك الوقت، كما شكا رجال الأخلاق في إيطاليا في عصر النهضة، من أن الفنانين ينحتون للقديسين تماثيل لا تقل رشاقة ورقة عن تماثيل النساء، فوضع الكهنة البوذيون قواعد للتصوير تحرم تحديد شخصية صاحب الصورة أو إبراز معالم الجسم.

ولربما كانت النزعة الأخلاقية القوية عند الصينيين هي التي عاقت تقدم فن النحت. وذلك أنه لما أن فقد الدافع الديني أثره المحرك القوي في الفن، ولم يسمح لجاذبية الجمال الجثماني بأن يكون شأن فيه، اضمحل فن النحت في بلاد الصين، وقضى الدين على ما لم يعد في مقدوره أن يكون له ملهماً. وما أن اقترب عهد أسرة تانج من نهايته حتى أخذ الابتكار في فن النحت ينضب معينة. وليس لدينا من القطع الفنية الممتازة التي أخرجتها أسرة سونج إلا عدد قليل؛ أما المغول فقد خصوا الحرب بجهودهم؛ وأما أباطرة المنج فقد نبغ في عهدهم بعض المثالين الذين أخرجوا تماثيل غريبة وأخرى ضخمة من الحجارة كالهولات التي تقف أمام مقابر أباطرة المنج. فلما ضيق الدين الخناق على فن النحت لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأخلي ميدان الفن الصيني للخزف والنقش.

التصوير

لقد أبطأ الغرب في دراسة فن التصوير الصيني، وليس عليهم في ذلك لوم، لأن مناحي الفن وأساليبه في الشرق تكاد كلها أن تكون مغايرة لمناحيه وأساليبه في الغرب، وأول ما نذكره من هذا الخلاف أن المصورين في بلاد الشرق الأقصى لم يكونوا يصورون على القماش، وقد نجد من حين إلى حين مظلمات على الجدران، وأكثر ما يوجد من هذا أثر من آثار النفوذ البوذي، ونجد

في بعض الأحيان رسوماً على الورق وهذه من آثار ما بعد العهد البوذي، كل هذا نجده ولكنه قليل، أما معظم الرسوم الصينية فهي على الحرير، ولقد كان ضعف هذه المادة وقصر أجلها سبباً في تلف الروائع الفنية جميعها حتى لم يبق من تاريخ هذا الفن إلا ذكريات له وسجلات تصف جهود الفنانين، يضاف إلى هذا أن الصور نفسها كانت رقيقة خفيفة، وأن كثرتها قد استخدمت فيها الألوان المائية وينقصها ما نراه في الصور الزيتية الأوربية من تلوين يظهرها للعين كأنها صور مجسمة نكاد نلمسها باليد. ولقد حاول الصينيون التصوير الزيتي ولكن يلوح أنهم تركوه لأنهم حسبوا هذه الطريقة من طرق التصوير خشنة ثقيلة لا تتفق وأغراضهم الدقيقة الرفيعة، كذلك كان تصويرهم في أشكاله الأولى على الأقل، فرعاً من فروع الكتابة أو الخط الجميل يستعملون فيه الفرشاة التي كانوا يستعملونها في الخط، وكانوا يقتصرون في كثير من روائعهم الفنية على الفرشاة والحبر .

وآخر ما نذكره من أوجه الخلاف أن أعظم ما أخرجوه من الصور الملونة قد أخفى من غير قصد عن أعين الرحالة ، ذلك أن الصينيين لا [illegible] عرض صورهم على الجدران العامة والخاصة بل يطوونها ويخبئونها بمنتهى العناية، فإذا أرادوا أن يستمتعوا برؤيتها أخرجوها من مخبئها كما نخرج نحن كتاباً ونقرأه. وكانت هذه الصور المطوية تلف متتابعة في ملفات من الورق أو الحرير ثم (تُقرأ) كما تقرأ المخطوطات. أما الصور الصغيرة فكانت تعلق على الجدران وقلما كانت توضع في إطارات. وكانت عدة صور ترسم أحياناً على شاشة كبيرة، وفي العهد الأخير من عهود أسرة سونج كان فن التصوير قد تفرع إلى ثلاثة عشر فرعاًواتخذ أشكالاً لا حصر لها.

وقد ورد ذكر الفن الصيني بوصفه فناً ثابت الأساس، قبل ميلاد المسيح بعدة قرون، ولا يزال هذا الفن موطد الدعائم في بلاد الصين إلى يومنا هذا رغم ما عاناه بسبب الحروب الكثيرة. وتقول الأقاصيص الصينية إن أول من صور

بالألوان في الصين امرأة تسمى لي وهي أخت الإمبراطور الصالح شوين. وقد ساء ذلك أحد الناقدين فقال: «مما يؤسف له أشد الأسف أن يكون هذا الفن القدسي من اختراع امرأة».

ولم يبق شيء من الصور التي رسمت في عهد أسرة جو. لكن الذي لا شك فيه أن الفن في عهد هذه الأسرة كان قد تقادم عهده، ويدلنا على ذلك تقرير كتبه كونفوشيوس يقول فيه إنه: أعجب أشد الإعجاب بالصور التي رآها في الهيكل العظيم المقام في لو - يانج .

أما في أيام أسرة هان فحسبنا دليلاً على إنتشار التصوير أن كاتباً من الكتاب قد شكا من أن بطلاً يعجب به لم يُرسم له عدد كافٍ من الصور فقال: «إن الفنانين كثيرون فلم إذن لا يصوره أحداً منهم؟» ومن القصص التي تروى عن واحد من مهرة الفنانين في عهد الإمبراطور لي - يه - إي الأول أنه كان في استطاعته أن يرسم خطاً مستقيماً لا ميل فيه طوله ألف قدم، وأن يرسم خريطة مفصلة للصين على السطح لا تزيد على بوصة مربعة، وأن في مقدوره أن يملأ فاه ماء ملوناً ثم يبصقه فيكون صورة، وأن الصور التي كان يرسمها للعنقاء قد بلغت من الإتقان حداً جعل الناس إذا نظروا إليها يتساءلون قائلين لم لا تطير من أمامهم؟.

محت الحروب كل دليل قاطع - كما يقول ديورانت- . ولقد تناوبت على الصين غلبة الفن والحرب في نزاعهما الأبدي القديم، منذ العهد الذي نهب فيه لويانج المحاربون من إقليم تشين (حوالي عام ٢٤٩ ق.م) وأخذوا يحرقون كل ما لم يستطيعوا الانتفاع به، إلى أيام ثورة الملاكمين (١٩٠٠م) حين كان جنود تونج جو يستخدمون الصور المرسومة على الحرير في المجموعة الإمبراطورية لحزم ما يريدون حزمه من الأمتعة. فكانت روائع الفن يحل بها الدمار ولكن الفنانين لم يكونوا يتوانون عن الخلق والابداع.

ولقد أحدثت البوذية انقلاباً في شئون الدين والفن في بلاد الصين. نعم

إن الكنفوشية احتفظت بسلطانها السياسي في البلاد، ولكن البوذية امتزجت بالدّوية فأصبحت السلطة المهيمنة على الفن، وأنشأت بين الصينيين وبين البواعث والرموز والأساليب والأنماط الهندية صلات ذات أثر قوي.

وكان أعظم العباقرة من رجال مدرسة التصوير الصينية البوذية جوو - كاي -جيه، وهو رجل بلغ من قوة شخصيته وصفاته الفذة أن اجتمعت حوله أقاصيص وأساطير كثيرة. منها أنه أحب فتاة تسكن منزلاً يجاور منزله، فلما عرض عليها أن تتزوج به أبت لجهلها بما كانت تخبئه له الأيام من شهرة عظيمة، فما كان منه إلا أن رسم صورة لها على أحد الجدران وأنفذ شوكة في قلبها، فأشرفت الفتاة على الموت. ثم تقدم إليها مرة أخري فرضيت به، فرفع الشوكة عن صورتها فشفيت الفتاة من مرضها. ولما أراد البوذيون أن يجمعوا المال لتشييد هيكل في نانكنج وعد أن يمدهم بمليون كاش ، وسخرت الصين كلها من هذا الوعد، لأن جوو قد بلغ من الفقر ما يبلغه الفنان.

فقال لهم: «اسمحوا لي أن استخدم أحد الجدران»، فلما وجد الجدار واستطاع أن ينفرد بنفسه عنده رسم عليه صورة القديس البوذي أو إيمالا- كيرتي. ولما أتم الصورة دعا الكهنة، وأخذ يصف لهم طريقة جمع المال المطلوب فقال: «عليكم أن تطلبوا في اليوم الأول مائة ألف كاش» ممن يريد أن يدخل ليرى الصورة، «وأن تطلبوا في اليوم الثاني خمسين ألفاً. أما في اليوم الثالث فدعوا الزائرين أحراراً يتبرعون بما يشاءون». ففعلوا ما أمرهم به وجمعوا بهذه الطريقة مليون كاش.

وكتب ثلاث رسائل في التصوير بقيت بعض أجزائها إلى اليوم. ومن أقواله: أن أصعب التصوير تصوير الرجال، ويلي الرجال في الصعوبة تصوير المناظر الطبيعية ثم تأتي بعدهما الخيل والآلهة. وكان يصر على أنه فنان وفيلسوف معاً. ولما رسم صورة للإمبراطور كتب تحتها: «ليس في الطبيعة شيء عال لا ينحط بعد قليل. فالشمس إذا بلغت كبد السماء أخذت في الانحدار، والقمر إذا كمل وصار بدراً بدأ يتناقص. وتسنم المجد لا يقل صعوبة عن بناء جبل من حبات

التراب، أما التردي في الهلاك فسهل كإنسياب اللولب المشدود»، وكان معاصروه يعدونه أعظم رجال زمانه في ثلاث نواح: في التصوير وفي الفكاهة وفي البلاهة.

وازدهر التصوير في بلاط الأباطرة من أسرة تانج، ومن الأقوال المؤيدة لهذا قول دوفو: «إن المصورين ليبلغون من الكثرة عدد نجوم الصباح، ولكن الفنانين منهم قليلون».

وكتب جانج ين - يوان في القرن التاسع عشر كتاباً سماه: عظماء المصورين في جميع العصور وصف فيه أعمال ثلاثمائة وسبعين فناناً، ويقول فيه: إن الصورة التي يرسمها أحد أساتذة التصوير كانت تدر عليه وقتئذ نحو عشرين ألف أوقية من الفضة، ولكنه يحذرنا فيما بعد من أن نقدر الفن بالمال ويقول: «إن الصور الجميلة أعظم قيمة من الذهب واليشب، أما الصور الرديئة فلا تساوي الواحدة منها شقفة».

ومن أروع الصور صورة «السيدة لنج - جاو واقفة بين الثلوج». والصورة تمثل السيدة (وهي صوفية بوذية من نساء القرن الثامن) ساكنة غارقة في التفكير كأنها سقراط واقف وسط الثلوج في بلاتيه. ويخيل إلينا أن الفنان يقول «إن العالم لا وجود له إلا إذا أدرك العقل وجوده، وإن في وسع العقل أن يتجاهله إلى حين». ومنهم ليانج كاي الذي رسم صورة فخمة للشاعر الصيني لي بو؛ وموتشي صاحب صورة النمر الرهيب، والزرزور، وصورة كوان ين الظريف المكتئب، وفي وسعنا أن نذكر غير هؤلاء كثيرين من المصورين الصينيين الذين لم نألف نحن سماع أسمائهم أو نعيها إذا سمعها لغرابتها، ولكنهم في واقع الأمر نماذج من تراث الشرق العقلي العظيم. وما أصدق ما قاله عنهم فنلوزا «لقد كانت ثقافة أسرة سونج أنضج تعبير عن العبقرية الصينية».

وإذا شئنا أن نقدر فن التصوير الصيني في أيام مجد أسرتي تانج وسونج، كنا كمن يحاولون من مؤرخي المستقبل أن يكتبوا عن عصر النهضة الإيطالية بعد أن فقدت جميع أعمال رفائيل وليوناردو دافنشي وميكل إنجلو.

ويبدو أن فن التصوير الصيني قد كسر في ذرعه وهدر دمه لما توالى عليه من غارات جحافل البرابرة الذين دمروا روائعه وعاقوا تقدمه قروناً عدة. ومع أنه قد نبغ في عهد الأسر التي تربعت على عرش الصين بعد أسرتي تانج وسونج، الصينية منها والأجنبية، فنانون لهم رسوم بلغت مستوى عظيماً من الظرف أو القوة، فليس من هؤلاء الفنانين من يرقى إلى مستوى أولئك الرجال الذين عاشوا في جنان بلاط منج هوانج أو هواي دزونج. وخليق بنا إذا فكرنا في الصينيين ألا نفكر فيهم على أنهم مجرد شعب سلطت عليه الفاقة، وأضعفه فساد الحكم، وفرقته التحزبات والإنقسامات السياسية، وأذلته الهزائم الحربية، بل يجب أن نفكر فيهم أيضاً على أنهم أمة شهدت في تاريخها الطويل عصوراً لا تقل في مجدها عن عصور بركليز وأغسطس وآل مديشي، «كما لاتقل عن حتشبسوت وكيلوباترا ورمسيس الثاني» وأنها قد تشهد عصوراً أخرى مثلها في مستقبل الأيام.

الخط أسمى من اللون

ترى ما هي الخصائص التي تميز فن التصوير الصيني فتجعله يختلف كل الاختلاف عما أنتجته أية مدرسة أخرى من مدارس التصوير في التاريخ كله عدا تلاميذه في اليابان؟ إن أول ما نذكره من هذه الخصائص أن الصور الصينية ترسم على ملفات أو شاشات كبيرة، ولكن هذه مسألة تتعلق بالشكل الخارجي، وأهم منها وأعمق وأكثر صلة بالصفات الذاتية إحتقار الصينيين للمنظور والظلال. فلما أن قبل مصوران أوربيان دعوة وجهها إليهم الإمبراطور كانج شي ليزينوا له قصوره رفض الإمبراطور ما عرضوه عليه من زينات لأنهم رسموا العمد البعيدة في صورهم أقصر من القريبة. وقال لهم الصينيون في هذا أن لا شيء يمكن أن يكون أكذب وأبعد عن الطبيعة من تمثيل المسافات حيث لا توجد مسافات مطلقاً.

ولم تستطع إحدى الفئتين أن تفهم آراء أخرى ومبادئها لأن الأوربيين اعتادوا أن ينظروا إلى المنظر وهم في مستواه، على حين أن الفنانين الصينيين

قد اعتادوا أن ينظروا إليه من أعلاه. كذلك كان يخيل إلى الصينيين أن الظلال لا محل لها في نمط من أنماط الفن لا يهدف في زعمهم إلى محاكاة الحقيقة بل يهدف إلى إدخال السرور على النفس، وتمثيل الأمزجة، والإيحاء بالأفكار عن طريق الأشكال التامة الكاملة.

وكان الشكل كل شيء في هذه الصور، ولم تكن السبيل إلى إجادته غزارة اللون أو بهجته، بل كانت في انسجامه ودقة خطوطه. وكانت الألوان محرمة تحريماً باتاً في الرسوم الأولى، وظلت نادرة في رسوم أساتذة الفن، فقد كان هؤلاء يكتفون بالمداد والفرشاة، ذلك أن اللون لم يكن في رأيهم ذا صلة ما بالشكل، بل كان الشكل على حد قول شياه - هُو الانسجام، وأول معاني الانسجام عند الصينيين هو أن يكون الرسم الصيني السجل المرئي لحركة منسجمة أو رقصة تمثلها اليد، ومعناه كذلك أن الشكل البديع يكشف عن «انسجام الروح» وعن جوهر الحقيقة وحركتها الهادئة. ومظهر الإنسجام في آخر الأمر هو الخط - غير مستخدم في بيان حدود الأشياء ومحيطها الخارجي، بل مستخدم في بناء الأشكال التي تعبر عن النفس بطريق الإيحاء أو الرمز. وتكاد دقة الخطوط وجمالها أن يكونا وحدهما في فن التصوير الصيني السبب الوحيد في براعة التنفيذ المستقلة عن قوة الإدراك والشعور والخيال. ومن أجل هذا كان من واجب المصور أن يلاحظ ما يريد تصويره بصبر وعناية، وإن يكون ذا شعور قوي مرهف، وأن يضبط أحاسيسه أدق الضبط وأحكمه، وأن يتبين غرضه واضحاً، ثم ينقل بعد هذا على الحرير ما تمثله في خياله، نقلا لا يترك فيه مجالاً للإصلاح أو التعديل، وذلك بعدد قليل من الضربات المتواصلة السهلة. وقد وصل فن التصوير بالخطوط ذروة مجده في الصين واليابان، كما اقترب فن التلوين من ذروة مجده في البندقية .

ولم يُعن فن التصوير الصيني بالواقعية في يوم من الأيام، بل كان يهدف إلى الإيحاء أكثر مما يهدف إلى الوصف. أما «الحقيقة» فقد تركها للعلم ووهب نفسه للجمال. ولقد كان هذا النوع من التصوير فرعاً لم ينبت في غير بلاد

الصين، ثم ترعرع وازدهر بعض الإزدهار تحت سماء صافية، فأصبح كافياً لأن يستهوي نفوس أعظم أساتذة الفن ويملك عليهم تفكيرهم، وأن يكون تناولهم لرقعة التصوير الفارغة وتقسيمها تقسيماً يتناسب مع ما يريدون تصويره، أن يكون هذا وذاك محكاً تختبر به قدرتهم ومهارتهم.

ولما كان الشكل كل شيء فإن من الممكن أن يكون الموضوع أي شيء. وقلما كان الرجال مركز الصورة أو جوهرها، وإذا ما ظهروا فيها كانوا في كل الأحوال تقريباً شيوخاً وكانوا كلهم متقاربين في الشبه. وقلما كان المصور الصيني ينظر إلى العالم بعيني الشاب وإن لم يكن قط واضح التشاؤم في تصويره. ولقد رسم المصورون صوراً لبعض الأفراد ولكنها كلها صور لم تبلغ ما بلغه غيرها من الجودة والإتقان، ذلك أن الفنان الصيني لم يكن يعنى بالأفراد، وما من شك في أنه كان يحب الأزهار والحيوانات أكثر مما يحب الرجال، ولذلك أطلق لنفسه العنان في تصويرها؛ فترى هواي - دزونج وهو الذي كانت تأتمر بأمره إمبراطورية متسعة الأرجاء يهب نصف حياته لتصوير الطيور والأزهار. وكانت الأزهار والحيوانات كالأزورد والتنين تتخذ رموزاً غير مقصودة لذاتها في بعض الأحيان، لكنها في الأغلب الأعم كانت ترسم لأن سر الحياة وسحرها يتمثلان فيها كاملين كما يتمثلان في الإنسان نفسه، وكان الحصان محبباً للفنانين الصينيين بنوع خاص، ومن أجل هذا ترى فنانين كباراً مثل هان كان لا يكادون يعملون شيئاً غير رسم شكل في أثر شكل لهذا المخلوق الذي هو جسم حي للتخطيط الفني.

وما من شك في أن الذي أنقذ المصورين الصينيين من وهدة الركود هو إخلاصهم في إحساسهم بالطبيعة. وقد استمدوا هذا الإحساس من مبادئ الدوية، وقوتها في نفوسهم البوذية إذ علمتهم أن الإنسان والطبيعة شيء واحد في مجرى الحياة وتغيرها ووحدتها. وكما أن الشعراء قد وجدوا في الطبيعة ملجأ يهرعون إليه من صخب المدن وكفاحها، وكما أن الفلاسفة كانوا يبحثون

فيها عن نماذج للأخلاق وهادياً للحياة، كذلك كان المصورون يطيلون التأمل بجوار المجاري المائية المنعزلة ويوغلون في شعاب الجبال الشجراء، لأنهم يشعرون أن الروح الأعلى الذي لا يعرفون له اسماً قد عبر عن نفسه في هذه الأشياء الصامتة الخالدة تعبيراً أوضح مما عبر عنها في حياة الناس وأفكارهم المضطربة الهائجة . ولقد اتخذ الصينيون الطبيعة الشديدة القسوة عليهم، والتي تنفث الموت ببردها وفيضان أنهارها، اتخذوها إلههم الأعلى، ورضوا بذلك في قوة وطمأنينة، ولم يقبلوا أن يقدموا لها القرابين الدينية، بل رضوا بأن تكون فوق هذا معبود فلسفتهم وأدبهم وفنهم.

وحسبنا شاهداً على قدم عهد الثقافة الصينية وعمقها أن الصينيين قد هاموا بحب الطبيعة قبل أن يهيم بها كلود لورين، وروسو، وورد سورث، وشاتو بريان بألف عام كاملة، وأنهم أنشئوا مدرسة من مصوري المناظر الطبيعية أضحت صورها في جميع بلاد الشرق الأقصى أسمى ما عبرت به الإنسانية عن مشاعرها.

الخزف الصيني

إذا أخذنا نتحدث عن الفن الذي تمتاز به الصين عن سائر الأمم، والذي لا يجادل أحد في أنها هي حاملة لوائه في العالم كله، وجدنا في انفسنا نزعة قوية إلى إعتبار الخزف صناعة من الصناعات. ولما كانت كلمة الصيني» إذا وردت على لساننا إرتبطت في عقولنا بالمطبخ وأدواته. فإننا إذا ذكرنا الفاخورة تمثلنا من فورنا المكان الذي يصنع فيه «الصيني»، وظننا هذا المكان مصنعاً ككل المصانع لا تثير منتجاته في النفس روابط عليا سامية.

أما الصينيون فقد كانت صناعة الخزف عندهم فناً من الفنون الكبرى، تبتهج له نفوسهم العملية المولعة مع ذلك بالجمال، يجمع بين النفع وبهاء المنظر. فلقد أمدهم هذا الفن بآنية يستخدمونها في شرابهم القومي الشهير- شراب الشاي- جميلة في ملمسها ومنظرها، وازدانت منازلهم بأشكال بلغت كلها من الجمال حدا تستطيع معه أفقر الأسر أن تعيش في صحبة نوع من أنواع

الكمال، لقد كان فن الخزف هو فن النحت عند الصينيين.

ولفظ الفخار يطلق أولاً على الصناعة التي تحيل الطين بعد حرقه إلى أدوات صالحة للإستعمال المنزلي، ويطلق كذلك على الفن الذي يجمل هذه الأدوات، وعلى الأدوات التي تنتجها هذه الصناعة، والخزف هو الفخار المزجج أي أنه هو الطين الممزوج بالمعادن والذي إذا عرض للنار ساح واستحال إلى مادة نصف شفافة شبيهة بالزجاج . وقد صنع الصينيون الخزف من مادتين الكولين- وهو طين أبيض نقي مكون من فتات الفلسبار والحجر الأعبل الجرانيت، ومن البي- تن- دزي وهو كوارتز أبيض قابل للإنصهار، هو الذي يكسب الأواني الخزفية ما فيها من الشفافية. وتسحق هذه المواد كلها وتخلط بالماء فتتكون منها عجينة تشكل باليد أو على عجلة، ثم تعرض لدرجة حرارة مرتفعة تصهر العجينة وتحيلها إلى مادة زجاجية براقة صلبة.

وكان يحدث في بعض الأحيان ألا يقنع الخزاف بهذا النوع الأبيض البسيط، فكان يغطي «العجينة» اي الاناء قبل حرقه بطبقة من مسحوق الزجاج، ثم يحرق في اتون. وكان في بعض الأحيان يضع هذه الطبقة الزجاجية على العجينة بعد حرقها قليلاً ثم يعيد حرق الإناء بعدئذ. وكانت الطبقة الزجاجية تلون في أغلب الإحيان، ولكن العجينة كثيراً ما كانت تنقش وتلون قبل أن تضاف إليها المادة الزجاجية الشفافة أو تلون الطبقة الزجاجية بعد حرقها ثم تثبت عليها بحرقها مرة ثانية. أما الميناء فقد كانت تصنع من الزجاج الملون يدق ويسحق ثم يحول إلى مادة سائلة يضعها الرسام على الآنية بفرشاته الرفيعة. وكان من الصينيين أخصائيون قضوا حياتهم في التدريب على عملهم، تخصص بعضهم في رسم المناظر الطبيعية، وغيرهم في رسم القديسين والحكماء المنقطعين للتأمل والتفكير بين الجبال، او الذين يمتطون ظهور حيوانات غريبة فوق امواج البحار.

وصناعة الفخار عند الصينيين قديمة العهد قدم العصر الحجري، فقد عثراندرسن على أواني من الفخار في هونان وكانسو «لايمكن ان تكون احدث

عهداً من عام ٣٠٠٠ ق. م». وأن ما تتصف به تلك المزهريات من جمال فائق في الشكل وفي الصقل ليدل دلالة قاطعة على أن هذه الصناعة قد أصبحت فناً من الفنون الجميلة قبل ذلك العهد بزمن طويل. وبعض القطع التي عثر عليها شبيهة بفخار أنو، وتوحى بأن الحضارة الصينية مأخوذة عن حضارة البلاد الواقعة في غربها. وهناك قطع من الأواني الفخارية الجنازية كشفت في هونان وتعزى إلى عهد إضمحلال أسرة شانج ولكنها احد كثيراً من بقايا العصر الحجري الحديث السالفة الذكر.

وليس ثمة شاهد على ان صناعة الخزف قد بدأت في اوربا عام ١٤٧٠م، فقد ذكر في ذلك العام على أنه فن جميل أخذه البنادقة عن العرب في أثناء الحروب الصليبية.

وكان عهد أسرة سونج هو العهد الذي بلغ فيه فن الخزف الصيني ذروة مجده. وخبراء هذا الفن يعزون إلى هذا العهد اقدم ما لدينا من الآنية الصينية وأحسنها، بل إن صناع الخزف في عهد أسرة منج، وهم الذين جاءوا بعد هذا العصر ونبغ فيه بعضهم نبوغ فنانيه، حتى هؤلاء كانوا إذا ذكروا خزف أسرة سونج ذكروه بالإجلال والإكبار، وكان جامعوا العاديات الصينية يحتفظون بما يعثرون عليه من خزف هذه الأسرة ويعدونه من الكنوز التي لاتقوم بمال. وأنشئت في القرن السادس الميلادي مصانع عظيمة في جنج ده- جن حيث توجد الرواسب الغنية من المعادن التي تستخدم في صنع الفخار وتلوينه واعترف البلاد الامبراطوري بهذه المصانع رسمياً، وبدأت تغمر الصين بفيض من الصحاف الخزفية والأقداح والجفان والمزهريات والطاسات والأباريق والقنينات والجرار والصناديق ورقع الشطرنج والماثلات والخرائط. وحتى مشاجب القبعات كانت تصنع من الخزف المطلى بالميناء والمرصع بالذهب، وظهرت في ذلك الوقت لأول مرة القطع ذات اللون الأخضر اليشبي المعروفة بالسلادون والتي أصبحت محاكاتها أهم مايصبو إليه الفخراني في الوقت الحاضر، كما أصبح إقتناؤها

أهم ما يصبو إليه جامع التحف. وقد أرسل سلطان مصر في ١٤٨٧ نماذج منها إلى لورنزو ده مديشي، وكان الفرس والأتراك يقدرونها لا لنعومة ملمسها وشدة بريقها فحسب، بل لأنها فوق هذا تكشف عن وجود السم، فقد كانوا يعتقدون أن تلك الآنية يتغير لونها اذا وضعت فيها مواد مسمومة.

وكان آخر ما مر به الخزف الصيني من عهود المجد في عهد تشين لونج الرخى الطويل. ولم يقل الإنتاج في ذلك العهد عما كان عليه في العهود التي تقدمته، كما أن مهارة الصناع الممتازين لم تفقد شيئاً من عظمتها وتفوقها وإن لم تحظ بعض الأشكال الجديدة بما كانت تحظى به مبتكرات عهد كانج شي من نجاح. وقد بلغت الأسرة الوردية في هذا العهد أعلى درجات الكمال. فقد إنتشرت فيه نصف أزهار الطبيعة وفاكتها فوق أبهى الطبقات الزجاجية، كما كان ذوو الثراء المترفون يستخدمون الخزف الثمين الذي لايزيد سمكه على سمك قشرة البيض غطاء لاضواء المصابيح. ثم شبت نار فتنة تاي- بنج ودامت خمسة عشر عاماً جرت فيها الدماء أنهاراً، ودمرت فيها خمس عشرة ولاية من الولايات الصينية، وهدمت ستمائة مدينة، وأهلكت عشرين مليوناً من الرجال والنساء وأقفرت أسرة المنشو إقفاراً اضطرها إلى ان تحبس معونتها عن مصانع الخزف، فأغلقت هذه المصانع أبوابها، وتشتت صناعها في أنحاء العالم المضطرب.

وما أن حل عام ١٨٤٠ حتى شرع مصنع انجليزي أقيم في مدينة كانتون يخرج أنواعاً منحطة من الخزف ويصدرها إلى أوربا ويسميها «الأواني الصينية». ثم قامت مصانع في سيفر بفرنسا، ومايسن في المانيا وبورسلم في انجلترا تحاكي خزف الصينيين، وقللت من نفقات الإنتاج بإستخدام الآلات، وأخذت تستحوذ عاماً بعد عام على تجارة الخزف الصينية الخارجية.

وكل ما بقى حتى الآن هو ذكرى ذلك الفن الذي خسره العالم خسارة كاملة لاتكاد تقل عن خسارته لزجاج العصور الوسطى الملون. وحسب الفنانين

الصينيين فخراً إن الخبراء العالميين يضاعفون في كل عقد من السنين أثمان ما بقى من روائع فن الخزف الصيني، وفي عام ١٧٦٧ وصل ثمن إناءين من الخزف بلون العقيق يعرفان «بكلبي فو» في احد المزادات إلى خمسة اضعاف ما وصل اليه ثمن صورة «الطفل يسوع» لجيدورتي، والى ثلاثة امثال ما وصل اليه ثمن صورة «الاسرة المقدسة» لرفائيل. على أن كل من أحس بعينيه وأصابعه، وبكل عصب من اعصاب جسمه، جمال الخزف الصيني يغضب بلا ريب من هذا التقدير الضئيل ويعده إهانة للفن الصيني وازدراء به وتدنيساً لقدسيته. ذلك أن دنيا الجمال ودنيا المال لا تلتقيان أبداً حتى في الوقت الذي تباع فيه الاشياء الجميلة. وحسبنا تقديراً للخزف الصيني أن نقول أن هذا الخزف هو ذروة الحضارة الصينية ورمزها، وانه من أنبل ما صنعه الجنس البشري ليبرز به وجوده على ظهر الارض.

العمارة الصينية

كانت العمارة من الفنون الصغرى في بلاد الصين، ولم يكد يترك من كان فيها من البنائين العظام أثراً لهم يخلد ذكراهم، ويلوح أن الشعب لم يكن يجلهم إجلاله صناع الخزف الكبار. والعمائر الضخمة نادرة في بلاد الصين حتى ما شيد منها تكريماً للآلهة، وقلما نجد فيها مباني قديمة، وليس فيها إلا القليل من المعابد التي يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر.

وقد أصدر مهندسو أسرة سونج في عام ١١٠٣م ثمانية مجلدات موضحة بالرسوم الجميلة في شرح أساليب العمارة، ولكن الآيات الفنية التي صوروها كانت كلها من الخشب ولم تبق منها قطعة واحدة إلى اليوم.

ويستدل من الرسوم المحفوظة في المتحف الأهلي في باريس، والتي يقال أنها تمثل المساكن والهياكل في أيام كنفوشيوس، على أن فن العمارة الصينية قد قنع في خلال تاريخه الطويل الذي دام ثلاثة وعشرين قرناً بما كان عليه في تلك الأيام الخالية من أشكال وأحجام متواضعة.

ولعل إحساس الصينيين المرهف في مسائل الفن والذوق هو الذي حدا بهم إلى نبذ ما عساه أن يبدو من العمائر خالياً من الإحتشام مفرطاً في الضخامة، أو لعل تفوقهم في الذكاء قد حد بعض الشيء من مدى خيالهم. ومهما يكن من سبب هذا القصور فإن فن العمارة الصينية قد أضر به كثيراً إنعدام ثلاث قوى لم يخل منها تاريخ أمة عظيمة من الأمم القديمة، وتلك هي الأرستقراطية الوراثية وطبقة الكهنة القوية،والحكومة المركزية الكثيرة المال العظيمة السلطان. ذلك أن هذه القوى هي التي كانت في الأيام الخالية تبذل المال بسخاء لتشجيع الأعمال الفنية العظيمة، من هياكل وقصور ومسارح ومظلمات ومقابر منحوتة في الصخور.

غير أن العقيدة البوذية قد استحوذت وقتاً ما على روح الصينيين وعلى ما يكفي من ثروة البلاد لإقامة الهياكل العظيمة التي كشفت بقاياها أخيراً في التركستان. ولا تزال بعض الهياكل البوذية المتوسطة العظمة والفخامة باقية في أنحاء كثيرة من بلاد الصين، ولكنها لم تسم إلى ما سمت إليه العمائر الدينية في بلاد الهند. ويصل الإنسان إلى هذه الهياكل بممرات طبيعية جميلة المنظر صاعدة بالتواء فوق منحدرات ذات أبواب منقوشة يسمونها البايلو، ولعلها مأخوذة عن دربزين الأضرحة البوذية الهندية.

وتحرس مداخل هذه الهياكل في بعض الأحيان تماثيل بشعة وضعت لتخيف الشياطين فتبعدها عنها بطريقة ما. ومن أجمل الأضرحة البوذية الصينية كلها هيكل بوذا النائم بالقرب من القصر الصيفي المشيد خارج بيجين. ويرى فرجسون أنه «أجمل ما أخرجه فن العمارة في بلاد الصين».

غير أن أكثر ما يميز الشرق الأقصى في فن العمارة عن سائر الأقطار هو الهياكل (البجودات) وهو ذلك الشكل الهرمي للسقف والذي يشبه شجر الأرز اللبناني، يشرف علي جميع المدن الصينية تقريباً التي تشرف على جميع المدن الصينية تقريباً . وقد اصطبغت هذه الصروح الجميلة، كما اصطبغت

العقائد البوذية التي ألهمت من شادوها، ببعض الخرافات الدوِّية التي كانت منتشرة في البلاد، فكانت من أجل ذلك مراكز للاحتفالات الدينية وللتنبؤ بالغيب عن طريق دراسة الشقوق والعروق الأرضية. وكانت الجماعات المختلفة تشيد هذه الهياكل لاعتقادها أنها تقي الناس غوائل الأعاصير والفيضان، وتسترضي الأرواح الشريرة، وتجتذب الرخاء ورغد العيش. وكانت تتخذ عادة شكل أبراج ذات ثمانية أضلاع تشاد من الآجر وترتفع فوق قواعد من الحجارة خمس طبقات أو سبعاً أو تسعاً لأن الأعداد الزوجية في اعتقادهم أعداد مشئومة. وأقدم البجودات التي لا تزال قائمة حتى الآن البجودة القائمة في سونج إيو - سو، والتي شيدت في عام ٥٢٣م على جبل سونج شان المقدس في هونان. ومن أجملها كلها البجودة الصيفية، وأروعها منظراً بجودة اليشب في بيجنج و «بجودة المزادة» في وو - واي - شان، وأوسعها شهرة برج الخزف في نانكنج (نانجنج) وقد شيد في ١٤١٢-١٤٣١م ويمتاز بطبقة من الخزف فوق جدرانه المقامة من الآجر. وقد دمر هذا البرج في ثورة تايينج التي استعرت في عام ١٨٥٤م.

وأجمل الهياكل الصينية هي التي كانت مخصصة للديانة الرسمية في بيجين. ومن هذه الهياكل هيكل كنفوشيوس، ويحرسه باي - لو، فخم محفور أجمل حفر، ولكن الهيكل نفسه يخلد الفلسفة أكثر مما يخلد الفن. وقد شيد في القرن الثالث عشر الميلادي ثم أدخلت عليه عدة تعديلات وأعيد بناء بعض أجزائه عدة مرات. وقد وضعت «لوحة روح أقدس القديسين المعلم والأب كونفوشيوس»، على قاعدة خشبية في مشكاة مفتوحة في الهيكل، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسي: «إلى المعلم الأعظم والمثال الذي يحتذيه عشرة آلاف جيل». ويقوم من سور بيجنج التتاري الجنوبي هيكل السماء ومذبح السماء. والمذبح مكوّن من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامية التي كان لعددها الكبير ونظامها أثر سحري في نفوس الزائرين. والهيكل نفسه بجودة معدلة من ثلاث طبقات

قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيدة من الآجر والقرميد الخاليين من الرونق. وكان الإمبراطور في الأيام الخالية يأتي إلى هذا المكان في الساعة الثالثة من صباح يوم رأس السنة الصينية للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفيق والفلاح ولشعبه بالرخاء، ويقرب القربان للسماء التي يرجو أن تكون في صفه لا في صف أعدائه، ولم تكن السماء ذكراً أو أنثى عند الصينيين بل كانت جماداً. وقد نزلت صاعقة من السماء على هذا المعبد في عام ١٨٨٩م فأصابته بضرر بليغ.

وأجمل من هذه الأضرحة الخالية من الرونق والبهاء، وأكثر منها جاذبية، القصور المزينة الضعيفة البناء التي كانت مساكن للأمراء وكبار الحكام في بيجين. ومن أجمل هذه المباني البهو الأكبر، وقد شاده عند قبر أباطرة منج عباقرة البنائين الذين جاد بهم عهد الإمبراطور تشنج درو (١٤٠٣-٢٥)، كما شادوا عدداً من المساكن الملكية في بقعة عرفت فيما بعد باسم «المدينة المحرمة» أقيمت في الموضع الذي شاهد فيه ماركو بولو قصر كوبلاي خان قبل ذلك العهد بمائتي عام، فدهش منه وأعجب به أيما إعجاب. وتقوم آساد بشعة الخلقة على جانبي الدربزين الرخامي المؤدي إلى الشرفة الرخامية. وقد شيدت في هذا المكان مبان رسمية، بعضها غرف لعروش الأباطرة وأخرى للاستقبال أو للمآدب وغيرها من حاجات الأباطرة.

وانتشرت حولها البيوت الأنيقة التي كانت تسكنها في الأيام الخالية أسر الأباطرة وأبناؤهم وأقاربهم وخدمهم وأتباعهم وخصيانهم وسراريهم. ولا تكاد هذه القصور تختلف بعضها عن بعض. ففيها كلها العمد الرفيعة، والنوافذ المتشابكة الجميلة، والطنف المنحوتة أو المسطورة، والألوان الكثيرة الزاهية والرفارف المقوسة المتجهة إلى أعلى المتصلة بالسقف المقرمدة الضخمة.

وإذا شئنا أن نذكر الخصائص العامة لفن العمارة الصينية في عبارة موجزة قلنا: إن من أول مظاهرها السور المجرد من الجمال الذي يفصل المبنى

الرئيسي عن الطريق العام. وهذه الأسوار تمتد في الأحياء الفقيرة من بيت إلى بيت متصلة بعضها ببعض، وتدل على أن الحياة في هذه الأحياء كانت غير آمنة. ويحيط هذا السور بفناء تفتح فيه أبواب ونوافذ لبيت واحد أو لعدة بيوت. وبيوت الفقراء مساكن كئيبة مظلمة، ذات مداخل ودهاليز ضيقة وسقف منخفضة، وأرض من التراب. وفي كثير من الأسر تعيش الخنازير والكلاب والدجاج والرجال والنساء في حجرة واحدة. وتعيش أفقر الأسر في أكواخ من الطين والقش تغمرها مياه الأمطار وتصفر فيها الرياح، وإذا كانت الأسر ذات يسار قليل غطت أرض الحجرات بالحصر أو رصفتها بالقرميد. أما الأثرياء فيزينون فناء المنزل الداخلي ببعض الشجيرات والأزهار والبرك، أو يحيطون قصورهم بالحدائق يغرسون فيها مختلف الأشجار، ويمرحون فيها ويلعبون. ولا نرى في هذه الحدائق طرقات تزينها الورود، وممرات غرست حولها الأزهار، ومربعات أو دوائر أو مثمنات من الكلأ أو الزهر؛ بل ترى بدلاً منها مماشي ضيقة لا تثبت على حال، تتلوى في بعض الأحيان مخترقة أخاديد تمر بين الصخور فوق مجار مائية متعرجة بين أشجار اضطرت جذوعها أو أغصانها إلى أن تتخذ لها أشكالاً غريبة ترضي عنها النفوس السفسطائية. وترى في أماكن متفرقة من هذه الحدائق جواسق جميلة تكاد تخفيها الغصون يستريح فيها الجائلون.

وليس البيت نفسه ذا روعة ولو كان قصراً للعظماء، فهو لا يزيد على طبقة واحدة، وإذا احتاجت الأسرة إلى أن تزيد حجرات منزلها فإنها تفضل إقامة مبنى جديد على إضافة حجرات للمبنى القديم. ومن ثم فإن القصر العظيم قلما يكون بناء منظم الأجزاء، بل يتكون من عدة مبان تمتد أهمها في صف واحد من مدخل القصر إلى السور وإلى جانبيها المباني الثانوية التي تقل عن الأولى شأناً. وأكثر ما تبنى منه المنازل الخشب والآجر، وقلما تعلو الحجارة إلى أكثر من الشرفات التي فوق الأساس. وكان يقصر استعمال الآجر عادة على الجدران

الخارجية، أما السقف فتتخذ من لبنات رقيقة، وأما الأعمدة المزينة والجدران الداخلية فتقام من الخشب. وكانت تعلو الجدران الزاهية الألوان طنف ذات نقوش. وليست الجدران ولا العمد هي التي تحمل السقف، بل إن هذه السقف رغم ثقلها تستقر على قوائم تكون جزءاً من الهيكل الخشبي للمنزل، والسقف أهم أجزاء الهيكل أو المنزل الصيني، فهو يبنى من القرميد المصقول البراق - ذي اللون الأصفر إن كان يظلل رأس الإمبراطور، وإلا فهو أخضر أو أرجواني أو أحمر أو أزرق. وهو يبدو جميلاً وسط ما يحيط به من المناظر الطبيعية، بل إنه ليبدو كذلك حتى في فوضى شوارع المدن، ولربما كانت أعواد الخيزران التي تبرز أطرافها من أعلى الخيام هي التي أقيمت على غرارها في بلاد الشرق الأقصى رفارف السطوح الرشيقة المنحنية إلى أعلى، ولعل أقرب من هذا إلى الظن أن هذا الطراز الكثير الذيوع لم يكن منشؤه إلا رغبة البنائين الصينيين في وقاية البناء كله من مياه الأمطار.

ذلك أن النوافذ ذات المصاريع كانت قليلة في المباني الصينية، وكان يحل محلها الورق الكوري أو النوافذ ذات القوائم المتقاطعة المتشابكة، وهذه لا تقي الحجرات من الأمطار.

ولا يقع مدخل الدار الرئيسي عند طرفه ذي السقف الهرمي، بل يقع عند واجهته الجنوبية. ويقوم في داخل هذا الباب الكبير عادة ستار أو جدار يحجب نظر الزائر عن رؤية من في داخل الدار، ويقف في طريق الأرواح الخبيثة التي لا تسير إلا في خطوط مستقيمة، وردهة الدار وحجراتها معتمة لأن ضوء النهار تحجبه النوافذ المتشابكة والطنف البارزة. وبهو المنزل وحجراته مظلمة لأن النوافذ المشبكة والطنف البارزة تحجب عنها ضوء النهار. وقلما تجد في المنزل وسائل لتهوية الغرف، وليس فيه من وسائل التدفئة إلا المجامر المتنقلة، أو طبقات من الآجر تبنى فوق نار مدخنة. وليس لهذه المدافئ مداخن أو فتحات يخرج منها

الدخان. والأغنياء والفقراء على السواء يقاسون آلام البرد ويأوون إلى فراشهم مدثرين بالثياب الثقيلة. وإذا التقى السائح بصيني سأله: «أأنت بردان؟» فيجيبه هذا بقوله: «بطبيعة الحال»، وقد تعلق في سقف الدار فوانيس من الورق زاهية الألوان، وتزين الجدران أحياناً بكتابات بخط جميل أو بنقوش من الحبر، أو بسجف من الحرير مطرزة تطريزاً جميلاً ومنقوش عليها مناظر ريفية. ويتخذ أثاث المنزل عادة من الخشب الثقيل المدهون باللون الأسود البرّاق والمنحوت نحتاً جميلاً. أما القطع ذات الألوان الفاتحة فتطلى باللك البراق. والصينيون هم الأمة الشرقية الوحيدة التي يجلس أبناؤها على كراسي، وحتى هم يفضلون أن يجلسوا متكئين أو متربعين، وهم يضعون، على نضد خاص، الأواني التي تتخذ لتقديم القرابين لأسلافهم الأموات. وتقع في مؤخرة الدار حجرات النساء، وقد توجد في حجرات مستقلة أو في بناء منفصل عن سائر المنزل مكتبة أو مدرسة.

والأثر العام الذي تتركه العمائر الصينية في ذهن المشاهد الأجنبي غير الفني هو ما تتصف به من وهن سحري يأخذ بالألباب، واللون يطغى فيها على الشكل، ومن واجب الجمال فيها أن يستغني عن الفخامة والعظمة. والهيكل أو القصر الصيني لا يتطاول إلى الإشراف على الطبيعة بل يتعاون معها على أن يخلق من الكل انسجاماً كاملاً يعتمد على تناسب أجزائه وتواضعها. والعمائر الصينية تعوزها الصفات التي تكسبها متانة وأمناً وطول بقاء، كأن من شادوها يخشون أن تذهب الزلازل بجهودهم.

وإن من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن هذه العمائر تنتمي إلى ذلك الفن الذي أقام آثار الكرنك وبرسبويس، والآثار التي شيدت على الأكروبول، فليست هي عمائر بالمعنى الذي يفهمه الغربيون من هذا اللفظ، بل هي حفر في الخشب، وطلاء للخزف، ونحت في الحجر. وهي أكثر انسجاماً مع الخزف واليشب من الصروح الضخمة الثقيلة التي أقامها فنّا الهندسة والمعمار في بلاد

الهند وبلاد النهرين ورومه. وإذا لم نتطلب إليها العظمة والصلابة التي ربما لم يعن بها من أنشئوها، وإذا أخذناها على أنها أصداف تعبر عن أرق الأذواق في أضعف أشكال المباني وأقلها بقاء، إذا فعلنا هذا وذاك كان لهذه العمائر مكانها بين أجمل طرز الفن الصيني الطبيعية التي تناسب أهل تلك البلاد وبين أجمل الأشكال التي إبتدعها الإنسان.

حضارة الطين

العمارة هي الأداة الوحيدة والوسيلة الباقية لتخليد الحضارة ، أو قل هي القلم واليراع الذي تكتب به . حتى في عصرنا الحاضر ، عصر وسائل الإتصال السريعة ، وعصر الثورة البيولوجية والتحكم في الجينات لتجنب العديد من الأمراض ، وعصر النانو وتطوير المواد ، كجعل مادة مثل مادة البلاستيك تتحمل قوى الضغط والشد التي لم تكن تقبلها من قبل ، بحيث تقترب من مادة الحديد ، ورغم ذلك تبقى العمارة قلم تدوين التاريخ .

ودليل ذلك أن السياحة العالمية الغرض منها مشاهدة ثقافات وإبداعات شعوبا أخرى ، سواء كانت هذه الإبداعات إبداعات قديمة أم حديثة ، فالسائح حين يأتي إلى القاهرة يريد أن يتعرف على نبوغ الفراعنة في تقدمهم العلمي وإمتلاكهم لمفاتيح الكون من خلال العمارة. والسائح حين يسافر إلى أمريكا يريد أن يتعرف على آخر إبداعات العلم وتطور التكنولوجيا من خلال العمارة أيضا .

وهنا تكمن الخطورة والمسئولية في آن معاً . خطورة أن العمارة هي المسئولة عن تدوين التاريخ ومسئولية المعماري في وضع تصميم يظهر آخر ما توصل إليه العلم مع عدم فقدان أمر الهوية ، أو خصوصية المكان والإقليم.

وفي الحقيقة أنني لا أومن بوجود عمارة غربية وعمارة إسلامية ، فمن الفصول التي تقدمت تعرفنا على أن الحضارات القديمة أخذت بعضها من بعض، فالهند أخذت من العمارة الفرعونية ، والإغريق أخذوا عن الهند وهكذا . هذا فضلا عن أن الإبتكارات التي كانت خاصة بكل منطقة كانت بسبب إختلاف المناخ . من هنا يمكن أن نقول أن هناك عمارة مناخية. أستثني فقط خصوصيات من العمارة الإسلامية النابعة آيات القرآن الكريم أو ما نصت عليه النصوص النبوية الكريمة.

كما أنني لا أومن في ذات الوقت بالطراز الدولي للعمارة "International Style" مقولة فيليب جونسون ، بكتابه الذي كتبه بهدف تعميم الطراز الأمريكي على مستوى العالم . وذاك غزو ثقافي يوازي الغزو الفكري الذي عرفناه أيام حملات الإستشراق.

والأمر ليس أمر كراهية للغرب ، لكننا لو تخيلنا الطراز الدولي «الأمريكي» يسيطر على كل دول العالم لإنعدمت السياحة وتوقف التنقل بين أرجاء المعمورة. وهو أمور فيها هلاك البلاد والعباد. هذا فضلا عن أن ما يرسمه الفنان أو تخطه يد المعماري إنما يعبر عن مكنون ثقافته التي تأثرت بالمحيط والمعتقد والموروث الفلسفي الإجتماعي.

الأمر الثاني الذي أقدم به لهذا الباب أن العمارة الطينية التي تعرفنا عليها من العهد السومري إندثرت لضعف مادة الطين. فلم نرى منها شاهداً على عصرها حتى اليوم. وبقيت شواهد العمارة الفرعونية لإعتمادهم على مادة الصخر في التشيد والبناء . إن الحضارة تعني آخر ما توصلت إليه الأبحاث ، لذلك لايوجد مايسمى بحضارة الطين، فالطين مادة بدائية لايسجل بها تاريخ ولاتقوم لها حضارة.

إن جوستف إيفل لما أراد أن يظهر مادة الحديد بنى بها ، وبها فقط ، برج إيفل ، الذي هو اليوم أحد معالم باريس . وديفيد فيشر لما أراد أن يعرضنا علينا العمارة الديناميكية – حيث الوحدة السكنية تتحرك – بنى لنا برج دبي . ومن ثم فالأولى في البناء الحضاري البحث عن مادة بها يكون القوام الدائم ، مهما تعاقبت عليها العصور أو إختلفت عليها السنون.

كنت أقوم بإلقاء محاضرة في نقابة المهندسين المصرية ، وقلت في تلك المحاضرة إن العمارة الطينية عمارة محدودة ، فلا يمكن مثلا بناء مبنى طيني على شاطئ نهر النيل ، حيث يصل سعر المتر المربع إلى سبعين ألف جنية ، فالذي يشتري قطعة أرض بهذا السعر يرغب في بناء برج ، حيث يكون المردود الإقتصادي أفضل ، وبالتالي فالعمارة الطينية عمارة صحراوية محدودة .

وكان رد الفعل أمرا غير متوقعاً ، فالناس هنا لايسمحون بالنقاش العلمي طالما هو يمس أحدا يجلونه ويخلعون عليه القدسية ، وليس في ذلك إنتقاص ولا غمط في حق الرائد العظيم حسن فتحي ، بل وضع للشيئ في موضعه.

وكانت تلك المحاضرة من أحد العوامل التي جعلتني أناقش تلك المسألة ، مسألة العمارة الطينية ، وهل نستطيع أن نقيم من خلالها حضارة نفاخر بها ، أم أن الأمر لايتعدى حلا لفقراء العالم كما بين الرائد حسن فتحي ، وإذا كان الأمر يقع في الإحتمال الثاني فلماذا الطين ففي الصين مثلا يستخدمون قش الأرز المكبوس وفي أفريقيا يستخدمون البامبو وأوروبا يستخدمون الخشب ' أليس حريا بنا بعد ذلك أن نفكر في أن يختص كل مكان بأرخص المواد التي تتوفر لديه ، وليس هناك أي ضرورة في تعميم مادة الطين.

بقي هناك أمر أحب في المقدمة أن أنوه إليه ، وإن كنت سأتناوله بالتفصيل من خلال هذا الباب ، الذي سيناقش كتاب عمارة الفقراء ، الأمر هو أننا حين تناولنا مادة الطين في عمارة حسن فتحي أخذنا خطوط العمارة الطينية ، من نسب جميلة وفراغات رائعة ومشربيات باهرة ، لكننا لم نفكر في تطوير وتطويع مادة الطين بحيث تكون أكثر صلابة وأشد متانة ، الأمر الذي يجعلها تقوم بمهام أكثر من التي تقوم بها حالياً ، بل ربما يتطور الأمر إلى أن تعوض الطوب الأحمر أو الصخر. هذا أمر لا ينكره عاقل ولا يجادل فيه ممارس في حقل الهندسة المعمارية .

لقد كان عمال اليمن أكثر براعة من مهندسي مصر حين شيدوا بنظام إنشائي فريد ناطحات سحاب الصحراء في منطقة شبام حضرموت ، والتي وصلت عماراتها السكنية إلى الطابق التاسع.

كما كان جون نوفيل أكثر وفاءاً منا للمشربية حين أخرجها عن إطار عملها وطور فيها ، بحيث إستطاع أن يستخدمها كمشربيات متحركة في مبنى معهد العالم العربي بباريس. هذه المشربيات تفتح إذا كانت شدة الإضاءة خافتة، في فترتي شروق وغروب الشمس ، وتغلق عند زيادة شدة الإضاءة ، أي فترة الظهيرة ، وبالتالي فهذه الواجهات واجهات ذكية ، وهذه المشربيات مشربيات مطورة.

مشكلتنا الحقيقة في العمارة الإسلامية أننا لانريد تصويراً حقيقياً. فنحن نتناول العمارة من حيث جمال الخطوط وروعة النسب ، وذاك أمر استخدمه

النوبي القديم قبل حسن فتحي .

أين تطبيقات تكنولوجيا العصر على تلك المادة؟

ماهو موقع النانو تكنولوجي من العمارة الطينية؟

أين هي النظم الإنشائية المستحدثة في مادة الطين؟

وحتى لا أكون أدعو إلى أمر ولا أطبقه ، فإن من الأبحاث التي قمت بها ونشرت في دوريات عالمية «أمريكا وأوروبا» ، بحث إستطعنا من خلاله، أنا والزميل العزيز الدكتور أحمد كريم ، تصميم شبكة من حبال الشد، هذه الشبكة والتي هي من الخيط الذي يستخدم في الحياكة، إستطاع هذا الخيط بناء على التصميم الذي قمت بوضعه أن يحمل قطعة من الرخام بسمك ٢سم .

فالإنجار مرتبط بالتحدي ، والتحدي باعث على الإبداع.

ومنهجنا في هذا الباب ، بعد أن تعرفنا على الحضارات القديمة ، أن نعرف أولا برائد العمارة الطينية ، والذي ذاع صيته وإعترفت به هيئات وحكومات ، ثم نناقش كتابه فصلا فصلا.

رائد العمارة الطينية

ولد المهندس حسن فتحي في ٢٣ مارس ١٩٠٠م ميلادية بالأسكندرية ، وتخرج في «المهندسخانة» بجامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة حاليًا»، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٥٩م، وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٩م، وتُوفي سنة ١٩٨٩م دون أن يتزوج، لكنه أعطى حياته كلها لأفكاره. وتكمن الأهمية الحقيقة لحسن فتحي في كونه مهندسًا له وجهة نظر خاصة مرتكزة على تراث أمته ومستفيدة في الوقت نفسه من إنجازات الآخرين. فالبناء عنده لم يكن مجرد جدران وسقف، بل كان حياة وحضارة، وتراثًا لم يمت، بل ما زالت روحه حية، وإعدادًا جيدًا لمستقبل متواصل مع هذا التراث تواصلاً جديًا في غير انقطاع.

طرح المهندس حسن فتحي حلولاً لمشكلات الاسكان: قيام الأهالي بالبناء

بأنفسهم لأنفسهم عن طريق التعاون التقليدي، وليس الجمعيات التعاونية ذات الموظفين البيروقراطيين، وإخضاع علوم الهندسة والتكنولوجيا الحديثة لاقتصاديات الأهالي ذوي الدخول شديدة الانخفاض.

وهذا هو ما أكسب حسن فتحي صيتا ذائعاً ، بغض النظر احتوت تلك الطريقة على تطوير حقيقي في مادة الطين أم لا.

وقد كان ثابت في ذهن حسن فتحي أن يكون المعماري ليس مجرد مهندس، ولكنه مدرك للأبعاد المختلفة للبيئة والسكان تاريخيًا واجتماعيًا وسيكولوجيًا وبيولوجيًا، كما يهتم بمراعاة مناسبةالبناء للمكان (وادٍ / صحراء / جبل) حتى لا يكون قبيحًا وغير متناسب مع البيئة، وهو يعبر عن سعة أفقه وذكاء فهمه بقوله: «إن ثَمّة عناصر قديمة بائدة في العمارة التقليدية لا تصلح اليوم، مقابل عناصر أخرى فعالة متطورة هي التي يجب استخلاصها وإثراؤها بوحي من مواد البناء المحلية».. فالفن المعماري عند حسن فتحي «ليس صيغة ثابتة لكل العصور، بل هو مرهون بالملامح والقوى والسمات السائدة وبالظروف الخاصة الدائمة التغير».

وكانت له معاناته الكبيرة من جراء سيطرة الثقافة التقليدية على أفكار مهندسي تلك الفترة والتي لم يسلم منها حتى زملاؤه الذين سايروا، وجاملوا، وقلدواشتى النزعات القريبة الحديثة. تنبثق أهمية حسن فتحي من تلك المعاناة، وتكمن تلك الاهمية في أمر بسيط، والأمر البسيط يعكس، دائماً، جوهر الحقيقة: لقد كان فتحي اول من شخّص مركب النقص عند معمارييننا إزاء منجزات العمارة الغربية. وقد يبدو هذا الأمر، في يومنا هذا، مسألة اعتيادية، فنحن محاطون بجملة من هذه الآراء التي نلحظ حضورها كلما جرى الحديث على واقع العمارة العربية.

يقول الأديب جمال الغيطاني في تقديمه للطبعة العربية من كتاب «عمارة الفقراء»: «أصبح فكر سيد البنائين المصريين حسن فتحي ملكًا للإنسانية كلها،

أفكاره المعمارية تتجسد في مصر وأمريكا وأوروبا وآسيا.. إنها ليست مجرد أفكار هندسية.. ولكنه بحث أصيل ودؤوب في الشخصية والهوية والتراث المعماري والفكري والحضاري للشرق».

كان حسن فتحي يرى أن أهم مشكلات المعمار والإسكان في الدول الفقيرة كمصر تكمن في الفوارق الرهيبة بين القدرات المادية والدخل السنوي للأهالي وتكاليف البناء، مما يؤدي إلى عدم القدرة على بناء العدد الكافي من المساكن التي يحتاجها أفراد المجتمع، فيحظى بالمساكن من يملكون تكاليفها، وتبقى الأغلبية الفقيرة بلا مأوى، إلا الأكشاك أو الخيام أو التكدس كل عشرة أفراد في شقة من حجرة واحدة وصالة، مما يؤدي بدوره إلى مشاكل اجتماعية نفسية لا نهائية.

ويرى أن الإصرار على حل المشكلة بالمساعدات المالية التي تُمْنح للأهالي عن طريق الحكومات أو الهيئات الدولية لن تأتي بنتيجة، كذلك لن تكون ميكنة البناء واستخدام المباني الجاهزة أو الطرق الغربية في البناء حلاً لعظم تكاليفها.

العقبة الاقتصادية الرئيسية في عملية البناء تتمثل في السقف؛ لأنه يتطلب «استعمال مواد تتحمل جهود الشد والانحناء والقص بالخرسانة المسلحة والخشب، ومن هنا كان تمسك الخبراء بهذه المواد المصنعة، وحل هذه المشكلة الفنية عند حسن فتحي مُسْتَمَدٌ من تراثنا المعماري الذي انتهجه الأجداد الذين أعطوا السقف شكل قبو ذي منحنى سلسلي، وبذلك امتنعت كل جهود الشد والانحناء والقص، واقتصرت على جهود الضغط، والطوب الأخضر يتحمل هذه الضغوط بكل يسر، إن القدامى حلوا المشكل عن طريق الشكل الهندسي للسقف وليس عن طريق استعمال المواد المصنعة الغالية، وهكذا أخضع القدماء التكنولوجيا لاقتصاديات الأهالي الفقراء بحيث تسمح بإنشاء هذه الأسقف المقببة بدون صلبات أو عبوات خشبية، إنهم يثبتونها في الهواء، بكل بساطة بالطرق التي كانت سائدة إلى الأمس القريب في بلاد النوبة، التي لم تزل سائدة

في إيران إلى اليوم وخاصة في إقليم يرد».

كان المفهوم الواسع لكلمتي الثقافة والتراث هو مدخل حسن فتحي إلى فلسفته في مجال العمارة، فهو يرى أن «الثقافة عُرفت بأنها نتيجة تفاعل ذكاء الإنسان مع البيئة في استيفاء حاجاته المادية والروحية، وينطبق أكثر ما ينطبق صدق هذا التعريف على الفنون التشكيلية ومنها العمارة، لأنه ليس من المعقول أن يصور مصور سويسري لوحة بها جِمال ونخيل عن طبيعة بلاده، كما لا يمكن ولا يُعْقل أن يقوم مهندس معماري عربي ببناء شاليه سويسري في مصر أو الكويت، وبجواره نخيل وجمال، إنه يكون أمرًا مضحكًا كما هو في الأفلام الهزلية، ولكن للأسف هذا هو الحادث اليوم في كافة البلاد العربية، ليس ببناء شاليهات سويسرية في المنطقة العربية، وإنما ببناء عمارات أمريكية على الطراز الغربي الحديث الذي يتنافى مع طبيعة البلاد وأشكال الناس وملامحهم التي تصبح عندما نراهم بجوار تلك المباني كأشكال النخيل والجِمال بجوار الشاليه السويسري».

لقد طبق حسن فتحي فلسفته في قرية القرنة في البر الغربي - جنوب وادي النيل - في مواجهة الأقصر، وشرحها تفصيليًا في كتابه «عمارة الفقراء» الذي نُشر بعدة لغات أجنبية وأعطى حسن فتحي الشهرة العالمية، كما طبق أفكاره المعمارية أيضًا في قرية «مشربية».

أما بخصوص أفكاره حول البحيرات الصناعية، فبعد إنشاء السد العالي ونضوب الطمي من النيل، لجأ الفلاحون - للحصول على الطمي لتصنيع الطوب - إلى كشط الأراضي الزراعية، وعمل برك ومستنقعات لهذا الغرض تؤدي إلى انتشار الأمراض، وكان اقتراح حسن فتحي هو إنشاء بحيرات صناعية لهذا الغرض؛ لأن البحيرة التي مسطَحُها خمسة أفدنة ستعطي طميًا يعادل الطمي الناتج من سطح ١٠٠ فدان، لكنه أكد على اختيار الموقع المناسب، وتصميم البحيرة بحيث يمكن تجديد هوائها دوريًا، وبحيث يمكن تعقيمها في الوقت نفسه، وبذلك يتم القضاء على سركاريا البلهارسيا، والمحافظة على خصوبة

الأراضي الزراعية، والحصول على كميات هائلة من الطمي لصناعة الطوب.

ويلخص ويليام ر. بولك رئيس معهد أدلاي ستيفنسون للشئون الدولية تجربة حسن فتحي قائلاً: وما يقترحه الدكتور فتحي هو شكل جديد من المشاركة، أما ما ينبغي أن يُسَلِّم به الفقراء في هذه المشاركة فهو بالضرورة عملهم، كما يمكنهم في كثير من أنحاء العالم أيضًا أن يحوزوا بلا تكلفة جوهرية مادة بناء واحدة ممكنة هي التربة التي تحت أقدامهم، وبهذين الشيئين - العمل والتربة - يمكنهم أن ينجزوا الشيء الكثير، على أن هناك مشاكل تقنية ومشاكل أخرى لا يستطيعون حلها بأنفسهم، أو هي عرضة لأن يتم حلها بطرق مكلفة أو قبيحة أو غير سليمة، وهاهنا فإن المهندس المعماري يستطيع أن يقوم بإسهام رئيسي، وما يبينه حسن فتحي لنا هو أن المهندس المعماري يمكن أن يكون هو المرشد لما يكون أساسًا مشروعًا يعتمد على الذات أو يعتمد على العون الذاتي، وحسن فتحي إذ يخوض في الصراع مع مشاكل الفقر الساحق، ومع البيروقراطيين فاقدي الإحساس، ومع أناس مليئين بالشك، ومع أناس كئيبين بلا مهارات.. فإنه هكذا قد وَلّد لا الإجابات فحسب، بل ما هو ملهم أيضًا، والحل الذي يطرحه له أهميته.

يمكن تقسيم أعمال حسن فتحي إلى خمسة مراحل:

الأولى ١٩٢٦- ١٩٣٧ : بعد تخرجه مباشرة وفيها كان يتبع الطرز العالمية في البناء.

الثانية ١٩٣٧- ١٩٥٦ : و اتجه فيها إلى اكتشاف و إحياء العمارة المحلية و ابرز مشاريعها قرية القرنة.

الثالثة ١٩٥٧- ١٩٦٢ : هي فترة عمله في اليونان و فيها قام بالعديد من المشاريع و شارك في مشروع مدينة المستقبل.

الرابعة ١٩٦٣-١٩٨٠ : هي اكثر المراحل انتاجية و ابداعا و اشهر مشاريعها قرية باريس.

الخامسة ١٩٨٠- ١٩٨٩ : قلت فيها المشاريع - لدواعي التقدم في السن

- و أهم مشاريعها هي قرية دار الإسلام .

أكثر من ١٦٠ مشروع من أهمها و التي تمثل نقطة تحول بارزة في أعماله:

١٩٣٧ فيلا جرافيس و كانت أول منزل يستخدم فيه عناصر جديدة مثل الفناء المركزي و الفصل بين المساحات العامة و الخاصة و المقعد و المشربية وذلك خلافا لأعماله السابقة التي كان يغلب عليها النمط المعماري العالمي.

١٩٤١ منزل للجمعية الزراعية الملكية في بهتيم و هو أول مشروع يستخدم الطين في بنائه وبسببه اتجه إلى اكتشاف تقنيات البناء النوبية لإنشاء القبة و القبو.

١٩٤٨ قرية القرنة اشهر أعماله التي روي قصة بنائها في كتاب عمارة الفقراء، مما شد الانتباه العالمي إليه. وقد تم بناء بعض المباني الخدمية و ١٣٠ منزل من اصل ٩٠٠ منزل كان من المخطط بنائها.

١٩٤٩ فيلا عزيزة هانم حسنين و هي أول مشروع يستخدم في بنائه الحجر.

١٩٥٠مسجد في البنجاب بالهند و استخدم فيه لأول مرة بلاطات مطوية خفيفة الوزن baratsi truss لتغطية السقف.

١٩٦٧ قرية باريس و استطاع فيها الوصول إلى خفض هائل لدرجة الحرارة يصل إلى ١٥ درجة مئوية باستخدام أساليب التهوية الطبيعية لمبني السوق و تم بنائها بالطوب الرملي .

وتلقى حسن فتحي العديد من الجوائز منها:

١٩٥٩ جائزة الدولة التشجيعية للفنون»ميدالية ذهبية«- مصر.

١٩٦٧ جائزة الدولة التقديرية للفنون الجميلة - مصر.

١٩٨٠ جائزة الرئيس - منظمة الاغاخان للعمارة .

رحلة فشل أكسبته النجاح

من الوارد أن يكون ما يطرحه الإنسان غير نمطي فيرفضه الناس،

فرفضهم ليس دليلا على عدم صلاحيته ، بل دليل على إختلافه ، وذاك شأن أعمال حسن فتحي ، فقد بأت بالفشل لا لعدم صلاحيتها بل لإختلافها

الفشل الأول في بهتيم:

وضع حسن فتحي تصميما كاملا للقرية التي كان يحلم بإنشائها، وبدأ البحث عن موقع لإقامتها وعن جهة تنفق على تنفيذها، وحصل على هذه الفرصة عام ١٩٤١ عندما قررت « الجمعية الزراعية الملكية « أن تبني مساكن نموذجية للفلاحين في قرية « بهتيم «، واستطاع أن يقنع المسئولين بمشروعه، وكانت تجربة فريدة أثارت اهتماماً واسعاً بين الزراعيين، لكنها لم تجد ترحيباً بين المسئولين أو لدى زملائه المهندسين، وقد أدهشه أن تقابل هذه التجربة بالرفض والتجاهل. كان الفكر الهندسي السائد في مصر يقدس العمارة الغربية الحديثة، ويهزأ من فكرة العمارة الريفية والشعبية، ويعتبرها تخلفاً أو تمسكاً بالتخلف، لهذا رأى المعماريون في نظرية « حسن فتحي» تخلفا يبعد بها عن العصرية. أما هو فكان يرد على زملائه بقوله: « ليس من المعقول أن نشيد بيتا شرقيا في أوربا، أو بيتا أوربيا في الصحراء العربية، إن طبيعة المناخ المحلي تفرض طراز البيت، ومن الخطأ نقل الأفكار من بلد لآخر دون أي اعتبار للظروف المناخية والتقاليد الاجتماعية المحلية «. وكانت مجموعة المباني التي أقامها في « بهتيم « هي فشله الأول، فلم تكن قرية متكاملة، وقد عانت من التجاهل والسلبية من المسئولين، كما رفض الفلاحون سكناها لأن تصميم البيوت لم يتضمن مكانا لحظيرة المواشي التي أبعدها المعماري عن مسكن الفلاح، وبرر ذلك باعتبارات صحية، ولأنه كان يتقزز من فكرة معيشة الإنسان مع حيوانات الحقل في مسكن واحد. لم يتفهم حسن فتحي الأرستقراطي النشأة، أن إصراره على عزل حظيرة المواشي عن مسكن الفلاح هو أمر يطير النوم من العيون، فالبقرة التي تعمل مع صاحبها في الحقل نهارا يتحول هو إلى حارسها ليلاً ، يطعمها ويحلبها . ولم يدرك المعماري المفكر مدى عمق الارتباط بين الفلاح المصري وماشيته ولم

يفطن إلى أن هذه العلاقة بلغت من المبالغة والتضخم حد التقديس في بلد زراعي آخر هو الهند، ومن هنا كان إصراره على عزل الفلاح عن ماشيته بحجة أن اشتراكهما في المسكن أمر غير صحي وغير إنساني .

هذا الإصرار لقي تعاطفاً في الغرب ورفضاً مطلقاً من الفلاح المصري، وقد أصر حسن فتحي على هذا الموقف ورفض أي مرونة أو تنازل عنه طيلة حياته، وهي مسألة كان يتحتم إيجاد حل معماري لها دون الإصرار على التفرقة بين الفلاح وماشيته التي يستهدفها اللصوص والضواري. وقد تصدعت مساكن بهتيم المهجورة ولم تعش طويلاً، كما أن الفنان لم يكن في ذلك الوقت قد وضع دراسات علمية إنشائية حول قدرة الجدران الطينية على التحمل، كما لم يكن قد توصل بعد إلى فكرة الأسقف بالقبة والقبو التي واصل استخدامها النوبيون حتى تهجيرهم.

الفشل الثاني في قرية القرنة:

جاءت الفرصة الثانية عندما طلبت منه مصلحة الآثار عام ١٩٤٦ أن يبني قرية كاملة غرب مدينة الأقصر لينتقل إليها أهالي « القرنة «. وقرية « القرنة « تقع في الجبل الغربي فوق أغنى منطقة بالآثار المصرية القديمة حيث مقابر الملوك والملكات والنبلاء، وأثمن كنوز الحضارة المصرية القديمة. وقد تفنن أهل « القرنة « في التفتيش عن الآثار وفي بيعها وتهريبها، بل وصهرها أحيانا لبيعها ذهبا خاما، وكان لهم تاريخ طويل ضج منه رجال الآثار، وفيلم « المومياء « لشادي عبد السلام يبرز بلغة السينما جانبا من هموم هذه المنطقة. لم يجد المسئولون عن الآثار حلا لهذه المشكلة سوى تهجير أهالي قرية القرنة من موقعها في الجبل إلى مكان آخر، لحماية ما تبقى من آثار. كما وجدوا أن أرخص عمارة وأكثرها ملائمة « للقرنة الجديدة « النموذجية هي عمارة حسن فتحي الطينية. وأحس المعماري الفنان أن هذه هي فرصته لإبراز أفكاره بشكل عملي يفحم كل معارضيه، فجمع العمال والبناعين وذهب إلى القرية القديمة وطاف بها بيتاً

بيتاً، وقابل أهلها وأقطابها وشرح لهم مزايا الانتقال، وضرورة التخلي عن الحلم الموروث في الحصول على الكنز، واستطاع أن يقنع أغلبهم بل ويثير حماسهم .

وارتفعت أعمدة المباني العامة : المسجد، والمسرح، والسوق، ومعرض لمنتجات القرية، ومدرسة للبنين، وحظيرة المواشي الجماعية، وعدد من المرافق الأخرى، وحول منطقة المرافق تمت إقامة جزء من المباني السكنية. لكن العقبات بدأت تظهر ليتعثر المشروع ثم يتوقف، وأعلن حسن فتحي أنه لم يستطع إتمام مشروعه، واعترف بفشله الثاني، وامتنع أهالي القرنة عن النزول من الجبل لسكن القرية الجديدة، وكانت الأوضاع السياسية قد تغيرت بعد ١٩٥٢ فلم تجبرهم السلطات على الانتقال، كما أن الفلاحين في المنطقة رفضوا سكنى القرية بسبب الفصل بينهم وبين ماشيتهم. وظلت قرية القرنة الجديدة لأكثر من ٣٠ عاما « سيمفونية لم تتم « لأنها ظلت مهجورة، حتى أدى ضغط الانفجار السكاني إلى سكناها بعد تغيير بعض معالمها، وقد تم ترميم المسرح عام ١٩٨٣. وفي قصة « الجبل « لفتحي غانم- التي تحولت إلى فيلم سينمائي- جانب من أحداث هذا المشروع الذي ظل مهجورا حوالي ثلاثين عاما. و في أغلب الأحوال فإن الخطأ في العمارة سواء من ناحية منفعتها أو جمالياتها، يعلن عن نفسه كاشفاً عن عيوبها أو محرضا الناس على السؤال عن سبب « خرابها «، وكأنه جريمة معلنة طوال الوقت.

وقديما قال أحد الحكماء: « إن الطبيب يدفن خطأه بينما المعماري يبرزه للناس كعاهة المتسول ! «. وقرية القرنة « ظلت مهجورة عشرات السنين، ومعروف أنها من الناحية الجمالية أقرب إلى قطعة موسيقية عذبة منها إلى قرية ريفية، وكانت مشاهدة « القرنة الجديدة « وزيارتها تمثل جزءا في برنامج رحلات السائحين وزائري المنطقة من المصريين والأجانب، إلى جانب مشاهدة الآثار، وقد رفض أهالي « القرنة الجديدة « الهجرة إلى المنطقة المنخفضة لرطوبتها بعيدا عن الجبل، ولأنهم يتعالون على الفلاحين الذين يسكنون المنطقة الزراعية،

ومهنة أهالي « القرنة « هي إرشاد السائحين والاتجار في الآثار الحقيقية والمزيفة. ورغم هذا فقد حققت تصميمات حسن فتحي للقرنة أكبر نجاح لنظريته عندما عرضها ودافع عنها في كتابه « القرنة.. قصة قريتين « الذي طبع فيما بعد تحت اسم « عمارة الفقراء «، وهذا هو مثار التعجب في حياة هذا المعماري العبقري عندما حصل على الجوائز والتقدير المحلي والعالمي عن فشله الثاني في مشروع معماري لم يتم .

الفشل الثالث في الواحات باريس الجديدة

المشروع الثالث الذي أقامه الفنان هو قرية « باريس الجديدة « في أصغر واحات الوادي الجديد قرب « الخارجة « وقد تبنت هذا المشروع مؤسسة تعمير الصحاري. و « باريس الجديدة « في بعض المصادر تبعد ستة كيلو مترات عن واحة باريس القديمة، حول بئر اكتشفته هيئة تعمير الصحاري عام ١٩٦٣، وقد وضع الفنان دراسات دقيقة تفصيلية وبدأ التنفيذ عام ١٩٦٥، وقبل أن يتم مشروعه قامت حرب ١٩٦٧ فتوقف العمل. لكن الأهالي رفضوا الانتقال إلى القرية الجديدة لسبب غاب عن وعي الفنان وربما لم يكن في مقدوره أن يتفاداه، إذ إن أهالي الواحات يقيمون مدافن موتاهم في مبان ذات أقبية وأسلوب البناء عند حسن فتحي يحتم استخدام القبو والقبة، لهذا رفض الأهالي الانتقال إلى القرية الجديدة فقد تصوروا أنهم سينتقلون إلى مجموعة من القبور، وفشل المشروع الثالث ونتذكر حسن فتحي اليوم كذاك المهندس الفريد صاحب الرؤية الجديدة الذي ترك تأثيرا واضحاً على أجيال كاملة من المعماريين.

ويبقى حسن فتحي رائدا للعمارة الطينية ، إذ أنه فكر في مصلحة الفقير، وسبح ضد التيار السائد للعمارة في مصر أنذاك، ولم ينظر إلى ربح مادي أو شهرة ذائعة الصيت ، لكنه كان يبحث عن حل لمشكلة الفقراء في مصر ، أين يسكنون؟

عمارة الفقراء

كتاب عمارة الفقراء يغلب عليه طابع السرد ، أو توثيق التجربة . وإذا نظرنا إلى اسمه الأول ستجد صحة ماأقول « القرنة: قصة قريتين». ونظراً لحب حسن فتحي للموسيقى ، أو تأثره في حياته بالعزف والأوتار فهو ابن الأثرياء، او لإعتباره أن العمارة نوع من أنواع الموسيقى ، وهو ما نرفضه ، فقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام:

لحن الإستهلال : وفيه يجسد الحلم والواقع ، معرفا بالريف والطوب واللبن، معرجا على تكنيك عامل البناء النوبي ومتبحرا في شرح التجربة الأولى .

لحن الترنيمة: وفي هذا الباب يشرح فتحي تجربة القرنة بالكامل ، وما شابها من ملابسات وظروف عاقت عملية التنفيذ ، مع عدم إغفال عادات وتقاليد أهل القرية . كذلك الصراع الفكري والإجتماعي بين نمطين من البناء ، نمط البناء الريفي ، والذي يريد حسن فتحي أن يتبناه ، ونمط البناء الخرساني الحديث ، والذي يعتقد أهل القرية أن فيه تقدمهم ، وإنتقالهم من طبقة إجتماعية إلى طبقة أفضل.

هذا الباب هو أكبر أبواب الكتاب ، ولاشك أن حسن فتحي بذل الكثير من وقته وماله وذهنه في إقناع أهل القرية . ولاشك أنه كان يحمل كل خير فيما يقول أو يفعل ، لكنه لم يحقق مراده ، ولم يحقق ما ترجوه منه علوم الهندسة كمعماري كبير عرفه العالم كرائد للعمارة الطينية.

لحن الترديد :في هذا الباب يتطرق حسن فتحي إلى ثلاثية جديدة في عالم البناء ، فالثلاثية التي نعرفها هي ، المالك المعماري المقاول . لكن حسن فتحي يضع ساخراً ثلاثية جديدة هي المعماري الفلاح البيروقراطي .

لحن الختام :هذا هو الباب الأخير وفيه يبث حسن فتحي مشاعره الجديرة بالإحترام ، من بحث عن نصر ، ومحاولة لتغيير مجتمع ، بل تغيير عقول وقعت أسيرة التقدم الحضاري في الغرب .

وسنتناول بإذن الله في هذا الكتاب جميع تلك الفصول بشيئ من التحليل، متلمسين منهج البحث عن الحقيقة ، فما وجدناه حسناً أثنينا عليه ورفعناه فوق رؤوسنا ، وما وجدنا به خللا في المنهج أو التطبيق لفتنا إليه النظر مقدرين في ذلك أن سلبيات هذا المشروع لاتعد سلبيات حقيقية ، لأنها على كل الأحوال كانت خطوة نحو فكر جديد ، بل فكر متروك ، تركه المصريون ،لأنهم ظنوا في البناء الخرساني شيئا من التمدين .

الباب الأول :

يبدأ المعماري حسن فتحي كلامه بسؤال رائع ، يرجح من خلاله العود إلى الأصالة والبساطة والقيم الجمالية التي بها يكون المجتمع. فحسن فتحي يقول أننا عندما كنا أطفالا كان يوجه إلينا سؤالا واحد لا ثاني له ، ماذا لو أن معك مليون جنية؟

ويجيب فتحي – والسياق يحمل ترجيح الإجابة الثانية – إما أن اشتري يختاءًأدور به حول العالم أو ابني قرية يتبع فيها الفلاحون أسلوب الحياة الذي أتمناه لهم.

يقول فتحي أنه ليس له أي صلة بالريف ، فقد نشأ في حياة رغيدة ، ليس لها أي صلة بالريف ، إلا من خلال صور رسمها ذهنة ، وذلك من خلال القصص التي كانت ترويها أمه عن الريف ، وعن حياة القرويين ، فاجتمع في ذهن المهندس حسن فتحي صورة عن جنة ، لكنها جنة يعلوها الذباب والباعوض، وذلك بسبب كلمات أبيه التي كانت لا تخلو من النقد اللاذ ع للقرويين بسبب عدم إهتمامهم بالنظافة.

كون حسن فتحي صورة عن الريف بأنه جنة ، وأحب تلك الصورة من خلال حبه للبساطة والصدق والفطرة ، وبدء ينظر فيما ينقصهم ، فإذا استطا ع أن يمسك بتلابيب المشكلة ، واستطا ع أن يحلها ، فقد أوجد لمن يحب ولنفسه أيضا تلك الجنة المفقودة .

إن المدقق في شخص حسن فتحي يجد أن حبه للريف حبا قديما ، فقد رغب في دراسة الزراعة ، وذهب بالفعل إلى إمتحان القبول ، لكنه لم ينجح ، كما ذكر هو في مقدمة كتابه ، ودرس الفنون التطبيقية عوضا عنه ، وبعد أن تخرج من قسم العمارة ، ذهب ليشرف على بناء مدرسة في بلدة طلخا ، وهي مدينة ريفية صغيرة على النهر في شمال الدلتا مقابل المنصورة، فوجد كل مايعانيه الفلاح ، من شوارع ضيقة غارقة في الطين وكل أنواع القاذورات ، وهنا شعر حسن فتحي بالمسئولية التي تلقى على كاهليه ، وأن عليه أن ينقذ ذلك المسكين ما يعاني .

لم يكن حسن فتحي مهندسا معماريا ، بل كان مهندسا زراعيا ، أقام لنفسه جدران وأسقف تتناسب مع تصوراته وإحتاجاته. لقد ظلت الزراعة في دمه وعروقه حتى وإن لم يدرسها ، لذلك لا تجد له مبنا شاهق في الإرتفاع.

إن فتحي إنسان من الطراز الأول ، باحثا عن البساطة ، مبتعداً عن الزيف ، يرى في الريف جنته ، وفي مبانيه مهمته التي تبناها .

تكنيك النوبة

أقام حسن فتحي أول معرض بالمنصورة لتصميماته الريفية ، والتي اعتمد فيها على مادة الطوب اللبن ، يقول فتحي أنه في ذلك الوقت كانت أجواء الحرب سائدة ، ولم تكن هناك وفرة في مواد البناء ولا في السيولة الإقتصادية ، فما المانع من اللجوء إلى الطين لصنع مادة البناء، التي هي اللبنة الأولى للمسكن الريفي. إن الأجداد لم يستوردوا الحديد من بلجيكا ولا الخشب من رومانيا ، ولكنهم اعتمدوا على المادة المحلية، ومن خلالها وجدت أشكال مثل القبو والقبة. لحل مشكلة عدم وجود حديد للتسليح.

يقول حسن فتحي « ثم تذكرت أن القدماء أمكنهم بناء الأقبية دون شدة خشبية كهذه ففكرت في أن أحاول فعل نفس الشيئ» لكن محاولات حسن فتحي في عمل القبو دون شدة انتهت إلى لاشيئ ، ولم يوفق إلا بعد إستيراد الحل من النوبة .

يقول حسن فتحي « وكان إنطباعي الأول هو عن معمار أسوان نفسها الذي يتصف إلى حد بالغ بعدم التميز. إنها مدينة إقليمية صغيرة ، وتبدو كقاهرة رثة مصغرة مزروعة في الريف، نفس واجهات المباني المدعية، نفس واجهات الدكاكين المبهرجة ، نفس الجو ذو العلاقات السقيمة لشيئ قد يصبح جو مدينة. قرحة صغيرة كئيبة للعين ، تتلف المشهد الدرامي البديع للجندل الثاني. لم يكن في أسوان شيئاً مما أطلبه ، وبالتأكيد ما من علامة إلى تلك الإشاعات عن التكنيكات التي أتيت بحثاً عنها. وكان من خيبة أملي انني كدت أقرر أن ألازم فندقي. على أني قمت برحلة عبر النهر ، ذلك أن أخي كان قد أخبرني أنني يجب أن ألقي نظرة على القرى التي في الضواحي بدلا من أسوان نفسها . وما أن دخلت أول قرية ، وهي غرب أسوان ، حتى أنني قد وجدت ما جئت من أجله»

وأستمر في النقل عن الرائد حسن فتحي بكلامه هو « كان ذلك عالما جديدا عليّ، قرية بأكملها من بيوت رحبة ، جميلة، نظيفة، متجانسة، كل بيت فيها أجمل من البيت الذي يليه . ليس في مصر شيئا يشبه هذه القرية ، إنها قرية من بلد الأحلام»

ومن العجيب أن في تلك القرية وجد حسن فتحي القبة والقبو اللذان يبحث عنهما ، سقف من الطوب اللبن دون شدة خشبية. وهنا لابد من الإنحناء لفكر الرائد حسن فتحي ، فهو يعتبر أن هذه القرية قرية بكر لم تلوثها أمراض الحضارة ويقول على حد تعبيره « قرية من عهود ماقبل السقوط ، قبل أن تؤدي النقود والصناعة والجشع والتكبر إلى فصم المعمار عن جذوره الحقيقية في الطبيعة»

وتلك عبارة يجب التوقف عندها ، ففتحي يرى كعبقري رائع أن المعمار الحقيقي هو ما أنتجه الإنسان بناء على إحتياجاته ، ومازاد على ذلك فهو معمار مزيف.

ووجد حسن فتحي أن سكان تلك القرية هم الذين يشيدون منازلهم بأنفسهم ،فلا يوجد عمال بناء ، إنما يشيد كل رب أسرة منزله بنفسه. وهنا وقع حسن فتحي على كنز ، فكل هؤلاء عمال بناء ذو كفاءة عالية، وعلى الجانب الآخر شهد حسن فتحي المقابر الفاطمية بأسوان ، وأنها تتبع نفس الاسلوب في تشيد القباب والقبوات.

وظن حسن فتحي أننا لو إستخدمنا هذا الإسلوب في البناء العادي، بتغيير نسبه وأحجامه ، سوف يقبله الناس ، الأمر الذي لم يحدث ، وبقي عالقا في أذهان الناس أن تلك الطريقة من البناء خاصة بالمقابر فقط ، لذلك لم يسكنوها.

الأمر كان يحتاج إلى تغيير في الشكل ، الذي يستلزمه تغير في الكفاءة الإنشائية ، وذاك أمر يتنافى مع فكر حسن فتحي عن العمارة في مرحلته العمرية الأولى ، فمدرسة الفنون التطبيقية ، لا تدرس علوم الإنشاء ، وتتناول العمارة من المنظور الفني فقط . هذا الضعف الإنشائي أدى إلى أخذ القباب كما هي ، ونقلها من المقابر إلى غرف النوم ، بل أصبح عامل البناء الذي يجيد تلك الصنعة هو السيد ، ويفوق كل من يقومون على العملية البنائية بما فيهم المهندس المعماري.

إننا لو توفر لدينا فكر البدائل الإنشائية المختلفة ، مع تطوير مادة الطين، عن طريق إضافة عناصر أخرى إلى الكتلة الطينية، لإستطعنا تطوير الشكل ، وبالتالي لتقبلته الجماهير ، دون أن يبقى عالقاً في أذهانهم أن تلك الأشكال خاصة بالمقابر.

خطوة قبل القرنة

لما اقتنع الرائد حسن فتحي بإسلوب البناء الأسواني ، أتاحت له الظروف، عن طريق أحد الأصدقاء ، أن يعرض خدماته على اللجنة الفنية للهلال الأحمر، بعد إنهيار عشرين منزلا بعزبة البصري. عزبة البصري تلك كانت تقع خارج المعادي ، وكانت مأوى للصوص .

إقترح حسن فتحي أن يبني العشرين منزلا بثلاثة ألاف جنية ، أي بتكلفة تصل إلى ١٥٠ جنية للبيت الواحد . ومكنت اللجنة من بناء منزلا واحد تكلف ١٦٤ جنية ، ثم اعتذرت له بعد ذلك وكلفت المهندس الخاص باللجنة الهندسية للهلال الأحمر ببناء العشرين بيتاً . تكلف هذا المشروع مبلغ ٢٢ألف جنية ، أي تسعة أضعاف المبلغ الذي قدره حسن فتحي.

لكن هذا المشروع على الرغم من فشله ، إلا أنه كان الباب الذي دلف منه حسن فتحي إلى مشروع القرنة الجديدة ، فقد شاهد رئيس مصلحة الآثار للبيت الذي بناه حسن فتحي بعزبة البصري ، وصادف ذلك أن قررت مصلحة الآثار نزع ملكية سكان قرية القرنة ، بسبب تكرار عملية السرقة من مقابر وادي الملوك.

قرية القرنة هذه تقع بالقرب من مدينة الأقصر ، على نفس التبة التي شيدت عليها المقابر . وقد كانت المقابر مقسمة إلى ثلاث أجزاء ، وادي الملوك إلى الشمال ، ووادي الملكات إلى الجنوب ، وفي الوسط مقابر النبلاء . وأقيمت قرية القرنة على مقابر النبلاء ، ومع مرور الزمن تكررت السرقات ، وقررت بعدها مصلحة الآثار إستصدار أمر بتهجير سبعة ألاف شخص من القرنة القديمة.

ولما صادف أن رأى رئيس المصلحة مشروع بيت عزبة البصري ، فقد اتصل بحسن فتحي وكلفه بالمشروع ، بعد أن وقع الإختيار على قطعة أرض تبلغ مساحتها خمسين فدانا أسفل الوادي . وأصبح حسن فتحي أمام تحدي كبير ، سبعة ألاف شخص ، وخمسون فداناً ، ومشروع ينبغي الا تتجاوز تكلفته مليون جنية .

خلاصة لحن الإستهلال

تحقق لحسن فتحي حلم الطفولة ، فهو ابن الأثرياء الذي أحب الريف ، ورأى فيه الصدق والصفاء ، والبساطة والنقاء ، فقدم له ما يناسبه من عمارة بعيدة عن أجواء التلوث الحضاري ، فهي لم تتأثر بطراز إيطالي أو أعمدة إغريقية .

كان فتحي صاحب رسالة في محاولة للحفاظ على الطراز المحلي لأهل النوبة ، وفي نفس الوقت تقديم مبنى بعشر ثمن التكلفة لأهل بلده .

الذين معظمهم من الفقراء . قدم حسن فتحي هذا النوع الجديد من العمارة ، ولكن العيب أنه تبناه كما هو ، كل الذي أضافه بعض النسب الجميلة والتكوينات المتجانسة ، سواء في الواجهة أو المسقط الأفقي. هذه الإضافة لم تغير شيئا في واقع أن تلك الأشكال - الأقبية والقباب- كانت تستخدم في تسقيف المقابر ، فكان ذلك حجرعثرة وجدار صد في سكنة تلك المنازل.

وقد سبق معنا أننا أحلنا ذلك إلى تخرج الرائد حسن فتحي من مدرسة الفنون التطبيقية ، الذين تعود خريجوها أن العمارة ليست إلا نسب جميلة ومشربيات زاهية وقباب متناسقة ، فلم يتعودوا البحث في خصائص المادة أو إجهاداتها . لذلك ماقدمه الرائد حسن فتحي وإن كان قليلا في حق علوم الهندسة ، الا أنه رائع في حق الحفاظ على الهوية وبقاء الطراز وخدمة الفقراء من أهل البلد والبلدان المجاورة والتي يكثر بها تلك الطبقة ذات الدخول القليلة .

الباب الثاني : لحن الترنيمة

يبدأ حسن فتحي رحمه الله هذا الباب بتثبيت حقيقة في الأذهان ، هي أنه لايوجد طراز للعمارة المصرية ، فهي مشتته بين الفرعوني والإسلامي والملوكي، وبالتالي لا توجد لهجة مصرية للمعمار المحلي ، وهو محق في ذلك. لكن تلك المقدمة لا تجعلنا نتقبل الطراز النوبي كلهجة مصرية تضع طابع للعمارة المحلية. وذلك لسبب بسيط ، هو أننا نرى هذا النوع من العمارة ، نوع من أنوا ع العمارة الصحراوية ، أو كما قال حسن فتحي خاص بأهل الريف ، ولو أردت أن تتخيل صحة ما نقول ، فهب أن الأرض التي يقف عليها فندق سميراميس - مثلا - أرض فارغة ، هل يمكن لنا أن نتبنى أسلوب حسن فتحي في تشييد مبنى ما ؟

والإجابة بالقطع لا ، لأننا لا نستطيع شراء أرض ثمن المتر المربع فيها مائة ألف جنية لنشيد عليها مبنى من طابقين أو ثلاث على الأكثر. وإذا كنا بصدد الحديث عن اللهجة المعمارية ، فأقول إنها بالقطع ليست اللهجة الطينية أو النوبية. إن اللهجة الطينية لهجة جميلة جدا بالريف المصري ، وهي بالقطع ستختلف عن اللهجات الطينية في البلدان الأخرى، كاليمن والجزائر وغيرها.

وقبل أن أسترسل في هذا الإتجاه - أعني العمارة الطينية - ، وقبل أن أدلف إلى الباب الثاني ، أحب أن أقول إننا ونحن نعيش اليوم في بداية القرن الواحد والعشرين ، لا نستطيع أن نواجه العالم بهذا التشوه البصري الذي تشهده القاهرة ، ومعظم المدن المصرية . إنك لو سرت بسيارتك على الطريق الدائري حول القاهرة لشاهدت علبا من الطوب الأحمر دون تشطيب أو محارة .

وهنا أتسأل هل الذي شيد عمارة سكنية عشر طوابق ليس عنده من المال ما يشطب به الواجهة ؟ مالذي دفعه لترك الواجهة على حالتها؟

إن الذي دفعه إلى ذلك أنه لا يوجد من قبل المشرع تغريم لمن يقوم بهذا الفعل ، فالقانون لا يعاقبه إلا على البروز . وتحضرني الصورة الجميلة للعاصمة التونسية ذات المباني البيضاء والشبابيك الزرقاء ، فالأمر عندهم لا يقتصر على التشطيب وحسب ، بل يشترط اللون لتوحيد المنظر العام للمدينة .

فالأمر إذا لايحتاج إلا إلى إخلاص ، ونظام ، وقليل من نقود ، فتونس ليست دولة بترولية ولكنها من أجمل دول العالم بسبب توحيد الطراز أو توحيد اللهجة المعمارية.

إن مصر بلد متعدد منابع الثقافة ، فالفرعوني جزء منه ، والإسلامي جزء آخر ، والمملوكي والنوبي ، ولايجوز بأي حال من الأحوال إفراد واحدة منها وتعميمها على سائر القطر المصري .

يقول حسن فتحي رحمه الله» على أن مصر الحديثة ليس فيها اسلوب محلي ، فالبصمة مفتقدة، وبيوت الأغنياء والفقراء هي على السواء بلا طابع ، بلا لهجة مصرية، لقد ضاع التراث ، وانفصمنا عن ماضينا منذ قطع محمد علي على رأس آخر مملوك»

تلك كلمات كالدرر ، تحمل في طياته هم حسن فتحي والمسئولية التي يستشعرها كمسئول عن طابع المدينة ، وإن كانت تحمل في طياتها التوطئة والتمهيد للطراز النوبي ، لكنني أريد أن أقف ، وأقف طويلا عند معلومة راسخة في أذهان جميع المصريين ، هي أن محمد علي هو باني مصر الحديثة. ذلك الضابط الألباني ، الذي أتى مصر واليا عليها من قبل الباب العالي للخلافة العثمانية ، فأحب مصر وأرسى بها قواعد لكل فن وباباً لكل علم ، وأصبح جيشها مة القوة بمكان حتى أنه أصبح يهدد الدولة العثمانية ، وبينما كان جيش محمد على يقف على باب الإستانة إذ بالغرب يتدخل ويقنع محمد علي بالعودة إلى القاهرة في مقابل أن تكون مصر لمحمد علي ولأبناءه من بعده. وهنا يطرح سؤال نفسه مالذي إستفاده الغرب من تلك الوساطة؟

يجيب المؤرخ محمود شاكر بأن أطماع الغرب كانت في مصر أطماع إستشراقية من تغريب للتراث ، كانت أحد تجلياته في الطراز المعماري، الذي استورده محمد على من باريس. على الجانب الآخر كان الغرب يخطط لإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك، وحتى يتقبل الشعب

التركي المسلم أمر إلغاء الخلافة إنهزمت جيوش الحلفاء أمام الجيوش التركية ، وصور مصطفى كمال في صورة البطل الغازي ، حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقي شبهه بخالد بن الوليد في قصيدة مطلعها يقول :

الله أكبر كم في الفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالد العربي

كان هذا أمر الغرب ، وتعرضت مصر لحملات التغريب منذ عصر محمد علي ، هذا أمر ينبغي الا نغفل عنه ، ولايجوز أن يكون رد الفعل هو أسلمة العمارة أو نونبة العمارة ، إنما مصر كل هؤلاء .

وكان هناك اقتراح ، يفسد أكثر مما يصلح ، وهو اقتراح عثمان محرم باشا وزير الأشعال العامة ، بأن تقسم مصر إلى قسمين ، مصر العليا وتعطى للأقباط ويسود بها الطراز الفرعوني ، ومصر السفلى وتعطى للمسلمين ويعمم عليها الطراز المملوكي. وهو أمر لايقبله عاقل ، لكنه يدل على المشكلة التي يتحدث عنها حسن فتحي ، بلد بدون هوية ومدينة بلا لهجة .

ويخلط حسن فتحي بين حق وباطل وصواب وخطأ ، فكلامه يحتمل أن تصميمه لقرية القرنة هو التصميم الذي ينبغي أن يعمم على القطر المصري ، وذاك الباطل ، أما الحق فهي أزمة المعمار المصري المعاصر، انظر إليه وهو يقول :كان يبدو لي أننا لن نتمكن من علاج أزمة المعمار العامة بمجرد أن نبني مثالا من نموذج جيد للبيت أو نموذجين. ولا حتى قرية كاملة. والأولى هو أننا ينبغي أن نحاول تشخيص الداء ، أن نفهم الأسباب الجذرية للأزمة، ونهاجمها من جذورها هذه. إن الفساد الحضاري يبدأ بالفرد نفسه، الذي يواجه بخيارات لم يهيأ للقيام بها. وينبغي أن نعالجه عند هذه المرحلة . والبناء إنما هو نشاط خلاق حيث اللحظة الحاسمة هي لحظة التصور. تلك اللحظة التي تتخذ الروح عندها شكلا . وتتحد بالفعل كل ملامح المخلوق الجديد . وإذا كانت خصائص الكائن الحي تتقرر بلا رجعة في لحظة الإخصاب. فإن خصائص المبنى تتحد بكل مركب من القرارات التي يعطيها كل من له يد في الأمر، عند كل مرحلة في

بنائه. وهكذا فإن لحظة التصور التي يعتمد عليها الشكل النهائي للكائن الحي تصبح بالنسبة للمبنى تعددا من تلك اللحظات، كل منها تقوم بدور حاسم في العملية الخلاقة بمجملها. ولو أمكننا تحديد هذه اللحظات والإمساك بها، فإننا سنستطيع عندها التحكم في كل عملية الخلق.

وأقول إن تعريف الفن بشكل عام أنه ناتج تفاعل البيئة المحيطة مع مواجيد الإنسان ، فالقيم الدفينة بالإنسان مع ميراثه الإخلاقي ينتج لنا لوحة فنية أو قصيدة عصماء أو فلسفة جديدة بها يكون خلاص الإنسان، والمعمار المصري لايكون نوبيا على خط واحد أو فرنسيا -كما هو الحال في وسط المدينة - على خط واحد كذلك ، إنما هو تفاعل كل ذلك ولايشترط أن يبقى الطراز على نقائه ، فالطراز الهندي عندما سافر إلى الصين تحول إلى طراز آخر .

لا يحق لحسن فتحي أن يجعل من مشروع القرنة مشروعا رائداً للمعمار المصري ، إنما للمعمار النوبي أو المعمار الريفي أو المعمار الصحراوي.

ورثنا عادات معمارية ، كانت سببا رهيبا في تخلف العمارة في مصر. وهنا سأورد كلاماً لحسن فتحي وأقارنه بأحد التجارب المعمارية لنيكولاس جريم شو. ورثنا أن فتحات المبنى لابد أن تكون بإتجاه الشمال ، وورثنا أن تكون الفتحات بشكل عام ضيقة ، وأن الحمام لابد أن يكون ذا فتحة للتهوية ، وغيرها..

غير أن تلك المواريث ، ليست محرما هندسيا ، أو منطقة محذورة لاينبغي الإقتراب منها ، أو كلاماً مقدسا ينبغي إتباعه ولا يجوز مخالفته، وهنا أورد كلاما لحسن فتحي في نفد الفتحات الكبيرة وأورد معالجة تلك الفتحات عند نيكولاس جريم شو. يقول فتحي « إن الفتحة الكبيرة يبهر نورها عين أي فرد في داخل الغرفة ، وليس هذا فحسب، بل إننا لو استخدمنا كاسرة شمس ، لن يكون لها ميزة مع إمكان طيها كما نفعل في المصراع الخشبي. وحتى في المناخ البارد مثل مناخ باريس ، يمكن أن يثبت في النهاية أن الجدار الزجاجي

هو تطرف لايمكن احتماله ، فأثناء صيف ١٩٥٩ الحار ارتفعت الحرارة داخل مبنى اليونسكو بسبب من ظاهرة «بيوت الصوبة للنباتات» الناتجة عن جدرانه الزجاجية ، رغم جهد ألات التكيف ، فقد بلغ من ارتفاع درجة الحرارة أن أصيب الكثيرون من الموظفين بالإغماء. وإذن فإن من نافلة القول أن يعلق المرء على إدخال الجدران الزجاجية وكاسرات الشمس في البلاد الإستوائية، ورغم هذا فإنه من الصعب أن يجد المرء مثالا من المعمار المعمار الإستوائي الحديث لم تستخدم فيه هذه الملامح».

والقول الفصل في هذا أن أوروبا عندما تستخدم الواجهات الزجاجية تستخدمها للأسباب التالية ، إما تعبيراً عن الحيادية والشفافية التامة عند البناء إلى جوار مبنى كلاسيكي ، ومثال ذلك توسعة متحف اللوفر ، التي قام بها المعماري الرائع أي أم بيى ، والذي شيد هرماً زجاجيا كمدخل للتوسعة تحت الأرضية ، وكان سببه الأساسي والوحيد إحترام المبنى الكلاسيكي ، والذي يعود تاريخ بناءه إلى نهاية القرن الثامن عشر ، فالزجاج من شأنه الشفافية ، كالماء والهواء ، شريطة أن يكون زجاجاً فقط ، أي بدون إطار معدني، وذلك منتهى الإنحناء أمام الطراز القديم .

الأمر الثاني الذي تشيد من أجله المباني الزجاجية ، هو إدخال الضوء الطبيعي ، الذي من شأنه تخفيض الضوء الصناعي ، وبالتالي تخفيض إستهلاك الكهرباء ، وبالتالي تخفيض نفقات المبنى . وهذا أمر جلل ومعيار تصميمي قوي لايمكن إغفاله.

الأمر الثالث وغير الأخير هو السماح للحرارة بالدخول ، ومن هنا كان مفهوم الحديقة الشتوية في أوروبا والغرب ، والغرب حين يسمح لحرارة الشمس بالدخول عبر الزجاج ، لأنها موجات كهرومغناطيسية ، فهو يخفض في إستهلاك التدفئة المركزية ، وبالتالي يخفض أيضا في نفقات المبنى . أما ما يحكيه الرائد حسن فتحي عن عام ١٩٥٩ في باريس ، فالرد عليه أن نقارن بين أشهر البرودة وأشهر الحرارة في بلاد الغرب ، فالمثال مثال طاريء ، قلما يحدث، ولا تعليق.

وأقول أيضا إن أمر إستخدام الواجهات الزجاجية ليس قاصراً على البلدان الباردة ، فقد قام المهندس نيكولاس جريم شو بحل تلك المشكلة . والمشكلة هي أننا عندما نستخدم واجهة زجاجية في بلد حار ، كالكويت مثلا - بإعتبارها أشد بلدان الوطن العربي حرارة - فإننا نسمح لحرارة الشمس بالدخول إلى الفراغ الداخلي ثم نستخدم أجهزة التكيف لطردها ثانية ، وذاك أمر لايقبله عاقل ، ولهذا السبب أيضا رفض حسن فتحي الواجهات الزجاجية .

لكن جريم شو الألمعي بنى مبنا من الزجاج في أسبانيا - والتي مناخها مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط - ثم سمح للماء بالمرور بين طبقتين من الزجاج ، والتي من شأنها تخفيض درجة الحرارة المتسربة إلى داخل المبنى ، هذا المبنى، هو expo ٩٢ ، والذي تم بناءه في عام ١٩٩٢أيضا . وتعليقي جملة واحدة ، ليس حل المشكلة بالهروب منها ، وإنما ببحثها والتأمل فيها.

إن حل جريم شو يذكرني بحل Novelle في معهد العالم العربي في باريس ، والذي سبق الإشارة إليه في مقدمة هذا الباب . وهنا أتسأل سؤالا واحداً : لماذا دائم تكون حلول الغرب حلولاً تأمليه وحلولنا نحن حلولاً سطحية !

إننا نربي أبنائنا من شباب المهندسين على قيم وقواعد لا معنى لها ، لا تستخدم الواجهات الزجاجية ، نحن بلد شديد الحرارة ، الواجهات الزجاجية واجهات غربية لا تمت إلى الطابع الشرقي بصلة .

مثل هذه الجمل ، وغيرها ، تحد من تطور الفكر المعماري .

وأعود مرة أخرى إلى قرية القرنة ، فالرائد العظيم حسن فتحي يقدم لعمله وتجربته بقرية القرنة ' أنه أعاد الفردية للمالك مرة أخرى ، بعدما فقدت بتسلط المعماري على المالك ، وذلك بأن يستطيع كل فرد أن يبني منزله بنفسه . يقول حسن فتحي رحمه الله « والعامل الذي يتحكم في ألة في مصنع لا يضع شيئا من ذاته في الأشياء التي تصنعها الألة . والمنتجات التي تصنعها الألة منتجات متماثلة ، غير شخصية، وبغير مردود سواء بالنسبة لمستخدمها أو من يشغل

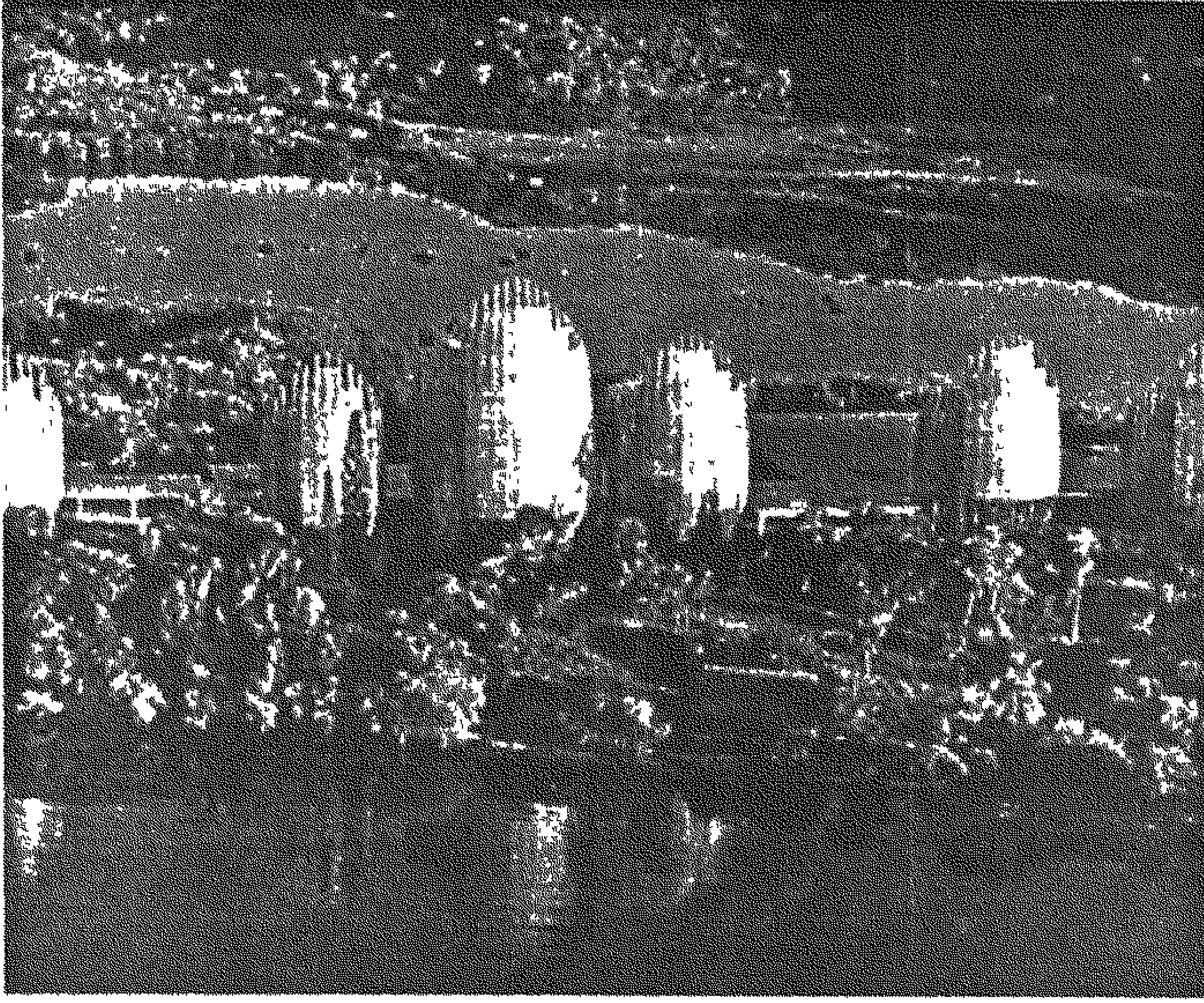
الألة، أما المنتجات اليدوية فإنها تستهوينا لأنها تعبر عن مزاج الحرفي، وكل وجه من عدم إنتظام أو شذوذ أو إختلاف هو نتيجة لقرار يتخذ لحظة الإنتاج ، وتغيير التصميم عندما يصيب الحرفي الزهق من تكرار نفس الفكرة ، أو تغيير اللون إذ ينقص مالديه من أحد الألوان أو الخيوط ، فيه ما يشهد على التفاعل الحي المتواصل بين الإنسان وموارده ، والشخص الذي يستخدم الشيئ الذي صنع سوف يفهم شخصية الحرفي من خلال أوجه تردده هذه هي ونزواته، وسيكون هذا الشيئ بسبب ذلك جزءاً من بيئته المحيطة ، وسيصبح للمنتج قيمة أكبر.

ويحكي في موضع آخر قصة حدثت لرائد العمارة الكبير لكوربوزيه فيقول « فال دي لاو وهو يسأل لكوربوزيه : عندما يكون عليك أن تبنى مسكنا فما هي هواجسك عندها حسب ترتيب أهميتها؟ وأجابه : أول كل شيئ من الذي يقصد أن يكون البناء له ؟ أهو العميل الخاص أم الإنسان بوجه عام ؟ أما العميل الخاص فهو عموما فاقد الإتزان، وغبي ، وله أوجه جنونه التي اكتيبها من سباق الحياة ، وهذا لا يهمني أمره كثيرا »

والحق أن القصة الثانية ترد على الإستدلال الأول ، إن كوربوزيه يعترف أن الشخص العادي ليس له ذوق ، ولايمكن الإعتماد عليه في إنشاء معمار يحيى تراث قديم ، وحسن فتحي يرى أن العامل الذي يتحكم في آلة في مصنع لايترك لمسانه وإحساساته على الشيئ المصنوع . والفارق بين الإثنيين علو وقصر الهمة، فكوبوزيه يرى أن العمارة شيئ كبير لا يستطيع المواطن العادي الإلمام بجميع مشاكلها ، ولذلك وصفه بالغبي ، وحسن فتحي يريد أن يرى عيوب الصانع وتفاعلاته مع موارده لأنه بسط العمارة وجعلها طابقا واحداً من الطين يستطيع أي فتا يافع ، ذو سنوات عشر أن يقوم به .

وبعد ذلك أقول للقارئ هل أدركت الفرق ؟ ، وأقول لنفسي أعلى هذا الفكر تقوم حضارة ؟ حتى وإن سميناها حضارة الطين ؟

ثم إن الأمر إذا كان بهذه البساطة وتلك السطحية ، فأين هي مهنة المهندس المعماري ؟ وأين تطوير تلك المهنة أمام تحديات العصر؟ إن على المعماري أن يتقمص شخصية من يسكن الفراغ ثم يبنيه له ، لا أن يتركه هو يبنيه بعيوبه التي تظهر تفاعله البشري مع المادة ، ولا أن يخططه هو له ثم يدعه وشأنه في كيفية البناء . ولو كان ذلك صحيحاً ، لماذا لم نرى في العمارة المصرية القديمة ، وهو عصر لم يعرف عيوب الألة والتصنيع ، لماذا لم نرى في ذاك العصر ألف إيمحتب ، ولكننا رأينا إيمحتب واحد وألاف العمال ، بل لقد كرمه المصريون وجعلوه نصف إله يعبد بسبب إبداعاته الهندسية. فالأصل إذا أن نصمم نحن المهندسون – ولا أقول المعماريون – لأننا سحبنا العمارة خارج القطاع الهندسي وجعلناها محصورة في جمال الخطوط ، الأصل أن نصمم لعامة الناس مترجمين لرغباتهم ، وجامعين في ذات الآن بين الرغبات والإبداع الهندسي وهو ما لا يعرفه العامي . وإنني لأجد أن مايردده الكثيرون من كلمة «الزبون عايز كده» نوعا من الهروب من الإبداع المنشودة ، مثلها في ذلك مثل الحجة السائدة ، من أننا دولة فقيرة وبالتالي فلا ننتج معمار قويا ، وأن المعمار القوي مرتبط بإقتصاديات الشعوب ، وكأن العمارة هي التشطيبات الفارهة . إن رينزو بيانو عندما بنى مجمعه في غرب أفريقا ، إحترم التراث القديم وطوره لأغراضه ، لم يتجاهل الكوخ الأفريقي ، ولا فرض عليهم مبنى تفكيكيا من العمارة الأوروبية الحديثة ، لكنه أخذ الكوخ مرجع له ثم طور في أدواته . إن ذلك قمة الأمانة والحفاظ والتطوير لتراث دولة غير متقدمه . إن تجربة بيانو تعكس أن الحفاظ لاينبغي له أن ينفصل عن التطوير . وسيبقي مشروع بيانو رمزاً لحيادية المعماري الأوروبي الذي بأمانته وصدقه وحياديته يطور في تراث الآخرين. (أنظر المشروع)



شكل ١ : مشروع Centre Culture Tjibaou لرينزو بيانو

القرنة والوضع القائم

يشرح لنا الرائد حسن فتحي الوضع الذي وجد عليه معمار القرنة قبل تشيده لبنائه فيقول « وما من شعب في أي مكان يكون محروما كل الحرمان من القدرة على الإبداع الفني. ومهما كانت الظروف قامعة ، فإن هذه القدرة الإبداعية سوف تجد دائما طريقها للظهور من خلال شيئ ما ، وفي القرنة لم يكن ذلك يظهر كثيرا في بيوتهم ، حيث كانوا يتعرضون لتأثيرات سيئة ، وإنما كان ظهور ذلك من فيما لأهل القرية من خلال إنشاءات منزلية صغيرة ، يتيح فيها أهل القرية لأنفسهم أجمل التكوينات التشكيلية وأكثرها ذاتية . فكان في القرية القديمة أسرة تشبه نبات عش غراب كبير ، حيث يمكن للأطفال أن يناموا أمنين من العقارب (وهكذا تستقي الأسرة أسمها منها وهو بيت العقرب) ، وكان هناك أبراج حمام ترتفع كنصب جليل له نوعه الخاص جدا من المهابة ، ثم كان هناك بيتين بالكامل يظهر فيهما نفس التشكيل وانسياب الخطوط كما في بيت العقرب. ويتصادف أن هذين البيتين كانا من بين أفقر بيوت القرية . وقد

اضطر صاحباهما إلى اللجوء إلى هذا التصميم الأصيل بسبب فقرهما . فلما كانا لايطيقان أن يتكلفا في بيتيهما ما تكلفه تلك التعقيدات من الذوق السقيم التي ينحو إليهما جيرانهما الأغنى ، ولا يطيقان تكلفة بناء بأجر ، فقط كان عليهما أن يبتكرا كل جزء من مسكنيهما بنفسهما . وهكذا فإن تخطيط إحدى الغرف أو وضع خط لأحد الجدران لم يكن ليتم باسلوب يقاس قياسا متوازنا باليد ، وإنما يصاغ شكلهما بحساسية كما يصاغ إناء الفخار .

وفي كثير من هذه البيوت ، بالغة الفقر ، لو أمكن للمرء أن ينظر فيها متجاوزا عن القذر والفوضى العارضين ، فإنه سوف يرى أن خطوط البناء إنما تطرح درسا تعليميا في المعمار .

ثم يستطرد قائلا : انظر إلى الصورة الضوئية للمنزل الصغير في قرنة مرعي ، ما من أثر هناك لحذلقة معمارية ، ليس من تشنج لمحاولة التسلق إلى مرتبة اجتماعية أعلى ، وإنما إستخدام مباشر لمواد البناء في أغراض حياة الفلاح ، وأي تفصيل يتم بناؤه لأن الفلاح يحتاج إليه ، وفي أكثر الأشكال والأحجام ملائمة ، من غير أي تفكير في محاولة التأثير من أناس أخرين . والنتيجة في الحقيقة يكون لها تأثير بالغ ، فالبيت فيه إكتفاء ذاتي هادئ كما في أي صنيع بارع ينتجه مهني متمكن»

إننا إذا أحسنا الظن في هذا الكلام فإننا نقول إن صاحبه شاعراً معمارياً ، يرى جمال الخطوط هي كل شيئ ، والدليل أن عاملا بسيطاً يستطيع أن يلقننا درسا في العمارة ، فما قيمة الدراسة إذا ، وكيف يكون البناء الحضاري لمادة بسيطة كالطين مثلا ؟ وأين إضافة العلوم الهندسية ، هندسة المواد؟!

إن هذا الفكر موجود في أدمغة المعماريين ، وفي أدمغة من يتصدون لتدريس العمارة . حدث في يوم من الأيام أن دار نقاش بيني وبين أحد زملائي ، أستاذ من أساتذة العمارة يقول « إن العمارة موهبة ، والقليل من الطلاب توجد عنده تلك الموهبة ، فسألته فما دورنا نحن ؟ فسكت ولم يجب . إن مثل هذا الفكر

لا يؤدي بنا إلى تطوير العمارة محلية كانت أم عالمية . ويرحم الله رواد مدرسة الباوهاوس ، الذين قامت نظريتهم على جعل جزء من الدراسة يقوم على التدريب العملي من نجارة وحدادة وأعمال لصب الخرسانة . فأبدعوا للعالم مهندسين من طراز فريد. فالأصل في المهندس أنه هو الذي يعلم الأخرين فيرتفع بدوقهم العام، لا أن يتعلم منهم. وإن صح ذلك فإن المريض هو الذي يداوي الطبيب ، والمتهم هو الذي يترافع عن المحامي.

هذا الفكر أدى بنا إلى أن طلاب العمارة لايهتمون بالمواد العلمية ، وكل الذي يقومون به هو فتح الأنترنت ونقل بعض الخطوط الجميلة من مشاريع أخرى، دون حتى البحث في الخلفية الفلسفية لتلك الخطوط .

إنك لو سألت طالباً في السنوات النهائية وقلت له : كيف نشأت فلسفة المدرسة التفكيكية في العمارة أو ما الفارق بين المودرن والبوسط مودرن ، أو ما الذي أحدثه جاودي في الفكر المعماري الحديث ، لن تجد جواباً شافياً ، والسبب أن العمارة فن والتصميم المعماري موهبة!

إنني لا أتهم الرائد حسن فتحي ، فهو قدم الكثير للعمارة ، ولكن تنامى هذا الفكر يؤدي بنا إلى السقوط في مصيدة التخلف المعماري ، وبالتالي فلا حضارة . سواء حضارة تحافظ على القديم أو تتناغم مع التقدم التقني لهذا العصر .

أما ما قاله فتحي في أن تلك الخطوط في قرنة مرعي تترجم عدم التشنج في الصعود من طبقة إجتماعية إلى طبقة أخرى ، فهو محق فيما يقول ، ولا شك أن المبنى الذي يعبر عن إحتياجاته فقط هو كائن حي يعبر عن مواجيد ساكنه ويترجم موروثه الثقافي. ولكن هذه المواجيد لاتسير وحدها في ركب الحضارة . بل يدعمها ويشد من لابتها المعرفة العلمية لإمكانات مادة البناء.

ثم يستدرك الرائد حسن فتحي رحمه الله في فقرة أخرى يبرر فيها أن بحثه الميداني هذا ، أعنى البحث في الأشكال القائمة في قرية القرنة القديمة ،

كان الهدف منه هو أخذ مواريث سكان القرية لوضعها ضمن التصميم الجديد في إطار يلفه تقنية العصر ، فيقول « ومن المهم أن يفهم أن هذا البحث عن الأشكال المحلية لتضمينها في القرية الجديدة لم يكن مبعثة رغبة عاطفية للاحتفاظ ببعض تذكار من القرية القديمة . فقد كان هدفي دائما أن أستعيد لأهل القرنة أرثهم من تراث البناء المستلهم محليا استلهاما قويا مما يتطلب تعاونا نشطا بين العملاء ذوي المعرفة والحرفين ذوي المهارة «

هذا جميل ولكن هل يقصد بالحرفيين مهندسي العمارة أم النجارين والحدادين وأصحاب المهن البسيطة .

لاشك أن حسن فتحي رائد فيما ذهب إليه من إيجاد مساكن لمحدودي الدخل ، والحفاظ على هوية البناء النوبي ، ومحاربة الخرسانة كمادة دخيلة على قاطني هذا المكان . لكن تطوير الطين يحتاج إلى معمل.

العمارة والمناخ

المناخ هو الباعث الرئيسي للعمارة ، فمنذ بدء الخليقة والإنسان في حالة بحث دائم عن ملاذ يحمية من عوامل الطقس القاسية . فكان الإحتماء بالأشجار من الوحوش المفترسة ، في العصر الحجري وعصور ماقبل الحضارة ، وكانت تبنى المساكن الخشبية على إرتفاع غير ملامس لسطح الأرض لذاك السبب أيضا . ولجأ البعض إلى الجبال بحثا عن الأمان والدفء .

فلما تقدم الزمن وتعاقبت السنون رأينا المناخ يؤثر في الأشكال المعمارية الناتجة ، فالأسقف المائلة ، والتي نراها في البلدان الباردة ، إنما هي لأجل الثلج المتساقط ، فذاك السقف يتيح للثلج الإنزلاق وصولا إلى الأرض. وبالتالي يتخلص السقف من وزن ثقيل ، سوف يسبب بقائه مشاكل إنشائية للمبنى .

كذلك كثرة الأقبية والقباب في المناطق الحارة ، التي من شأنها أن نصف الشكل المعرض لأشعة الشمس – سواء كان الشكل قبة أم فولت – يكون في حالة الظل ، الأمر الذي يقلل من تسرب الحرارة إلى الداخل . وبالتالي شكل أنتجه المناخ «وذاك أمر سيتم مناقشته بالفصل القادم» .

إلا أن القبة أنتجتها الضرورة الإنشائية ، فقبل وجود الخرسانة المسلحة، وبالتالي قبل ظهور الأسطح الأفقية ، كانت القباب أحد الأشكال المعتمدة لتسقيف البيوت .

وبالتالي فلا داعي للتشنج الزائد ، والتمسك بأن القباب أحد مظاهر الطراز الشرقي . المشربية نعم ، لأنها كانت بدافع عمل فلتر للرؤية ، يحتجب النساء خلفها ، وذاك مانص عليه القرآن الكريم . وبالمناسبة فالمشربية سميت بهذا الاسم نسبة إلى الشرب ، فقد خصص مكان للقلال التي يوضع بها الماء ، خصص مكان لها داخل المشربية ، حتى يتمكن الهواء من تبريد الماء الموجود داخل القلة. وبالتالي فالمشربية معناها الثلاجة .

الحرارة ومواد البناء

الحرارة هي الحياة ، فبدونها يكون فناء الكون ، وبزيادتها عن حدها المحتمل أيضا ، لذلك جعل الله سبحانه وتعالى الأرض مكانا مناسبا لمعيشة الإنسان ، فلو إقتربت الأرض من قرص الشمس لإحترقنا ، ولو إبتعدت لتجمدنا، وسبحان مبدع الأكوان

ولابد لك أن تعلم أن بقاء الأرض داخل مدارها هو بسبب تعادل قوى الجاذبية الكونية مع قوة الطرد المركزية . والجاذبية الكونية منشأها شكل المجرة كما قال أينشتاين في النسبية العامة .

أما منشأ الحرارة فهناك نظريتان في هذا الصدد ، نظرية قديمة وهي نظرية بولتزمان ، ونظرية جديدة وهي نظرية جديدة وهي نظرية اينشتاين.

يقول بولتزمان إن درجة حرارة سطح الشمس - والتي هي أحد المصادر الرئيسة لحرارة الأرض - يصل إلى ٥٧٦٢ كلفن ، وتصل هذه الحرارة إلى سطح الأرض خلال ثمان دقائق . إستمرار البث والإشعاع الحراري يؤدي إلى تناقص كتلة الشمس ، والتي هي كوكب غازي ، هذا التناقص يؤدي إلى ضعف الجاذبية بين الشمس والأرض ، وضعف الجاذبية يؤدي إلى تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها .

وتظل سرعة الأرض تتناقص وتتناقص حتى تصل إلى حالة السكون ، ثم تدور الأرض في الإتجاه العكسي ، وتسطع الشمس من الغرب .

أما أينشتاين فيرفض تناقص كتلة الشمس ، وحتى لو تناقصت فسيكون هذا التناقص تناقصا غير منتظم . ويبني نظريته على أن الحرارة الناتجة عن الشمس إنما هي حاصل تصادم ذرات الهليوم والمتواجدة على كوكب الشمس بنسبة ٩٢٪ ، فينتج عنها هيدروجين + حرارة . هذه المعادلة ليست إلا معادلة إندماج نووي . وبالتالي فإن الشمس ليست إلا مفاعلا نوويا ينتج لنا الحرارة عن طريق تصادم ذرات الهليوم بسرعة هائلة.

وصدق الله عز من قائل:

« فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»

أيا كان الأمر ، فذاك هو منبع الحرارة الذي يؤثر بشكل رئيسي على المباني فوق كوكب الأرض . وعندما تصل الحرارة إلى سطح المبنى فإنها تنفذ إلى الفراغ الداخلى بإعتباره المكان الأقل حرارة ، فإذا كانت درجة حرارة الفراغ الداخلي أعلى فإنها لن تمر.

ويؤثر في تسرب الحرارة ، من حيث كمية الحرارة وسرعة تسربها عوامل عدة مثل :

معامل توصيل مادة البناء

وزن الجدار

عدد طبقات الجدار

وجود طبقة عازلة كالهواء أو الصوف الزجاجي

كل هذه العوامل تلعب دورا كبيرا في عزل الحرارة . وهنا لي وقفتان . الوقفة الأولى في إبداع خلق الله ، فنحن سبق معنا أن وزن الجدار يؤثر بشكل رئيسي في عزل التسرب الحراري ، بمعنى أنك لو أحضرت جدار من الصاج وجدار من الخرسانة ، فإن جدار الصاج تتسرب الحرارة فيه خلال ست دقائق، وجدار الخرسانة خلال خمس ساعات . فما بالنا لا نجد الحرارة تتسرب إلى

داخل رحم الأم ، ودرجة حرارة الرحم ثابتة بمقدار ٣٧ درجة . سواء كانت الأم في نيجريا أو في الإسكيمو فدرجة الحرارة ثابتة ، على الرغم من أن الجدار الفاصل هو جلد الإنسان الخارجي وطبقة العضلات وجدار الرحم ، كما أخبر المولى في كتابه العزيز « ..في ظلمات ثلاث « .

ماهو وزن هذه الطبقات بحيث تثبت درجة حرارة الرحم!

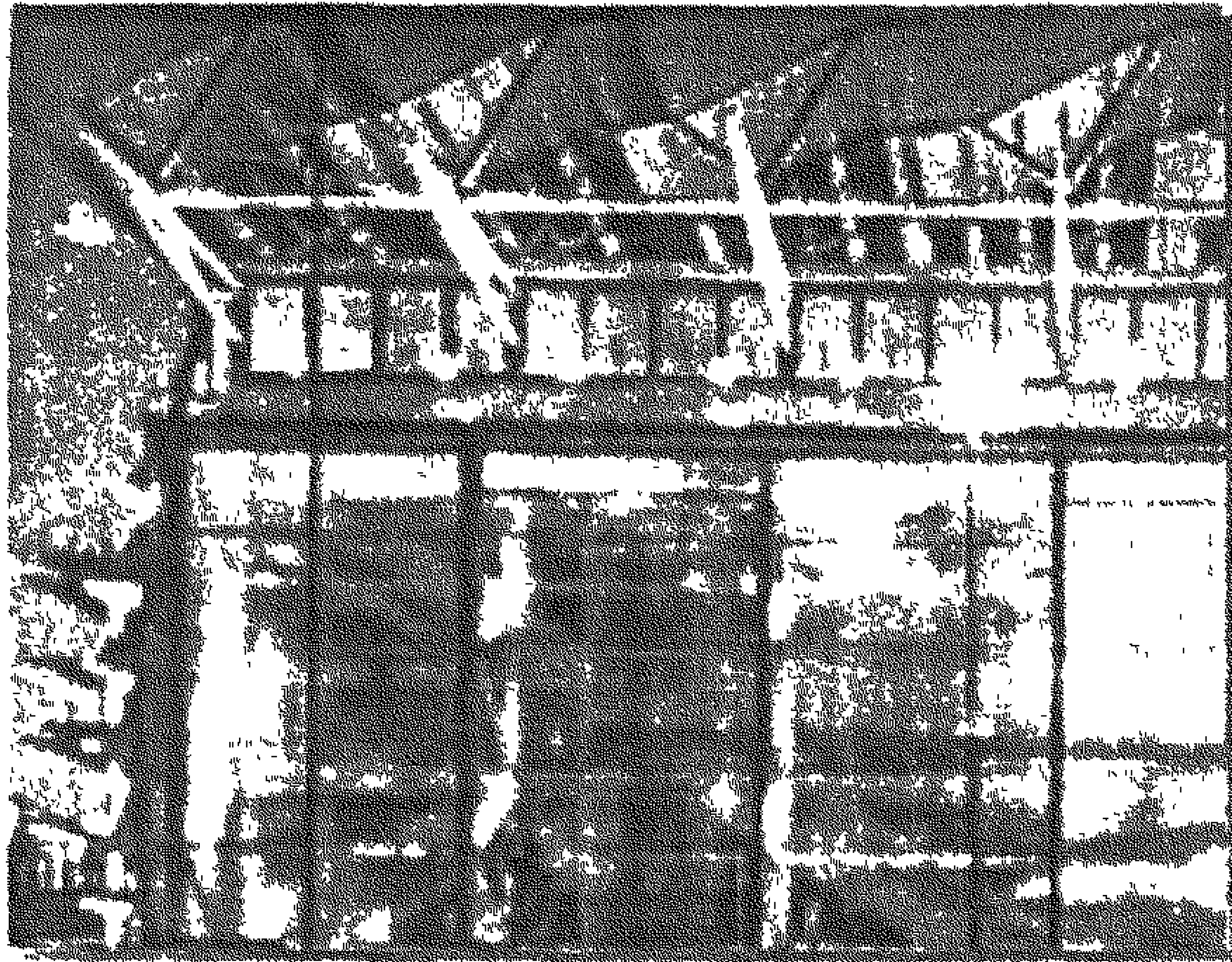
إنه لابد من حقيقة أخرى تخبرنا عن ثبات درجة الحرارة . وهنا أقول إن ثبات درجة حرارة الرحم يتم بسبب جريان الدم عبر الأوردة والشعيرات الدموية داخل جسم الإنسان . إنه إبداع الخالق سبحانه وتعالى الذي يقول للشيئ كن فيكون . وهنا تأتي الوقفة الثانية ، لماذا حصرنا أنفسنا في عامل واحد فقط وهو معامل توصيل مادة البناء لتبرير إستخدام الطين ، حيث أن الطين يبلغ تخلفه الزمني إلى إحدى عشر ساعة.

ولابد هنا من التعرج على موقف شخصي ، قبل العودة مرة أخرى للقرنة، جمعت في دراستي الأولية بين الهندسة المعمارية والهندسة الميكانيكية ، حتى أنني كنت من المهندسين النادرين الذين عملوا في مكتب إستشاري يعد من أفضل خمس مكاتب في أوروبا ، كنت أصمم فيه مصانع لشركات مثل Bayer Hoechst, VW , etc ,... . كما أنني اشرفت على العديد من المشروعات ، وانعكس هذا على رسالة الدكتوراة. وكان أستاذي رجلا فاضلا يدعى برافسور أدم ، لما جلست بين يديه قال لي أريد رسالة خمسين صفحة فقط ، لا خمسمائة صفحة ، ولكن لابد للرسالة أن تحتوي على إضافة علمية تفيد الصناعة ويستفيد منها المجتمع. وكان موضوع الرسالة تطوير التصميم النموذجي لمصنع بوش BOSCH .

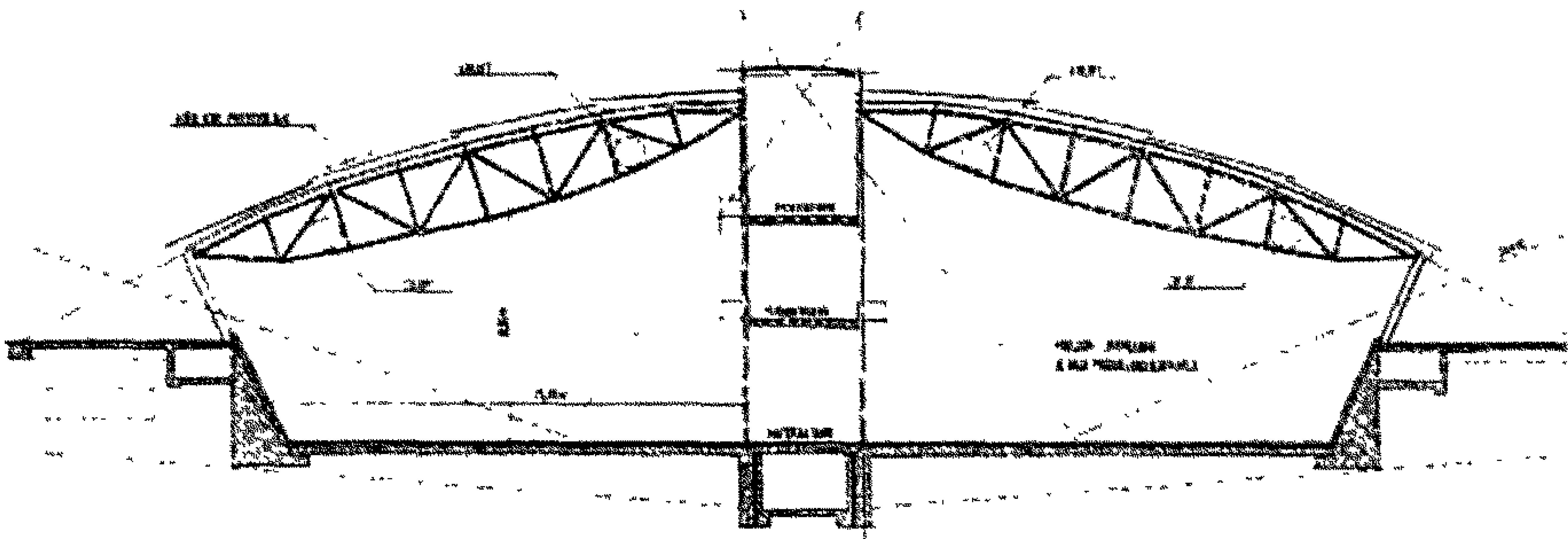
ولا أطيل على القارئ الكريم ، فقد كان من ضمن أبواب البحث الإجابة على سؤال مفاده ، ماذا لو شيدت بوش نموذجها المثالي في أحد الدول الحارة. وكانت الإجابة تصميم جدار مكون من طبقتين من الصاج وبينهم طبقة من ماء

الري البارد، هذه الطبقة ، أعني طبقة المياة ، احدثت فارقا وصل إلى ١٧,٣ درجة مئوية .

هذا الحل الذي قدمناه تم تحليله ببرنامج TRANSYS ، وتم مقارنته بحل جريم شو - الذي سبق الإشارة إليه - والذي وصل فرق الحرارة بسبب المياة إلى ثمانية درجات فقط . والفرق بين الحلين أن الحل الذي قدمه عبارة عن دائرة مفتوحة ، أما حل جريم شو فهو دائرة مغلقة .



شكل٢: الواجهة الزجاجية المزدوجية وبين الطبقتين شلال المياة الباردة التي تقوم اللواقط الشمسية أعلى السطح بمهمة رفع المياة



شكل ٣: قطاع المؤلف «تصميم د/ جريشة»

وأحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقني لتقديم حل يفوق حل جريم شو ، ومن أحب المزيد من التعمق فعليه الرجوع إلى جامعة شتوتجارت.

ولكن سبب سردي لتلك القصة ، أن هناك العديد من الحلول غير البحث عن مادة رديئة التوصيل للحرارة كالطين مثلا. وأعود مرة أخرى للحديث عن القرنة من خلال مناخ القرنة

مناخ القرنة

يتميز مناخ مصر العليا بأنه مناخ منطقة حارة جافة ، مع إختلاف واسع جدا في درجات الحرارة نهارا وليلا ، ولما كان وجود ظل من السحاب هو أمر يكاد معدوما بالكامل ، فإن الأرض تتلقى في النهار قدرا هائلا من أشعة الشمس ، بينما هي تشع ليلا قدرا هائلا من الحرارة يتجه ثانية نحو السماء. وهكذا فإن أي مسطح معرض لضوء الشمس المباشر ، كأرضية أحد المباني أو جدرانه أو سقفه ، ستزيد حرارته زيادة مهولة أثناء النهار ، ويفقد من حرارته أثناء الليل.

طبيعة مادة الطين

مادة الطين مادة تصنع من خام الأرض ، أي متوفرة في كل مكان وبالمجان ، هذه المادة من أسوأ موصلات الحرارة . يبلغ مقدار الThermal Conductivity $0.22 kw/m^2$ على أن جدران الطين السميكة ليست بالوسيلة المثلى للاحتفاظ بالبيت مبردا ، ذلك أن الطين وإن كان موصلا رديئا للحرارة ، إلا أنه يحتفظ بها زمنا طويلا ، وهكذا فإن الجدار الذي يجعلك تحس بالبرودة طوال النهار يواصل في الواقع اكتساب واختزان كل الحرارة التي تقع عليه ، وسوف يشع طول الليل كل هذه الحرارة ثانية إلى الخارج . ويكون هذا في جزء منه لداخل الحجرة ، ولهذا فإن الحرارة داخل بيت طوب اللبن تكون في الليل أعلى كثيرا مما في خارجه.

فكيف للإنسان أن ينام ليلا داخل هذا البيت الطيني ، إن الحرارة المكتسبه

في داخله تشع إلي داخل فراغ الحجرة ، وبالتالي تصبح هذه الحجرة وكأنها الفرن ليلا ، فما الحل إذا.

الحل هو ما كان يصنعه الفلاح القديم ، فقد كان يجلس طول نهاره خلف الجدار الطيني فإذا جاء الليل صعد فوق منزله ونام فوق السطوح . وكان غالبا ما يحتوي كل سطح من أسطح النوبة على منشأ خفيف يستخدم لهذا الغرض. والحل العملي الحقيقي هي إضافة طبقة داخلية للجدار الطيني ، تكون ذات معامل توصيل حراري عالي ، وتكن بينها وبين الجدار ممر هوائي يطرد الهواء الساخن. وبالتالي فالجدران الطينية التي نقوم ببنائها هي جدران غير مريحة، إذ أن الحرارة تدخل لقاطني المكان ليلا ، وعليه فإن الجدران الطينية المبنية في القرنة الجديدة جدران تصلح أثناء النهار . أما أثناء الليل فكل فلاح عليه أن يصعد إلى سطح المنزل بسبب أن بيته من الداخل يشع حرارة ، وعليه أن ينام تحت قبة السماء.

إن بناء الجدران الطينية من طبقتين ، طبقة خارجية مخزنة للحرارة ، وطبقة داخلية طاردة للحرارة عبر ممر هوائي مفتوح من أعلى ، هو الحل الناجع لتلك الجدران ، وهو ما لم يجدوه في بيوت القرنة الجديدة.

أساليب تقليدية أخرى لتخفيض درجة الحرارة

مصيدة الرياح

إعتاد الغالبية العظمى من الفلاحين اللجوء إلى أساليب تقليدية لخفض درجة الحرارة ، منها مصيدة الرياح . ومصيدة الرياح ليست إلا برجا يشبه المدخنة يكون موجه بإتجاه الرياح ، وإتجاه الرياح السائد في مصر شمال غرب، كان الناس يبنون تلك الملاقف لأخذ الهواء البارد وسحبه إلى داخل الفرا غ حيث تتم تعبئة الفرا غ بهذا الهواء المنشود وطرد الهواء الساخن من الفرا غ إلى الفضاء الخارجي .

وهنا نتسأل الأن على أي إرتفاع من سطح الأرض يكون الهواء بارداً ؟

أعلى إرتفاع عشرة أمتار أم عشرين أم مائتي متر أم ...؟ والإجابة التي لاشك فيها أننا كلما زدنا في الإرتفاع ، كلما قلت الحرارة وكان الهواء بارداً. وبالتالي فالمبنى الذي يبنى في القرنة ويكون إرتفاعه خمسة أمتار وإرتفاع مصيدة رياحه سبعة أمتار لاشك أن الهواء الذي يدخل إلى داخله هواء ساخناً ، وبالتالي فلا معنى لمصيدة الرياح دون معالجة. ومعالجتها بالمياة .

أعتذر إلى القارئ الكريم أنني أنقض كل الأساليب السالبة في المعالجات الحرارية ، والأمر ليس رغبة مني في النقض ، ولكن مناقشة الموضوع مناقشة موضوعية عادلة . وأعود مرة أخرى إلى الملاقف أو مصائد الرياح فهذه الوسائل دون مياة لا تحمل إلا هواء ساخناً. ويمكن تعدد أشكال إضافة المياة كعنصر فاعل داخل الملقف ، فقديما كان على شكل زير معلق داخل الملقف ، أو بركة مياة يمر عليها مسطح الهواء ، والأن يمكن لهذه الوسيلة أن تظهر على شكل رقائق مبللة.

ويمكن تطوير تلك الفكرة بإضافة عامل الميكنة أو المراوح ، عندها سيكون عمل الملقف كعمل المكيف الصحراوي .

يقول حسن فتحي رحمه الله : وقد نتج عن مصيدة الريح في القرنة إنخفاض الحرارة داخل الحجرات الدراسية بقدر عشر درجات . !

ولكن الذي أحب أن أؤكد عليه هنا أنه لاتبريد في مصيدة رياح دون مياة، ولا داعي لسرد الأمثلة ففي الإشارة كفاية . إنك لن تجد هواء بارداً من تلقاء نفسه إلا بعد مائة متر ، إي إرتفاع ثلاثين طابقاً ، وأين ستجد ثلاثينا طابقا في مبنى تقليدي. ضف إلى ذلك الحرارة المرتدة من سطح الأرض.

والعجيب أن مثل هذا الكلام ينطبق أيضا على القباب ، فالقباب ليست أفضل من الأسطح الأفقية المنبسطة . فإن كان جزء منها في الظل والجزء الآخر معرض لأشعة الشمس ، إلا أننا سنجد أن مساحة القبة أضعاف أضعاف المساحة الواقفة عليها. وعليه فكل ماكان يدرس عن القباب بأنها عازل أفضل

للحرارة أمر مردود. فهل يجوز بعد ذلك الحديث عن المعالجات السالبة للطاقة «PassiveEnergy» .

وفي النهاية أجد أن الحديث عن الحرارة لايمكن الحديث عنه تقريبيا ، بل له معادلاته ، وهناك علم بالكامل اسمه علم فيزيا البناء ، ولي شخصيا كتاب اسمه Thermal Control in Buildings نشرته المكتبة العالمية ، وأدرس منه لطلابي . أو من خلال برامج المحاكاة ، وهي كثيرة على الساحة ، أسهم في إيجادها منظمة ASHREA العالمية ، ومنها برنامج TRANSYS الذي أستخدمه أنا شخصيا ، وأخرى مثل ECO TEC, DESIGN BUILDER .

ولايمكن بعد ذلك رسم قبة على واجهة معمارية ، أو ملقف في قطاع معماري إلا بعد تحليله تحليلا حراري من خلال تلك البرامج ، ومشاهدة منحنيات الحرارة ، وإدراك القيمة التي وصلت إليها درجة الحرارة الداخلية بعد إضافة تلك العناصر المعمارية.

وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى في هذا الباب أقول ، إنه آن الوقت لإعتبار العمارة باباً كبيراً من أبواب الهندسة ، له علومه ، وتشترط دقة حساباته ، لا فنا هلاميا لايمكن قياسه ، بل هو باب خطير لأن عن طريقه يكون تدوين التاريخ وكتابة الحضارة.

الأفنية الخارجية والداخلية

أعود مرة أخرى في هذه النقطة للمعماري الرائد حسن فتحي لأقتبس منه، حيث يقول «وإني لأحس أن الميدان والفناء هي عناصر معمارية ذات أهمية خاصة في مصر ، فالمساحات المفتوحة هكذا من خلال المباني ، هي جزء من طابع المعمار في الشرق الأوسط كله ، وهي موجودة حقا ابتداء من المغرب ، ثم هي تتخلل الأراضي الصحراوية مباشرة إلى سوريا والعراق وفارس ، حتى تصل إلى ما قد يكون أرهف تعبيرا عنها في بيوت المدينة بالقاهرة القديمة . والأمر يستحق أن نستطرد هنيهة لننظر في معنى الفناء والميدان بالنسبة لأولئك

الذين يعيشون في العالم العربي .

يوجد في المساحات المغلقة في الغرفة أو في الفناء ، خاصية معينة يسكن الإحساس بها بوضوح ، وتحمل الطابع المحلي بمثلما يحمله أي قوس بعينه، وهذه المساحة المحسوسة هي في الحقيقة عنصر أساسي في المعمار ، وإذا لم يتوفر الإحساس الصادق لمساحة من المساحات ، فإنه ما من زينة تستطيع بعدها أن تجعلها شيئا طبيعيا ينتمي للداخل من التراث المرغوب .

هيا بنا ننظر إلى البيت العربي كتعبير عن الحضارة العربية ، بأي الطرق أدت القوى البيئية التي صاغت الشخصية العربية إلى التأثير في المعمار المنزلي؟

إن العربي يأتي من الصحراء. والصحراء هي التي كونت عاداته ووجهة نظره وشكلت حضارته. وهو مدين للصحراء ببساطته وكرمه وميله للرياضيات والفلك ، ناهيك عن بنية عائلته. ولما كانت خبرته بالطبيعة هي خبرة مريرة للغاية ، ولما كان سطح الأرض ،والمنظر الخلوي الطبيعي هما بالنسبة للعربي عدو قاس ، محترق متوهج قاحل ، فإنه لا يجد أي وجه للراحة في أن يفتح بيته على الطبيعة في المستوى الأرضي. ووجه الطبيعة الحاني بالنسبة للعربي هو السماء النقية الطاهرة . الواعدة بالبرودة وبالماء الواهب للحياة من سحبها البيضاء. السماء التي تقزم حتى من اتساع رمال الصحراء أمام لانهائية الكون كله المرصع بالنجوم . وما من عجب أن تصبح السماء بالنسبة لساكن الصحراء هي بيت الله . والوثنيون الأوربيون لهم آلهتهم في الأنهار وفي الأشجار ، أو في آلهة تمرح على قمم الجبال، ولكن ما من إله لهم يعيش في السماء . فإله السماء أتى للعالم عن الرعاة وسائقي الجمال في الصحراء ، الذين كانوا لا يستطيعون أن يروا أي مكان آخر يلائم الإله ، فسطح الأرض بالنسبة لهم لا نتاج له إلا من الجن والشياطين الذين يدورون فيما حولهم في العواصف الرملية .

وهذه النزعة الغريزية المحتومة لرؤية السماء على أنها الوجه الحاني من الطبيعة قد تنامت تدريجيا كما رأينا ، إلى فرض لاهوتي محدد، أصبحت فيه

السماء مقام الله ، والأن وقد اتخذ العربي لنفسه حياة مستقرة فإنه شرع يطبق الإستعارات المعمارية في علمه الكوني، بحيث تعد السماء قبة تدعمها أعمدة أربعة.

وسواء كان هذا الوصف يؤخذ به أو لا يؤخذ به حرفيا ، فمن المؤكد أنه يضفي قيمة رمزية على البيت ، الذي يعتبر نموذجا أو مصغرا للكون. والحقيقة أن الاستعارة وسعت بأكثر إلى الجوانب الثمانية للمثمن الذي يدعم ، على خناصر معقودة ، قبة ترمز للسماء ، وقد أخذت هذه الجوانب الثمانية على أنها تمثل الملائكة الثمانية التي تدعم عرش الله. ولما كانت السماء عند العربي تعد في التو المقر لوجه الطبيعة القدسي واكثر ما فيها سكينة ، فإنه بالطبع يريد أن يجلبها إلى مسكنه. وكما أن الناس في أوروبا يحاولون أن يجعلوا من منازلهم شيئا متوحدا مع المنظر الخلوي الطبيعي هو ونباتاته، إما من خلال الحدائق ،أو من خلال جدران الألواح الزجاجية ، فإن الناس في البلاد الصحراوية يحاولون أيضا أن ينزلوا صفاء وقدسية السماء لأسفل بالداخل من البيت ، ويحاولون في نفس الوقت أن ينغلقوا عن الصحراء برمالها المعمية الخانقة وشياطينها المنفرة. ووسيلة صنع ذلك هي الفناء.»

كلام رائع في جزئه الأول فقط ، أما جزئه الثاني فأختلف مع رائدنا الكبير. حيث أن القبة ليست قاصرة على العرب وحدهم ، فالفاتيكان له قبة في كنيسة القديس بيتر ، والبيت الأبيض له قبة ، والكرملن له قباب. ثم إن القبة كما تقدم معنا وسيلة إنشائية للتسقيف دون اللجوء لحديد التسليح .

فماذا كان يفعل الناس على وجه الكرة الأرضية بأكملها قبل القرن التاسع عشر ؟

كانوا إما يلجأوا للخشب إذا أرادوا سقفا أفقيا منبسطا ، أو يلجأوا للقباب، وبذا فإن القبة ليست إحتكاراً للعرب وحدهم كما أسلفت . بقي أمر أخر وهو أن القباب تختلف في أشكالها فقباب روسيا وإيران والعراق والهند لها

شكل واحد وهو شكل البصلة ، هذا الشكل مأخوذ من القبعة الهندية. تختلف عنها قباب الطراز الإسلامي ، مملوكي كان أم عثماني .

ويقيني أن العمارة منبعها الأساسي هو الأقليم ، لذا تتشابه قباب روسيا والهند والعراق ، ولا توجد عمارة إسلامية إلا فيما كان له صلة مباشرة بآيات القرأن الكريم . كالحرملك مثلا ، أو فكر إحتجاب المرأة خلف مشربية ، أو توجيه الحمامات بإنحراف عن إتجاه القبلة.

بل إنني أومن أن الزخارف الإسلامية ، والتي هي أية من آيات الجمال، منشأها إسلامي ، فالإنسان بداخله مكنون من الطاقة الفنية ، ولما حرم الإسلام تصوير الإشخاص ، خرجت تلك الطاقة على شكل أشكال هندسية، لتتسق مع التحريم ولا تتنافر معه.

وأعود مرة أخرى إلى الفناء وأقول ، إن ماقاله الرائد حسن فتحي عن الهروب من الصحراء واللوذ بالسماء جدير بالإحترام ، وأنا أعتبره الباب والمدخل لفكرة الفناء وبالتالي البيت العربي.

والبيت العربي يكون مربعا أجوف ، وقد أدار للخارج جدران صماء بلا نوافذ ، بينما تطل كل غرفة للداخل على فناء لايمكن أن يرى منه إلا السماء . ويصبح من هذا الفناء قطعة السماء التي تخص المالك . والمساحة المحاطة بغرف بيته تستطيع على أحسن حال ، أن تولد إحساسا بالهدوء والأمان ، لاتستطيع أن توله أي قسمة معمارية أخرى، حيث تكون سماء الفناء في كل الأحوال وكأنها قد جذبت لأسفل في علاقة حميمة بالبيت ، وهكذا فإن روحانية البيت تظل تتزود من السماء تزودا مطردا.

ويقول الرائع حسن فتحي في معرض حديثه عن البيت العربي « وبيت العربي الذي ينظر إلى الداخل ، مفتوحا للسماء الهادئة ، وقد جمل بعنصر الماء مؤنثا في شكل نافورة ، هذا البيت المكتفي بذاته والمفعم بالسلام ، الدعوى النقيضة المتعمدة للعالم الخشن للعمل والحرب والتجارة، وهو هكذا مملكة المرأة.

والكلمة العربية «المسكن» التي تدل على البيت ، تتعلق بكلمة السكينة ، أي ماهو سلمي مقدس ».

ما أجمل هذه العبارات ، وما أجمل الإستنباط المتغلغل في جذور المعنى. ثم يقول : والأن فإن من الأهمية بمكان أن هذه المساحة المطوقة ، بما تحتويه من انوثة دافئة راعشة ، لاينبغي لها أن تنكسر . وإذا كان ثمة فجوة في المبنى المحيط ، فإن هذا الجو الخاص سوف ينساب للخارج ويتدفق إلى الضياع في رمال الصحراء . فهذا السلام والقدسية ، وهذة الأنوثة المتجهة للداخل ، وهذا الجو من السكن الذي لاتكفي كلمة البيت للإبقاء به . هذا كله هو إبداع هش لدرجة أن أقل خرق صغير في الجدران الواهنة التي تحميه سوف يؤدي إلى تدميره. وهذا هو السبب في أن الباحة المرصوفة ، التي تكون مفتوحة عند واحد أو اثنين من جوانبها ، عبارة عن حاجز أو فلتر من هجوم الصحراء . «

ليس هناك أروع من هذا التسلسل في علة الأفنية الخارجية ، والتي هي من مستلزمات تصميم المناطق والمجاورات السكنية ، والتي تبناها الغرب بعد ذلك فأصبحنا نرى أفنية خارجية في باريس ولندن ونيويورك. فالشكر كل الشكر للرائد حسن فتحي على صفاء ذهنه ونفاذ بصيرته.

ميزة أخرى للفناء الخارجي

يتحدث حسن فتحي عن طباع أهل الصعيد ، فالنظام القبلي والعصبية القبلية لم تأتي من فراغ ، فهم يسكنون متجاورين ، وكل عشرة أوعشرين أسرة تكون مايعرف بالبدنة.

وإذا كان لكل بيت فناء ، وتلتقي بيوت أهل البدنة الواحدة على فناء آخر، فإن نساء البدنة تستطيع أن تربى أبناءها على التراحم والود والإنتماء لكبير البدنة ، ويرون أبناءهم وهم يمرحون ويلعبون ، وبالتالي يتربى الأولاد تحت أعينهن . وما من مناسبة ، زواج كانت أم طهور أو إحتفال بمولد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إلا ويجتمع كل أهل البدنة. وبالتالي راعى فتحي رحمه

الله في تصميمه للقرنة الجديدة كل هذه العوامل ، تلبية لعادات وتقاليد الزبون.

عقبة تحولت إلى ميزة

قام الرائد حسن فتحي قبل شروعه في تصميم المشروع بعمل مسح إجتماعي لحياة القرويين الذين سينتقلون للسكن في مشروعه الجديد ، وتبين له أن أهل القرنة لايمكن أن يأملوا في كسب عيشهم من الأرض المحيطة بالقرية، فمساحة الأرض المتاحة للزراعة هي ٢٣٥٧ فدانا ، بينما عدد السكان في إحصاء عام ١٩٤٧ هو ٦٣٩٤ ، وحيث أن عدد الأفدنة المتاح لا يمكن أن يعول أكثر من ٣٠٠٠ فرد ، فإن بقية أهل القرية يبقون بلا مورد للرزق.

هنا تحولت تلك العقبة التصميمية إلى ميزة كبيرة ، فقد فتحت باباً للمصمم أن يضيف عناصر جديدة لمشروعه ، مثل فندق يتيح فرصا للعمل في العديد من التخصصات ، مشغل للخزف ، قاعة لعرض معروضات الألبستر والتي اشتهر بها أهل القرنة ، ورش لعمل نماذج أثرية بدلا من سرقت أصولها ، وبتلك الطريقة إستطاع حسن فتحي أن يرغب في سكنى قريته الجديدة .

وطرأت لفتحي فكرة أخرى في تنمية الأيدي العاملة في تلك المدينة ، فالقرنة تقع على مقربة من مدينة الأقصر ومن منطقة الآثار ، ولو أصبحت القرية الجديدة قاعدة لزيارة المنطقة الأثرية ، وهي بالفعل أقرب للمنطقة الأثرية من مدينة الأقصر ، فماذا لو إستطعنا أن نقوي العلاقة بين الأقصر والقرية الجديدة بجسر فوق النيل ، ولا نعتمد فقط على المعدية التي تنقل عددا محدودا من الركاب.

وبتلك الطريقة أصبح جزء هاماَ من مكونات مشروع القرنة تزوده مهن جديدة تكفى أهل القرية مؤنة البحث عن عمل .

وكان ذلك باباً لتعليم أهل القرنة العديد من الحرف ، حتى وصل الأمر إلى حرفة كانت غريبة على أهل القرنة وهي النسيج ، إستطاع أهل القرنة تعلمها وبيع منتجاتهم إلى السواح ، بذا أصبح حسن فتحي ليس مهندسا معماريا بل

خبيرا إقتصادياً بل راهبا في معبد ، يحنو على مريديه ويوفر لهم لقمة الخبز . من هنا أصبح مشروع القرنة ليس مشروع نموذجيا في تطوير الطين أو بناء حضارة منه ، بل مشروعا إسترشاديا في مساعدة الفقراء على العيش في صورة أفضل.

لقد حول حسن فتحي من كانوا يعملون بالسرقة – سرقة الآثار – خمسين عاما ، إلى حرفيين يكسبون قوت أولادهم مما تصنعه أيديهم ، وتلك مهمة تنوء بها الحكومات.

الصناعات الجديدة في القرنة

فتحت أبواب الحرف على من إقترحها كأنها شلال المياه الساقط عليه من فوقة تبة عالية ، أو الإعصار الشديد الذي يقتلع في طريقه ضخم الاشجار وشاهق البنيان ، والغريب في الأمر أن أهل القرية لم يفكرون في تطوير حرفهم الا بعدما فكر لهم حسن فتحي ، لكنها بساطة القرويين المعهوده .

صناعة النسيج

إن ما نتحدث عنه الأن هو أكبر شموع حسن فتحي التي أضاءها ، فقد علم كل مخططي المدن من خلال تجربة عملية ، أن توفر فرص العمل أكبر عامل للتوطين ، فعن أي شيئ يبحث الإنسان إذا لم يبحث عن رزقه. وعلم أيضا الدنيا أن المجتمع الصالح إنما يبنى بإيجاد البديل ، فهولاء الذين يتعلمون حرفة الأن كانوا لصوصا من قبل ، لكنه يدخل إلى سريرة الإنسان ليمسح الشر عن قلبه ويخاطب فيه الوجدان والروح . إني أرى فيه غاندي العمارة وهو يشبه في تقاسيم الخلقة.

لقد وجد حسن فتحى صعوبات عند أهل القرنة في الصبغات ، فحاول أن يحلها حلا غير خبير ، ثم دعى وزير الصناعة أنذاك السيد محمود رياض، فعرض عليه منتجات أهل القرية وشرح له المشكلة ، فما كان من الرجل إلا أن أرسل له خبيرا بصناعة النسيج ليعلم أهل القرية أصول المهنة . كان هذا الرجل

يدعى محمد طلحة أفندي ، وكان طيب القلب رقيق المشاعر ، إلتف حوله الأطفال دون سن الثامنة عشر ، وأخذ يعلمهم أصول المهنة . ومن هنا بدعت حرفة النسيج في القرنة .

صناعة الفخار

إلى جانب النسيج أحب فتحي أن يوجد صناعات أخرى ، حتى يلبي أهواء العاملين ولا يعتمد السوق على حرفة واحدة ، بذهابها يضيع أهل القرية. كانت حرفة الفخار تحتاج إلى فرن له درجة حرارة عالية تصل إلى ستمائة درجة ، وكان لأهل رشيد باع في صناعة القيشاني والخزف الذي نراه منتشرا في البلدان المجاورة ، وكان لحسن فتحي صلة بالأب دي مونت جولفير الذي كان يدير مستوصفا صغيرا في جرجا ، وما أنى علم بإهتمام حسن فتحي بتلك الحرفة حتى أرسل يستدعي ابن أخيه ، الذي كان خبيراً في تلك المسألة.

ولكن أين سيقيم ، وفي أي مكان سيدرس ، ولو درس في المدرسة لأصبح مضمون الدرس مضمونا نظريا ، بينما لو درس في ورشة أمام الفرن فلن ينسى الطلاب ذاك الدرس ، من بدء التفكير في خان الصنايع. والخان هو الأداة الرئيسية لتنظيم الإمداد بالحرفيين الجدد. أيا كانت نوع الحرفة الجديدة ، ففي هذا المكان يقيم الأساتذة ، وفي هذا المكان يكون التعليم ، ويكون الإنتاج ، وفي هذا المكان يكون بيع المنتجات .

ومن ضمن الصناعات التي كانت تدرس في الخان ، صناعة الحلي ، وخرط الخشب ، والنجارة ، والنسيج الفاخر ، والفخار ، ونجارة الأثاث، وتقليد الآثار.

إننا نرى حسن فتحي رجل إصلاح إجتماعي يجمع إلى برديه أطراف من الهندسة ، فالنجاح الحقيقي لهذا الرجل ليس المبنى ، لكن ما قدمه للفقراء والمساكين الذين سحلهم الفقر وقضى عليهم الجهل .

وخطط حسن فتحي المدينة بعدما اطمئن جانبه على مواردها ، وكان دقيقا جدا في إختيار مواقع المباني العامة ، فالمعرض الدائم إلى جوار السوق

والمسجد وشريط السكة الحديدية ، ومدرسة البنات إلى جهة الشرق ومدرسة البنين إلى جهة الجنوب الشرقي ، والمدينة مقسمة إلى أربعة أحياء ، بعدد القبائل الموجودة ، ولكل حيي خدماته.

عناصر المشروع

تنقسم عناصر المشروع إلى مباني عامة ومباني خاصة . بدء حسن فتحي ببناء المباني العامة خشية منه أنه إن بدء بالمباني الخاصة ، وسكن الناس بيوتهم ، تتوقف الوزارة عن تمويل المشروع ، وتقول نكتفيى بهذا القدر. وكان خوفه مشروعا وكان توقف التمويل متوقعا ، خاصة وأنه يخوض تجربة جديدة في البناء بمواد لم تستخدم من قبل.

شكر واجب

على الرغم من التحفظ الذي سبق ذكره حول تجربة الرائد حسن فتحي إلا أننا نرى شكراً واجباً حول تنمية إمكانات القرويين ، وبالتالي تنمية عقولهم وتنمية دخولهم ، وبالتالي تنمية حياتهم الإقتصادية. وذاك عمل جليل ،ربما تبنى من خلاله حضارة ، طينية كانت أم غير ذلك.

هذا هو حجر الزاوية في تجربة حسن فتحي ، فكم من كوادر معطلة أصابها الإحباط ، وكم من مواهب ، لم تكتشف ، لجأت إلى الإحتيال والخداع والسرقة .

إن حسن فتحي إهتم بالإنسان الذي هو باني الحضارة ، ولم يهتم بأدوات الحضارة . أو يمكننا أن نقول لم يهتم بها بنفس المقدار. صحيح أن الإنسان هو أساس كل شيئ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقفا أمام الكعبة – والكعبة في النهاية مبنى –ما أعظمك وما أعظم حرمتك ، ألا إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمتك. وقد وعى الخليفة الخامس هذه القضية فقال « الأكباد الجائعة أولى بالصدقات من بيت الله الحرام» .

وعواقب عدم الإهتمام بعقل الفلاح ومتطلباته نجدها اليوم شاخصة في مجتمعنا المصري المعاصر ، الفلاح لايستيقظ إلا بعد شروق الشمس ويهتم بما

يهتم به ابن المدينة ، من إهتمام بالنت وقنوات الدش ، وبالتالي تنتقل إليه أمراض المدنية ، من تطلع وعدم رضى بالمقسوم ، حتى إننا نشاهد المباني الخرسانية في القرية ، كوحش يلتهم المباني الطينية ، لأن الخرسانة رمز التمدين والمعاصرة ، أما الطين فهو رجعي ولا ينم إلا على كل تأخر زمني وذهني.

لذا فإننا لا نجد الإستقرار النفسي والقناعة القديمة . وهنا أحب أن أقول أن ابن المدينة ليس بأفضل من الفلاح . بل الفلاح هو الذي يطعمه ويكسيه ، فالأرز هو طعامه والقطن هو كسوته . وما فعلته ثورة ٥٢ليس إلا تدمير وتجريف للحياة الزراعية . ولو أن الفلاح أعطي مكانته الإجتماعية الواجبة ، ومستحقاته المادية المنتظرة لكانت مصر دولة مثل ماليزيا ، التي إهتمت في تصنيع منتجاتها الزراعية. ولم يقتصر الموضوع على تمدين القرية بمعناه السلبي ، بل قروية المدينة ، فقد نزح العديد من القرويين إلى المدينة حاملين معهم عشوائية التصرفات والتعامل ، وغدى ذاك عرفاً مستأنس في المدينة .

ولقد حزنت كثيراً ، عندما رأيت قرية من قرى البدرشين قد باع معظم أهلها أراضيهم الزراعية واشتروا بثمن الأرض سيارة ميكروباص، فتدر عليهم الربح الوفير، ومنهم من باع الأرض وفتح ورشة، ومن باع الأرض واشتغل بالمقاولات، .. وهكذا .

لو أن النظام الحاكم – أيا كان النظام – شجع بقاء الفلاح في قريته ، كما شجع حسن فتحي ، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

العناصر المعمارية للقرية

المسجد

بما أن الدين متغلغل في قلب كل فلاح ، حتى أن الواحد منهم لايصل إلى سن السابعة إلا وقد أكمل حفظ القرآن الكريم ، وما ذاك إلا لمخالطته للزرع ، وتلك المخالطة توثق إيمانه بالقدر ، فالزرع يأتي بثمره بقدر الله، وبقرته التي تأتي له بالحليب لا تمرض إلا بقدر الله ، إلى غير ذلك من حياة الفلاح البسيطة والمتسقة مع محيطه.

إننا في مجتمعنا الصناعي الذي نعيشه ، بعدما دمرنا كل شيئ ، شرعنا في الحديث عن الإستدامة ، والعمارة الخضراء وغيرها ، التي هي في النهاية محيط الفلاح وبيئته.

وأعود مرة أخرى إلى المسجد ، لأقول أنه بغض النظر عن نشأة الفلاح الدينية، فللمسجد دور إجتماعي لا يستهان به ، ففيه يكون يعقد القران وفيه أعمال التجارة والبيوع ، ولذا كان المسجد قلب المدينة الإسلامية وإلى جواره كان السوق. وماذاك إلا لأن الناس يشترون ويبيعون في معرض ذهابهم وغدوهم إلى الصلاة .

ويحكي لنا المعماري حسن فتحي عن قصة تصميمه لمسجد القرية . ولانرى أهمية شديدة في التعقيب على ما سرد سوى أن نقول أنه ليس هناك عناصر تقليدية لازمة لكتلة المسجد المعمارية ، فالمأذنة كانت لها وظيفة قديماً حين كان المؤذن يصعد أعلى المأذنة حتى يسمع الأذان كل من يجاور المسجد فيأتي للصلاة ويجيب داعي الله. أما وقد وجد مكبر الصوت فلا حاجة للمأذنة. والحديث عن إرتفاع المأذنة ، وأنها لابد أن تكون أعلى من صومعة الكنيسة ليس إلا من سخف الحديث وسقط القول.

لذلك لم أجدني حزينا عندما أرادت سويسرا أن تسن قانونا يحرم بناء المأذن على المسلمين بغض النظر عن البواعث السياسية ، فالمسلمون الأوائل لم يفتحوا البلاد وقلوب العباد بإرتفاع مأذنهم.

ولا يفوتني أن أقول إن ما هو قائم في مسجد الحاكم بأمر الله حتى اليوم، لايدل إلا على النضج العقلي ، ففي العصر الفاطمي شيد المسلمون الأوائل مبخرة عظيمة بدلا من المأذنة ، ولاتزال تلك المبخرة قائمة حتى اليوم . لقد كانوا يبخرون المكان - المسجد ومحيط المسجد - فجر كل جمعة زيادة في الخشوع وترغيبا للناس في الإتيان إلى المسجد.

والقباب كما سبق الحديث أنها لا تخص المسلمين وحدهم ، فما هي إلا وسيلة إنشائية لتسقيف الفراغات دون اللجوء للحديد . وبذا يكون تعريف

المسجد الحقيقي أنه مكان للعبادة ، وكل شيئ يزيد في خشوع المتعبد لازم معماري لأداء تلك الوظيفة، وعكس ذلك أصح .

وما يلجأ إليه بعض الساسة من زخرفة المساجد والإهتمام بأمرها ، ليس إلا تغطية على إستبدادهم السياسي . أنا لا أفهم وجود النجف المذهب ، وربما يحترمنا الغرب أكثر لو رأنا نستخدم وسيلة موفر للطاقة في إنارة المساجد ، وليس هذا إلا مثالا واحداً ، وقس عليه أمثلة كثيرة .

المسرح

يقول حسن فتحي في بواعثه لإهتمامه بالمسرح «المجتمع الريفي في مصر ما زال يختلف تماما عن المجتمع الحضري. والقرية مازال يوجد فيها كل صنوف الفن – كما مثلا في الفخار ، والنسيج ، والأشغال المعدنية – ونسيج الحياة في القرية يدخل فيه الكثير من أشكال الترفيه والاحتفالات التي تعد جزءا من الفن الشعبي مثلها مثل الفنون الإنتاجية.»

إن مما هو جدير بالاحترام إعتبار المسرح منبعا للثقافة ، وتجسيداً لها فكل مجموعة بشرية لها ما يجمعها ، وما يخرج عن تفاعلها مع المحيط ليس إلا ثقافة أصيلة لتلك المجموعة . وعلى سبيل المثال لا الحصر وجد في الشعر العربي أوزان تضبط إيقاعاته الموسيقية ، ووضعوا لها ستة عشر بحراً ، ولكننا وجدنا شعراً آخر لا يلتزم بتلك القواعد ويمثل ثقافة البدو وهو الشعر النبطي، وكذا وجدنا الغناء النوبي ورقصة السمسية عند أهل القنال . أما في صعيد مصر فإننا سنجد لونا آخر يعبر عن ثقافتهم ، هو التحطيب . والتحطيب هو اللعب بالعصا إشهاراً للرجولة والقوة الطاغية ، والتي تحظى بإهتمام جم في مجتمعات الصعيد.

إن الإهتمام بالثقافة يشذب السلوك ويهدي إلى الخير ويعالج أمراض المجتمع ، وقد أحسن حسن فتحي حين جعل من إهتمامه الحرص الشديد على وجود مسرح للقرية ، ربما كان محط أنظار السياح للتعرف على ثقافة أهل الجنوب.

المدارس

إنني أجدني في هذا الكتاب مضطراً في كثير من الأحيان أن أكون ناقلا عن الكتاب الذي أناقشه ، تحريا للدقة وبحثا عن صحيح الرأي . وهنا يعرض حسن فتحي تجربة أحب للقارئ أن يستمع إليها ، وأن يقرأها لا بعينيه فقط بل بعقله وإدراكه ، فلو ثبتت في أذهان معماري مصر تلك المعاني لما عانينا مما نعاني . يقول حسن فتحي « في ذلك الوقت هيأت الحكومة المصرية لنفسها فرصة نادرة في العمارة . فقد وضع برنامج جديد لبناء المدارس لتوفير آلاف مدرسة في مصر ، معظمها في القرى. وهكذا فإنه كان يمكن لو وجدنا تأييد رسمي حماسي ، المضي بالأفكار الجديدة في العمارة إلى أقصى أركان الريف، لصنع مباني ستصبح في التو جزءا من حياة الناس اليومية ، فتبدأ عصر نهضة معمارية تتواءم مع عصر النهضة الثقافية الذي ستبعثه المدارس الجديدة.

وإذا كانت مصر ستبدأ ذلك جد متأخرة بالمقارنة بالبلاد الأخرى ، فإن هذا يجعلها في وضع يتيح لها أن تتعلم من خبرة كل بلاد العالم الأخرى في بناء المدارس . ولدى هذه البلاد الكثير مما تعلمه لمصر ، ففي انجلترا مثلا ، وجد أن كل المدارس التي بنيت قبل ١٩٣٩ لا تفي بالمعايير التي أرسيت للمدارس الجديدة ما بعد الحرب . وفي أمريكا استمرت الدراسات طيلة سنوات لينتج عنها إنشاء مدارس رائعة للغاية في رحابتها وغنى تجهيزها .

فلم يكن لديهم نقص في المشورة الطيبة بشأن بناء المدارس . على أن وزارة الأشغال العمومية أخذت تقيم نمطا موحدا من المدارس في كل هذه القرى المختلفة. وعرض على تصميم لنمط مدرسة موضعها سيكون في الأسكندرية والنوبة ، واحداهما تبتعد عن الأخرى بستمائة وخمسين ميلا ، ولكل منها مناخ وتلميذ من نوع مختلف تماما ، والتصميم واحد.

وقد كان هناك فيما مضى اسلوب معماري معتاد يسمى «الأميري» ، أدخله الخديوي أو الأمير لبناء القصور والمباني الحكومية في البلاد. وهذا الاسلوب

الذي اتخذه الحكام الأجانب ليميزوا أنفسهم عن المواطنين الذين يحتقرونهم، هو أسلوب لايزيد في أحسن أحواله عن أن يكون محاكاة مزرية للفخامة الأوروبية ، ويغرس هذا الاسلوب في القرى الطينية بمصر العليا، وهكذا يصبح عامل تخريب بصري مثله كمثل صندوق قمامة يغرس فوق حوض للزهور.»

أجد نفسي مضطرا للفت النظر أن العمارة كائن حي ، لا يجوز إضافة أي عنصر غريبا عليه ، فيكون مصيره محاربة الأجزاء الأخرى له. والخط كذلك الذي نرسمه له لغة وصوت وصياح ، فنحن لا نصمم جوامد ، بل نكتب تاريخ تقرأه الأجيال القادمة من خلاله ما وصلنا إليه.

وأعود لحديث حسن فتحي : ويكون في واجهة المدرسة، وهي تجثم بنوافذها المصطنعة ، ما يبشر بما في الداخل من حجرات دراسة مستطيلة مليئة بالتراب ، وكان في هذا الموقف، المشبع بالروح غير الموائمة التي أتت من المدينة، ما يعلن أن المدرسة هي الأخ التوأم لنقطة الشرطة ، وقبحها الخالص فيه ما ينبغي أن يؤكد أنها مما لايمكن قط أن يكون له أدنى علاقة بالتعليم . وداخلها يمكن أن يكون مكتب للبريد بمثل ما يكون للمدرسة.

وهنا يحضرني قصة للمعماري لويس خان حين جاءه مشروع BOYS CLUB في مكتبه . يقول المعماري جلست أفكر في معنى هذا المشروع وأتسائل WHAT IS A BOYS CLUB؟

وفي النهاية حصلت على معنى المشروع ووظيفته الداخلية ، فنادي الصبيان معناه محول ، يدخله الأطفال صغاراً ويخرجون منه في سن الشباب، وبالتالي فلابد على كمعماري أن أوفر العناصر التي تساعد على الوفاء بتلك الوظيفة . وذاك مقصد حسن فتحي من حديثه السابق. وأعود إليه مرة أخرى حيث يقول : وإني لأذكر مبنى كهذا ، كانت إضاءة حجرات الدراسة فيه في غاية السوء ، رغم توهج شمس مصر أقصى توهج ، حتى أنه كان يلزم الإضاءة بالنور الكهربائي من الثامنة صباحاً حتى السابعة مساء. فالأسلوب الحكومي يحكم

على قرانا باسم الإقتصاد والحداثة ، بأن يكون فيها مدارس تنقصها الأولويات من أدنى وسائل الراحة المتفق عليها دوليا.

وينتقد حسن فتحي إقتصار المعماريين الحاليين على الإهتمام بدرجة الحرارة وشدة الإضاءة وعزل الصوت ثم يقول : أما تصميم المدرسة فينبغي أن يتناوله المهندس المعماري كم يتناول تصميم مسجد أو كنيسة. لأنها من نفس النوعية من البناء . فالمدرسة إنما هي لتنمو روح الأطفال ، ويجب أن يكون البناء بحيث يدعوهم إلى التحليق ، وليس إلى التقليص كما يفعل بهم حذاء صيني . والمهندس المعماري بخطوطه المصيرية المعدودة التي يخطها على لوحة رسمه ، يصدر قرارا بما سيكون للخيال من حدود، وللعقل من سلام ، قرار بالوضع الإنساني طيلة أجيال قادمة.

إن على المعماري أن يخلق من البناء مصدرا للحب والتشجيع لهؤلاء الأطفال بمستقبل واعد وغد مشرق. خاصة وأن فكرة المدرسة مكان لتلقي العلم فكرة مرفوضة ، بل إن المدرسة مكان يعيش فيه الأطفال ، فتنمو عقولهم وتترعرع مداركهم.

عودة إلى الحمام التركي

هذا هو البند الأخير من المباني العامة في القرية ، بعدها ندلف إلى الوحدة الأساسية في المشروع وهي بيت الفلاح. يقول الرائد حسن فتحي أنه كانت النية متوفرة لدى الدولة في إقامة مجموعة من الحمامات العامة على شكل أدشاش مجمعة في مكان واحد. لكنه عدل عن هذه الفكرة وأقنع الوزارة بأولوية الحمام التركي . وفي ذلك يقول « عندما غزا نابليون مصر كان الحمام أو المغسل التركي مؤسسة مزدهرة. وقد وصل إلى أن يكون بمثابة العنصر المكمل للمسجد، فهو ييسر ما اعتاده المصلون من الإغتسال الأكبر صباح الجمعة ، وهو من الأهمية بمكان بحيث أصبح بناء الحمام يعد عمل بر من أعلى المراتب. يقول صفوان الثوري أنه مهما كان ما ينفقه المؤمن من دراهم فلن يكون ذلك خيرا من

درهم ينفقه صاحب حمام في تحسين مؤسسته. ومزايا الحمام الصحية مشهورة بما تستحق ، ويشهد عليها اليوم إنتشار الحمامات التركية في الكثير من مدن أوروبا وأمريكا. ومن المؤكد أنه في تلك الأيام ، كان كل من يحس بأنه سيصاب بمرض ، يبادر ليسبقه ، فيذهب مباشرة إلى الحمام ليغتسل بحمام بخار منعش، ذلك أنه كان من المعتقد أن الأمراض إنما تنشأ من قلة إفراز العرق. والعرق الغزير الذي يحدثه البخار يفيدك فائدة جلية حتى لقد أصبح للاستحمام أهمية طقس من طقوس الحياة ، ولم يعد الشفاء من المرض يعد مكتملا إلا عندما يغتسل المريض غسل الصحة .»

وللحمام فائدةإجتماعية أخرى ، فالرجال يعقدون فيه صفقاتهم التجارية ويتحدثون في أمور السياسة ، والنساء يخترن عرائس الأبناء ويكون الحمام سبب اسبوعي لهن للهروب من المنزل .

بيت الفلاح

الفلاح في بلدنا إنسان مطحون ، يزرع الأرض ولا يأكل من ثمرها ، ويحلب البقر ، ولا يشرب من لبنها ، بل يأكل الجبن منزوع الدسم لأنه يبيع زبد الحليب.

يعيش مع مواشيه في نفس البيت ، لأنه يخاف عليها من السرقة أو المرض، ويجمع حطبه فوق سطح بيته ليستخدمه في طهي الطعام. فالفلاح في مصر هو الذي يفنى ليعيش غيره ، وهو الذي ينصهر ليضئ الطريق ، طريق الإستقلال عن الإستيراد من الخارج للمنتجات الزراعية. ومع ذلك فهو يحيا على شظف العيش. وقد أوضح الرائد حسن فتحي من خطورة بقاء الحطب فوق سطح البيت ، لأنه منه تكون الحرائق. كما أوضح عدمية الجو الصحي في بقاء الحيوانات داخل البيت . وحاول أن يقترح حظائر عامة للحطب والمواشى ، لكن هذا الإقتراح قوبل بالفشل ، لأنه ليسى من المعقول خروج ربة البيت إلى الحظائر العامة كلما أرادات أن توقد على النار ، وليس من المعقول أيضا أن يترك الفلاح البقرة تبيت بعيدا عن عينيه وهي عنده أهم من ولده .

واقترح أيضا أن يكون توزيع المنازل توزيعا مبعثرا ، لكن هذا الإقتراح كان يعيبه زيادة تكلفة خدمات المباني. ثم كان الإقتراح الأخير ، أن صمم حسن فتحي بيت الفلاح من طابقين ، الطابق الأرضي للماشية وللطهي ولإستقبال الضيوف والطابق الثاني من غرف النوم . وأرى أن هذا الإقتراح لم يحل المشكلة بعد ، فالرائحة لا تزال موجودة ، وهدفنا هو الإبقاء على كل ما هو جميل في حياة الفلاح وتطوير سلبيات حياته. وأرى أننا لو جعلنا المخزن والحظيرة ملحق بالبيت على بعد عشرة أمتار ضمن حدود مسوره، لحصلنا على مبتغانا وحققنا هدفنا. ويمكن أيضا للمراحيض أن تكون تابعة لهذا الملحق إذا لم يكن لديهم صرف صحي ، فالإنسان يتأقلم بالبيئة التي يوضع فيها ، ولانريد أن يرتبط مفهوم عدم الحرص على النظافة بحياة الفلاح ونشأته. وصدق من قال

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه

والمعماري هو أبو الفلاح في هذا المجال ، فعلى الجمال يربيه ، وبالنظافة يحصنه ويحميه . وهنا يمكن لسائل أن يسأل سؤالا وجيهاً ، أجبت عليه في العديد من كتبي وكتاباتي ، ماهي قيمة الجمال ؟

وأجيب إن قيمة الجمال قبل البناء الحضاري وبعده ، أنها تخلق إحساسا مرهفا وبالتالي مجتمعا نظيفا ، لايقوم على الغش والخداع وهتك الحرمات. لقد رأينا فيما سبق أن المناطق العشوائية ، هي أكثر المناطق في مصر هتكا للمحرمات. فتكثر الخيانة بسبب سوء التوزيع العمراني للمنطقة ،وتكثر السرقات، وينتج مجتمع فاسد والسبب في ذلك العمران.

انتهت عند هذا الحد العناصر المعمارية التي إختارها وتحسسها حسن فتحي للعودة عن طريق مشروع القرنة إلى الإستقرار والسكينة ، التي كانت في الماضي وضاعت في زحام المدينة. وكان فتحي يحتاج إلى بناء مضرب للطوب ليشيد به تلك العناصر ، فالطوب اللبن يصنع في مضرب. وعلى حسب المواصفات المصرية يصنع من تربة عادية ورمل بنسبة واحد إلى ثلث ، يضاف

إليها قش الأرز والماء ، ولاتوجد أي إضافات أخرى بينما في اليمن يضاف إليه الجص. ونسبة قش الأرز تكون ٤٥ رطلا في المتر المكعب الواحد . ثم تترك هذه القوالب المصبوبة مدة ٤٨ ساعة على الأقل حتى تجف .

سلبيات الخلطة

إننا في مصر لا نحول تقوية مادة الطين بإضافة عناصر أخرى ترفع من كفاءة الطين في تحمل قوى الضغط ، أو إضافة حبال من مواد طبيعية أو بوص وغاب لزيادة كفاءة قوى الشد ولو بمقدار قليل ، بينما في اليمن يستخدمون الجص كمكون أساسي من مكونات الطين . كما يمكننا إستخدام الفخار في الواجهات أو أجزاء من الواجهات ، لنمنع بذلك تسرب مياة المطر إلى أجزاء الجدار الداخلية ، وما الفخار إلا طين محروق وصل إلى درجة الصلابة.

فحتي ندرك أن الإيطالي الذي صمم تاج محل ما كان إلا معماريا جمع أدوات عصره، من مؤثرات إجتماعية أثرت في شكل الكتلة ونظم إنشائية معاصرة كتبت لها الديموقة والبقاء .

متي ندرك أن حضارة سومر بسبب إعتمادها علي مادة ضعيفة، لاتقف في وجه الزمن، كان مصيرها إلي الهلاك.

وأن ماشيده الفراعنة، بسبب صلابة المادة والإلمام العلمي أخرجوا للعالم معبد أبو سمبل .

إن بداية الطريق أن ندرك أن خلطة الطين ينبغي لها أن تطور وأن تتحمل إجهادات أكبر حتي تكون مواكبة لعصرها ملبية تطلعات راغبيها.

الباب الثالث : لحن الترديد

لم تكتمل الفكرة ، ولم يتم البناء .وبالتأكيد ليس فشل الفكرة معناه فشل البناء الطيني . إنك لو أردت إقناع مجموعة من البشر بأمر ما ، فلابد عليك أن تنظر إلى مافي عقولهم أولا . ولن تصل إلى الإقناع إلا إذا جسدت رغباتهم وحققت أحلامهم ، دون النظر إلى الكيفية. لايجوز لنا أن نلوم أناس لم يرغبوا في سكنى قرية القرنة ، بسبب أن تلك الأشكال عالقة في أذهانهم أنها أشكال مقابر.

فمها سقت من فائدة ، من إنخفاض سعر المبنى ، أو أداءه الحراري، فلن يجيبك الناس إلى ما تقول . إذاً كان علينا أن نغير الأشكال التقليدية ونطورها. وتغير الأشكال يستلزم تغير المادة ، برفع كفائتها . وتلك كانت العقبة الكؤود والطامة الكبرى في تجربة حسن فتحي.

يقول حسن فتحي في مستهل بابه الثالث « كنت أود أن أنهي كتابي هنا بما في القسم الأخير من نصيحة عملية ، وألا أضمن فيه إلا مافي جزئه الأول هذا من مادة مفعمة بالأمل وأكون بذلك قد قلت ما كان عليه أن أقوله للمهندسين المعماريين الأخرين وللجمهور عامة.

إلا أن تجربة القرنة أصابها الفشل، ولم تكتمل القرية قط ، وهي حتى يومنا هذا لم تصبح بعد مجتمع قروي مزدهر. ولن يكون من الإنصاف للقارئ أن نجعله يفترض أن المبادئ التي سبق شرحها هي مما ينجح أتوماتيكيا عند التطبيق. وفى نفس الوقت فإني لن أكون منصفا لنفسي ولا لبلدي لو تركت هذه المبادئ تظل مدانة بسبب فشل هذه المحاولة الوحيدة لتطبيقها . فليست القرنة وحدها التي توقفت ، بل لقد توقف كل أمل حقيقي للوصول بالفلاح المصري إلى المستوى اللائق من المعيشة.

وكنتيجة لأن القرنة لم تكتمل قط ، تمت إدانة كل نظرية للبناء بالطوب اللبن، ولم يقتصر الأمر على عدم بذل أي محاولة لاستكمال القرنة بل ولم تبذل

أي محاولة لإيجاد وسائل أخرى عملية للوصول إلى بناء بيوت ريفية. »

إن الأسى واضح بين ثنايا الرائد حسن فتحي ، فالحالة المزاجية في مصر تسير في غالب الأحيان عكس كل مجدد في معظم المجالات . سواء كان ذاك أرث قديم أم عرض بسبب التغير الأيدولوجي في المنطقة. يعبر فتحي عن هذا بقوله « إن مامنعني من إكمال القرنة هو ما عند الفلاحين من غموض وما عند البيروقراطيين من عداء»

وواضح كل الوضوح لقلب كل عاقل أن طريق حسن فتحي لم يكن مفروشا بالورود ، وأن نيته كانت الإرتقاء بالفلاح المصري . ووجب بعرف قانون الدنيا أن يجد حسد كل كاره لغيره ، مزدري لفعله. ونار الحسد تلك لها أحد أمرين ، إما تحرق المحسود فتثبط همته ، أو تجعله أكثر صلابة فتقوي من عوده وتجعله أكثر عناداً. وهنا يحضرني شكر الإمام الشافعي لأعداءه في أبيات بليغة حيث يقول:

عدايَّ لهم فضـــلٌ عليَّ ومنـــةٌ　　فعندي لهم شــكر على نفعهم ليًّا
هم بحثوا عن زلتــي فاجتنبتـــها　　فأصبحت مما دنس العرض خاليا
وهم أججوا جهدي ولكن ببغضهم　　وهم نافســوني فاكتسبت المعاليا

وقال أيضا :

اصبر على حقد الحسود　　فإن صـــبركَ قاتله
فالنارُ تأكل بعضـــــها　　إن لم تجـد ما تأكله

وأحسب أن الرائد حسن فتحي كان من الصنف الصلب الذي يزداد عناداً، وأنا شخصيا أشبهه بغاندي في إهتمامه بمحدودي الدخل ، وحنوه على أهل الصفاء والبساطة، فمايزيد المال الأثرياء إلا طغيانا إلا من رحم ربي. إن عبقرية حسن فتحي في إهتمامه بالبسطاء ، فقد كان غاندي لا يأكل إلا الخبز ، ولا يلبس إلا إزاراً يلفه حول جسده ، وكل ما يشغل ذهنه إرتقائه بشعبه. وكذا كان حسن فتحي ، لم يكن يبحث عن الصيت ، ولا المسابقات المعمارية ، ولا عن حصاد الهشيم من تراب الدنيا . إنما كان عنده غاية أسمى وهي الإرتقاء بالمطحونين من أبناء شعبه .

إن حسن فتحي لو لم يكن عنده غاية إلا تلك لكفت. وما نقدنا له إلا حباً للحقيقة ومحاولة لوضع جهود الباحثين على المسار الصحيح.

عانى حسن فتحي من البيرقراطية المصرية ، والتأخر في صرف الرواتب للعاملين ، وتجهيز مواد البناء من حجر وطين ، وشكل لذلك خمسة وعشرين فرقة ، ثم نقل هذه المواد إلى مواقع العمل . ضف إلى ذلك أن المساعدين الذين كانوا يشرفون على البناء لم يكن واحداً فيهم مهندساً ، لكن هذا الأمر كان أقل مشاكل حسن فتحي ، فعمال النوبة كانوا جديرين بالثقة التي منحها إياهم مهندسهم الكبير.

وأقتطف للقارئ الكريم لمحة من معاناة حسن فتحي مع مساعديه ، الذين قام أحدهم بتوجيه مسجد القرنة - وقد كان أول وحدة بنائيه - إلى محاذاة الشارع العمومي بدلا من توجيهه إلى مكة . يقول حسن فتحي: «وذهبت إلى عثمان رستم ، واكتشفت أنه يتأهب لمغادرة القاهرة. فقد عين مديراً لمدينة يافا، وكان هو الشخص الوحيد في الإدارة الذي يفهم خططي ويشجعها ، وها هو يتم إرساله بعيداً. وعلى أي حال فقد أخبرته أن مساعدي قد خطط المسجد موجها إياه بعناية إلى فندق ونتر بالاس في الأقصر بدلا من توجيهه إلى مكة ، وكيف أن على أن أعيد فحص كل شيئ أعهد له بالقيام به ، وكيف أنه مشغول بأن يحدث إنطباعا في رؤسائنا أكثر من أن يقوم بعمله جيدا، وطلبت بديلا له . ثم استفسرت عن قشي ، لأجد أنه لم يحدث إطلاقا أي إعلان بطلبه ، وأنه ليس من أمل في الحصول عليه لمدة أربعين يوما أخري على الأقل. أما بشأن مساعدي فقد قال عثمان رستم أنه سيفعل كل ما بوسعه لمساعدتي ، وأخذني لمدير عام الأثار ، الأب درايتون ، الذي وافق أن أحصل على مساعد أفضل. ولكن من ؟ ما من مهندس معماري في المصلحة في القاهرة يريد أن يغادرها ، ومعظمهم في الحقيقة يعتبرون بصراحة أن الأقصر بمثابة المنفى . ولم أن أريد مساعدا يعتبر نفسه سجينا لدي . وتذكرت أخيرا واحدا من طلابي ، صلاح سعيد الذي كان

مهتما بنوعية المباني التي أبنيها. واتصلت به وسألته إن كان يحب أن يأتي إلى القرنة. وقال إنه سيفعل ذلك، وإن كان والده قد عارضا معارضة شديدة جدا ، وهكذا تم إعفاء مساعدي من مركزه وحل صلاح سعيد مكانه.

ولا حاجة للقول بأن مساعدي السابق بدأ في التو شن حملة ضدي ، ووجه حملته هذه أول الأمر إلى مساعدي ، وأخذ مختلف الناس يهمسون له محذرين من المكائد الميكافيلية ، التي تقلب حياة الموظف في مصلحة الآثار ، ومن المكر الشيطاني لأهل القرنة أنفسهم .»

هذا نوع من المتاعب التي لاغنى عنها ، مابقي الليل والنهار ، ومادامت الأعصار والأسحار . وقديما قال أبو الطيب:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعـــلةٍ لا يظلمُ

إهدار الأموال

على الرغم من ضآلة المبلغ المطلوب في كلفة مشروع القرنة ، إلا أن حسن فتحي اتهم بتبديد الأموال ، عندما لجأ لشراء القش من الحساب الإحتياطي، والذي وصل إلى عشرون جنيهاً . إتهم فتحي بإهدار أموال حيث يقول « وتصادف حول ذلك الوقت أن سمعت من أحد الأصدقاء عبارة مفيدة جدا : إنني أعدك مسئولا عن إهدار الأموال الحكومية « . وذاك أمر عجيب ، إذ أن هذا الرجل يعتبر إنفاق الدولة على مشروع القرنة هو بمثابة إنفاق دولة الإمارات على برج خليفة . وتلك من سخريات القدر ،وهؤلاء هم حزب أعداء النجاح . أو هم من البيرقراطيين المصريين ، الذين يعكرون صفو كل جميل فيقلبون الفرح حزنا والعرس مأتم بسبب ما استنوا من سنن . ودليل ذلك تلك القصة التي يقصها علينا حسن فتحي ، يقول « ورغم هذه المزعجات فإن العمل بدأ بداية جيدة جدا، وبنينا معظم ساحة السوق ، وأتممنا الخان ، وأعدنا حفر أساسات المسجد . وفي نوفمبر ١٩٤٦ أنبئت بأن مبلغ ١٥,٠٠٠ جنية المسموح به لي في هذا الموسم لم يبقى لي منها إلا ٦٨٣١ جنيها. وكنا قد اشترينا بالفعل معظم

مواردنا ، ولما كانت قائمة أجورنا الشهرية تبلغ حوالي ١٠٠٠ جنيه ، فقد حسبت أننا نستطيع العمل لسبعة شهور أخرى ، حتى نهاية يونيو ١٩٤٧ . ثم وصلني في ٢٩ ديسمبر ١٩٤٦ خطابا من ادارة الحسابات يقول إنه لم يتبق لنا إلا ١٤٠٣ جنيهات «رغم أنني لم أشتر شيئا منذ نوفمبر ولم أدفع أكثر من أجور شهر واحد» وحذرتني إدارة الحسابات من انني لو تعاملت بالدين لأجور بأكثر من هذا المبلغ ، فإن الإدارة لن تسد هذا الدين. وكما اتفق ، كنت قد أنفقت بالفعل أكثر من هذا المبلغ عند وصول الخطاب إلى ، وعلى أي حال فما كنت أستطيع أن أخرج للملأ وأخبر كل واحد أن يرمي معداته ويعود لبلده ، وكتبت ردا غاضبا ، لأقول اننا لا نلعب بروضة أطفال، حتى نبدأ العمل الذي نوقفه كل بضعة أسابيع ، وأن لدينا عددا من المباني نصف المكتملة لا يمكن تركها على هذا الحال . وعلى أي حال فما كان يمكننا أن نواصل العمل دون نقود ، وهكذا انتهى العمل بالتوقف ثانية في يناير ١٩٤٧ ، ليستأنف في سبتمبر. «

وأقول أن ذاك شأن كل صاحب دعوة جديدة ، أو أمر استغلق على الناس فهمه ، فالحرب من باب الجهل أو الحرب من باب الحسد.

إن القارئ في التاريخ لا يمل من مثل تلك المواقف سواء في الشرق أو الغرب ، فمحمد عبده حورب ، ومارتن لوثر كينج حورب كذلك. والمجددين شأنهم في ذلك شأن الأنبياء ، لا نفرق بين دين ودين ، ولا نخص أحداً بالذكر دون غيره. وقديما قال الإمام الشافعي في شأن من جهل معلومة :

كلما أدبنـــي الدهــــر أراني نقــص عقـــــلي
وإذا ما ازددت علمـــاً زادنـــــي علما بجـــهلي

وتلك مقولة غاية في البلاغة ، ثم هي عزاء لما عاناه حسن فتحي في تجسيد فكرته بقرية القرنة .

المضخة

لون آخر من المعاناة ، يتحدث عنه في بابه الثالث، حيث أن الأمر كان يتعلق بالمضخة التي تضخ المياة إلى الموقع ، وعرض هو عرضا يقلل من تكلفة

المعدات اللازمة ، لكن الأمر قوبل بالرفض. وأترك الحديث لحسن فتحي ليقص علينا قصته يقول: «أثناء الموسم الثاني لاقيت المثل السيئ ، بالذات للموظف الذي يستخدم مركزه لابتزاز فلاح لا حول له. فقد وجدنا أن المضخات اليدوية التي كنا نستخدمها لإمداد الموقع بالمياه لا تستطيع إمداده بما يكفي ، وبالتالي فقد طلبت من الإدارة وحدة مضخة بمحرك، وردوا على ليخبروني أن المحرك والمضخة سيتكلفان ١٤٠ جنيها ، والمواسير ٤٦٠ جنيها ، أي بإجمالي ٦٠٠ جنيه . ولما كان هذا أكثر مما نستطيع تحمل تكلفته حقا، فقد أخذت عن طريقة ما للتوفير. وعندما أصبح معروف أني أطلب مواسير ، ذكر لي إبراهيم حسن أن لديه ما يقرب من ٢٠ مترا من المواسير فوق أرضه لم يعد يحتاج إليها. وعرض أن يبيعها كلها لي وأن يركبها في الموقع مقابل ٤٥ جنيها . وأوصلت هذا العرض في التو إلى الإدارة ، وكالعادة لم يردوا على . وكتبت مرة ثانية ، ووصلني خطاب بالرد من الهندسة الميكانيكية يقول أن الثمن منخفض جدا ، بما يشير إلى أن هذه المواسير لا يمكن أن تكون جد صالحة.

ومر شهران وأخبرتني الإدارة أثناءهما عندما حدث وردت على خطاباتي، أن هذا الطلب يجب أن يتم عرضه على وزير المالية ليوافق عليه ، على أنهم لم يرسلوه إليه ، وبقيت دون مضختي ، وإن كانت قد حسب حسابها بالفعل ضمن المشتروات التي إلتهمت ميزانية هذا العام ، وسوف توضع في ميزانية العام القادم إن لم يتم شراؤها وتركيبها أثناء موسم العمل الجاري. وكنت من قبل منزعجا للطريقة التي يبدد بها البيروقراطيون النقود، فمثلا في حالة الشاحنات الثلاث التي طلبنا شراءها ، أخبرنا أننا يجب أن نأخذ معها هياكلها المصنعة تصنيعا خاصا لها بسعر ٢٠٠ جنيه للهيكل الواحد ، بينما توجد هياكل من مخلفات الجيش تباع بسعر ١٥ جنيها للواحد ، وهكذا كتبت خطابا أبين فيه أني أحاول أن أوفر ٤١٥ جنيها من ميزانيتنا ، وكررت تهديدي بأني سأعد الإدارة مسئولة عن إهدار الأموال الحكومية . وجعلهم هذا التهديد يمررون الطلب إلى

وزارة المالية ، وبعد ذلك مباشرة كنت في مكاتب المصلحة عندما همس لي أحد الموظفين هناك بأن من الحكمة أن أحصل على المواسير مقابل٤٥ جنيها ، ولما كنت أنا الذي قلت بمبلغ الخمسة والأربعين جنيها ، فإنني لم أفهمه وقتها وظننت أنه يحاول أن يتواقح . وعدت إلى القرنة ولاحظت أن إبراهيم حسن الذي عادة يحرص على الحضور للقائي في المحطة ، كان غائبا ، مما ينذر بالسوء. وعندما لم يظهر طوال اليوم أرسلت في طلبه . وقال الرسول إنه في الأقصر ، وهكذا أرسلت ثانية في اليوم التالي ، ونبهت على الرسول ألا يعود بدونه . وحين تم إحضار إبراهيم في النهاية ليراني ، أخبرني أنه قد سحب عرضه. «

ولا تعليق سوا أن لي قصة مشابهه لتلك القصة ، هي أنني عندما كنت أدرس في ألمانيا ، كان لي أحد الأصدقاء يدعى هشام الشحات ، وكان هذا الصديق ممن تخرج في كلية الألسن قسم اللغة الألمانية ، وكان يعمل مرشداً سياحيا باللغة الألمانية ، وكان إعجابه بالألمان يفوق كل وصف ، فلما عاد إلى قريته أراد أن ينقل ظواهر الحضارة الألمانية إليها ، وكانت قريته تدعى الصنافين في دلتا مصر بالقرب من القليوبية . فأحضر مجموعة من أحواض الزهور ووضعها على نفقته الخاصة في شبابيك مدرسة القرية الرئيسية ، تماما كما يفعل الألمان ، واشترى ألف نخلة ووضعها في الطريق الرئيس المؤدي إلى المدرسة .

وفوجئ هذا الهشام ، وكان ذلك في العهد السابق ، أعني عهد حسني مبارك ، برجال أمن الدولة يستدعونه ، ويسألونه ما الذي دفعه لإرتكاب هذا الجرم ، وهل هو ينتوي ترشيح نفسه في مجلس الشعب ، ومن الذي يموله، إلخ ..

إن مثل تلك القصص ، تصب في مجملها في أمر صعب عليَّ أن أتفوه به، لكن طالما قطعت على نفسي عهدا ألا أقول غير الحق ، فلا تردد ولا مجاملة في أن هذا الأمر يصب في كراهية هذا الوطن .

تخيل معي مجموعة من البشر يعيشون على أرض يأكلون من خيرها

ويستظلون بسماءها ويكرهونها ، فيخربون ويعربدون ، ويهربون أموالهم إلى الخارج ، وبدل من أن يستروا عيوبها يفضحونها ويفضلون عليها غيرها من الأوطان . إن من يلقي ورقة في الطريق ، فهو كاره لهذا البلد ، لأنه لا يفعل هذا في مسكنه . يقول شاعر النيل حافظ

فلا أنت يامصـــر بدار الأديب ولا أنت بالبلـــــد الطيبِ
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال أبو الطـــــيبِ

الكوليرا

كان هناك عائق آخر في طريق المعماري الرائع حسن فتحي. هذا العائق ليس من صنع الإنسان ، ولا يمت إلى ما سلف ذكره بصلة ، هذا العائق هو مرض الكوليرا الذي داهم قرية القرنة ، دون سابق إنذار ، ودون أن تتخذ الحكومة الإستعدادات الكافية. ولو وجد حالة واحدة من الكوليرا في تلك القرية فإن هذا كان كافيا لإنتشار مرض الملاريا الذي قضى على ثلث العالم عام ٤٣-١٩٤٤ كما يقول حسن فتحي .

وقام فتحي بتحليل مياه الآبار ، فوجد أن عدد البكتريا لايحصى ، وأن التخم اللبني في المياه وصلت نسبته إلى ثمانين في المائة ، بينما المسموح به عشرين فقط . وكان الحل الوحيد أن تدق المواسير في باطن الأرض ، وتوضع عليها المضخات لجلب المياه النظيفة ، ويمنع الناس من استخدام مياه الآبار.

وكان الحل الوحيد أمام حسن فتحي أن يستخدم مواسير ومضخات ضرب الطوب اللبن . وكان مقابل ذلك التوقف عن العمل الذي حلم حسن فتحي بإتمامه . وقد فعل حسن فتحي لأنه غاندي العمارة . إنه يستحق التحية والتقدير والإجلال ، فأي إنسان هذا ؟ ومن أي طراز يكون؟

لقد قلت أكثر من مرة ضمن ثنايا هذا الكتاب ، إن فتحي حق له أن يرفع على الأعناق ، لأجل ما صنع إجتماعيا من أجل الإنسان ، وذاك هو صميم الدين، وصميم أي دين .

لقد جاء في الروايات المتواترة أن رجلا عطش في الصحراء ، وأخذ يبحث عن بئر ، ولما وجد البئر وشرب حتى ارتوى ، وجد كلبا واقفا فوق رأسه ، فقال ذهب العطش بالكلب مثلما ذهب بي ، فنزل إلى جوف البئر وملأ خفه وصعد ، وسقى للكلب ، فغفر الله له .

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « وفي كل كبدة رطبة أجر»

كان ذلك عائق في مشرع حسن فتحي ، لكنه عائق جميل نم على نفس شفافه تقدم الخير ، وتبدى مصلحة الآخر على مصلحتها الشخصية. ولم يقتصر الأمر على إستخدامه لمواسير ومضخات المشروع فحسب، بل وضع نفسه ومن معه تحت إمرة طبيب القرية ، الذي يظهر فقط وقت الشدائد لتوعية أهل القرية وتجنيبهم إنتشار المرض ، وذلك بالوسائل العديدة المتبعة مثل غلي المياه وعدم تناول أي من الأطعمة دون التأكد من نظافتها. هذا بالإضافة إلى التوعية الإرشادية التي كان يقوم بها إمام القرية الشيخ الفاضل محمود ، والذي إنضم إلى نفس اللجنة ، لجنة مكافحة الكوليرا .

وبعد جهد جهيد أتى المصل إلى القرية . وتلك عادة الحكومة أن تصل دائما متأخرة .

نهاية الحلم

أعني بذلك حلم حسن فتحي في بناء قرية طينية ، ولكن من عجيب القدر أن يرى حسن فتحي حلما بنهاية مشروعه. يقول فتحي « حلمت تلك الليلة حلما فظيعا . كان بعض الصبيان – أولاد قريب لي – يأخذون دشا. ولكنهم بكامل ملابسهم ، وعلى ظهورهم جربندية ، وانساب الماء من فوقهم كلهم ، ولكنه لم يبل إلا سرابيلهم التي التصقت بسيقانهم. ثم أتى حصان ، بدا كالفرس التي يمتلكها الشيخ أحمد عبد الرسول ، ووثب إلى ظهره رجل شرير – لم أستطع رؤية وجهه – وانطلق به الحصان بعيدا، وجاء في أثره جياد سود يعدون من ورائه ، في هياج وخوف ، واتت الخيل الراكضة بالناس إلى الخارج ، وكان ثمة

ثورة في الجو ، وجرى الناس ثم أخذوا يتساقطون أمواتا ، على أنه ما من أحد كان يقتلهم ، وتساقطوا بملابسهم، وتكومت أجسادهم الواحد منهم فوق الأخر، وهكذا حولت رأسي بعيدا حتى لا أرى . وأتي من خلف الجسر رجل يرتدي زي الفرقة الأجنبية ، وكان معه سيف ، ضرب به فشج صديقي رستم هاويا للأرض، ثم وجه ضربة إلى فشج السيف كتفي ، وتسألت في عجب هل قتلت ، ذلك أني لم أحس ألما ، واستيقظت وأنا في غاية الإنزعاج ولم أنم بعدها في تلك الليلة « . انتهى كلام حسن فتحي ، ولكن يجب للقارئ أن يعرف أن أمطار شهر سبتمبر، كان من شأنها إصابة النيل بالفيضان، وكان كثيرا ما يستغل هذا الفيضان في سقيا الأراض الزراعية بجنوب مصر ، وكان هذا النوع من السقيا يسمى بالحياض ، وكأن النيل أصيب بالحياض. إلا أن تلك المياة كانت تمثل خطرا للمباني الطينية بشكل عام ولمشروع القرنة بشكل خاص.

وفي الحقيقة أن هذا ما أشرنا إليه من خلل ، أن من يريد أن يتصدى لمثل تلك النوعية من المباني فلابد له أن يطور من مواصفات مادة البنا ، فالطين كطين مشكلة . لكننا إذا عدلنا من خصائصه ، أو أضفنا طبقات أخرى من مادة غير طينية إلى الجدار أو السقف ، نكون بذلك قد إختصرنا سلبيات المادة .

وأعود مرة أخرى ، فقد كانت مياه الفيضان خطرا يهدد مشروع القرنة، لذا أتى حسن فتحي في المنطقة التي تشكل خطرا داهما على المشروع وبنى بها جسرا ، وما كان يظن في لحظة من اللحظات أن ينهار ذاك الجسر أو ينقبه أحد ، لكن ما غاب عن ظنه حدث وغرقت منازل القرنة الطينية . يقول حسن فتحي « عندما وصلت إلى منزلي وجدت رسالة من رستم ، يطلب فيها أن أمر عليه حيث أنه قد وصلته رسالة تليفونية من كبير مفتشي الأقصر تقول إن القرية كلها قد فاضت عليها المياة وأغرقتها . وأحسست بدوار ، وتمايل رأسي واندفعت إلى رستم لأسمع المزيد . ولم يستطع أن يضيف لما في رسالته إلا القليل ، وهكذا تلفنا للمفتش في الأقصر . ولست أحب لأي واحد ، ولا حتى ألد أعدائي ، أن

يحس عذاب تلك الساعة التي انتظرت فيها وصول المكالمة التليفونية. وأخيرا سمعنا صوته وعرفنا أن القرية في الحقيقة قد أغرقت وأن الجسر قد كسر ، وأن الموقع كله مغمور بالمياه. وسألته ما عمق المياه ؟ قال لم أقسه ، ولكن ما هو العمق بالتقريب ؟ هل تصل المياه إلى النوافذ؟ لدعامة الباب ؟ فوق الأسطح ؟ أريد أن أعرف ، على أنه فيما يبدو لم يكن يعرف ، وهكذا قلت له أننا سوف نصل بقطار الليل ووضعت سماعة التليفون . وسافرنا في تلك الليلة، ومرة أخرى رويت الحلم في القطار لرستم ، وفسره بقوله إن الصبيان هي بيوتي ، وقد بللتها المياه من أسفلها ، والرجل ذو السيف هو الرجل الذي كسر الجسر ، وأن الجياد السود هي مياه الفيضان المتدفقة .

وبالوصول إلى القرية في الصباح التالي ، وجدت أن المياة ترتفع فحسب لحوالي نصف المتر وإن الجانب الشرقي لم تصل إليه مياه الفيضان قط . إلا أن قوالب الطوب التي أعددناها في الموسم الماضي قد ذابت كلها ، ولو كان مساعدي قد نقلها كما طلبت منه لكانت الآن سليمة على أن رسلان حتى في حالة الطوارئ هذه لم يستطع أن ينسى أمر ترقيته ، ولم يأت مطلقا لتقديم العون .

وهرعت إلى المكان الذي نقب فيه الجسر ، غرب القرية بما يقرب من ميل وربع ، ووجدت ثغرة عميقة واسعة محفورة في الجسر عبر ما يقرب من ثمانية أمتار . وكان هناك حوالي مائة عامل ، يشرف عليهم مهندسو الري وضابطان من الشرطة ، ولكني للأسف لم أجد أي واحد من أهل القرنة بين هؤلاء العمال الذين جمعوا بالقوة في القرى المجاورة لمعالجة الأزمة. وقد رفض كل أهل القرنة أن يعملوا في الجسر ، وحتى أولئك الذين تم جمعهم في الليلة السابقة وأجبروا على العمل في الجسر، تسللوا من خلال المياه تحت ستار الظلام ، بدلا من أن يساعدوا في إنقاذ قريتهم الجديدة . وقد احتالوا أثناء عملهم حتى يوسعوا الثغرة بأقدامهم بينما هم يتظاهرون بسدها بأيديهم»

إن هذا الكلام خطير ، وأنا شخصيا لا أستبعد حدوثه ، ولكن لابد عليه

من دليل ولا يجوز أن يكون كلاما مرسلا . ولكن بفرض أن أهل القرية هم فعلا الذين نقبوا الجسر ليغرقوا مباني القرنة الجديدة ، فما السبب في ذلك ، ماهو السبب الذي يدعوا أهل القرية لهدم مساكن شيدوها بأيديهم أو شيدوها لأنفسهم ؟ ثم هل الخلل في أن أهل القرية قاموا بهذا الفعل أم أن الخلل في عدم وضع أساليب وقاية لمادة البناء المستخدمة ضد المياه. ويرجع حسن فتحي رحمه الله أسباب تخريب أهل القرنة لقريتهم التي بنوها بأيديهم إلى سببين رئيسيين :

عملهم في سرقة المقابر كان يحتم عليهم أن الإختباء وسط منازلهم القديمة التي ليس فيها أي مظهر من مظاهر الترف والرغد ، ولكونها أيضا تقع إلى جوار المقابر . وكلا الأمرين مردود عليه ، فليس شرطا للص أن يكون إلى جوار فريسته التي يريد أن ينقض عليها ، كما أنه ليس شرطا إدعاء الفقر لكي ينفي اللص عن نفسه تهمة السرقة

مدفوعين بنوع من الإحساس بالعار ، العار من أن يعدوا من الجبناء إن لم يشاركوا في عملية التخريب . وهنا يأتي سؤال لما؟ ومن أين أتى هذا الإحساس؟ تخريب القرية أصبح شرفا ! إن كل هذه الأمور في النهاية مرجعها إلى القناعة أو عدم القناعة بما تم بناءه . والمسئول الأول عن هذا الأمر هو المهندس المعماري ، الذي يقوم بإقناع المالك بفكرته ، ثم يقوم على تنفيذها .

وليس صحيحا إغراء المالك برخص قيمة المبنى ، إنما على المعماري أن يتقمص شخصية المالك فيرى رغباته ويتلمس مواضع نظره ، وما يؤثر في فكره وعقله ، ويبنى على ذلك قراره.

فهل حدث هذا في مشروع القرنة؟ أم كان هناك خلل في مرحلة من مراحل الإقناع ، او مراحل التصور وترجمة الرغبات. إن الإنسان لا يستطيع أن يسكن شيئا هو يكرهه ، ولو صبوا عليه المال صبا . ومادمنا قد علمنا أن القرني يربط بين أشكال تلك المباني وبين المقابر ، فأينا يحب سكنى المقابر!

إن المعماري كالمشخص الذي يتقمص شخصية ثم يؤديها ، فهو يتحتم عليه

تقمص شخصية المالك وتخيل رغباته وربط ذلك بعلوم الهندسة والإنشاء ، مراعيا كلا من العوامل الإقتصادية والإجتماعية والنفسية. من ثم فقد كان من باب أولى البحث عن أشكال أخرى توفي رغبات القروي البسيط ، حتى يكون في يوم من الأيام مدافعا عنها لا هادما لها، فضلا عن أن تكون هي قضيته التي يدافع عنها.

الباب الرابع: لحن الختام

هذه مأساة عاشها حسن فتحي ، ولكنها مأساة كل صاحب دعوة جديدة، يؤمن به فريق ويكذبه الأكثرية ، بل ويتأمرون ضده . ولقد ذاق حسن فتحي رحمه الله كل هذا . وأذكر بما عاناه في الفن رجل مثل سيد درويش ، فقد كانت الموسيقى قبله موسيقة تركية ، أخذة من التراث العثماني ، وبقي ثابتا على رأيه، فكانت الموسيقى العربية . وفي الفيزياء أذكر بجاليلو عندما قال بكروية الأرض، وسجنوه وحاكموه وطلبوا منه أن يقدم إعتذاراً للكنيسة ، فقدم الإعتذار ، ثم أنهى الإعتذار بقوله «ومع ذلك فهي تدور»

وفي الدين أذكر بحسن البنا الذي جاء والناس تعيش في الشعوذة والدجل فأعاد الإسلام إلى الحياة وقال الإسلام عقيدة وشريعة ، مصحف وسيف، وظل أتباعه صامدون أمام السجون والمعتقلات ،فإذا بهم يحكمون العالم بعد ثورات الربيع العربي ، هذا مع أنني أجد ممارساتهم ليست المنتظرة والمرجوه ، وأننا كنا ننتظر ممارسات تذكرنا بعمر بن عبد العزيز على الأقل ، إن لم تذكرنا بعمر بن الخطاب. وليس هذا هو المقصود من الحديث ، لكن معرض الإستدلال أن كل صاحب دعوة جديدة ، لابد له من مكذبون ، ولابد له أن يصبر حتى يصل إلى مراده. يقول المفكر الفرنسي لامارتين إن العبقرية تقاس بسمو الغاية والنتائج المذهلة رغم قلة الإمكانات ، وقد توفر لفتحي هؤلاء جميعا وتخلفت واحدة ، هي النتائج المذهلة ، بسبب ما أشرنا إليه ضمن صفحات هذا الكتاب. لكن يبقى لفتحي قدم راسخ في العمارة دون الإلتفات إلى النتائج.

وما أبلغ قول الله سبحانه وتعالى « ... حتى يقول الرسول والذين امنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب.»

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم «إنما النصر صبر ساعة»

وأعود إلى فتحي لأقول إن معاناته من نفس الطراز ، وهو من نفس الفصيل من البشر ، فقد كان المعماريون مفتونون في ذاك الوقت بتقليد الغرب ،

وكان هو كمن يؤذن في سوق هجر . وأقتبس بعض كلمات لفتحي من بابه الأخير ليدرك ما عاناه الرجل . يقول فتحي رحمه الله بعد أن، تآمر أهل القرية لهدم البيوت التي شيدوها « كان من الواضح استحالة الإستمرار في العمل مع أناس هكذا ، ولهذا عندما أنبئت في النهاية أنه إما أن أعود إلى مدرسة الفنون الجميلة أو أن أتخلى عن كرسي هناك لأصبح موظفا مستديما في مصلحة الإسكان ، قررت أن أعود إلى التدريس وقد ارتحت بالا . على أنه حتى التدريس لم يكن فيه إلا القليل . وأحسست أني أحاول تدريس شيئ قد فشلت أنا نفسي في إنجازه ، وتزايد شعوري بالقلق ونفاد الصبر . إن ظهور النتائج يستغرق زمنا أطول مما ينبغي ، فالأمر تنمية شجرة نخل من بذرة، فلا أقل من عشر سنوات قبل أن تستطيع جمع بلحة واحدة.

ثم حملتني سلسلة من محن جديدة على إتخاذ قراري . كانت هناك مسابقة لتصميم أرخص قروي واف. وكان المطلوب تصميمين ، وفازت التصميمات التي قدمتها من كلا النوعين . وأعطى وزير الشئون الاجتماعية منحة ٢٥٠ جنيها لإقامة أحد هذين التصميمين كتجربة. وتم اختيار موقع أرض ما يمتلكها المركز الإجتماعي في المرج . قريبا من القاهرة. وعملت عملا شاقا في الرسومات التفصيلية والتقديرات المالية حتى تكون جاهزة قبل أن يغير أي واحد من رأيه ، وانهيت كل ذلك خلال أسبوع . ورغم هذا إلا أن مصلحة الإسكان لم تبن قط هذا البيت ، مع أنهم كان عندهم كل شيئ ، التصميمات والموقع والنقود، والسبب كما قالوا أنهم لم يستطيعوا أن يقرروا تحت أي بند من بنود ميزانيتهم سيتم إدخال ذلك.

وافتتحت الحكومة في ذلك الوقت مركز أبحاث البناء ، فاقترحت نقل مبلغ ال ٢٥٠ جنيها إلى مركز الأبحاث هذا ، وأن أبني البيت تحت رعايتهم. وكنت آمل بهذه الطريقة أن يتم تعرض بناء من طوب اللبن لاختبار رسمي معتمد ، وبذا يثبت أن الطوب اللبن رخيص حقا. ووافق مركز الأبحاث ، ولكنه قال إنه

سيكون من الضروري بناء بيت آخر بالموارد التقليدية - كمرات خرسانية سابقة الإجهاد - لمقارنته ببيتي . وفي النهاية بنوا البيت الثاني - الذي كلفهم ١٠٠٠ جنيه - ولم يبنوا بيتي. وكنت قد علقت آمالا عظيمة على هذه التجربة لإثبات آرائي فيما يتعلق بتكلفة الطوب اللبن ولأضع حدا للحكايات التي كانت تروى عن ارتفاع تكلفة القرنة ، ولكني لم أخرج بشيء من هذه التجربة ، ومازالت ال٢٥٠ جنيها مع مركز الأبحاث .

وبعد ذلك ، وبينما كنت أمل أن نجاح مدرستي في فارس سيبرئ في النهاية طريقة طوب اللبن إلا أن أحد كبار موظفي مصلحة المباني المدرسية روى مباشرة كذبة متعمدة للوزير ، قائلا أن المدرسة قد تكلفت ١٩٠٠٠ جنيه بينما هي في الحقيقة قد تكلفت ٦٠٠٠ جنيه ، وعندما علمت بذلك ، أدركت أن لامكان لي في مصر ، كان من الواضح أن البناء بطوب اللبن يثير عداء فعالا عند أولئك الناس المهمين. واتفق أن وقعت لي مؤخرا مغامرة مع لصين اقتحما منزلي وطعناني ، على أنه ليس من المبالغة أن أقول أني أحسست مع هذين اللصين أني آمن أكثر مما أكونه مع أولئك الرسميين الذين يستطيعون الكذب لمنع وصول ما فيه فائدة للفلاحين.

يقول القرآن للمؤمن الذي يجد من المستحيل عليه أن ينفذ رسالته بين قومه أن عليه إذن أن يشد الرحال مهاجرا إلى مكان آخر . وفي ذلك الوقت سألني الدكتور دوكسيايس أن أنضم إلى مؤسسته في أثينا . لأعمل عنده على التخطيط للريف في العراق. وأحسست أن العمل الأهم هو البناء لا التدريس وأن المباني أيا كان موقعها في العالم، ستتحدث بصوت أعلى من المحاضرات وأنه إذا جذب مشروع ما مكتمل انتباها دوليا ، فإنه في النهاية سيكون له تأثيره في مصر.

إخترت إذن أن أبني بدلا من أن أدرس. وقد أحسست أني أستطيع إيدا ع النظرية التي طورتها بالقرنة في هذا الكتاب. الذي هو إسهام في نظرية التكامل والتناول المتكامل ، وإن كان ينبغي أن يكون عمليا بقدر الإمكان، إلا أنه يتطلب

الإشارة إلى بعض العثرات والعقبات في طريق التطبيق العملي للنظرية ، ومن هنا كان هذا الجزء الثاني.»

ونرى هنا بعين اليقين أنه بمقدار ما كابده حسن فتحي رحمه الله ، من عنت وخيانة ، ما اطره إلى الرحيل والهجرة ، بقدر ما أنه لا يدرك أي خلل في النظرية، ولو حتى من باب التحرز أو المواربة أو عدم غلق الباب لأي باحث آخر .

إن البحث العلمي يستلزم منا أن يكمل الباحث ما أتمه زميله ، وعلى هذا المنوال نسج جميع الباحثين . والتاريخ خير شاهد ، فالفيزياء على عصر نيوتن كانت جزيئات ، وكان ذلك في القرن السابع عشر ، ولما جاء فارادي بعده بمائة وخمسين عاما علمنا من خلاله أن الفيزياء مجال وكان على يديه إختراع المولد الكهربائي.

ومن هنا أقول لكل محبي حسن فتحي إن حب حسن فتحي معناه إكمال ما ترك ، لا تقليده. تماما كما فعل جون نوفل في مبنى العالم العربي في باريس ، عندما طور المشربية وجعلها متحركة وفعاله مع شدة سطوع الشمس . ونحن هنا نستخدم المشربية الخشبية إستخداما مبتذلاً.

إن حتى الشعراء الذين جددوا شعرنا العربي في بداية القرن العشرين ، وأعني بهم البارودي وشوقي والشابي ، لم يقلدوا المتنبي وأبو فراس والبحتري ، لكن جاءوا بجديد المعاني مع جديد اللفظ ، فجددوا شباب اللغة وأقاموا ما أعوج منها ، وأستقى هذا الجديد من مدرسة القديم فخرج الشعر في الثوب الذي يقبله الناس ، ويتحدث عن مشاعرهم ، ويحقق طموحهم ويعالج أمراض المجتمع الذي يعيشونه. إن من أراد التجديد سار على هذا النهج ، ومن أراد التقليد قلد الظاهر ولم يدرك المعاني ، وهذا ما لم يرده حسن فتحي.

ويطاردني حسن فتحي مرة أخرى في عدم محاولته لتفهم أسباب رفض الفلاحين لمباني القرنة ، هذا على الرغم من أن القارئ الكريم يلحظ أنني موضوعي النقد ولا أحمل لحسن فتحي إلا كل خير. وقد كان هذا منهجي منذ

أن شرعت في هذا العمل ، فلا يحملنا حب الناس عن التغاضي عن أخطاءهم ولا يدفعنا بغض الناس لتشويه صورتهم . يقول حسن فتحي

«وعندما وجدت أن حتى الفلاحين يعادون مشروع القرنة ، بدأت أشك في مبدأ قبو طوب اللبن كله. وفكرت أنه وإن كان المبدأ سليما إقتصاديا وجماليا ، ومن الوجهة الهندسية ، إلا أنه ربما يحمل بعض إيحاء بالقبور ، أو أي تداعيات محبطة أخرى ، تنفر الفلاح. «

ثم يقول حسن فتحي ، وهذا موضع الإستدلال « وقد هدأ شوالر دي لوبكز من روعي بهذا الشأن ، فأكد لي أنه وإن كان القبو نصف الدائري مرتبطا بأوزوريس والموت بما قد يجعله من غير المناسب ، إلا أي عقد مدبب من قطع مكافئ أو مقطع دائري لن يكون فيه ما يحمل أي رمز منفر. وقد زارني هو نفسه في القرية الجديدة ووجد أن المضيفة ذات القبة تحدث إنطباعا بهيجا جدا.»

وهذا هو الخلط - وإن كنت لا أريد أن أستخدم لفظ المغالطة أو المكابرة- لأن ذلك لا يتسق مع نفسية حسن فتحي الشفافة . ففتحي وضع يده على موضع الألم ، لكنه لم يداوي أويصف روشتة الدواء. ويكفيه فخراً أن فتح لنا الباب وعلى محبيه ومريديه إكمال الطريق.

ويؤكد حسن فتحي تشبثه بتلابيب ذاك الحديث فيقول إن القباب الموجودة في سوريا أو جزر بحر إيجه أو صقلية أو إيطاليا لم تحدث إلا البهجة في قلوبهم. والرد أن ليست كل مفردات العمارة صالحة لكل موضع. أو تترجم في هذا المكان تماما كما تترجم في المكان الآخر. بل إستخدام العنصر نفسه قد يؤدي عكس الوظيفة. فالشباك مثلا في بلاد الغرب يستخدم لإدخال إضاءة الشمس وحرارتها ، بينما في الشرق يستخدم للتهوية وتوثيق الروابط الإجتماعية .

ويرد حسن فتحي على معارضيه فيقول« ولا يفترض من المهندس المعماري أن يكون رجل شرطة يدفع الناس داخل وخارج بيوتهم. هل كان من مهمتي أن أعمل على نقل أهل القرنة»

بالطبع لا ، ولكن على المهندس المعماري تبني الرغبات وتطويع المادة، لا تطوعه المادة ، ثم قبل وبعد كل شيئ ممارسة الإقناع ، حتى يدافع هو عن الفكرة الجديدة ويحملها بين خلجات صدره.

أنا أقول أننا ننتج فنا ، وواجب علينا الإرتقاء بهذا الفن ، هذا الفن نرسم نحن خطوطه ونضع ضوابطه ، ولو جاز العكس لكان النوبي هو سيد المهندس المعماري .

يقول حسن فتحي إن كفاءة مادة البناء يحدده وحده مهندس التربة لقياس قوى الضغط ، وهذا حق . وأن قوى الضغط لمادة الطين تقدر بثلاثين كيلو جرام لكل سنتيمتر مربع ، وهذا ليس صحيح ، فقوى الضغط على السنتيمتر المربع ثلاث وعشرين كيلو جرام. ولكن ليس عن هذا الحديث ، ولا هذا هو موضع النقد بل إن موضع النقد هو أننا لم نعمل على جعل قوى الضغط خمسين أو ستين كيلو جرام لكل سنتيمتر مربع . ولو أمكننا ذلك لأمكننا الطموح في وضع حبال من ألياف النخل أو أي مادة عضوية تتحمل قوى الشد ، ومن هنا يبدأ الحلم ، ومن هنا أيضا يبدأ تغيير شكل العناصر المعمارية ، وبالتالي البعد عن الإيحاء القبوري.

إضطهاد آخر

يقول فتحي رحمه الله»وبعد كل المحاولات التي رأيتها لتشويه سمعة طريقة طوب اللبن، خطر ببالي أن هذه المدرسة (مدرسة القرنة) ربما لها عن عمد موقعها في ذلك الوادي - الذي كان معروفا أنه يغرق في المياه من آن لأخر - بحيث أنها حين تنهار يستطيع أحدهم أن يقول «هاكم ما قلت لكم» ولكن لعل هذا مني مجرد جنون بالإضطهاد.»

وهل هذا لايدل إلا على قصور في دراسات المشروع ! . إنني لست في حاجة لأن أقول أن أي مشروع لابد له قبل تصميمه من دراسات بيئية وطبوغرافية وإقتصادية وإجتماعية ، هذا مع العلم أن الدراسات البيئية لاتقتصر

على مشكلة الأمطار وعوامل المناخ فحسب ، بل إنها تتطرق إلى توفير الطاقة داخل الفراغ أو ما يدعى Zero Energy House

إن ماقاله حسن فتحي عليه لا له . مع كل الحب والتقدير ، وبكل موضوعية وإنصاف.

نهاية المشوار

إنني أقدر في الرائد حسن فتحي حسن النية وحسن المقصد ، وأقدر بعد ذلك مثابرته وإجتهاده ونضاله ، ويكفيه فخرا أن فتح لنا الباب ، وصار له أتباع ومريدين. يقول فتحي «في يناير ١٩٦١ زرت القرنة ثانية. كانت القرية كما تركتها بالضبط ، فلم يتم إقامة بناء واحد جديد فيها . وكانت إحدى الشكاوى ضد المشروع هي أنه قد استغرق زمنا أطول مما ينبغي، على أننا رغم كل العقبات أمكننا بالفعل أن نبني الشيء الكثير ، أما في السنوات العشر التي ظل المشروع فيها في أيدى الوزارة ، فما من قالب طوب واحد رص فوق الآخر ، بينما استمر أهل القرية يعيشون فوق التل بين المقابر .

ولم يزدهر سوى شيئين. أحدهما هو الأشجار التي زرعتها ، والتي نمت لتصبح الآن قوية غليظة ، ولعل ذلك لأنها لم تكن خاضعة للإدارة ، والشيء الأخر هو الستة والأربعون بناء الذين دربناهم. فكل واحد منهم أصبح يعمل في المنطقة ، مستخدما المهارات التي تعلمها في القرنة ، مما يثبت قيمة تدريب الحرفيين المحليين ، وألقيت نظرة على القرية بمسرحها المهجور، وخانها ومدرسة صنائعها الخاويين ، والبيوت القليلة التي سكنها واضعو اليد ولم يكن يستخدم من القرية غير مدرستها الابتدائية للبنين ، وإذ ألقيت هذه النظرة تصورت ماكان يمكن أن تكون القرنة ، وهو ما يجب للآن أن تكونه ، ذلك أن مشكلة أهل القرنة مازلت متأزمة نفس تأزمها في ١٩٤٥ ، وحتى الآن فما من حل آخر قد طرح.

ومن المؤكد أني قد تعلمت من كفاحي أكثر مما كنت سأتعلمه لو كان طريقي ممهدا تماما ، ويقول القرآن الكريم « وعسى أن تكرهوا خيرا وهو خير

لكم ، ولاشك أن إحدى النتائج المباشرة لخيبة أملي في القرنة هي زيادة تعمقي في فهم مشاكل الإسكان الريفي تعمقا هائلا . والمشكلة أكبر من أن تكون مجرد مشكلة تقنية أو إقتصادية ، إنها أساسا إنسانية، تضم أنظمة وأناسا ومهنيين، هم والفلاحيين . إنها أعظم كثيرا من القرنة ومن مصلحة الآثار».

إنها عبارات مليئة بالحزن ، حزن فشل الفكرة وإنهيار المشروع . لكن هل نتعلم من التجربة؟

قالوا عن حسن فتحي

إن الإنصاف يقضي أن نعرف للرجال أقدارهم ، وأن ننزل الناس منازلهم، والحق الذي ننشده في هذا الكتاب ما قصدنا به تشويه صورة جميلة ، ولا النيل من مكان أو مكانة ، فحسن فتحي رحمه الله نجم ساطع في سماء العمارة ، ولو كان أحداً تسبب في تأخرها في مصر فهم مقلدوه، الذين يستسهلون الربح ولايعنيهم المضمون.

وما قدمناه حتى الأن من نقد المقصود به ، وضع العمارة الطينية على الطريق الصحيح ، ولفت الإنتباه إلى مواطن الخلل ، كما تقدم معنا.

إن الإنصاف يوجب علينا أن نستمع لمن عاصروه ليقولوا عن حسن فتحي ، قال المولى عز وجل « ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى « . ولقد قمت بإختيار ثلاث أبحاث كتبت عن حسن فتحي رحمه الله في ندوة كلية الفنون الجميلة ، التي أقيمت بعد رحيله . الورقات الثلاث لكل من : أ.د/أبوزيد راجح ، أ.د/ يحيى الزيني ، أ.د/ على رأفت .

وسوف أقوم بعرض تلك الأبحاث كما وردت في تلك الندوة ، محاولين قراءة مابين السطور وإيضاح ما أخفته الأيام. وإن كان للفكر نصيب من تمعن، بما يفيد البحث ، سيظهر على تلك الصفحات.

تجربيتي مع حسن فتحي .. أ.د/أبوزيد راجح

بدأت معرفتي بالمرحوم المعماري ، حسن فتحي عن قرب بداية من منتصف الستينات واستمرت حتى وفاته في ٣٠ نوفمبر ١٩٨٩ بالغا من العمر مكا يقرب من ٩٠ عاما ، وكنت قد قابلته العديد من المرات قبل ذلك كما سمعت عنه الكثير ، ولكنها كانت مقابلات عابرة استلزمتها ظروف وقتية.

بدأ لقائي الحقيقي به عندما عهدت إليه وزارة الثقافة بتصميم مشروع معهد الفنون الشعبية بالهرم ، كما عهدت الوزارة إلى شركة التعمير والمساكن الشعبية في نفس الوقت بإعداد الرسومات التنفيذية ومواصفات هذا المشروع

تحت اشرافه . وكنت أرأس حينئذ ماكان يسمى بقسم المباني العامة بهذه الشركة وبالتالي فقد كانت مسئوليتي مع المجموعة الصغيرة من المهندسين والمهندسات التي تعمل معي أن نتعاون مع المرحوم حسن فتحي في إعداد هذا المشروع. وقد اشتمل المشروع على ما أذكر على أقسام علمية وبحثية بما يلزمها من قاعات وصالات ومكاتب لتسجيل ودراسة الفنون الشعبية بأنواعها المختلفة من النواحي التعبيرية واللغوية والرمزية وعلاقتها بالفرد والمجتمع . كذلك شمل المشروع على متحف للعمارة البيئية والإسلامية يحتوي على نماذج بالحجم الطبيعي لعمارة الصحراء والواحات ومنطقة النوبة والعمارة الريفية والحضرية. كما احتوى المتحف أيضا على نماذج لروائع العمارة الإسلامية القاهرية. كنت لأول مرة أتعرض بصورة مباشرة لعمارة حسن فتحي وفكره وأسلوبه في البناء وتشكيله الرائع للحيز داخلي كان أم خارجي. وقد أقبلنا جميعا على هذا العمل بروح تجاوزت كثيرا ما تتطلبه مسئوليات الوظائف وواجباتها ، فيكفينا فخرا أننا كنا نعمل مع حسن فتحي ونجول معه في آفاقه الفكرية والفلسفية الرحبة. إن قيود العمل المتعارف عليها قد انهارت أمام هذه الروح الخلاقة التي حررتنا منها. لقد كان المرحوم حسن فتحي سعيدا بنا كما كنا حقا سعداء به وكانت علاقتنا به علاقة حبيبة دفعتنا دفعا للالتفاف حوله وكانت أشبه بعلاقة الأبناء بأبيهم أو علاقة الطلاب بأستاذهم العزيز.

تبدأ اللقاءات معه عادة بمراجعة الرسومات التي أعددناها ثم يجري عليها ما يعن له من تغييرات أو اضافات وتحديد ما يجب علينا عمله في المرحلة التالية ثم يتطرق بنا الحديث وهو جالس على لوحة الرسم ونحن حوله ساعات طويلة شارحا لنا خبايا العمارة الفرعونية والعمارة الإسلامية والبيئية موضحا رموزها وما تعنيه من الناحيتين المادية والمعنوية وكيف أنها نابعة من روح المجموع ووجدانه . ثم يفيض في شرح محلية هذه العمارة من جهة وإرتباطاتها الكونية من جهة أخرى، ثم لا يلبث أن يهاجم هجوما شديدا على العمارة المستوردة من

أوروبا وأمريكا ومستورديها من المعماريين ، وكان نصيب الموظفين البيروقراطيين من دوائر الوزارات والمصالح من هجومه ليس بقليل.

لم نكتفي باللقاءات معه داخل مقر الشركة في شارع الجلاء وقتئذ ، بل كنا نجتمه بمنزله بصورة منتظمة عصرا أو مساء ، ثم قمنا معه بجولات داخل شوارع القاهرة التراثية وأزقتها وكذلك داخل مساجدها وبيوتها الشهيرة المعروفة مثل بيت السناري والسحيمي وجمال الدين الذهبي وغيرها .

ثم يستطرد الدكتور راجح في بحثه عن الرائد حسن فتحي ليحكي لنا ثلاث مواقف مرت به وهو في معية الأستاذ فيقول» لم يكن نصيب مشروع معهد الفنون الشعبية أسعد حظا من كثير من مشروعات حسن فتحي والسبب في ذلك هي نفس الأسباب التي كانت وراء عدم تنفيذ كثير من مشروعاته وهي التصادم الفكري الشديد بينه وبين الموظفين. فقد رأى موظفو وزارة الثقافة أن ميزانية المشروع تجاوزت الحدود المرسومة لها، ولم يكن حسن فتحي شديد الصبر على موضوعات الميزانيات وأبوابها وبنودها ، شديد التبرم بكل ما يتعلق بها من إجراءات ولوائح. لقد حاولت جاهدا أن أتولى عنه التعامل مع الموظفين واقترحت أن يكتفي بإقامة مبنى واحد يحتوي بصفة مؤقته على أنشطة المعهد الرئيسية ويؤجل بقية المشروع إلى حين تدبير الإعتمادات اللازمة في السنوات المقبلة. ولكن الإقتراح لم يلقى هوى الوزارة وطوي المشروع كما طويت مشروعات كثيرة قبله.

لقد كان حسن فتحي قليل الصبر مع الموظفين ، خصوصا كبارهم ، ولم يكن واسع الحيلة في التعامل معهم، وظل عدوا لدودا لهم إلى آخر حياته.

وكان لي شرف أداء فريضة الحج مع المرحوم حسن فتحي عام ١٩٨٣ بدعوة من مركز أبحاث الحج بجدة. وأذكر حادثة بعينها أثناء أداء هذه الفر يضة الكريمة . فقد كان علينا الطواف حول الكعبة المشرفة والسعي بين الصفا والمروة في الليلة الأخيرة قبل الصعود إلى عرفات. وكانت الكعبة أشبه بليلة الحشر أو

أشد هولا. وقد علمت أن الطواف والسعي في هذه الليلة عادة شديد الزحام. وقد عرضت على المرحوم حسن فتحي أن نستأجر أحد الحمالين لكي يحمله في صندوق يجلس فيه ويطوف به ولكنه أبى إلا أن يقوم بالطواف على رجليه. وأدينا الطواف بشق الأنفس ، وما أن انتهينا منه إلا ورأيت المرحوم حسن فتحي يغمض عينيه ويتصلب وجهه ثم يهوي إلى الأرض. فقمت بحمله وأجلسته مستندا إلى أحد أعمدة الكعبة . لقد أدركت أن هذه هي النهاية. وفكرت في أنني لو مسحت وجهه بماء زمزم لكان في ذلك خير وبركة ، سواء أكان معنا في دار الدنيا أو كان قد انتقل إلى دار الحسنى. لقد فعلت ذلك متشهدا وهو في غيبوبة تامة. ورأسه منكفئه على صدره ولا أثر للحياة عليه. جلست إلى جواره أفكر فيما يجب على عمله. لاشك أن لقاء الله سبحانه وتعالى والانسان في هذا المكان الطاهر لهو شرف ما بعده شرف ، لكني أخذت أعد نفسي للمهمة الصعبة التي تنتظرني. وبينما أنا في هذه الحال ، إذا بصوته الحبيب يطرق أذني « أهلا يا أبوزيد « ، لكنه كان صوتا ضعيفا أشد ما يكون الضعف، فنظرت إليه فإذا به وكأنه عاد إلينا من عالم آخر بعيد ، وارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة نبيلة.

وبعد استراحة طويلة استرد فيها وعيه ، قال «دعنا نسعى» وقام الرجل وسار بخطى بطيئة حتى وصلنا إلى الصفا ، هنا أدركت إستحالة قيامه بالسعي بين الصفا والمروة ، فالزحام كان على أشده ولن أستطيع أن أسير به مترا واحدا. ولم أجد أثر للعربات التي تسير على المحور الأوسط للمسعى حاملة المرضى وكبار السن ، فقد إختلط الحابل بالنابل في ذلك الوقت ، ولا أعلم كيف يمكن لأحد أن يسعى وسط هذه الكتل البشرية المتراصة. أمام هذا الموقف العصيب ، قمت بإصدار فتوى شرعية ، لم أبح بها إلا الآن وإنني لا أعلم مقدما رأي مشايخنا الأجلاء فيها . لقد قلت في نفسي إن الدين يسر لا عسر ، وإذا كان ديننا الحنيف قد أباح لنا أداء الصلاة بتحريك جفون العين إذا ما عجزت بقية أعضاء الجسم عن أدائها ، فلماذا لانستخدم العين في أداء نسك آخر وهو

السعي بين الصفا والمروة إذا إستحال على الإنسان القيام بها راجلا أو محمولا، وذلك بطريق القياس وهو مبدأ من مبادئ الفقه والتشريع ، إنني كنت على يقين بأن هذا الرأي خروج من مناسك الحج الصحيحة ، ولكن هل كان أمامي بديل آخر .

عاونت المرحوم حسن فتحي في الصعود إلى ربوة عالية وأجلسته فوق أحد صخور الصفا وطلبت منه أن يمد بصره إلى آخر المسعى حتى ربوة المروة ثم يرجع البصر ويفعل ذلك سبع مرات ، وتركته جالسا وحده وصعدت للدور الثاني حيث كان الزحام أخف وطأة من الدور الأول . وأتممت السعي بشق الأنفس في حوالي ساعتين ويستغرق السعي نصف هذه المدة أو أقل في الأحوال العادية. ورجعت إلى الدور الأول حيث تركت حسن فتحي ، وكنت أتسأل : هل أجده في مكانه ، وهل كنت على حق حين تركته وحيدا ، وماذا يكون عليه الحال لو أتاه أمر الله وليس معه ما يدل على شخصيته ، إذ أنه مع إرتداء ملابس الإحرام لا نستطيع أن نحمل جواز سفر أو بطاقة تحقيق الشخصية ، ولمت نفسي لوما كثيرا.

ولكني حين رجعت وجدت الرجل جالسا فوق صخرة الصفا العالية كما تركته . وما رأيت وجهه أكثر صفاءا وإشراقا عما كان عليه في هذه اللحظة . لقد كان يكسوه مسحة من الرضا ويشع منه جمال روحي كأنه قديس من القديسين أو ولي من أولياء الله الصالحين. وأخبرني أنه كان سعيدا كل السعادة بجلسته هذه . فقد رأى من هذا المكان العالي الطائفين والساعين والركع السجود . وأمكنه أن يستخلص الحكمة من الحج في تلك الساعات العامرة بالإيمان . وترك نفسه تسمو فوق الدنيا ومن فيها وتسبح في آفاق الروح ، وراودته أفكار نزلت عليه وكأنها وحي من السماء . عجبت من أمر هذ الرجل ، فلا شك أن بداخله قوة روحية هائلة تجعله يتجه دائما إلى كل ما هو صادق وجميل في هذه الحياة متجاوزا نقائص الدنيا وقيودها.

كانت جلسات عرفات ومنى إمتدادا لجلسات القاهرة ، الحديث الممتع عن البيئة التي خلقها الله والبيئة التي من صنع الإنسان وما يجب أن يحمله المبنى من معاني التكريم لمن شيده ومن يشغله ومن يراه. لقد خلق الله الإنسان لعمارة الأرض وإنها أمانة عظمى لايستطيع أن يحملها غيره وعليه أن يؤدها كأحسن ما يكون الأداء . وربما كانت روح التسامح التي توحي بها هذه الأماكن المقدسة الطاهرة أثرها عليه ، فلم أسمع منه كلمة واحدة ضد الموظفين وناقلي أشكال الغرب وطرزه ، وكان الكل ملتفا حوله مشدودا إليه مصغيا إلى حديثه ،فأينما يكون فلديه دائما هذه المغناطيسية الشديدة التي تجذب غيره إليه ، وأخذ له الصديق الدكتور عادل ياسين الكثير من الصور ، وحينما أنظر إليها الأن أحس بأن حسن فتحي وهو جالس بملابس الاحرام البيضاء وحوله سامعيه أسبه ما يكون بالمهاتما غاندي بين حوارييه .

وبعد أداء الفريضة ، أعد له مركز بحوث الحج معرضا كاملا من أعماله بجدة دعا إليه الأمراء والوزراء والسفراء الأجانب ، وأخذ زواره في جولة حول المعرض شارحا كل مشروع من مشروعاته .

أما التجربة الثانية فكانت في احدى ضواحي باريس حيث توجد ضيعة الأمير أغاخان ، كان ذلك عام ١٩٧٦ وكنا حوالي ثلاثين شخصا ودعانا الأمير من أركان الدنيا الأربع وتنوعت مشاربنا أشد ما يكون التنوع ، فكان منا المفكر والمعماري والفليسوف والمهندس والأستاذ في علوم التاريخ والإجتماع وكان منا عرب وعجم وترك ولاتين وأسيويين وأنجلوسكسونيين وغير ذلك من أجناس البشر . وكان السؤال المطروح علينا والذي اجتمعنا من أجله هو : هل هناك ما يسمى بالعمارة الإسلامية ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي معايير هذه العمارة؟

لقد قرر الأمير منح جائزة في العمارة الاسلامية على غرار جائزة نوبل وكان مستعدا لرصد المال اللازم لها وكان علينا أن نشير عليه بالطريقة العملية لتحقيق فكرته هذه. وجاء المرحوم حسن فتحي والزميلة العزيزة الدكتورة نوال

حسن وأنا من مصر إلى هذا الحشد الدولي المنتقى . والحقيقة أنني بهرت بمستوى المناقشات وبالأفكار التي طرحت على بساط البحث وشعرت بفخر كبير أنه يوجد بيننا مفكرين على هذا المستوى الرفيع من الفكر لم يصل إليه – كما ظننت – عمالقة الفكر الغربي الحاضرين من أمثال جاك بيرك الفرنسي وغيره .

وكان لي في هذا الأمر رأيا جاراني فيه بعض من الحاضرين مثل المرحوم المهندس فضل الرحمن خان ، أسطورة الانشاء في القرن العشرين . ويتلخص هذا الرأي في أنه لا توجد عمارة يمكننا أن نقول عنها أنها عمارة إسلامية وإلا لأطلقنا على غيرها بأنها عمارة غير إسلامية ، ومثل هذا التحديد والتقسيم الشديد لا يتفق مع طبيعة الإسلام ، ولكن هناك عمارة تتلأم مع روح الإسلام ومبادئه Architecture in Spirit of Islam وعمارة تتنافى مع القيم التي جاء بها . لقد كرم الإسلام الإنسان أعظم ما يكون التكريم ونادى بالمساواة والتواضع ونهى عن القهر والإستعلاء وأدخل الكون كله في نطاق الفكر الإنساني وفي مجال وجوده ، واقترب مع الإنسان إلى الوسطية والسببية ونحى عن المجرد والمطلق واللانهائية لغير الله . لذا فإن العمارة يجب أن تعبر عن الإنسان بكل خصائصه المتكاملة والمتناقضة في آن واحد ، تعبر عن وجدانيته وعقلانيته وتعبر عن ماديته وروحانيته ، تعبر عن طبيعته الفسيولوجية والاجتماعية كما تكون مرتبطة بمقاييسه ومحدداته ، أي أنها تجمع في تكوين موحد بين المجرد والمحدد وبين المحسوس وما وراء المحسوس. وليس هناك حد فاصل بين النقيضين بل هما متداخلين في نسيج واحد.

أما العمارة التي تهدف إلى عزل الإنسان وفصله عن انسانيته وتسعى إلى قهره بضخامتها وجبروتها وتفرض عليه الشعور بالصغر والضآلة فهي بعيدة عن روح الإسلام وطبيعته.

الأمر الآخر أنه لاتوجد كلمة في اللغة العربية مرادفة لكلمة Architecture ولكن توجد كلمة أخرى جامعة وأكثر شمولا وهي كلمة العمران وهي تعني البناء

والتنمية والتحضر في آن واحد . ونستخلص من ذلك أن المبنى ليس له في حد ذاته قيمة حقيقية بل قيمته تكمن في مدى تكامله مع التجمع العمراني المحيط به ومدى قدرته على إثراء الحياة الحضرية المقام فيها والعلاقة الجدلية بينه وبين الطبيعة التي من صنع الله وبين البيئة التي صاغها الإنسان.

ونصل من ذلك إلى أن العمارة الواجب تكريمها هي التجمع العمراني في دار الإسلام التي تتفق مع روح هذا الدين الحنيف وتكون معبرة عن قيمه ومبادئه. ثم ضربت أمثلة عن العمارة التي تقترب من روح الإسلام والعمارة التي تبتعد عنها بمسجدي أحمد بن طولون والسلطان حسن. فالأول قريب الشبه بالإسلام في بساطته وتواضعه، ويشعر الإنسان فيه بذاته غير هياب من قوة قاهرة مسيطرة تفوق طاقاته. أما الثاني وإن كان لايختلف إثنان على قيمته المعمارية العظيمة ، إلا أنه في إنشاءاته المبهرة قد يتجاوز الحد الإنساني وحيزه الداخلي الذي يوحي بالرهبة والإعجاز ربما لا يدعو إلى الألفة والطمأنينة . وقد بني هذا المسجد في العصر المملوكي حين وصلت الحضارة الإسلامية إلى أدنى مستوى لها . وعلاقة سلاطين وملوك هذا العصر بالمجتمع المصري هي علاقة المتسلط المتجبر على أفراد هذا المجتمع.

استمع المرحوم حسن فتحي إلى الجزء الأخير من حديثي في تململ واضح ثم انبرى للرد على ما قلته واتضح للحاضرين أننا نقف في هذا الموضوع على طرفي نقيض. قال حسن فتحي أنه يجب علينا أن لا نبالي كثيرا بالولاة والسلاطين مماليك أو عثمانيين أو سلاجقة أو غيرهم ، بل إن اهتمامنا يجب أن ينصب في المقام الأول على الصانع الحرفي الماهر والبناء العبقري الذي صمم هذا الصرح وأقامه. إن التواضع خاصية انسانية كريمة ولكن سمو الإنسان هي قيمة روحية نبيلة تدعوه دائما إلى النظر فوق مادياته وحاجاته الوقتيه المباشرة. حقيقة أننا نعيش على هذه الأرض ولكن التطلع إلى السماء والإيمان بالغيب هو ركن أساسي من أركان الإسلام . لقد حقق هذا المسجد لقاء الأرض بالسماء

أكثر وأوضح ما يحققه أي مبنى آخر ، إن أقبيته الأربع العظيمة تكاد تصل في اتزانها المتناهي إلى حد الكمال كما أن فراغه الداخلي بتكويناته ونسبه يمنع الرؤيا البصرية الخارجية ويثير الشعورالإيماني الدفين . وأيضا في تفاصيله عند استخدام الرخام والحجر والخشب والنحاس لا تتحدث عن مقدرة فنية وحرفية عالية بل عن فكر بالغ الرقي وحس بالغ الإرهاف. إن هذا المسجد هو حقا موسيقى رفيعة مجسدة.

واستمر المرحوم حسن فتحي في الحديث بعشق شديد عن هذا الصرح الاسلامي الخالد حتى كدت أن أقف وأطلب سحب ما قلته عن مسجد حسن فتحي المسمى بمسجد السلطان حسن من مضبطة الجلسة.

لقد ظل حسن فتحي من أول يوم من أيام هذا اللقاء إلى آخره حكيم القوم ونجمهم اللامع . واتضح لنا أنه يجسم بشخصه فكرة «العمارة الإسلامية» أو « العمارة التي تتفق وروح الإسلام» سمها ما شئت خير تجسيم . فيكفينا أن نراه ونستمع إلى ما يقوله لكي نعرف الإجابة الصحيحة على السؤال الذي طرحه علينا الأمير أغاخان في أول إجتماع لنا . فلا عجب بعد أن تحددت أهداف الجائزة ومعاييرها أن يكون حسن فتحي أول من يمنح جائزة الرئيس .

منذ أن عرفت الرجل في منتصف الستينات كما أسلفت وحتى وفاته ، كنت دائم التردد على منزله بدرب اللبانة بحي القلعة ، وأحيانا ما كانت مشاغل الحياة تباعد بين هذه الزيارات ولكني كنت دائما أهفو إلى شخصه وبيته. كان كريما مع ضيوفه يلقاهم دائما بترحاب حقيقي ويبعث فيهم شعورا جميلا بالمحبة والألفة ويضفي على سامعيه الكثير من ثراء نفسه وصفاء قلبه. كان يحلو له الجلوس معهم في أمسيات الصيف على سطح المنزل محاطا بهذه البانوراما الإسلامية الرائعة من مآذن وقباب حي القلعة ، ويأتي صوت المؤذنين مختلطا بنسمات الغروب ، باعثا في النفس عبق التاريخ وطلاوة الإيمان . وفي الشتاء كان يجلس بغرفة الجلوس أو أمام مدفئته مرتديا في أغلب الأحيان عباءته الشهيرة . أما قططه ، وقد كان شديد الحب لها يرعاها رعاية الأبناء فكان

حريصا في أن تظل في مكانها في الممر المفتوح خارج غرفة الجلوس ، حتى لاتسبب مضايقة لضيوفه. وقد رأيته أكثر من مرة وهو يوزع عليها قطع اللحم الصغيرة المطهية بالعدل والقسطاس منهرا من تسول لها نفسها خطف قطعة أخرى هي من نصيب أخت لها .

كان زواره إما من أقربائه أو أصدقائه التي تربطهم به علاقات قديمة أو من محبيه ومريديه من معماريين وفنانيين أو من أجانب سمعوا عنه أو قرأوا له ، أتوا لزيارته إما بأنفسهم أو بصحبة مصريين من معارفه. وأذكر سيدة فاضلة كانت دائمة التردد عليه عرفت نفسها لي بأنها «زوجة حسن بك السابقة» وكانت هذه السيدة شديدة العطف عليه وعلمت فيما بعد أن زواجها كان قصيرا وعاصفا. ولكن بمجرد إنفصالهما تحولا إلى صديقين حميمين. وظلت هذه العلاقة الحميمة تربطهما إلى أن توفاها الله قبله بسنوات قليلة . وروى لي صديق أنه زاره ذات يوم فوجده جالسا وحده يكاد الدمع ينساب من عينيه، فلما سأله عما ألم به كانت إجابته قصيرة خارجة من أعماقه «لقد ماتت». فهم صديقى أنه يقصد زوجته السابقة ، فلم يعقب واحترم صمته الحزين.

كان حديثه دائما ممتعا، وكانت له قدرة عجيبة في التعبير عن فكره باسلوب سهل معبر آخاذ يكاد يأسر العقل والقلب معا. وكانت تعبيراته وأمثاله على قدر جديتها وعمقها شديدةالبساطة والفكاهة ، وكان حديثه كله يدور حول محور واحد فقط هو فلسفته في العمارة والحياة .

أقام حسن فتحي عالمه الخاص به الذي يتسق مع فكره في الدور العلوي من مبنى عربي أثري في درب اللبانة وعاش فيها وحيدا خلال الثلاثين سنة الأخيرة من حياته. وكانت تؤنس وحدته موسيقى باخ التي تنساب أنغامها بين ردهات وأفنية هذا المبنى الإسلامي وكأنها ألفت خصيصا له، وإن الإنسان ليعجب كيف أن عملان عظيمان اتسما بالخلق والابداع يمكن أن يتصادقا ويتآلفا مثل موسيقى الألماني باخ ومبنى رقم أربعة درب اللبانة بالقاهرة رغم اختلافهما في المولد والنشأة وتباعدهما في الزمان والمكان.

لم يجد فكر حسن فتحي صدى كافيا ولم تجد دعوته استجابة تذكر ولم تتجاوز دائرة الخاصة من المفكرين والمعماريين إلا في أقل القليل فجامعاتنا التي اسرفت في تدريس عمارة الغرب وشرح نظريات أساطينها ضاقت ذرعا بالعمارة البيئية وبحسن فتحي ، كما أن النظام البيروقراطي لم يتسامح مع طريقة حسن فتحي في إدارة مشروعاته وتنفيذها ، فكل من الحياة الأكاديمية في مصر والحياة العملية خلال النصف الأخير من هذا القرن لم يفسحا المجال كافيا لما نادى به هذا الرجل . ولو كنا اعترفنا حقيقة به مثل اعتراف العالم الخارجي بعبقريته، لكان لحياته معنى آخر ، ولكن رغم وحدته فقد ظل محاربا شديد المراس ورغم ما لقيه من احباط بعد إحباط ، فإنه لم يفقد أبدا تفاؤله وآماله ، وكثيرا ما سألت نفسي عن سر هذه القوة العظيمة التي أودعها الله في هذا الجسم النحيل.

لست هنا في مجال تحليل فكر حسن فتحي تفصيليا ، لكني أوجزه على قدر ما فهمته . يبدو أن فكره في مجمله يدور حول ثلاث محاور مترابطة.

المحور الأول هو انحيازه للفقراء منذ البداية . فرغم أنه ينتمي إلى الشريحة العليا من مجتمعنا إلا أن اهتماماته انصبت في المقام الأول حول عمارة الفقراء ، وكثيرا ما كان يقول « إن فقراء العالم الثالث هم عملائي الحقيقيون». قيل أنه حضر مرة مؤتمر عن اسكان محدودي الدخل Housing for limited- income groups فطلب في كلمته أن يكون المؤتمر عن Housing for no- income groups أو عن إسكان من لا دخل لهم .

إن العمارة تقليديا هي عمارة الخاصة الحاكمة حيث المال الوفير والمواد متاحة محلية كانت أو مستورده وحيث المعايير والنظم مستقرة منذ أجيال بعيدة. أما عمارة الفقراء فإنها تتطلب بدايات جديدة وتقوم على أسس تختلف تماما عن سابقتها فضلا عن أنها مازالت في أدوار التكوين الأولى ومشكلتها ولا شك أكثر صعوبة،إذ كيف تقام عمارة إنسانية جميلة بتكاليف محدودة أو بدون تكاليف

على حد قوله. لقد أجاد حسن فتحي لغة هذه العمارة وتطورت على يديه وأصبح أستاذا لها على مستوى العالم كله.

ويقوم فكره في هذا المجال على تكفير استخدام المواد المستورده أو حتى المصنعة تصنيعا مكلفا. بل يجب إستخدام نظم البناء والمواد المحلية المتاحة من طين وطفلة وحجر وخلافه . ولم يمقت شيئ قدر مقته لنظام ال Prefabrication في البناء ، وكان ينطق هذه الكلمة ببغض شديد . كما يقوم فكره أيضا على حتمية مشاركة الناس في البناء مشاركة فعالة والتعاون فيما بينهم ، وهو صاحب التعبير المشهور « إن رجلا واحدا لا يستطيع أن يبني بيتا واحدا ولكن عشرة رجال يمكنهم بناء عشرة بيوت» وكان يرى أن صيغة المقاولات ليس لها مكان في عمارة الفقراء ، فالمقاول وما يمثله من تكلفة مشروعة أو غير مشروعة يجب أن يخرج من هذه المساحة وعلى المعماري أن يعمل من خلال الناس وبهم، وقد أوجز رأيه بهذه العبارة البليغة «إن البناء يجب أن يكون مؤسسا على العلاقات الإنسانية المباشرة وليس على نظام النقد اللاشخصي «

أما المحور الثاني لفكره فهو إنكار إستقدام الأنماط الجاهزة من الفكر الغربي وزرعها في بيئة غريبة عليها والإتجاه بدلا من ذلك إلى محاولة إكتشاف عبقرية المجموع في البناء ، أي أن جذور فكره تمتد مكانا إلى التربة المحلية وزمانا إلى الأصالة والتراث عبر العصور. إن تكوينات العمارة المحلية وهي تمثل خلاصة تجارب الانسان في الخلق والإبداع هي العناصر الأساسية الأولى التي قام بإستيعابها وإعادة صياغتها صياغة معاصرة. لقد أفصح عن هذا الفكر خير إفصاح عندما تحدث عن عمارة النوبة فيما يلي « لقد خلت هذه المساكن من تلك الضعة فهي أصيلة في طرازها ، عمارتها نابعة من عبقرية الجنس وقد تركزت فيها خبرة الأجيال . تشعر بالكرامة وإعتزاز أهلها بعريق محتدمهم» وهنا يجب علينا أن نشير إلى أن المرحوم حسن فتحي هو من جيل توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزي ولكن لم ينح نحوهم في محاولة فتح أبواب الثقافة المصرية على

مصراعيها لتستقبل حضارة الغرب وإبداعاته بل كان أقرب في فكره إلى يحيى حقي في أدبه والذي يقوم على إن ذاتنا وليس غيرها هي مجالنا الحقيقي في البحث والإكتشاف. اكتشف القيمة الإنسانية والفنية للحوائط الحاملة والأقبية والقباب من المواد المحلية وعرف كيف يتعامل مع البناء المصري بوعي وبصيرة. ثم رأى أن الشكل والزخرف يعبران خير تعبير عن حس المجتمع خلال تجاربه الطويلة مع ذاته وبيئته مع قيمه وعقائده. وأيقن أن حيز المبنى وفراغه هو في حقيقة الأمر امتداد خارجي للطبيعة الداخلية للإنسان المصري .

لقد كان من السهل عليه ، ربما أكثر من غيره الإتجاه إلى باريس أو لندن، فهو يتكلم الفرنسية والإنجليزية كأبناء البلد، لكن أصالته أبت عليه ذلك واتجه بعقله ووجدانه نحو ريف مصر وصحرائها ، نحو النوبة جنوبا . ولنستمع إليه وهو يتحدث عن كيف بنى أهل النوبة قراهم عند التعلية الثانية لخزان أسوان «إن قرى النوبة التي بناها الأهالي عام ١٩٣٣ لعمل فني لايقل روعة عن معبد أبو سمبل وكان الأمل أن يلتفت إليه المهندسون والعلماء ورجال اليونسكو وأن تدرس على الأقل تكتيكات البناء التي أتاحت للأهالي القيام بمثل هذا العمل الانشائي على النطاق الواسع الكبير دون أن تضطرهم العجلة الملحة لإهمال النواحي الجمالية والثقافية أو تطبيق مبدأ النموذج الموحد الضار بالإنسانية والمجتمع إذ لاعائد ولا رصيد من الثقافة والخبرة الفنية والحضارة» . إن أصدق ما يوصف به حسن فتحي أنه عاش حياته تلميذا لمصر بعبقريتها في الحياة عبر الزمن.

أما المحور الثالث فهو إزالة التناقض المفتعل بين الأصالة والعلم الحديث فالرجل لم يقف من العلم موقف المتشكك أو المتردد بل نادى بضرورة إستخدام علوم العصر ومكتشفاته في تطوير العمارة المحلية وطبق نظريات ميكانيكة التربة والإنشاءات وعلوم مقاومة المواد وطبيعة البناء من تهوية وإنارة وعزل حراري . لقد برهن أنه ليس أمام المفكر خيارا بين الذاتية المحلية وبين العلم بل

تكامل وتوحد بينهما . لقد كانت احدى أهدافه الرئيسية إنشاء ما كان يسميه بمعهد التكنولوجيا المتوافقة، والغرض من هذا المعهد إيجاد التوافق بين المحلية والتكنولوجيا الحديثة ، أي وضع العلم والألة لتلبية حاجات الإنسان المصري الحقيقية وتطلعاته إلى حياة كريمة. لكن بقيت الفكرة حلما لم يتحقق بعد.

تذيل على الدكتور راجح

مما لاشك فيه أن حسن فتحي رحمه الله كان نوعا فريدا من البشر ، نذر معدنهم وغاب في خضم بحر سحيق. ومما لاشك فيه أيضا أنه كان صاحب رسالة وطنية ، وأن رفضه لكل ما هو غربي ليس رفضا للغرب لكنه حفاظا على الهوية. لكننا كشعوب شرق أوسطية متهمون دائما بكثرة المبالغة. فلاشك أن الجهد المبذول في سبيل الفكرة جعل من صاحبها غاندي العمارة ، لكن مما لاشك فيه أيضا أن تلك الفكرة لم تستوعب كل شيئ. لقد أوصل حسن فتحي رحمه الله عمارة الطين إلى مكان ما ، فماذا فعل تلاميذه ؟ هل تقدمت العمارة الطينية بعد وفاته أم ظلت في نفس المكانة ؟ هل استطعوا أن يكملوا ما بدء؟ ماذا كان مصير معهد التكنولوجيا المتوافقة ؟ أسئلة لن تجد عليها إلا إجابة واحدة التقليد ثم التقليد ، وذلك بعد إضافة هالة من القدسية على شخص حسن فتحي رحمه الله ، وما هكذا تقوم الأمم ، وماهكذا تبنى الحضارات ، وماهكذا تورد الأبل.

إن حسن قتحي سيكون أسعد حالا إذا لم يقفوا عند ما أنتهى إليه، وجدير بالذكرأننا سنقدم حلولا في نهاية هذا الكتاب للعيوب والمشاكل التي عثرنا عليها في عمارة حسن فتحي رحمه الله ، وذلك لأننا ما ينبغي أن نظهر العيوب ثم لانجد لها حلا. وحب الحقيقة أحب إلى نفوسنا من حب الأشخاص. ونحن بهذا الفعل ،أعني بتقديم الحلول نسير على خطى حسن فتحي ، ونحقق آماله وأحلامه.

حسن فتحي -الفكر والتطبيق ... أ.د/يحيى الزيني

حقق المعماري الرائد حسن فتحي لنفسه موقعا مرموقا بين أعلام الفكر والفن على المستوى المحلي والعالمي معا، وعرف بالعبقرية وبتعدد نواحي الإبدا ع،

فهو معماري فنان وعالم إجتماعي وأديب فليسوف وموسيقار مرهف الحس.

ورغم بنائه الثقافي الموسوعي الذي اشتهر به ، والذي كونته على مر الأيام قدرة خارقة على البحث والتحليل والاستيعاب وروح متفتحة على مناهل الثقافة العالمية الرفيعة ، إلا أنه نجح في أن ينجو بنفسه من خضم التناقضات التي تثيرها الفلسفات الفنية والمعمارية المعاصرة ، لم يندفع في اتجاه التأورب المرتبط بالمفاهيم الأكاديمية الفنية الغربية ، والتي نمت وترعرت في تربة غير تربتنا وظروف إجتماعية وإقتصادية وثقافية مغايرة لواقعنا من قيم وتراث وعادات وتقاليد واسلوب حياة.

واتخذ القرار في وقت مبكر جدا بأن نذر نفسه وأوقف فكره وفنه لاعادة صياغة العمارة التي تطلبها مجتمعات الكادحين في أرض مصر بما يلائم بيئتها الطبيعية وشخصيتها المتفردة وقيمها الثقافية المستمدة من مأثورات وموروثات ضاربة في عمق التاريخ.

الأصالة والتطور

لا ننكر أن التقدم التكنولوجي المعاصر له الكثير من المزايا ، وأنه كان يهدف بإستمرار إلى تحكم الإنسان في البيئة الطبيعية المحيطة به ليجعل من فترة بقاءه على الأرض حياة جديرة به أن يحياها. وإلى ماقبل الثورة الصناعية ظل الإنسان محتفظا بتوازن ايكولوجي بين كيانه الداخلي السيكوفيزيولوجي وبين المحيط الخارجي حوله فنعم بالكثير من القيم الإنسانية والصحة النفسية، ثم بدأت معدلات التقدم التكنولوجي سريعة مثيرة وتغيرت أساليب الإقتصاد تغيرا جذريا واهتزت العلاقات الإجتماعية الإقتصادية في الدول وفي المجتمعات، وأصبح ضروريا على الإنسان أن يخضع معدلات التغيير السريع في مجالات العلوم والتكنولوجيا والإقتصاد ، لطبيعته هو نفسه ، لا أن يخضع نفسه لها حتى لا تسيئ إلى طبيعته البشرية فيفقد إنسانيته وتنعدم لديه قيمة الحياة التي يريد أن ينعم بها. وللأسف فنحن أيضا في العالم النامي أصبحنا غير قادرين على

مقاومة الإغراءات التي قدمتها لنا التكنولوجيا المستوردة وغير مدركين لأبعاد النسيج المركب لثقافتنا ، ولا مقدرين بأن الحضارة تقاس بما يساهم به الناس للثقافة والحياة وليس بمقدار ما يستعيره أو يستورد من الغير.

يقول الأستاذ حسن فتحي « إن أولى مسئوليات المعماري العربي المعاصر أن يرجع صفة المعاصرة إلى عمارته كما كانت في كل عصر من العصور التي مرت بها، ولتحقيق ذلك يجب أن نأخذ للعمارة في اللحظة التي تخلينا فيها عنها، وأن نعمل على وصل ما انقطع من سلسلة تطورها الطبيعي وذلك بالرجوع إلى الوراء وتحليل عوامل التغير والتحول وما كان الأمر يستلزم اجراؤه لمسايرتها مع استخلاص الثوابت الصالحة من ميراثنا ثم العمل على إيجاد الحلول الجديدة لما استحدث من عوامل على هدى العلوم الحديثة الإنشائية والإنسانية مما لا يمكن الفصل بينها في العمارة والتخطيط بحيث نصل بعمارتنا إلى ما كان يصح أن نكون عليه وليس لما هي عليه «

«إننا نحتاج إلى تفهم مكان ووضع العمارة في حركة تطور الحضارة الإنسانية، وأن نعترف بأن العمارة تشمل الإنسان والتكنولوجيا وليس التكنولوجيا وحدها وأن تصميم المدن يشمل الإنسان والجماعة والتكنولوجيا. إن المحك في تقييم أي مخطط هو الإجابة على السؤال ، هل هو للإنسان أم لشيء آخر؟ والإنسان هنا هو المصري»

أزمة العمارة الحديثة وأزمة الإنسان

بدأ العالم اليوم يشعر بالضيق والإحباط من تيار الفكر المعماري الذي سيطر على إنتاج المعماريين طيلة النصف الأول من القرن العشرين وحصرهم في إتجاه واحد هو ضرورة موائمة الفن والعمارة لعصر الألة، ولكن منطق الكفاءة الوظيفية والصراحة الإنشائية الذي سيطرا على العمل المعماري في عصر الثورة الصناعية انتهى بإستبعاد الألة للفن والمادة للروح والمنطق البارد للعاطفة الجياشة فتطابقت مدارس الفن التشكيلي وتكررت أشكال المباني

وشاعت في البرامج المعمارية أنماط دولية زرعت كنباتات غريبة في أي تربة في العالم. وقد وصل الإتجاه الحديث في العمارة الآن إلى طريق مسدود كان نتيجة الفرض من أعلى من رواد عمارة القرن العشرين الذين فلسفوا ونظروا في مكاتبهم وتجاهلوا جمهور المنتفعين من عامة الناس الذين اصيبوا بالخوف من إبداء الرأي ثم الإستسلام لما هو حادث.

يقود البرنس أوف ويلز ضمن حملته التي بدأها من سنتين كرد فعل لما يصيب العمارة حاليا في العالم من تخبط فيقول إن هدفي الرئيسي أن أثير نقاشا حول تصميم بيئتنا العمرانية وأن أوقظ وعيا بالبيئة التي تحيط بنا ، وأثير الرغبة في التأمل والملاحظة ، ولكن أهم من كل ذلك هو تحدي النظريات المستحدثة التي يروجها جماعة المعماريين المحترفين ، والتي أصابت الشخص العادي بالإحباط والشعور بأنه لا حق له في إبداء الرأي».

«وفي كل مكان أذهب إليه أخذ إنطباعا قويا بأن معظم الناس يعرفون نوع الأبنية التي يحبونها ، إنها أبنية نبتت ونمت من خلال تقاليدنا المعمارية وفي توافق تام مع الطبيعة ، وهي السمات التي جعلت من مدننا وعواصمنا تلك الأماكن الجميلة الحضارية المحببة لنفوسنا وأنه بمعونة الله وبالإلهام والإستلهام ستعود فتصبح كذلك مرة أخرى».

وقال المعلم الرائد حسن فتحي في الستينات «إن العمارة فن وعلم وتكنولوجيا ، وإن الناحية التكنولوجية تعتبر من شئون ذوي الإختصاص من المهنيين.وإن في ذلك ما يحرج الإنسان العادي في إعطاء حكمه وتقديره للمبنى وخاصة في الوقت الحاضر الذي تسود فيه العمارة التي تدعى حديثة ومعاصرة، وقد خلت تماما من العناصر المعمارية التقليدية التي تعودها الناس في السابق وكان لهم فيها خبرة ورأي سديد . هذا على حين لم تتبلور بعد أي تقاليد جديدة يصح أن تكون مرشدا مرجعا في الحكم على القيم الجمالية والثقافية سواء بالنسبة للجمهور أو بالنسبة للمتخصصين. إن تغلب النواحي التكنولوجية على

الفن في العمارة التي تدعى معاصرة لما جعل المهنيين يتعالون على الجمهور ولا يأخذون رأيه في الإعتبار.

تأكيد تأثير الفرد في المجتمع العمراني

يظهر تأكيد المعلم الرائد بتأكيد شخصية الفرد في كل المشروعات التي قام بدراستها بدءا بقرية القرنة وإنتهاء بقرية واحة باريس فقد كان يلتزم بإستطلاع رأي الناس ويدرس تقاليدهم وعادتهم ويعايشهم في قراهم ويبلور احتياجات كل أسرة تبعا لمتطلباتها وظروفها الخاصة وهكذا يرسي مبادئ متقدمة جدا للتعامل مع البسطاء من الكادحين في الأرض منها:

احترام إنسانية الإنسان وتأكيد خصوصيته

تعويده على إبداء الرأي والاشتراك في إتخاذ القرار

تحقيق تطلعاته واستيفاء حاجاته لخلق مجتمع الكفاية والعدل

خلق عمارة بيئية متكاملة ذات طابع وشخصية لكل اقليم من أقاليم مصر المناخية

محاربة مبدأ تعميم النموذج النمطي المتكرر على مستوى القرية ثم على مستوى المدينة ثم الإقليم ثم الجمهورية.

إحياء الأشكال المعمارية المحلية والفنون الشعبية والصناعات الحرفية التقليدية .

وفي مجال السخرية من النموذج المتكرر للبيت يقول المعلم الرائد: هل يمكن أن أنزع حيوان القوقع من قوقعته لأسكنه في قوقعة حيوان آخر؟ إن الوحدات السكنية النمطية خالية من التنوع فالمعماري يصمم منزلا ويضع إلى يمينه ثلاثة أصفار فيحصل على ألف منزل بلا أي تعبير عن السكان.

وفي حالة تصميم بيوت قرية القرنة يقول:

إن صانع الأحذية الخاص يعطى كل الإهتمام ليفصل الحذاء ليلائم قدم العميل تماما ، أما صانع الأحذية لجندي الجيش فليس عليه إلا أن يكرر

المقاسات طبقا للمتوسط وعلى المجند أن يلائم أقدامه بقدر الإمكان على أقرب مقاس.

وهكذا في القرنة كان أمامي مجتمع حي بجميع تعقيداته وكان علي أن أختار بين أضغطه في عدة بيوت نمطية محدودة التنوع ليمر بتجربة المعاناة والألم مثل الذي يحس به المجند عند ملائمة أقدمه على الحذاء النمطي ، أو أن أوفي بمتطلبات كل حاجة على حدة .

ومن أقواله قبل أن يغادرنا إلى رحاب الله «إن تحقيق عمارة البسطاء هي الأمل طالما راودني وأعيش به ويدفعني إلى مواصلة حديثي للناس ليمتلئوا بالفكرة لعل وعسى أن ينجح بعضهم في تحقيق حلمي كمعماري مصري عايش هؤلاء الناس وأصغى جيدا وطويلا إلى نغمات الجدران والأسطح في بيوت بسطاء مصر».

استعمال الطوب اللبن كمادة للبناء

دعا المعلم الرائد إلى إستعمال مواد البناء البناء المحلية «انظر تحت أقدامك وابني ..» كما دعا إلى إحياء وتطوير أساليب البناء التقليدية بإعتبارها تكنولوجيا نابعة ومتوافقة مع البيئة ، وكل ذلك لأسباب إقتصادية وإجتماعية وثقافية ، وركز بصفة خاصة على الطوب اللبن كمادة أساسية في إعادة تعمير قرى الريف المصري وهو يقول في هذا الصدد «إننا لمحظوظون إذ تضطرنا الظروف الإقتصادية إلى إستعمال الطوب اللبن أو الطفلة لمباني الإسكان الريفي، كما يرغمنا الفقر على إستعماله للأسقف رغم نقاط الضعف في هذه المادة والتي تحد من حجم القبو والقبة.

إن مباني القرية يجب أن تتكون من نفس هذه العناصر الإنشائية مع إختلافات طفيفة في الحجم أو الشكل ولكن مع التنوع الكبير في العلاقات التشكيلية والتي ستبقى دائما مرتبطة بالقياس الإنساني وفي تناسق وإنسجام تام مع بعضها البعض. وهكذا نرى أن الموقف في القرية قد فرض الحل شكلا ومضمونا ، ولحسن حظ العمارة والفن كان جميلا ومقبولا.

هل هناك أمل؟

تبذل أقصى الجهود وتجند أحسن الخبرات المتاحة على المستوى المحلي في تخطيط وتنمية المدن والمجتمعات العمرانية الجديدة - لكنها في كثير من الأحوال تفتقر إلى الحيوية العمرانية والثقافة التي تتوفر في المدن القديمة نتيجة لعدم الإستمرارية الثقافية فهي ملتزمة غالبا بمعدلات ونظريات التخطيط للعالم الغربي وتقام بها المنشأت المعمارية في مناطق الإسكان والخدمات بتكرار النماذج النمطية والمطبقة في كل مكان وأي مكان دون مراعاة لبيئة طبيعية أو لموقع جغرافي أو لخصوصية السكان.

وإن ظهرت محاولة لاضفاء الطابع والخصوصية عليها فسيكون ذلك بإسلوب سطحي لأن الأسس والقيم التي استخدمت في تخطيطها أو عمارتها أسس وقيم غربية طبقت ونفذت بمعزل عن مجتمع المنتفعين ودون الإلتحام بهذا المجتمع والقيام بالدراسات المتأنية للعادات والسلوكيات وأساليب الحياة فيها وإحترام تراثها وهذه من أهم المؤثرات في بث الحياة وخلق الحيوية اللازمة لهذه المجتمعات العمرانية الجديدة. «إننا نبني ونشكل البيت فيعود فيشكلنا كأفراد ، ونحن نبني المدينة فتعود المدينة فتشكلنا كمجتمع». وهكذا يتفاعل المجتمع في وعاء البيئة العمرانية من صنع الانسان والتي وضعها في إطار البيئة الطبيعية من صنع الله عز وجل ، فينتج عن هذا التكامل والتفاعل حضارة أو لا ينتج.

وهنا يصدق القول « لكل مجتمع العمارة التي يستحقها »

الصوت والصدى

يقول البرنس أوف ويلز ولي عهد بريطانيا: إن النقطة التي أريد التركيز عليها أن هناك قلقاً عميقاً تجاه التيار المعماري السائد ليس فقط في بريطانيا بل وأيضا في دول أوروبا والشرق الأوسط وإلى حد ما في أمريكا الشمالية. لقد أخفق الناس إلى وقت قريب في التأثير على مجراه المندفع ، فهناك حركة تتبلور في الشرق الأوسط تتجه نحو اكتشاف التراث المعماري الإسلامي والوطني

والتعلم من حكمة البيئة المحلية من خبرة السلف الذين عرفوا جيدا كيف يبنون بتوافق كامل مع البيئة والظروف المناخية المحلية ، ويستطرد البرنس أوف ويلز ناقلا عن الكاتب الإنجليزي جيمس ستبل في كتابه عن حسن فتحي «لقد وجه إليه النقد لكونه فنانا معماريا» ولعلهم يعنون بذلك وفق تصوري، أنه يركز كل إهتمامه على القيم الجمالية في العمل المعماري ، ولا يعني بالقدر الكافي بكل هذه الإمكانات المادية المغرية والتي يفترض الآن أنها وجدت للمعماري ليحدث بها التغيير الإجتماعي المطلوب ، ويرفع مستوى حياة الإنسان من خلال التكنولوجيا والضغط السياسي.

وفي عالم سريع التغير يفاجئنا كل يوم بإقتحام تكنولوجي جديد ، هل هناك ما يدعو إلى لوم الناس الذين يرغبون في الإحتفاظ بمحيط تقليدي يألفونه ويشعرهم بالراحة والجمال»

وهل يعني ذلك أننا رجعيون ننشر بالعودة فجأة إلى زمن ما قبل الثورة الصناعية ، ونعيش حياة القرن الثامن عشر . طبعا لا فإنني أعتقد أن الجمع بين هذه المفارقات ضروري لصحتنا النفسية في عالم الحاضر. إن الذي نحتاج إليها بشدة هو أن يصبح المعماريون والمؤسسات العقارية التي نستخدمهم أكثر إحساسا بمشاعر ورغبات الناس العاديون، وأن يجدوا الوسيلة لسماع أرائهم ومتطلباتهم لكي تجد طريقها إلى البت في عملية التصميم والتنفيذ للمباني الجديدة.

إن كل هذه الأراء التي بدأت أصداؤها تتردد في أنحاء العالم حتى بألسنة وأقلام المفكرين وحتى كبار المسئولين . هذه الأراء تطلب من المعماريين وغيرهم من المهنيين المحترفين النزول من حصونهم المكتبية ولا نقول أبراجهم العاجية ليحتكوا بعامة المنتفعين فلا يفرضوا عليهم بيئات عمرانية باردة مجهولة الهوية لاتثير أي إحساس بالأصالة والخصوصية ، لايتأثرون بها ولا يؤثرون فيها.

هذه الأراء أطلقها المعماري الرائد حسن فتحي منذ الستينات وصار

يرددها في الإجتماعات العامة والخاصة فأصبحت من مقومات فلسفته التي تمسك بها حتى آخر لحظة في حياته ودافع عنها بفروسية منقطعة النظير.

مشكلات التطبيق وثمن الاصرار على الرأي

كان من الطبيعي أن لا يجد المعماري الرائد طريقا ممهدا لافكاره المتطورة لكي تخرج من نطاق التصميم إلى حيز التنفيذ في يسر وسهولة. لقد استقر العمل منذ زمن بعيد بالمؤسسات الحكومية المسئولة عن أعمال البناء أو التعمير أو المجتمعات العمرانية الجديدة بنظام – المالك المهندس المقاول – وذلك في كل أنواع المشروعات لضمان تحديد المسئوليات من وجهة نظرها ، وإعطاء كل جانب من الإرتباطات التعاقدية للمختص .

وهذا في رأي حسن لا يساعد مطلقا على تحقيق المهمة الهائلة الضخمة لتعمير الريف في مصر ، ويصر على تطبيق نظام التعاون في البناء. فيردد مقولته الشهيرة «إن رجلا واحدا لايستطيع أن يبني بيتا ، لكن عشرة رجال يبنون عشرة بيوت لو تعاونوا معا ، وبمرور الوقت يبنون قريتهم» هذا هو معنى التعمير وفلسفته ، الناس يعمرون الريف ويعمرون الصحراء لا المقاولون , ولامانع أن نعطي المقاولون العمليات الإنشائية الكبيرة ، ولكن يجب أن يتعلم الناس بناء بيوتهم الصغيرة «الريف الأوروبي فعل ذلك بعد الحرب العظمى الأخيرة» ولكن للأسف نلجأ للمقاولين كلما أردنا كلما أردنا بناء سور أو غرفة.

لقد صدم المعماري الرائد حسن فتحي خلال حياته العملية مرارا ووقفت في طريقه صخور البيروقراطية فتعطلت مشروعاته مرة وأوقفت مرارا ، كان يتهم بالخيال والرومانسية والبعد عن واقع الحياة العملية على عكس ما كان يفهم هو، فقد تبنى قضية إسكان البسطاء محدودي الدخل وخاصة في مجتمعات الريف والصحراء ، وكان يتعامل معها بحب الفنان ويعرضها بإسلوب المفكر الفليسوف، ويدافع عنها كفارس من فرسان عليه أنه يتعمد توسيع الفجوة الثقافية والعلمية بينه وبين من يتعامل معهم من ممثلي السلطة ومتخذي القرار فاتهموه بالتعالي والعنجهية وحب التسلط وفرض الرأي .

ولكل ذلك توحدت ضده جبهات المعارضة ليس فقط في المجال التنفيذي بل وفي المجال الأكاديمي التعليمي أيضا ولن تكن دوافع المعارضة منزهة دائما عن الحقد والغيرة أو الضحالة وسوء الفهم .

وهكذا كان حسن فتحي أسوأ محامي لقضيته في وطنه بينما كسبها على مستوى العالم أجمع وقد عادت أمجاده وعظمته تشع من الخارج على وطنه في مصر فكسبت العزة والفخار بجهوده وفكره وفنه وهي التي تنكرت له طويلا.

يامعلمنا الكبير .. طيب الله ثراك وجعل الجنة مثواك، بكل الخشوع للعلي العظيم نصلي ، ندعوا لك بالرحمة والمغفرة بقدر ما قدمت لتلاميذك من عطاء.

تذيل على الدكتور الزيني

لابد لي أن أسجل في بداية الأمر أن ماكتبه دكتورنا الفاضل ، كتب بلغة ركيكة لاترقى بأن يقال عليها لغة عربية ، والأصل بأن الأستاذ الجامعي يجيد وسيلة التواصل مع طلابه ، والتي هي اللغة ، فإما أن تكون لغة عربية سليمة تتسرب إلى نفس المتلقي فتورثه التشوق والإستمتاع بالمعلومة ، وإنا أن تكون لغة أجنبية وتترجم إلى العربية ، كما فعل حسن فتحي في كتاب فقراء العمارة.

لكن أيا كان الأمر فذاك أمر ثانوي ، لكن العجيب هو ذاك التناقض الذي وجدناه فيما كتب أستاذنا الكبير والذي يمثل قطاعا لا بأس به من معماريين اليوم. إن المريض حين لايشعر بمرض فلا أمل مرجو من شفاءه ، كذلك ، لو كانت نظرة المعماريين اليوم للعمارة فلا أمل في أن نلحق بقطار الإبداع . يقول الدكتور الزيني «بدأ العالم اليوم يشعر بالضيق والإحباط من تيار الفكر المعماري الذي سيطر على إنتاج المعماريين طيلة النصف الأول من القرن العشرين وحصرهم في إتجاه واحد هو ضرورة موائمة الفن والعمارة لعصر الألة، ولكن منطق الكفاءة الوظيفية والصراحة الإنشائية الذي سيطرا على العمل المعماري في عصر الثورة الصناعية انتهى بإستبعاد الألة للفن والمادة للروح والمنطق البارد للعاطفة الجياشة فتطابقت مدارس الفن التشكيلي وتكررت

أشكال المباني وشاعت في البرامج المعمارية أنماط دولية زرعت كنباتات غريبة في أي تربة في العالم. وقد وصل الإتجاه الحديث في العمارة الآن إلى طريق مسدود كان نتيجة الفرض من أعلى من رواد عمارة القرن العشرين الذين فلسفوا ونظروا في مكاتبهم وتجاهلوا جمهور المنتفعين من عامة الناس الذين اصيبوا بالخوف من إبداء الرأي ثم الإستسلام لما هو حادث. «

هذا كلام خطير بل خطير جدا ، فالأستاذ الزيني يرى أن معماريي النصف الأول من القرن العشرين هم الذين إغتالوا الروح في العمارة ، والأصل أن معماريي ذاك العصر وعلى رأسهم قائدهم العظيم كوربوزيه هو رافع لواء البساطة في العمارة وهو الذي مسح نقوشا لا وزن لها واستبدلها بروح بسيطة تطلب من الإنسان أن يبني ما هو ضروري ولازم . إن كوربوزيه هو ذاك الرجل الذي حارب المكياج الماسخ في العمارة ، والذي كان يجعل العديد من الناس يصنفها في مقام الفن ويبتعد بها عن مقام الهندسة ، في حين أن العمارة الخالدة ، هي تلك التي اهتمت بالعلوم الأخرى ولم تنصرف إلى جمال الخطوط وإبداع الألوان.

وهنا مربط الفرس ، فالعديد من المعماريين يرى العمارة كألوان وخطوط، ومقرنص ومشربية ، وتاجا إغريقيا وفرنتومة ، في حين يراها بقية معماريي العالم كتلة إبداع لاينفصل فيها الفراغ عن النظام الإنشائي ولا إستخدام التكنولوجيا الحديثة عن التفاصيل الإنشائية.

أذكر أنني وأنا في السنة الأولى من دراسة العمارة بجامعة شتوتجارت دخل علينا المعلم الفاضل Peter Huebner ، وكان له مظهر يختلف عن بقية الأساتذة ، فهو رث الثياب ، يأتي إلى الجامعة على دراجة ، لايعبأ كثيرا بما يجمل مظهره ، ولكن ما يجمل عقله . بدأ المحاضرة بقوله ، لقد بنيت اليوم سقفا سمكه ٦ مليمتر ، ثم نظر إلى الحضور وقال أتدرون ماقيمة هذا ؟ إنه البناء بأقل التكاليف ، ثم قال Light is economical . وكان تبريرا كافيا لنظرات الإعجاب التي وجهت إليه.

إن العمارة في النصف الأول من القرن العشرين وصلت إلى مرحلة النضج ، التي معها استغنت عن الطرز والنقوش ، وأصبح الفارق بين الباروك والرينيسانس كالفارق بين لابلاس وماكسويل في فيزياء الكم. فقد أصبح يعد سبقا هندسيا ما يعود على المواطن بالنفع من قلة في التكلفة وصحة في الفرا غ وإبدا ع إنشائي يجعل المارة ينظرون إلى المبنى ويتسألون في ذهول ، كيف يقف هذا المبنى دون إنهيار أو تصدع؟

إن هذا الفكر قلما يوجد بين المعماريين في مصر أو في الوطن العربي ، وأذكر أنني قرأت مقالا في أحد المجلات المعمارية للدكتور الكبير بهاء بكري يقول فيه « إن تسعين في المائة ممن يتصدرون لتدريس العمارة يحتاجون إلى إعادة تأهيل.» وهذا أمر صحيح ، لكن الصحيح أيضا أن هؤلاء التسعين تخرجوا من تحت أيدينا ونحن الذين منحناهم شهادات الماجستبر والدكتوراة.

إن تلك الفجوة بيننا وبين الغرب جديرة بالنظر ، فنحن من جعلنا من الإبدا ع الإنشائي قيمة معمارية في الهرم ، ونحن من جعلنا من الدراية بعلوم الفلك معجزة معمارية في معبد أبوسمبل. ثم نتحدث بعد ذلك عن أن الألة هي التي حطمت العمارة في النصف الأول من القرن العشرين! وأن المباني بعدما إنعدمت فيها الصور والنقوش غدت أقل دفئا إنه لفهم مغلوط تماما كإسكتشات الدكتورة شفق الوكيل ، التي ظل طلاب العمارة يتدارسونها أعواما تلو أعوام ، وقد أوضحت الدكتورة شفق فيها أن القبة بسبب أن نصفها فقط يكون معرضا لأشعة الشمس والنصف الآخر يقع في الظل فإن الفرا غ الذي تحتها يكون أقل حرارة !

وذاك أمر مردود ، فكما علمونا في علوم النقل الحراري Heat Transfer فإن المساحة التي تنتقل عبرها الحرارة تؤثر في كمية الحرارة المتسربة إلى الداخل. ويجسد ذلك تلك المعادلة:

$$Q = K \cdot A \cdot (v_1 - v_2)$$

وكما تلاحظ فإن A هي المساحة ، و Q هي كمية الحرارة

ومما لاشك فيه أن مسقط القبة الأفقي أقل بكتير من مساحة سطحها. فكيف ندرس للطلاب هذا الهراء ؟

وأعود مرة أخرى لما كتبه الدكتور الزيني حيث يقول « وتكررت أشكال المباني وشاعت في البرامج المعمارية أنماط دولية زرعت كنباتات غريبة في أي تربة في العالم. وقد وصل الإتجاه الحديث في العمارة الآن إلى طريق مسدود كان نتيجة الفرض من أعلى من رواد عمارة القرن العشرين الذين فلسفوا ونظروا في مكاتبهم وتجاهلوا جمهور المنتفعين من عامة الناس الذين اصيبوا بالخوف من إبداء الرأي ثم الإستسلام لما هو حادث.» وفي ذلك تلويح وتلميح بأن الإنسان العادي أو مستخدم المكان ، الذي ربما يكون ساكن ذاك الفرا غ هو المسئول بالدرجة الأولى عن تشكيل فراغه ، وأن ما يمليه من خطوط يعتبر طراز ذاك المكان بل شخصيته. وهنا أتسأل حائرا ما دور المعماري إذا ؟

إن الذي أعرفه أن المعماري يستمع إلى رغبات الناس ، ثم يترجم هو تلك الرغبات إلى خطوط تتسق مع الفن وتحترم قواعده . وبذا يكون المعماري هو الذي يضع الذوق العام للناس ، ثم يعرفهم به.

أما إذا سلمنا بما قاله فخامة الدكتور نكون كمن يطلب الحكمة مما هو دونه . قال لي عمي أنه ذهب إلى زيارة الهند في عام ست وخمسين ، في مهمة علمية ، وبينما هو يقف في إحدى محال الخضرة إذ دخلت بقرة وأخذت تأكل من خضرة المحال ، والكل يذود عنها بما فيهم صاحب المحل . فسألهم ألا تمنعون البقرة ؟ فأجاب الجميع بلا فنحن نعبدها لأنها مصدر إلهامنا.

هو منطق معكوس أن يستلهم المعماري من عامل النوبة البسيط ، الذي لم يدرس علوم الإنشاء والنسب الذهبية والنقل الحراري .

ثم يقول على لسان حسن فتحي»إن العمارة فن وعلم وتكنولوجيا ، وإن الناحية التكنولوجية تعتبر من شئون ذوي الإختصاص من المهنيين.وإن في ذلك ما يحرج الإنسان العادي في إعطاء حكمه وتقديره للمبنى وخاصة في الوقت

الحاضر الذي تسود فيه العمارة التي تدعى حديثة ومعاصرة، وقد خلت تماما من العناصر المعمارية التقليدية التي تعودها الناس في السابق وكان لهم فيها خبرة ورأي سديد . هذا على حين لم تتبلور بعد أي تقاليد جديدة يصح أن تكون مرشدا مرجعا في الحكم على القيم الجمالية والثقافية سواء بالنسبة للجمهور أو بالنسبة للمتخصصين. إن تغلب النواحي التكنولوجية على الفن في العمارة التي تدعى معاصرة لما جعل المهنيين يتعالون على الجمهور ولا يأخذون رأيه في الإعتبار».

وهنا وقفة مهمة وهي لماذا تكون التكنولوجيا شأن ذوي الإختصاص ؟ لماذا لايكون المعماري هو من يجيد قواعد التصميم وهو في ذات الآت من يجيد علوم التكنولوجيا فنوفر بذلك الحوار بين شخصين قد يكونا متضادين ويحدث ذاك الحوار داخل نفس وعقل المعماري ؟ ألم يحدث ذاك على عهد إيمحتب ، الذي ألم بعلوم الفلك والبناء والطب والفلسفة؟ أم أننا نريد أن نختزل العمارة في خطوط تافهة غير ذات معنى؟

إن التخلف المعماري الحادث اليوم في تعليم العمارة في وطننا العربي مرجعه إلى ما أشرنا إليه . وحين نريد أن نعلم الشباب علما كعلم النقل الحراري أو الصوتيات ، لانرجعهم إلى النظريات ، بل إلى برنامج محاكاة كبرنامج Design Builder , Eco Tec . وإذا أتينا إلى الأعمدة والكمرات قلنا له لا شأن لك بها ، والمهندس المدني هو المسئول عن تصميمها ، وهكذا .. ويغدو المعماري هو ذاك الرجل الذي يرسم واجهة جميلة لكنها في ذات الوقت تافهة .

النموذج النمطي المتكرر

كثيرا ما انتقد هذ الاسلوب في أوروبا وغيرها ، ولكن هل السبيل هو أخذ المعلومة من الأدنى منزلة ؟ أم أن السبيل في جعل المعماري نفسه متنوع في تصميماته ؟ لاشك أن الأجابة الثانية أفضل . وفي هذا ينقل الدكتور الزيني على لسان حسن فتحي فيقول: » وفي مجال السخرية من النموذج المتكرر للبيت

يقول المعلم الرائد: هل يمكن أن أنزع حيوان القوقع من قوقعته لأسكنه في قوقعة حيوان آخر؟ إن الوحدات السكنية النمطية خالية من التنوع فالمعماري يصمم منزلا ويضع إلى يمينه ثلاثة أصفار فيحصل على ألف منزل بلا أي تعبير عن السكان.»

إنني في هذا السياق لا أستطيع أن أعتبر رسومات طفل صغير أو مجموعة من الشبان الذين لايجيدون فن الرسم بأفضل من مجموعة متنوعة من رسومات بيكاسو عبر فيها عن العديد من المدارس الفنية. وعلى ذلك قس مأسة العمارة التي تعيشها.

وفي نهاية مقاله يرجع الدكتور الزيني فشل تجربة الرائد حسن فتحي إلى بيروقراطية الجهات المختصة حيث يقول «لقد صدم المعماري الرائد حسن فتحي خلال حياته العملية مرارآ ووقفت في طريقه صخور البيروقراطية فتعطلت مشروعاته مرة وأوقفت مرارا، كان يتهم بالخيال والرومانسية والبعد عن واقع الحياة العملية على عكس ما كان يفهم هو، فقد تبنى قضية إسكان البسطاء محدودي الدخل وخاصة في مجتمعات الريف والصحراء ، وكان يتعامل معها بحب الفنان ويعرضها بإسلوب المفكر الفليسوف ، ويدافع عنها كفارس من فرسان عليه أنه يتعمد توسيع الفجوة الثقافية والعلمية بينه وبين من يتعامل معهم من ممثلي السلطة ومتخذي القرار فاتهموه بالتعالي والعنجهية وحب التسلط وفرض الرأي .

ولكل ذلك توحدت ضده جبهات المعارضة ليس فقط في المجال التنفيذي بل وفي المجال الأكاديمي التعليمي أيضا ولن تكن دوافع المعارضة منزهة دائما عن الحقد والغيرة أو الضحالة وسوء الفهم .

وهكذا كان حسن فتحي أسوأ محامي لقضيته في وطنه بينما كسبها على مستوى العالم أجمع وقد عادت أمجاده وعظمته تشع من الخارج على وطنه في مصر فكسبت العزة والفخار بجهوده وفكره وفنه وهي التي تنكرت له طويلا. «

وفي ذاك شيئ من المغالطة ، فمما لاشك فيه أن الجهات المختصة ساهمت في إفشال تجربة الرائد حسن فتحي ، ولكن هل هي وحدها؟ إن المنصف في الإجابة على هذا السئوال يعلم تمام العلم أن الأمر متعدد الجهات والمصادر . وفي ذلك أحيل القارئ الكريم إلى ما تقدم من نقد لنموذج البناء الطيني عند حسن فتحي . لكنني أحلق حول مبدأ آخر ، وهو أن من صفات العلماء صفة العطش إلى كل ماهو جديد . ولو أننا إدعينا الكمال وأوكلنا أخطاءنا إلى الآخرين فذاك وربي تمام الجهل.

يقول الشاعر الجميل والفليسوف الرائع ، ابن تونس الخضراء ، أبو القاسم الشابي:

وإن جمال الكمال الطموح   ومادام فكراً يرى من بعيد

إنني أدعو زملائي في نهاية نقدي هذا إلى محاسبة النفس ونقد الذات وعدم إدعاء الكمال فيما نصنع أو نصمم ، فالبحث عن الأخطاء هو بداية الطريق إلى الكمال والرفعة.

دور حسن فتحي في تطوير العمارة العالمية

أ.د/ علي رأفت

إن حصول حسن فتحي على الجوائز الدولية في العمارة لم يكن مجاملة أو تملقاً أو مشيا وراء تيار معين أو تحت تأثير شخصية هامة لكنه إحقاقا للحق وعرفانا بالجميل. وفي وقت مبكر جدا كتب وطبق حسن فتحي مبادئ وأراء وإتجاهات ظهرت عالميا بعده بما يزيد على الثلاثين عاما. وقد قاد هذه الإتجاهات العالمية مهندسون عالميون من الجيل الأول والثاني والثالث ، وتحت تأثيرهم كتب لهذه الإتجاهات الإستقرار والتأثير على مجريات العمارة العالمية.

وعندما تبين للعالم أن المهندس حسن فتحي قد سبق أن نادى وطبق هذه الإتجاهات العالمية في الثلاثينات والأربعيانت بدء العالم في دراسة أعمال وكتب حسن فتحي وتكونت مدارس عالمية تدين له بالقيادة والريادة ، كما استشهد

بأعماله رجال السياسة كمثل من الأعمال التي تحترم استمرارية العادات والتقاليد والتراث بواقعية المصلح الإجتماعي وإبداع وتواضع الفنان.

حسن فتحي في الثلاثينات والأربعينات وقف أمام بناء العمارة الدولية الجارف ، لم يقف أمامه بشعارات إحياء الطرز الكلاسيكية أو الغوطية كما فعلوا في إيطاليا وألمانيا وروسيا أو بالتشكيلات التصويرية والمواد الطبيعية المصنعة كما فعل ألفرالتو في فنلندا وأمريكا أو بالعمارة التعبيرية كما فعل مندلسون وشارون في ألمانيا ولكنه وقف أمامها في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات في قمة سيطرة وإنتشار العمارة الدولية التكنولوجية. وفي قمة ظهور وإنتشار علب الكبريت الزجاجية التي إمتدت كناطحات سحاب مكتبية أو تجارية ، وأفقيا في صالات للألعاب والإجتماعات .

في هذا المحيط الجارف وقف حسن فتحي وحيدا في العالم وصمم وبنى قرية القرنة في مدينة الأقصر واستمر في ذلك حتى عام ١٩٥٣. وليس المهم ماحققته هذه القرية والظروف الاجتماعية الشاذة التي أحاطتها ولكن المهم أنها وفي فترة متقدمة ووسط إنتصار ساحق لعمارة ظهرت أنها ستستمر لمئات السنين ، وضع الأساس والتطبيق لمبادئ معمارية متناقضة معها ظهرت وتحققت في الستينات ، العمارة التي وضعها وطبقها حسن فتحي في الثلاثينات والأربعينات وظهرت بعد ذلك في أوروبا وأمريكا في الستينات هي العمارة الإنسانية ، وهي التي تركز على الإنسان وعاداته وتقاليده ، تركز على نفسيته وأنماطه الإجتماعية، وتحت هذا الهدف سبق حسن فتحي لوكوربوزيه في إتجاهه نحو إظهار أسطح المواد على حقيقتها وبدائيتها. ففي حين كشف حسن فتحي مادة الطين كسطح جدير بالإظهار نجد أن لوكوربوزيه بعده كشف السطح الخرساني فيما عرف Beton Brut . سبق حسن فتحي في الأربعينات أصحاب اتجاه عمارة البدائية الجديدة New Brvtalism في انجلترا في أهدافهم التي أعلنوها في الستينات في مسئولية المعماري عن موائمة المبنى لمحيطه وعن

إظهار حقيقة الإنشاء بالحوائط الحاملة والعقود والقباب داخليا وخارجيا وفي التعبير عن حقيقة المبنى وفي أن تكون للمبنى صورته الخاصة. قاد حسن فتحي الغرب في إتجاهه لتأكيد أهمية العمارة الشعبية Vernaaculer مما انعكس بعد ذلك على أعمال فنتوري وغيره من المعماريين.

من كل ماسبق وبعد إدراك الغرب لفضل حسن فتحي وسبقه للمعماريين العالميين في مجال العمارة الإنسانية وللمدرسة التي كونها بأعماله وكتاباته. لقد حاز حسن فتحي في حياته وبعد مماته الإعتراف العالمي في عدة كتب ومقالات عالمية وفي حصوله على عدة جوائز عالمية كان آخرها ماكتبه ولي عهد انجلترا عن أعماله في كتابه الأخير.

تذيل على إ.د/ علي رأفت

كنت دائما شديد التقدير للدكتور علي رأفت شيخ المعماريين في مصرنا المعاصرة ، لكنني كنت أقف في حرج شديد لما شيده في شارع رمسيس، فوسط شارع تاريخي ، مليئ بالكنوز المعمارية أقام الدكتور علي رأفت مبنى جريدة الجمهورية ، ذو الواجهة المعمارية. ومما زاد الطين بلة أنه جعل الواجهة على شكل كتاب مفتوح ليعبر بذلك عن سطحية الفكر المعماري.

وكنت أظن أن الأمر سيتوقف عند هذا الحد ، لكنني عثرت على مقال له، يدعي فيه أن كوربوزيه تعلم فنون العمارة من رائدنا العظيم حسن فتحي. وأقول بإذن الله: إن الإفراط في الحب ليس مبررا لإدعاء ماليس لنا ، وقد علمنا الله سبحانه وتعالى الإنصاف حتى مع الأعداء فقال « ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى»

ولن أتبع اسلوب المنطق والإقناع في الرد على إدعاءات الدكتور علي رأفت، ولكنني سأورد تواريخاً . يقول الدكتور علي رأفت أولا « وتحت هذا الهدف سبق حسن فتحي لوكوربوزيه في إتجاهه نحو إظهار أسطح المواد على حقيقتها وبدائيتها. ففي حين كشف حسن فتحي مادة الطين كسطح جدير

بالإظهار نجد أن لوكوربوزيه بعده كشف السطح الخرساني فيما عرف Beton Brut .»

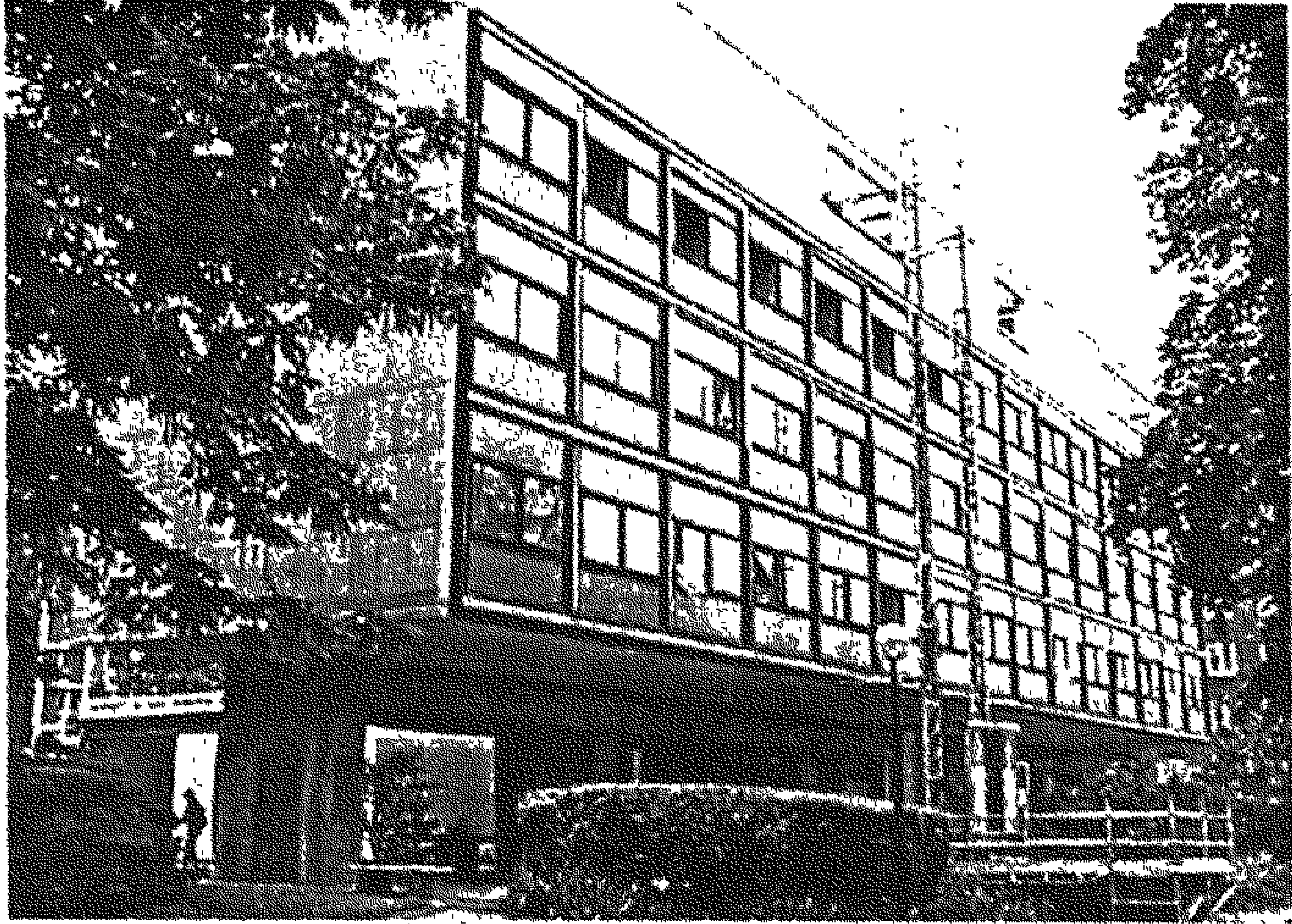
ثم يقول «. سبق حسن فتحي في الأربعينات أصحاب اتجاه عمارة البدائية الجديدة New Brutalism في انجلترا في أهدافهم التي أعلنوها في الستينات في مسئولية المعماري عن موائمة المبنى لمحيطه وعن إظهار حقيقة الإنشاء بالحوائط الحاملة والعقود والقباب داخليا وخارجيا وفي التعبير عن حقيقة المبنى وفي أن تكون للمبنى صورته الخاصة. قاد حسن فتحي الغرب في إتجاهه لتأكيد أهمية العمارة الشعبية Vernaaculer مما انعكس بعد ذلك على أعمال فنتوري وغيره من المعماريين. من كل ماسبق وبعد إدراك الغرب لفضل حسن فتحي وسبقه للمعماريين العالميين في مجال العمارة الإنسانية وللمدرسة التي كونها بأعماله وكتاباته. لقد حاز حسن فتحي في حياته وبعد مماته الإعتراف العالمي في عدة كتب ومقالات عالمية وفي حصوله على عدة جوائز عالمية كان آخرها ماكتبه ولي عهد انجلترا عن أعماله في كتابه الأخير.»

وأقول بإذن الله إن مثل هذا الفكر هو الذي أوردنا المهالك ، فالدكتور علي رأفت يقول إن حسن فتحي سبق كوربوزيه في تعرية الواجهات ، وينوه بذلك أن الغرب هو الذي أخذ عن رجالنا ، فنحن بمثابة الأساتذة الكبار لأوروبا وأمريكا. تماما كما يقول رجل الشارع العادي «مصر أم الدنيا». هذا الإحساس بالذات هو الذي أوردنا المهالك ، فكوربوزيه بنى ال Swiss Pavilion عام ١٩٣٢ عاريا من أي تشطيبات خارجية ، ومعبرا عما كان سائد في ذاك الوقت عن ال Brutalism أي العنف ، نعني بذلك عنف التعبير . أما حسن فتحي فقد شرع في تقديم تصميماته لوزارة السياحة عام ١٩٣٧ ، أي بعد أن بني مبنى كوربوزيه بخمس سنوات ، ولم يقصد حسن فتحي بتعرية الواجهات الطينية نفس المعنى الذي عناه كوربوزيه ، إنما قصد الإقتصاد في مواد البناء حتى يكون منتجه النهائي منخفض الثمن.

فمتى ننتهي عن تعظيم أنفسنا وإزدراء الآخرين؟

متى يكون لنا تواضع العلماء ؟

متى ندرك أننا على خطر حضاري إن لم تتداركنا عناية السماء؟



شكل ٤ : Swiss Pavilion 1932 Le Courbusier

إنني لا أرغب الإسترسال في نقد ما قاله الدكتور على رأفت وكفاني التاريخ سندا ومعينا . لقد قلت في أكثر من محاضرة ،إن الذي لايؤمن بأنه مريض لايستطيع الطبيب أن يفعل له شيئاً. حماك الله يامصر وأقل عثرتك وسدد خطاك .

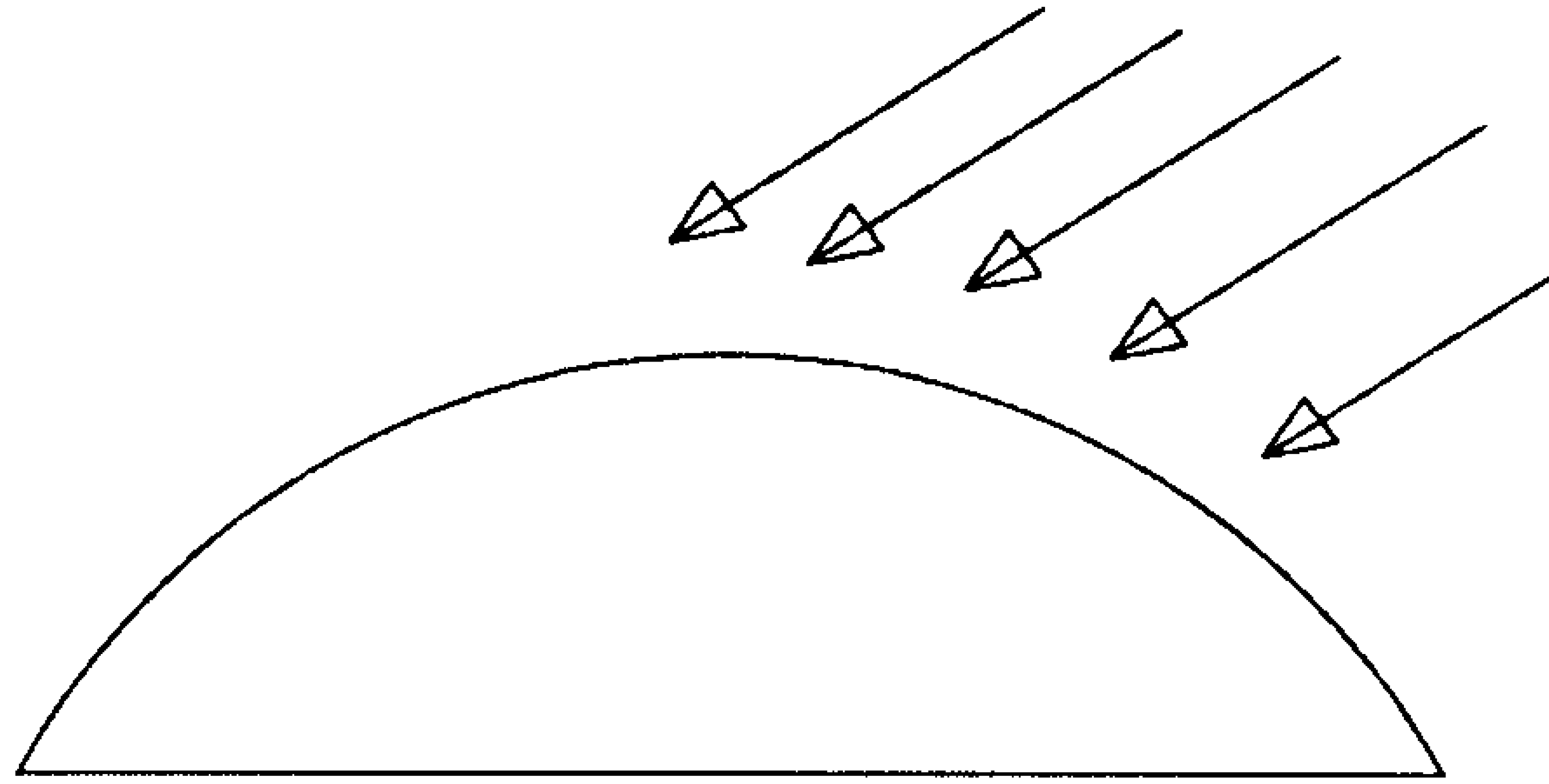
النانو طين

لا أقصد بالنانوطين المعنى اللفظي لها بل المعنى المجازي. بمعنى أن المقصود بالنانوطين هو تطوير إمكانيات الطين حتى يؤدي دورا أكبر سواء على المستوى الإنشائي أو المستوى الحراري ، ولا نقصد إعادة ترتب الإلكترونيات كما يحدث في تحويل الزجاج إلى كريستال.

أكاذيب مغلوطة وشائعة في عمارة الطين

إن أكبر ما لايمكن تصوره أن يدرس الإنسان خطأ شائعا ، يشعر بعده أنه يكتر الكلام إكترارا شأنه في ذلك شأن الدواب ، وتلك طامة كبرى ، فكيف لمن يحملون مشاعل العلم أن لايفكرون ويتدبرون فيما ينقلوا من معلومات ؟

ورد في أكثر من كتاب وأكثر من رسالة من رسائل الماجستير والدكتوراة رسما كروكيا ، الكل ينقله عن الدكتورة شفق الوكيل في كتاب المناخ وعمارة المناطق الصحراوية :



الرسم يوضح أن القبة يتعرض نصفها فقط لأشعة الشمس ، وبالتالي يبني المغالطون أو الغالطون على ذلك أن القبة تنقل حرارة أقل من الأسطح المنبسطة. وذاك وهم كبير.

ودليلنا العلمي أن أي عملية نقل حراري يتدخل فيها ثلاثة عوامل:

معامل التوصيل (K)

فروق درجات الحرارة (V_1-V_2) .

المساحة التي تنتقل الحرارة من خلالها (A)

ويمثلها المعادلة التالية

$$Q = K \cdot A \cdot (V-_2V_1) \{W/m^2\}$$

نفهم من ذلك أن زيادة المسطح ينبني عليه زيادة كمية الحرارة المتسربة إلى الداخل . الأمر الذي يبطل الزعم الأول بأن القبة أفضل في المباني الصحراوية.

فما هي العلاقة بين مساحة الدائرة (المسقط الأفقي للقبة) وبين مسطح القبة .

مساحة الدائرة (المسقط الأفقي للقبة) بفرض أن نصف القطر ٥متر.

Area = π . r2 = 3,14 . 5^2= 78.5m2

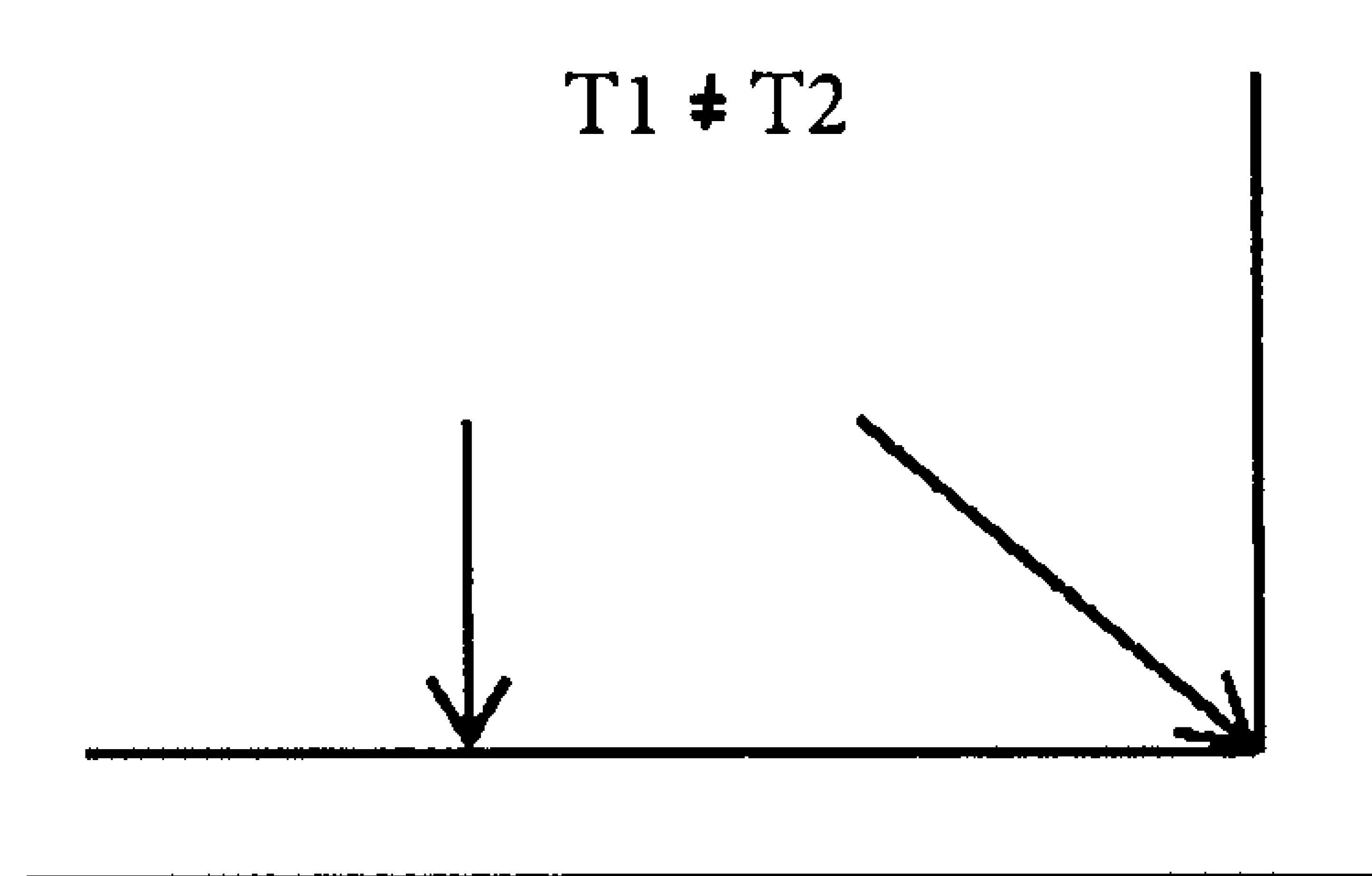
ومساحة مسطح القبة لنفس نصف القطر

Area= 2 π . r^2= 2. 3,14 . 5^3=157m2

وفي هذا خير برهان على الوهم الذي كنا نعيشه والذي يقول إن شكل القبة يمنع أو يقلل من تسرب الحرارة إلى الفرا غ الداخلي .

فمساحة سطح القبة ضعف المسقط الأفقي، ونصف المسطح يساوي مساحة المسقط الأفقي. بمعني أن الحرارة الداخلية واحدة سواء كان السقف أفقي أم كان السقف علي شكل قبة.

لكن هناك أمر لابد من الإشارة إليه ، وذاك بإعتباري ممن يدرسون فيزيا البناء ، وهي أن درجة حرارة ركن (كورنر) الغرفة أقل من درجة حرارة مسطح الجدار وهذا ما يطلق عليه الكوبري الحراري Thermal bridge.



وتفسير ذلك أن كل نقطة على السطح الداخلي تتسرب منها الحرارة عبر أكثر من نقطة عند السطح الخارجي ، هذا ما إذا كانت درجة حرارة الفرا غ الخارجي أبرد (فصل الشتاء) . أما إذا كانت درجة حرارة الفرا غ الخارجي

عاليه (فصل الصيف) كان بالتبعية تسرب الحرارة إلى الفراغ الداخلي .)راجع كتاب المؤلف (Thermal control in Buildings)

وعليه فإن درجة حرارة الجدران الداخلية غير متساوية ، بين الكورنر والسطح وبين السطح والهواء الداخلي.

الأكذوبة الثانية

الأكذوبة الثانية في كتب العمارة أن المباني الطينية عازلة للحرارة ، فهي أفضل من غيرها حراريا ، ولهذا فهي مقدمة على غيرها في المناخ الصحراوي . والحقيقة أن المباني الطينية مباني مخزنة للحرارة وليست عازلة لها . وقد سبق الإشارة في الفصل السابق إلى هذا الأمر حين رصدنا أن سكان قرية القرنة كانوا ينامون ليلا فوق السطح ، حيث أن الحرارة المخزنة في الحوائط لمدة زمنية تصل إلى احدى عشر ساعة تبدأ بالتسرب إلى الفراغ الداخلي وقت الليل .

وقد كان من المنتظر من الرائد الكبير حسن فتحي رحمه الله أن يقدم حلولا لتلك المشكلة . إن الخرسانة أيضا لها معامل للتخلف الزمني، ولكن الفارق بينها وبين الطين أن تخلفها الزمني خمس ساعات ، بينما معامل الطين أحد عشرة ساعة.

فما هو الحل الذي بموجبه نستطيع أن نقول أن الطين مادة عازلة للحرارة؟

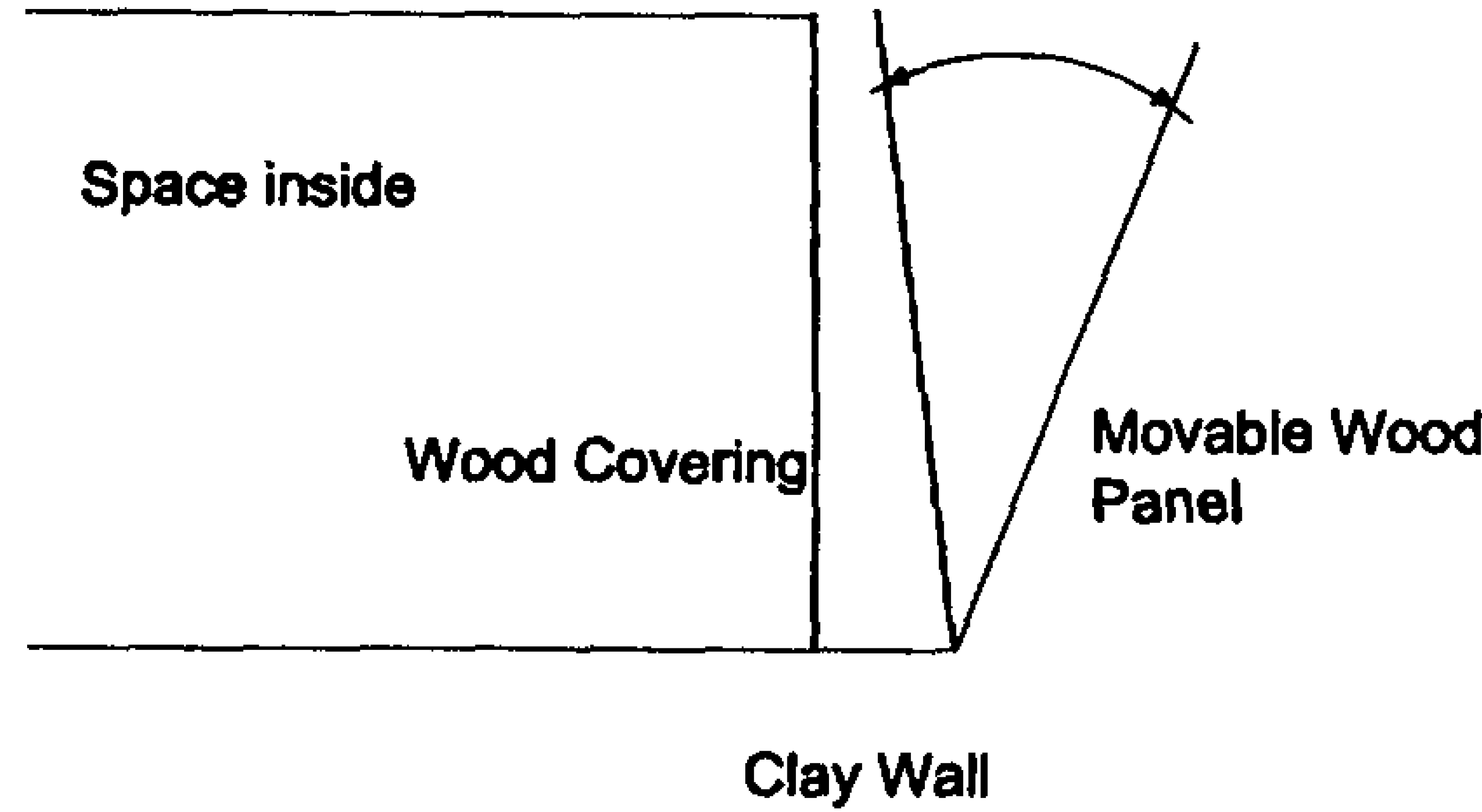
الحل النموذجي

الحل النموذجي معناه الحل المثالي القابل للتطبيق ، ومدخلنا في هذا الحل هو التحكم في خط سير التسرب الحراري ، فلو استطعنا أن نجعل التسرب الحراري إلى الخارج لأصبح الفراغ الداخلي باردا طول الوقت. ولكن كيف لنا أن نحقق هذا؟

إننا لو إستطعنا وضع مادة عازلة للحرارة كتجليد داخلي لكان طرد الحرارة إلى الفراغ الخارجي. فلو تم تجليد المباني الطينية بكسوة خشبية ولو جزئيا لكان الطرد إلى الخارج . ويمكننا فعل ذلك كالتالي:

الشكل يوضح تجليد خشبي ملاصق للجدار الطيني ولكن يصاحب ذلك جدار خشبي خارجي متحرك يفتح عند المساء بغرض تسرب الحرارة المخزنة إلى الفراغ الخارجي .

ويمكن أيضا التحكم في هذا التصميم إلكترونيا وذلك من خلال مستشعر يقيس كمية الحرارة المخزنة داخل الجدار فيعطي الأمر للموتور بتحريك الكسوة الخارجية ، الأمر الذي يؤدي إلى التحكم في عدم تسرب الحرارة إلى الفراغ الداخلي بنسبة أكبر.



إننا بذلك نكون قد صنعنا أول وحدة طينية ذكية ، وأعني بذلك smart clay building أو سمها إن شئت بالنانو طين .

إننا في علوم الحرارة نتعامل مع الجدار كمجموعة من الطبقات ، فالجدار عندنا ليس طبقة واحدة . وبما أنه كذلك فإن معامل توصيل الجدار نعرفه كالتالي:

$$K = [\frac{1}{\alpha i} + \frac{1}{\alpha o} + \sum \frac{s}{\lambda}]^{-1}$$

حيث أن :

$\frac{1}{\alpha i}$ هو معامل توصيل الهواء الداخلي

$\frac{1}{\alpha o}$ معامل توصيل الهواء الخارجي

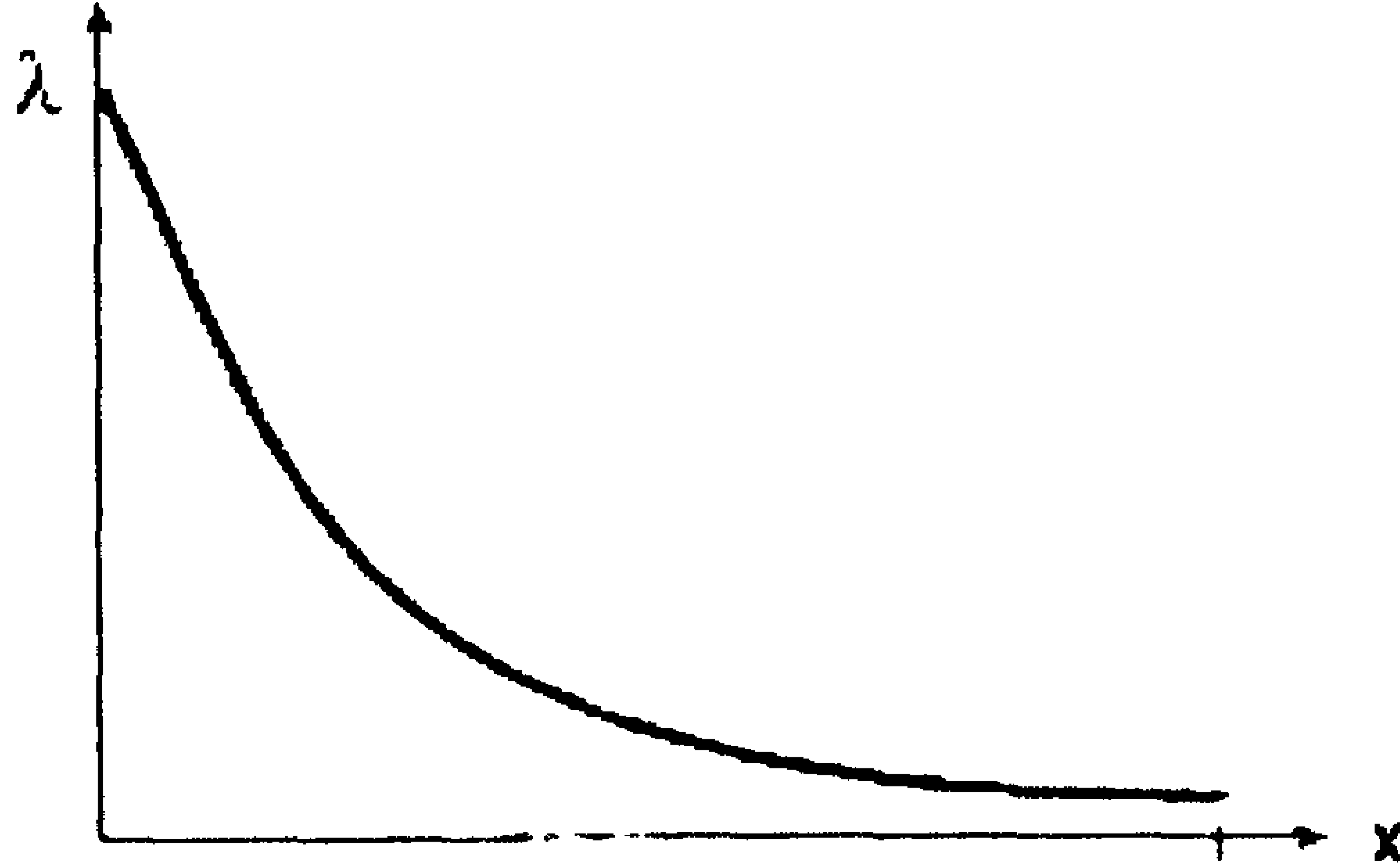
s سمك الطبقة بالمتر

λ معامل توصيل الطبقة

وكذلك فإن :

$$\sum \frac{s}{\lambda} = \frac{s1}{\lambda 1} + \frac{s2}{\lambda 2} + \frac{s3}{\lambda 3} + \dots$$

فكلما زاد عدد الطبقات زاد العزل وكلما زاد سمك الطبقة زاد العزل أيضا ، انظر إلى العلاقة بين سمك الطبقة ومعامل التوصيل في المنحنى التالي .

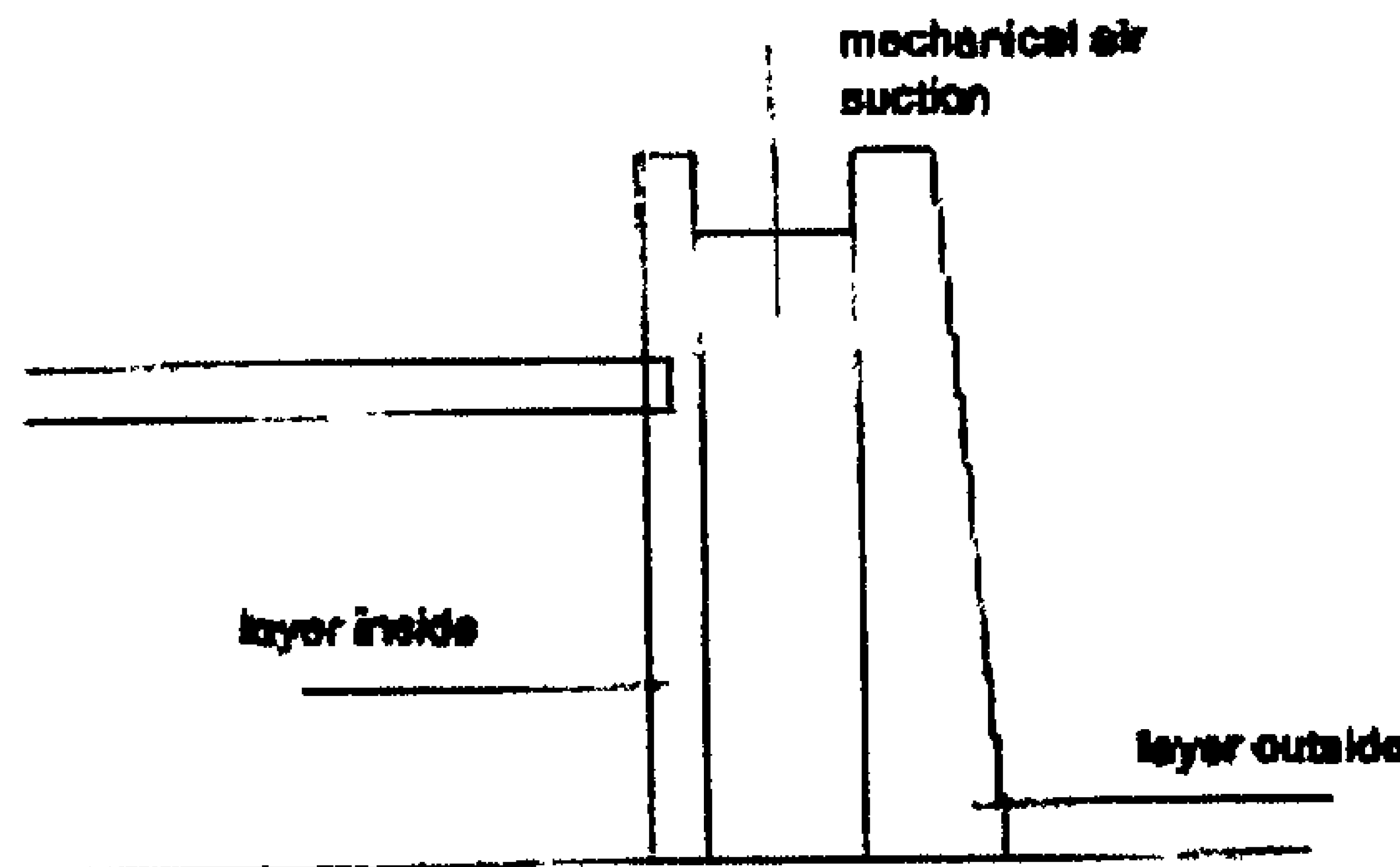


نبني على ذلك أن حل النانوطين الذي نقدمه فكرته قائمة على التعامل مع الجدار الطيني كمخزن للحرارة مع حجب التسرب الحراري بمادة يصل معامل توصيلها إلى 0,035 w/mK وهو ما يعادل تقريبا معامل توصيل الصوف الزجاجي ، أي مادة رديئة التوصيل للحرارة ، وللعلم يمكن استبدال مادة الخشب بنوع من أنواع الطرز البدوية كالكليم الذي يعلق على الجدار أوغيره.

على الجانب الآخر إضافة جزء متحرك إلى الواجهة ، يفتح كي يسمح للحرارة المختزنة في الجدار أن تتسرب إلى الشارع لا إلى الفراغ الداخلي.

ويمكن كذلك للحل أن يكون كالتالي

بناء الحائط أو الجدار الخارجي للمبنى من طبقتين ، بينهما عازل هوائي ، ويمكن تدعيم هذا البناء بعوارض خشبية تصل بين الجدارين ، ثم تعليق وحدات شفط هوائية بين الجدارين وذلك حتى نحافظ على الجدار الداخلي باردا .



فأي الحلين أفضل ؟

إننا على كل الأحوال سنتحكم في أن يكون الفارق بين درجة الحرارة الداخلية والخارجية يصل إلى العشرين درجة ، وذلك بحساب السمك اللازم لطبقات الجدار والعزل الهوائي وسمك وحدات الخشب الداخلية والخارجية(الرجاء الرجوع إلى كتاب المؤلف Thermal Control in Buildings المكتبة العالمية) ، لكننا نرى الحل الأول أفضل لأنه يصلح للصيف والشتاء ، ففي الصيف نفتح الوحدات الخشبية لطرد الحرارة إلى الفرا غ الخارجي ، وفي الشتاء نترك الوحدات الخشبية مغلقة لتتسرب الحرارة المخزنة إلى الفرا غ الداخلي فتساعد على تدفئة الجدار.

أما الحل الثاني فلا يقدم تلك الميزة التي تحافظ على خصوصية الطين في اختزانه للحرارة واستغلال ذلك في تدفئة المبنى طبيعيا في فصل الشتاء.

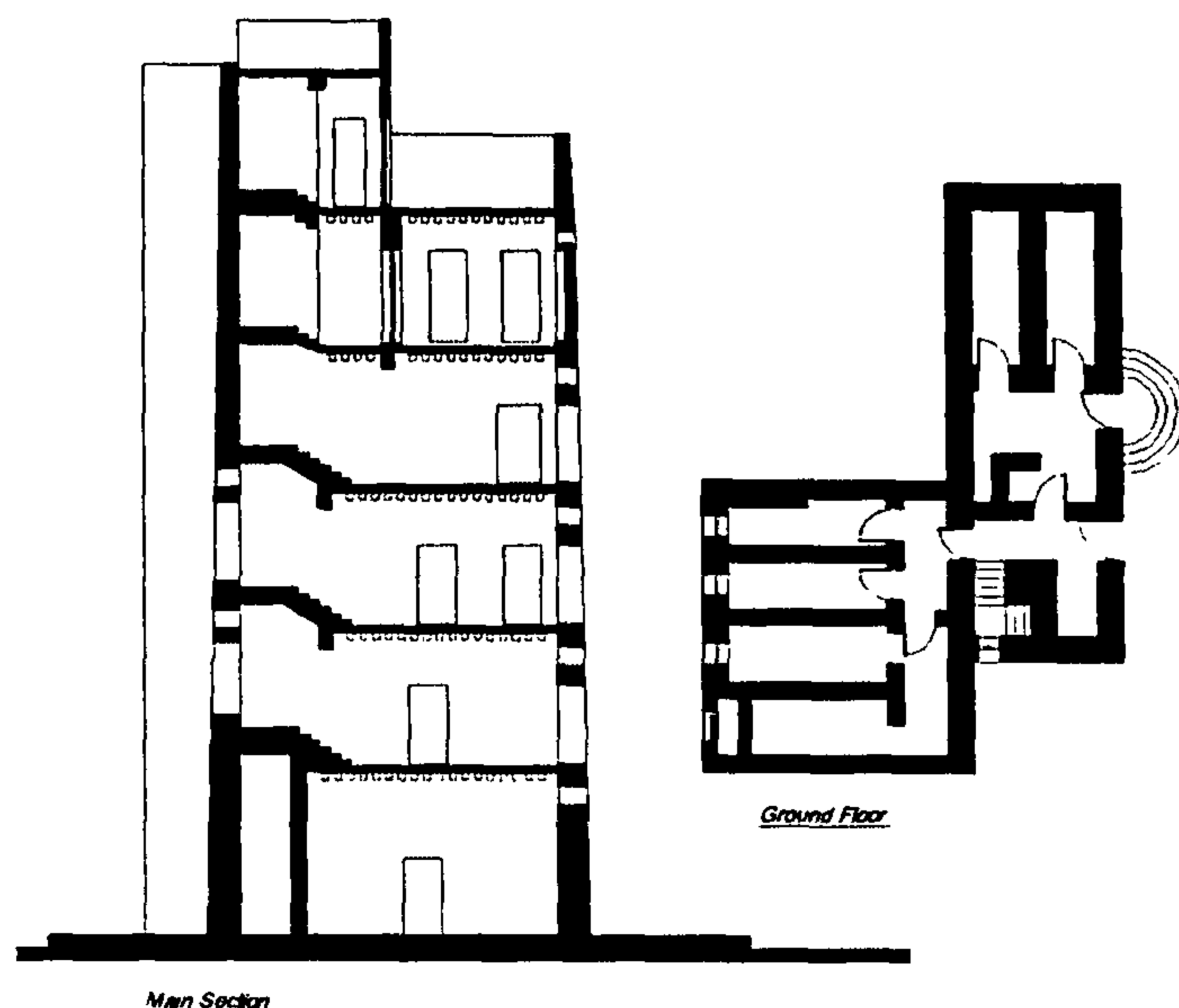
الأكذوبة الثالثة

لقد إستطاع العامل البسيط في إقليم حضرموت ببلاد اليمن ، أن يسطر بأحرف من نور حضارة طينية لفتت نظر اليونسكو إليها فجعلها محمية طبيعية وسماها ناطحات سحاب الصحراء ، تلك هي منطقة شبام.

إستطاع العامل البسيط الذي لم يتلقى محاضرات في علوم الإنشاء إلى التوصل إلى بناء طيني من أحد عشر طابقا ، وذلك بجعل الحوائط الطينية الحاملة بسمك متر ونصف في الطابق الأرضي ونصف متر فقط عند القمة.

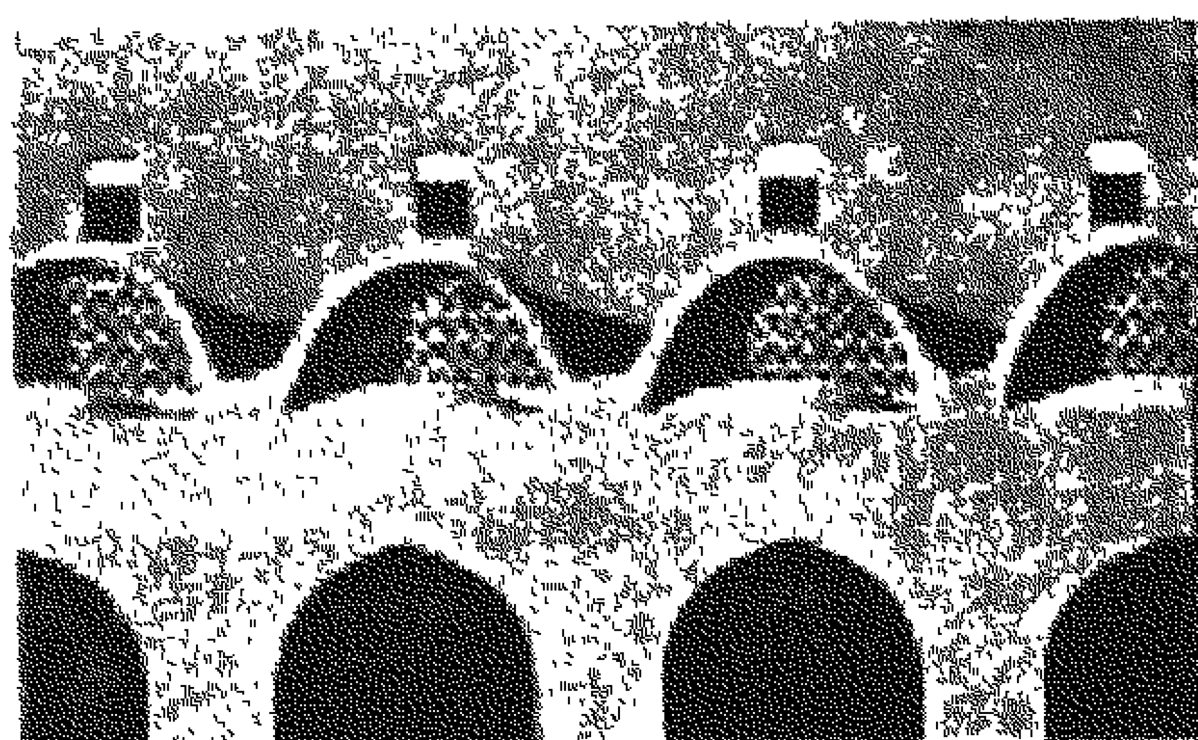
والذي يتمعن في الأمر يجدها نفس فكرة بناء هرم زوسر ، ونفس فكرة بناء ناطحات السحاب ، ونفس فكرة بناء أي مبنى خرساني ، فتسليح العمود في الطابق الرابع ليس هو تسليح العمود في الطابق الثاني ، وهكذا .

وعليه فلو أننا تمكنا من هذا لزدنا من كفاءة البناء الطيني وجعلناه يستوعب عددا أكبر من السكان على نفس الرقعة من الأرض ، ولتمكنا أيضا من عدم إستخدام القبو ، الذي من شأنه التذكير بالمقبرة ، الأمر الذي أدى بالناس إلى النفور من القرنة.



شكل ٥ : قطاع في العمارة الطينية بمنطقة شبام حضرموت اليمن

وليس شرطا إستخدام نفس التكنيك الذي إستخدمه العامل اليمني البسيط ، بل إن من الأفضل تبني تكنولوجيا جديدة ، تكون لها خصوصية مصر.

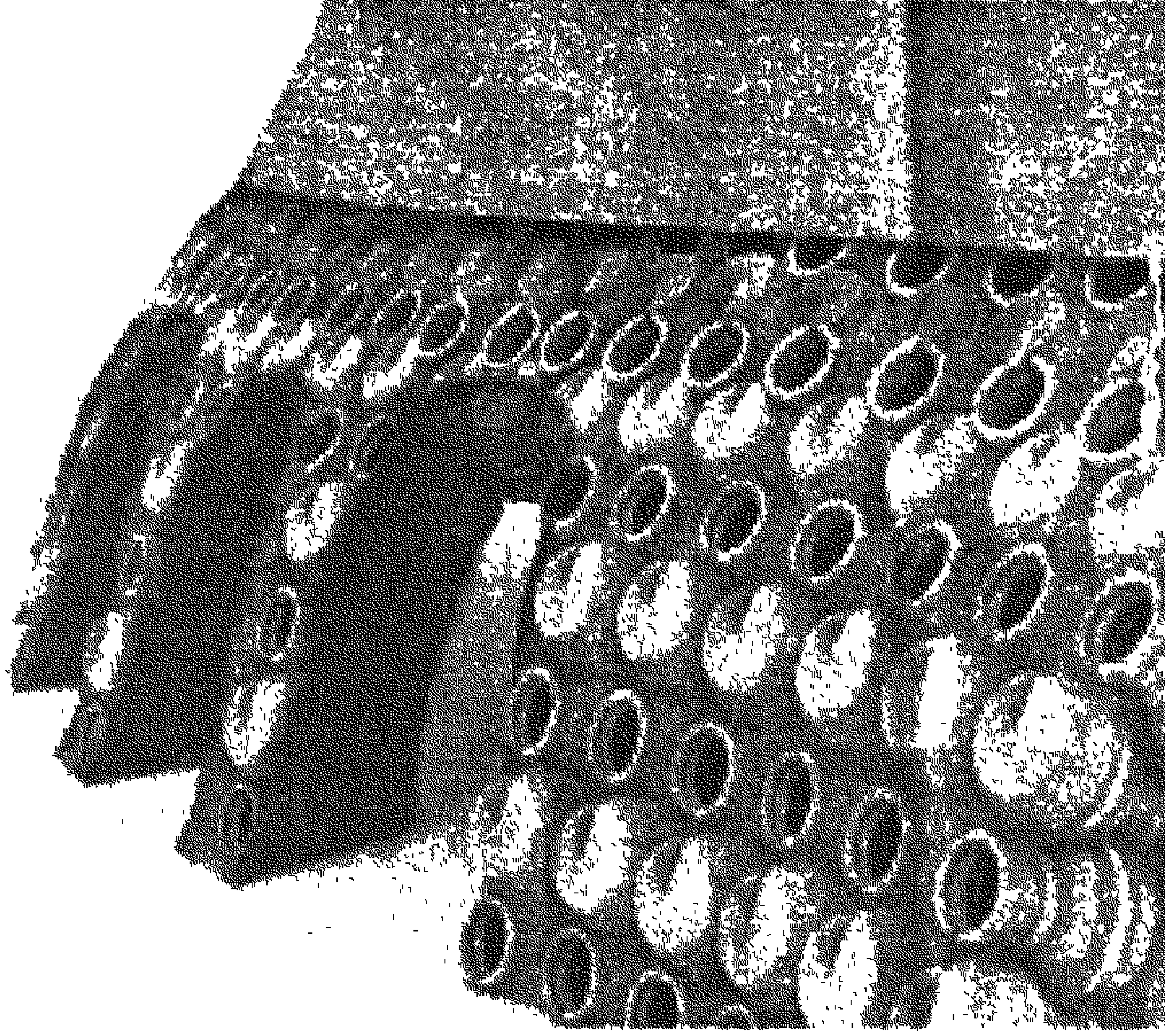




شكل ٦ : في اليمين شبام حضرموت وفي اليسار العمارة النوبية

إننا كما استطعنا من خلال مراكز أبحاث البناء إنتاج حوائط ال GRC وهي قوالب خرسانية خفيفية بين دفتيها طبقة سميكة من الفلين ، وبنينا بها منازل مكونة من طابقين وتعتمد على نظام الحوائط الحاملة بمنطقة السادس من اكتوبر نستطيع كذلك أن نزيد من كفاءة مادة الطين بزيادة نسبة القش أو إضافة مادة الزلط والأحجار الجيرية أو بالتدعيم بمادة البامبو وإخراج نظم إنشائية جديدة ترفع من شأن مادة الطين.

بل إنهم في الهند قدموا تلك المادة بنظام فخاري جديد كما هو موضح في الصورة.



شكل ٧ : حل نموذجي لحائط بني من قلال الفخار

وبذا فإن الحل النموذجي لعيوب مباني حسن فتحي يكون بتطويرها فيزيائيا ، بحيث تنتهي مشاكل الإشعاع الحراري للجدران أثناء الليل ، ويتطويرها إنشائيا من خلال نظم إنشائية جديدة تنتصر على عيوب التشكيل ، وأخيرا بتطوير خصائص المادة بالتعديل في خلطتها .

وليس أفضل من تطوير الخصائص عبر إعادة ترتيب الذرة وهو ما نطلق عليه النانو تكنولوجي.

أمثلة على النانو

تدخل تكنولوجيا النانو في صناعة كل شيء تقريبا والنانو معناها عشرة أس ناقص تسعة من السنتيمتر . ولكن بشكل عام هو العمل في جزء متناهي جدا من الصغر للحصول على مواصفات أفضل للمادة.

ومثال ذلك استخدام تكنولوجيا النانو في صناعة الزجاج ينتج عنها الكريستال ، الذي هو أفضل من حيث الخصائص الفيزيائية. أو تطويع مادة البلاستيك أو الفيبر بتحسين أداءها الفيزيائي ، واستخدامها في الخرسانة

عوضا عن حديد التسليح (راجع أبحاث المؤلف في مؤتمر النانو الخامس - المركز القومي للبحوث - مصر)

ومن ثم فنحن جميعا مدعون للبحث في إمكانية إستخدام نفس التكنولوجيا، فلربما أنتجنا شيء اختلف في خصائصه عما نملك اليوم.

حسن الختام

في نهاية هذا الكتاب ، لا ندعي كمالا لأنفسنا ، فما أصبناه من صواب فمن الله ومالحق بنا من خطأ فمن عند أنفسنا . لكن الحسن الذي نريد أن نلفت إليه نظر القارئ أننا باحثون عن الحقيقة ، لايمنعنا حبنا لشخص ما من الوقوف على أخطاءه ، فالعلم أعلى من حملته.

لم نقصد من هذا الكتاب الإنتقاص من شخص المبدع حسن فتحي رحمه الله ، فهو أكبر من أن ينتقص منه ، ولكننا أردنا الإنتقاص من أصحاب الجمود المقلدون دون تفكير أو تطوير ، وهؤلاء هم فقراء العمارة.

لقد عرفنا في هذا المؤلف على أي شيء تقف حضارة ما ، وعلمنا أن العقل والوقت ركيزتان هامتان لذاك الهدف ، فمع التفكر ومرور الوقت تغزونا الأفكار وتسيطر علينا إحتمالات النهوض.

ورأينا بعد ذلك أمثلة حية لحضارات قديمة ، برزت في العديد من العلوم ثم استخدمت العمارة كوسيلة لتخليد ذاك الرقي. واستطعنا في هذا المبحث أن نفرق بين العديد من أنواع طرز العمارة لتلك الحضارات القديمة. ووقفنا على أن العمارة المصرية أقوى تلك الطرز ، إذ أنها تقف على ابداع علمي أحرز في علوم الفلك أو الإنشاء ، وليست نقوشا أو زخارف لا تعتمد إلا على جمال الخط ونضوج النسبة.

علمنا أن البجودات في الهند والصين شأنها الفلسفي والقيمي شأن اكربوليس في أثينا ، فشكلها نابع من طرد الأرواح الشريرة التي تحكم المنطقة، وأعني بذلك الهند والصين ، كذلك اكربوليس أول معبد حمل الهرم الثلاثي على أكتافه تعبيرا عن قضية التثليث. وشأنها كذلك شأن النار في عمارة الفرس وشأن النجوم في العمارة المصرية القديمة.

إن العمارة وبلا شك لها تأثيرها الفلسفي الذي تنبع منه ، والذي يضم إليه تباعا عناصر أخرى كالإنشاء والإستدامة وغيرها . علمنا ذلك من صفحات هذا الكتاب ، الذي حلق بنا فوق سماء كل حضارة من الحضارات القديمة.

ثم إنتقلت بنا صفحات هذا الكتاب إلى التعرف على تجربة الرائد حسن فتحي رحمه الله من خلال كتابه عمارة الفقراء. وهنا ينبغي لنا أن نوجه التحية لمن فكر وخطط وسافر وسهر ووقف الأيام الطوال تحت حرارة الشمس ليقنع العالم بوجهة نظره من إمكانية بناء مسكن طيني زهيد الثمن في متناول ثلث سكان العالم ، الا وهم الفقراء.

إنني أسميت حسن فتحي خلال هذا المؤلف بغاندي العمارة ، لما حمل من نبيل المقصد وانسانية الفكر.

لكننا على الرغم من ذلك أدركنا خطورة التقليد وهوة الإنغماس في إضفاء هالة من القدسية على أناس نحبهم ونثق في تفكيرهم. وخطورة ذلك هو ما نحن فيه اليوم من توقف عن الإبداع وزيادة أعداد فقراء العمارة أو المقلدون .

وتطرق الكتاب بعد ذلك من باب التمثيل لا من باب الحصر إلى ثلاث نواقص كان على حسن فتحي رحمه الله أن يجبر كسرها ويقيم عوجها حتى يعطي لتلاميذه ومن يجيئون بعده المثل على التطوير والتجديد. ولم يقف الكتاب عند حد النقد بل قدم الحلول ، إيمانا منا بأن من ينقد ولا يقدم حلا هو من أدعياء العلم.

ومع قرب نهاية تلك الصفحات لا نريد أن نؤكد إلا على فكرة واحدة هي أن العمارة هي قلم التدوين لأي حضارة من الحضارات ، كان ذلك قديما وحديثا أيضا في ناطحات سحاب أمريكا واستاد عش الطائر بالصين ومكتبة الاسكندرية وغيرها. وتلك هي الخطورة أو المسئولية التي يحملها المعماريون فوق أعناقهم ، فهم مشكلون الفراغ ومانحون الهوية لمدنهم والمسئولون أمام العالم في التعبير عن الرقي والإسفاف. وهم قبل ذلك مطورون المادة والباحثون عن قوة الصلابة بالعديد من النظم والأبحاث.

وفرق شاسع بين أن أكون سطحيا في العمارة وبين أن أكون غواصا

ماهرا يستخرج العديد من الأحجار الكريمة ثم يقوم بعرضها في فترينته العالمية.

والله أحمد على أن وفق في إستكمال هذا العمل ، وخروجه إلى النور ليكون في متناول كل باحث متدبر تهمه الحقيقة أكثر من صاحبها .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

المؤلف– القاهرة – يوليو ٢٠١٣

الفهرس

فقراء العمارة

ردا على كتاب عمارة الفقراء للمعمارى حسن فتحى

حسن فتحي علم من أعلام العمارة الطينية ، في مصر وعلى مستوى العالم ، قدم العديد من الحلـول للفقراء ، ولا يجادل في ذلك إلا مكابر، لكن الأمر يبقى في محدودية هذه المادة كمادة للبناء . وهذا الكتاب يقدم أكثر من حل لتلك المشكلة، مع الأخذ فى الإعتبار أن هناك أبحاث قامت على تطوير مادة الطين بإضافة الأسمنت والبيتومين. هذا فضلا عن أنه يناقش أمر الحضارة ومستلزماتها وأدواتها ، وهل يجوز للطين أن يكون مادة معتمدة – على وضعها الحالى- لأي بناء حضاري ؟ فيحكي للأجيال القادمة تقدم تلك البلاد بعد مئات السنين من الزمن ؟

ويقدم الكتاب النصح لمحبي حسن فتحي أن يخرجوا من دائرة التقليد ، بل إن إخلاصهم في حب هذا الرجل يدفعهم إلى تطوير ما ترك من أفكار. فهل نخرج من تلك الدائراة أم نبقى فقراء للعمارة؟

إن العمـارة على مستوى العالم لا تقدم عملا خالداً إلا وهو يستند إلى خلفية علمية ، تخرجه من دائرة الفن إلى دائرة الإعجاز، والعمارة ه الأداة الوحيدة لكتابة التاريخ والإنعكاس الحقيقي لتقدم ورقي المجتمع فهل يتحقق لنا ذلك بتقديم مادة النانو طين (Nano-Mud) ؟



ISBN 978-977-05-2924-9





Available on IOS and Android
Anglo eBooks



www.anglo-egyptian.com